دراسات
في التفسير وعلوم القرآن



١ـ اقتران الصبر بالتقوى وأثره في الكتاب الحكيم.
٢ـ المحكم والمتشابه من القرآن. ٣ـ الإسرائيليات في كتب التفسير.
٤ـ مقدمات في التفسير البياني. ٥ـ كتابة القرآن وجمعه.
٦ـ الوحي مفهومه ودلالته. ٧ـ أسباب النزول وما يتعلق به من مسائل.
٨ـ ما يُوهم الاختلاف والتناقض والتعارض في القرآن الكريم.
٩ـ خصائص النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب.
١٠ـ الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان مفسرًا.
١١ـ مقدمة لدراسة علوم القرآن. ١٢ـ أسلوب الالتفات في القرآن الكريم.
١٣ـ علم المبهمات. ١٤ـ مقدمات حول سورة الفاتحة.
١٥ـ النور في القرآن الكريم. ١٦ـ المقام في القرآن الكريم.
١٧ـ اسم الله اللطيف بين اقترانه بالخبير وانفراده في القرآن الكريم.
١٨ـ الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة في ضوء سورة النور.
١٩ـ الأحرف السبعة.

دراسات في التفسير وعلوم القرآن
يوسف بن عبد العزيز بن عبدالله الشبل



تأليف
د. يوسف بن عبد العزيز بن عبدالله الشبل
"الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية"

اقتران الصبر بالتقوى وأثره في الكتاب الحكيم

إعداد
د. يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإنَّ كتاب الله كتابٌ حكيم،لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر في آياته وقلب صفحاته زاده ذلك إيماناً ويقيناً ، وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

ومن تدبر آياته وأمعن النظر فيها، فقد فتح الله عليه فاستخرج حكمه، واستنبط أحكامه، وكشف ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه، وأظهر أسراره الكامنة، وكنوزه المغمورة.

وإنَّ من أعظم مجالات تدبره آياته المتعلقة ببعض الأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة، والتي جاءت جامعة لمحاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ، والتي قد قرن القرآن الحكيم بعضها ببعض، وأوضح مناسبة ذلك الاقتران وأثره على من تحلَّى بها واستمسك .

ومن هذه الصفات صفة الصبر الذي يُعَدُّ من أكثر الأخلاق والفضائل وروداً في القرآن الكريم حتى زادت مواضع ذكره فيه على مائة موضع،وما ذلك إلا لدوران جميع الأخلاق عليه،وصدورها منه ،فكلما قلبت خُلُقاً أو فضيلة في هذا الكتاب الحكيم وجدت أنها غالباً قد اشتملت على صفة الصبر أو اقترنت به ، وخاصة ما يتعلق بمقامات الإيمان، وأركان الإسلام ، وقيمه العظيمة ومُثُله العليا. فمثلاً: اقترن خلق الصبر بفريضة الصلاة في قوله تعالى:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾.(١) واقترن أيضاً بالأعمال الصالحة عموماً في قوله تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.(٢) وجُعل قريناً للشكر في مواضع عديدة ،كقوله تعالى:﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾.(٣) وقريناً للحق،قال تعالى:﴿ وَتَوَاصَوۡاْ

(١) سورة البقرة، الآية (٤٥).

(٢) سورة هود، الآية (١١).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٥).

بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.(١) وقريناً للمرحمة قال تعالى:﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾. (٢) وقريناً للجهاد قال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .(٣) وأعظم من ذلك اقترانه بالتقوى التي هي أصل الدين كله، ومفتاح كل خير في الدنيا والآخرة.وهي وصية الله للأولين والآخرين إلى يوم الدين، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾. (٤) ووصية جميع الرسل الكرام إلى أقوامهم في قوله تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .(٥)

ولما كان الصبر لا يكفي وحده وأنه لابد أن يكون صبراً مبنياً على طاعة الله والاستجابة له، لأن حقيقة الصبر: أن يصبر الإنسان على ما يقدره الله من قضاء،أو يصبر على طاعة ربه أوعن معصيته ،كان لابد له أن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقوى التي هي طاعة الله بفعل المأمور وترك المحظور ، وأن يقوم عليها ، فهي السبب في التغلب على المشاقِّ، وهي سرُّ التعامل مع المصائب وتحمل المخاطر.

كما أن اقتران الصبر بالتقوى يدل دلالة واضحة على كيفية تأثير الجانب الروحي وهو التقوى في الجانب السلوكي وهو الصبر ، فالصبر المبني على التقوى يهوِّن المصيبة ويجعل العاقبة حميدة ، ففي الحديث :" عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، ولا يكون ذلك لأحد إلا للمؤمن ".(٦)

لهذا فإن الله سبحانه تعالى ذكر الصبر والتقوى وقرن بينهما في غير ما موضع من كتابه الحكيم ، ورتب على ذلك منحاً جليلة ، وأجوراً عظيمة ، كالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض ، وحسن العاقبة ، والفلاح في الدنيا والآخرة، وغير ذلك من آثار اقتران

(١) سورة العصر، الآية (٣).

(٢) سورة البلد، الآية (١٧).

(٣) سورة محمد، الآية (٣١).

(٤) سورة النساء، الآية (١٣١).

(٥) سورة الشعراء، الآية (١٠٨)، ومثلها:(١١٠)،(١٢٦)،(١٣١)،(١٤٤)،(١٥٠)،(١٦٣)،(١٧٩).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢٢٩٥/٤) كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩) .

الصبر بالتقوى مما حواه كتاب الله العزيز ، وهذا ما دفعني لدراسة هذا الموضوع وجمع شتاته وتجلِّية ما فيه من هدايات وتوجيهات ربانية ، وهذا ما سيتجلى في تلك في المباحث الآتية .

منهج البحث:

المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

– أُورد في كل مبحث الآية أو الآيات المتعلقة به، ثم أبين معناها ووجه الدلالة منها، وأبرز ما فيها من أسرار بلاغية وهدايات قرآنية مما يذكره أهل التفسير.

– عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

– تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

– تعريف الأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

– توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

– وضع ثبت للمصادر والمراجع في نهاية البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

١– تعلقه بكتاب الله ﷻ وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

٢– أن الكتابة في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن، أو موضوع في سورة معينة مما برز مؤخراً خدمة لكتاب الله وإبرازاً لهداياته وكشفاً لأسراره، وقد جاءت هذه الدراسة في اقتران الصبر بالتقوى وأثر ذلك في كتاب الله الكريم لتكون دراسة تفسيرية، مجليةً ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، ومبرزةً ما حوته من أوجه بلاغية، وأسرار بديعية.

٣– أن صفة الصبر من الصفات التي كثر ورودها في القرآن الكريم مما يدل على أهميتها ، وأنها تمس جانباً مهماً في حياة المسلم حيث تتعلق تلك بما يواجهه المسلم من مصائب ومشاق ومحن في هذه الحياة، فباقتران الصبر بالتقوى تنقلب المحن منحاً، والمصائب مكاسب وأجوراً. وهذا سرُّ اقتران هاتين الصفتين، وهو ما دفعني لأنْ أتأمل سرَّ اقترانهما في كتاب الله الحكيم ، وأبرز ما فيه من هدايات ربانية وأسرار بلاغية .

لهذا الأمر ولرغبتي في خدمة كتاب الله تعالى عمدت إلى الشروع في دراسة هذا الموضوع وجمع شتاته، إسهاماً في إبراز الهدايات القرآنية ، فاستعنت بالله فنظمت خطته في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وفهارس .

المقدمة وفيها: أهمية البحث وسبب الكتابة فيه،وخطته،والمنهج المتبع .

التمهيد وفيه:

- معنى الصبر .
- معنى التقوى .

المبحث الأول: بالصبر والتقوى تتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

المبحث الثاني: الصبر والتقوى شرط المدد الإلهي .

المبحث الثالث:بالصبر والتقوى تُنال أجور أهل العزم.

المبحث الرابع: بالصبر والتقوى يتحقق الفلاح .

المبحث الخامس: بالصبر والتقوى تتحقق وراثة الأرض.

المبحث السادس: بالصبر والتقوى يتحقق العز والتمكين.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

ثبت المصادر والمراجع.

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد وفيه: معنى الصبر ومعنى التقوى .

أولاً: معنى الصبر:

ترد كلمة " الصبر " في اللغة العربية على معان عدة،منها :

١- الحبس والمنع: فكل من حبس شيئاً فقد صبره ، تقول: صبرت نفسي على ذلك الأمر ،إذا حبستها،ومنه قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾.(١)

" والصبر نقيض الجزع ، صبر يصبر صبراً فهو صابر وصبار وصبير وصبور ، والأنثى صبور أيضاً بغير هاء وجمعه صُبُر ". (٢)

٢ – الشدة والقوة : ومنه الصبرة ، وهي الحجارة الشديدة الغليظة ، والصبر بالضم وبضمتين: الأرض ذات الحصباء. والصَّبِرُ ككتف: عصارة شجر مر، الواحدة صَبِرَة . (٣)

٣ – الجمع والضم: ومنه الصُّبْرَةُ من الطعام جمعها صُبَرٌ، وهي: ما جمع من الطعام بعضه فوق بعض كالكومة،وفي الحديث: " أنَّ النبي ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طعام فأدخل يده فيها ". (٤)

٤- أعالي الشيء ونواحيه ، وأصبار الإناء: جوانبها. يقال: أخذ الإناء بأصبارها، أي: تامة بجميعها، الواحد صبر بالضم. وملأت الكأس إلى أصبارها ، أي: إلى رأسها. (٥)

هذه أشهر معاني الصبر في اللغة ، وهي معاني متقاربة في دلالتها على الصبر، ذلك أن الصبر فيه حبس ومنع بشدة وقوة، مع جمع لقوى النفس التي بها صلاح شأنها وعلو مقامها ، ولذا جاءت تعريفات أهل الاصطلاح مبنية على معاني الصبر اللغوية واشتقاقاته، وإليك أشهر تعريفاتهم.

١- عرفه الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢) في مفرداته بقوله: "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، وعما يقتضيان حبسها عنه ". (١)

---

(١) سورة الكهف، الآية (٢٨)، وينظر:الصحاح للجوهري (٢٦٩/٣)، القاموس المحيط للفيروز آبادي (٥٤١/١)، تاج العروس للزبيدي (٢٧٢/١٢)، مادة (صبر).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤٣٧/٤)، مادة (صبر).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٢٠/١٢)،الصحاح للجوهري (٣٠٧/٣)، مادة (صبر).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٩٩/١)،كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا،برقم (١٠٢)، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٩/٣).

(٥) ينظر:الصحاح للجوهري (٢٧٠/٣)، لسان العرب لابن منظور (٤٣٧/٤)، مادة (صبر).

٢- وعرفه الجُنَيد (ت٢٩٧) بأنه : " تجرع المرارة من غير تعبس" .(٢)

٣- وعرفه ذو النون المصري (ت٢٤٥)بأنه:"التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ".(٣)

٤- وعرفه الشريف الجرجاني (ت٨١٤) بأنه:" ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله " . (٤)

٥- وعرفه ابن القيم (ت٧٥١) بأنه :" حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش". (٥)

ومن خلال التعريفات المتقدمة يتبين أن الصبر يختلف باختلاف الأحوال والمواطن التي يحتاج إليه وفيه ، ويوضح ذلك الراغب في مفرداته حيث يقول: " الصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة

---

(١) المفردات للراغب (٥٦٥/١)، **والراغب الأصفهاني**: الحسين بن المفضل، أديب مفسر لغوي، عاش ببغداد وتوفي سنة (٥٠٢)، ينظر:سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/١٨)، معجم المفسرين لعادل نويهض (١٥٨/١).

(٢) ينظر:عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٨ ،و**الجُنيد بن محمد**:أبو القاسم ، من كبار الصوفية،أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه في العراق، مات سنة (٢٩٧)،ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (٢٤١/٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٨/٢٧).

(٣) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٨ ، **وذو النون المصري**: أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، قبطي الأصل من أهل النوبة بمصر،كان حكيما فصيحاً زاهداً ، توفي سنة (٢٤٥)، ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (٣٩٣/٨)،البداية والنهاية لابن كثير (٣٤٧/١٠).

(٤) التعريفات ص١٧٢، **والجرجاني**: علي بن محمد بن علي السيد الزين، أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي عالم الشرق،ويعرف بالسيد الشريف، مات سنة (٨١٤).ينظر:بغية الوعاة للسيوطي (١٠٦/٢)، البدر الطالع للشوكاني (٤٤٦/١) .

(٥) مدارج السالكين (١٥٦/٢) ، **وابن القيم**: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، من علماء الحنابلة ، وممن تتلمذ على شيخ الإسلام،توفي (٧٥١)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٩٣/٢)، كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره د.بكر أبو زيد ص٧

سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ، ويضاده المذل". (١)

ثانياً: معنى التقوى .

قال ابن فارس (ت٣٩٥)،:" وَقِيَ ، الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره. ووقيته أقيه وقياً. والوقاية: ما يقي الشيء. واتق الله: توقه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية. قال النبي ﷺ : " اتقوا النار ولو بشق تمرة " (٢)، وكأنه أراد: اجعلوها وقاية بينكم وبينها " . (٣)

وفي النهاية: " وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته عن الأذى ".(٤)

وقال ابن منظور (ت٧١١): " وقاه: صانه ، ووقاه ما يكره ، ووقاه: حماه منه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ ". (٥)

وقال أيضاً :" وقاك الله شر فلان وقاية، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ،(٦) أي: من دافع ،ووقاه الله وقاية بالكسر أي:حفظه، والتوقية الكلاءة والحفظ.

واتقيت الشيء وتقيته أتقيه وأتقيه تقى وتقية وتقاء: حذرته ".(١)

---

(١) المفردات (٥٦٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٤/٢)كتاب الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة،برقم (١٣٥١). ومسلم (٧٠٣/٢) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، برقم (١٠١٦).

(٣) مقاييس اللغة (٩٩/٦).**وابن فارس**: أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي من أئمة اللغة والأدب (ت٣٩٥)، ينظر:البداية والنهاية لابن كثير(٣٥٨/١١)، بغية الوعاة السيوطي (٣٢٥/١).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري (٤٨٤/٥).

(٥) لسان العرب (٤٠١/١٥)، مادة (وقي)، والآية (١١) من سورة الإنسان،**وابن منظور**:محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأفريقي، الإمام اللغوى الحجة. خدم ديوان الإنشاء بالقاهرة ،ثم ولي القضاء في طرابلس ، توفي سنة (٧١١)، ينظر: بغية الوعاة للسيوطي (٨٨/١)، الأعلام للزركلي (١٠٨/٧).

(٦) سورة الرعد، الآية (٣٤) .

فتلخص مما تقدم أن التقوى في اللغة العربية ترد على معان عدة أشهرها: الدفع، والمنع ، والستر والحاجز ، والحمى والصيانة ، والحفظ ، والحذر ، وكلها معاني متقاربة .

وأما من حيث أصل كلمة التقوى ووزنها فقد بيَّنه الخليل بن أحمد (ت١٧٠) بقوله: " والتقوى في الأصل: وقوى فعلى من وقيت،فلما فتحت أبدلت تاء فتركت في تصريف الفعل في التقى والتقوى والتقاة والتقية ". (٢)

وأما معنى التقوى شرعاً فقد جاء فيه عدة تفاسير عن السلف – رحمهم الله تعالى – كلها تصب في مصب واحد ، ومعنى واحد:

١– أورد الحافظ ابن كثير –رحمه الله– (ت٧٧٤)، في تفسيره عن عمر بن الخطاب ﷺ (ت٢٣)، أنه سأل أبي بن كعب ﷺ (ت٢١)،(٣) عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى , قال فما عملت ؟ قال: شمرت واجتهدت, قال : فذلك التقوى (٤) .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ (ت٤٠)، أنه قال:"التقوى:الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل ،و القناعة بالقليل،و الاستعداد ليوم الرحيل ".(٥)

وجاء عن ابن مسعود ﷺ (ت٣٢) أنه قال:" تقوى الله:أن يطاع فلا يعصى،ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ". (١)

---

(١) لسان العرب (٤٠١/١٥)، مادة (وقي) .

(٢) كتاب العين (٢٣٩/٥).**والخليل بن أحمد** بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض ، وأستاذ سيبويه النحوي. مات في البصرة سنة (١٧٠). ينظر:البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة للفيروز أبادي ص٢١، بغية الوعاة للسيوطي (٤١٨/١).

(٣) **أبي بن كعب**: أبو المنذر الأنصاري المدني ، سيد القراء وأقرأ هذه الأمة على الإطلاق،شهد العقبة، وبدراً، والمشاهد كلها، مات سنة (٢١) ، ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢١/١)، الإصابة لابن حجر (٢٧/١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٦٤/١)، **وابن كثير**:أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي،كان مفسراً محدثاً مؤرخاً،توفي سنة (٧٧٤)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (١١١/١)، البدر الطالع للشوكاني(١٥٣/١).

(٥) لم أجد له إسناداً ، وقد ذكره الصالحي في كتابه: سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد (٤٢١/١).

وقال سهل التستري–رحمه الله–(ت٢٨٣): " التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ،ولا يفقدك من حيث أمرك ". (٢)

وعن طلق بن حبيب – رحمه الله تعالى– أنه قال :" التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمته على نور من الله,وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله". (٣)

فهذه التفاسير في التقوى كلها تصب في معنى واحد، وهي تعود إلى أصل معناها اللغوي الذي هو الدفع والمنع والحاجز والحذر إلا أن أجمعها ما قاله طلق بن حبيب رحمه الله.فهذه هي حقيقة التقوى وهي الكنز العظيم الذي إذا ظفر به المرء،وجد فيه خيراً كثيراً، ورزقاً كريماً. فهي الخصلة التي تجمع خيري الدنيا والآخرة. والمتأمل مواقعها في القرآن الكريم يجد كم رتب عليها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضيف إليها من سعادة ؟

فمما تقدم يُعلم أن الصبر والتقوى قد بلغا هذه المكانة العظيمة وأن القرآن الحكيم قد أولاهما هذه الأهمية الكبيرة ، وأن مما يدل على أهميتها أيضاً تعلقهما بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها ، ولعظم شأنهما في حياة الناس وأمورهم الدينية والدنيوية ، يقول ابن القيم (ت٧٥١) " فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر ". (٤)

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦٥/٧)،وعبد الرزاق في تفسيره (١٢٩/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠٦/٧) برقم (٣٤٥٥٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٠٤/١٠)،كتاب المواعظ برقم (١١٨٤٧)،والطبراني في المعجم الكبير (٩٢/٩)، والحاكم في مستدركه(٣٢٣/٢) وقال:حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه،ووافقه الذهبي **وابن مسعود:** عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، من أجلاء الصحابة، ومن السابقين إلى الإسلام،توفي(٣٢) ،ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٣٠٨/٢)،الإصابة لابن حجر (٣٦٠/٢).

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي (١٤٤/١)، **وسهل بن عبد الله** بن يونس التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية له كتاب في تفسير القرآن ، توفي سنة(٢٨٣)،ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٢٩/٢)،سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣٢/٢٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره(١٨٩/٢ ،**وطلق بن حبيب** العنزي.تابعي جليل, روى عن عدد من الصحابة، كان من أهل البصرة، ومن كبار الزهاد، والعلماء العاملين، مات قبل المائة، ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٠١/٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٠١/٤).

(٤) الجواب الكافي (١/ ٦٦).

لذا قرن الله بينهما في كتابه الحكيم في مواضع متعددة وبين أثر ذلك الاقتران ، وهذا ما سيتضح ويتبين من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: بالصبر والتقوى تتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

قال الله تعالى:﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .(١)

الآية جاءت في سياق نهي المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله من الكافرين والمنافقين بطانة وخواص لهم من دون المؤمنين ، يطلعونهم على أسرارهم ودخائلهم، وما يضمرون لأعدائهم.لأن هؤلاء لا يألون جهداً ، ولا يتأخرون عن عمل فيه إيذاء وإضرار بالمؤمنين، في دينهم ودنياهم ، وهم يتمنون وقوع المؤمنين في الضيق والمشقة ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .(٢)

وهذا النهي من اللطيف الخبير هو في غاية الحكمة والتعقل لأن فيه حماية لمصالح المسلمين فلا تأتمن على أسرارها إلا خواصها،ولكي يعقل المؤمنون هذا الأمر، فيفهموه , ويعرفوا أضراره عليهم ، فيلتزموا فيه بتعاليم ربهم . (٣)

ثم أوضح الله تعالى في تلك الآية التي بصدد الحديث عنها حالاً دالة على شدة عداوتهم للمؤمنين،وهو أنه إذا أصاب المؤمنين نعمة أو خير من خصب أو نصر أو تأييد وكثرة أنصار، ساء هم ذلك ،﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾. وإن أصاب المسلمين شر كجدب أو تغلَّبَ الأعداءُ عليهم- لحكمة إلهية في ذلك- فرحوا بذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ ﴾ .

هذه هي حالهم مع المؤمنين التي نهانا الله ﷻ عن اتخاذهم بطانة ، وهذه هي صفتهم التي كشفها الله عنهم ، وهي استياؤهم وتألمهم لما يرونه من حسن حال المسلمين كائتلافهم واجتماع كلمتهم ونصرهم وعزتهم وقوتهم وسعة رزقهم، كما هو أيضاً فرحهم وسرورهم بما قد يشاهدونه من خلاف بين المسلمين أو وقوع هزيمة لجيش من جيوشهم، أو تغير حال عليهم بما يضر ولا يسر وهذه نهاية العداوة وشدة البغضاء، فهل مثل هؤلاء يتخذون أولياء ؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١١٨).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠٦/٢)،التفسير المنير للزحيلي (٥٧/٤)

قال ابن كثير (ت٧٧٤): " وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة – أي: جدب– أو أديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أحد، فرح المنافقون بذلك ".(١)

ويلاحظ فرق التعبير البلاغي في القرآن بين جملتي: مس الحسنة وإصابة السيئة، فهم يستاءون عند أدنى مس للحسنة، ولا يفرحون حتى تتمكن الإصابة بالسيئة.

قال ابن عطية (ت٥٤٦):"وذكر تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه.فدل هذا المنزع البليغ على شدة العداوة إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين ،وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة ".(٢)

وبعد هذا التنوير وهذا التحذير الذي يبصِّر المؤمنين بحقيقة الأمر، بألاَّ يتخذوا من أعدائهم بطانة ، وأن يجعلوا منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، يأتي القرآن موضحاً العلاج الناجع في رد كيد الأعداء ، ودفع أذاهم ، والنجاة من الشر الذي تكنه صدورهم، ويفلت على ألسنتهم منه ، مرشداً المؤمنين إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، فيقول المولى سبحانه: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣).

أي: باستعمال المؤمنين الصبرَ والتقوى واقترانهما يندفع الشر ويضعف الكيد. فإذا صبروا واتقوا لم يضرهم كيد الأعداء واحتيالهم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٦/٢)،

(٢) المحرر الوجيز (٥٢٣/١) ،وينظر: نظم الدرر للبقاعي(١٤٢/٢)،روح المعاني للآلوسي(٤٠/٤)، صفوة التفاسير للصابوني (١٤٥/١) ،**وابن عطية**:عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي الأندلسي القاضي ،كان فقيهاً عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً بالأدب،بصيراً بلسان العرب،مات سنة (٥٤٦).ينظر:طبقات المفسرين للأدنروي ص١٧٥، طبقات المفسرين للسيوطي ص٥٠

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).

قال ابن كثير (ت٧٧٤) :" يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه ". (١)

ويوضِّح السعدي (ت١٣٧٦) في تفسيره أنه بالصبر والتقوى يتحقق الوعد بالنصر ويندفع الشر ويزول المكر والكيد، ويشير إلى أن الصبر والتقوى من أقوى أسباب النصر فيقول: " فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر – وهي الصبر والتقوى– لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء" . (٢)

ويؤكِّد البقاعي (ت٨٨٥) أنَّ نصر المؤمنين واندفاع الشر عنهم مشروط بشرط الصبر والتقوى فيقول: " ولما كان هذا أمراً مبكتاً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر مشروطاً بشرط التقوى والصبر فقال:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾، أي: تكونوا من أهل الصبر والتقوى ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾، ثم علل ذلك بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ ،أي: ذال الجلال والإكرام، ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾، أي: فهو يعد لكل كيد ما يبطله ، والمعنى على قراءة الخطاب(٣): بعملكم كله ، فمن صبر واتقى ظفرته، ومن عمل على
غير ذلك انتقمت منه ". (٤)

ويوضِّح الآلوسي (ت١٢٧٠) سِرَّ اقتران الصبر بالتقوى وثمرة ذلك فيقول:" أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٩/٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٤ **والسعدي**: عبدالرحمن بن ناصر السعدي ،من علماء القصيم،برع في فنون شتى، وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة (١٣٧٦)، ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص٢٩٢، معجم المفسرين لـ.عادل نويهض (٢٧٩/١).

(٣) وهي قراءة الحسن والمطوعي،ينظر:البحر المحيط لأبي حيان (٣٤/٣)،إتحاف فضلاء البشر للدمياطي (١٢٣/١).

(٤) نظم الدرر (١٤٢/٢)،**والبقاعي**:إبرهيم بن عمر بن حسن،مؤرخ مفسر محدث، ولد ونشأ بالبقاع، سكن دمشق توفي بها سنة (٨٨٥)،ينظر:البدر الطالع للشوكاني (١٩/١)، التاج المكلل لصديق خان ص٣٥٨.

لا يضركم كيدهم شيئاً من الضرر، لا كثيراً ولا قليلاً ببركة الصبر والتقوى لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ،ومن تحلى بذلك كان في كنف الله تعالى وحمايته من أن يضره كيد عدو ". (١)

فإذا علمت أنه بالصبر بالتقوى يبطل كيد الكائدين ، ويزول شرهم، وتتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، فعمَّ يصبرون وماذا يتقون ؟ قلت: يبين ذلك الطبري (ت٣١٠)بقوله:" وأما قوله:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾،فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ ﴾، أيها المؤمنون، على طاعة الله واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه: من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم من دون المؤمنين، وغير ذلك من سائر ما نهاكم،﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ ربكم، فتخافوا التقدم بين يديه فيما ألزمكم وأوجبَ عليكم من حقه وحق رسوله،﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ". (٢)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قد قرن في هذه الآية بين أمرين هامين لابد منهما في تحقيق النصر للمؤمنين وإبطال كيد الحاقدين،وتحقيق السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وهما: الصبر والتقوى ، وأن هذا الاقتران له أهميته وأثره في إضعاف كيد الكائدين، لما في هاتين الخُلَّتين الصبرِ والتقوى من عظيم محاسن الطاعات وعلو مكارم الأخلاق ،ومن تحلى بذلك كان في كنف الله ﷻ وحفظه من ضرر الأعداء. وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلم .

---

(١) روح المعاني (٤١/٤).**والآلوسي**: محمود بن عبد الله الحسيني، من علماء العراق مفسر محدث،توفي سنة١٢٧٠ ،ينظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٣٥٢/١)، الأعلام للزركلي (١٧٦/٧).

(٢) جامع البيان (١٥٧/٧)،**والطبري**: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، شيخ المفسرين،رحل في طلب العلم ، وبرع في التفسير والحديث والفقه والتاريخ،توفي سنة٣١٠ ،ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (١٦٢/٢)،طبقات المفسرين، للداودي (١١٠/٢).

المبحث الثاني: الصبر والتقوى شرط المدد الإلهي .

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ .(١)

هذه الآية وما قبلها متعلقة تعلقاً وثيقاً بالآية الواردة في المبحث السابق ، وقد أوضح ذلك كثير من المفسرين :

يقول الرازي(ت٦٠٦) في تفسيره :" اعلم أنه تعالى لما قال:﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾،أتبعه بما يدلهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا ".(٢)

ويقول ابن عاشور(ت١٣٩٣): " ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين ". (٣)

ويقول السعدي(ت١٣٧٦):" هذه الآيات نزلت في وقعة أحد ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة بدر لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجا من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في بدر لما صبروا واتقوا،وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر ".(٤)

واختلف أهل التفسير في قوله:﴿ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ ﴾ ، هل هي في غزوة بدر التي نصر الله ﷻ فيها رسوله ﷺ والمؤمنين على أعدائه المشركين، فأبدلهم من حال الضعف في الأرض إلى حال القوة والتمكين ؛أو هي في غزوة أُحُد التي اختبر الله ﷻ المؤمنين إذ لم يتبعوا أمر الله تعالى الذي يتضمن الطاعة للرسول ﷺ ولأولي الأمر، فبين لهم

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٢٤،١٢٥) .

(٢) التفسير الكبير (١٧٨/٨) ، **والرازي**:محمد بن عمر بن الحسين،مفسر متكلم ،له مصنفات عديدة، توفي سنة (٦٠٦)،ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٠، طبقات المفسرين للداودي (٢١٧/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠٤/٣) ، **وابن عاشور**: هو محمد الطاهر ابن عاشور: من علماء تونس ولد ونشأ بها،ودرَّس في جامع الزيتونة، له عدة مؤلفات ، توفي سنة:(١٣٩٣)،ينظر:الأعلام للزركلي(١٧٤/٦)،معجم المفسرين عادل نويهض (٥٤١/٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٥

سبحانه وتعالى نتيجة المخالفة بذلك الاختبار الشديد،فمن قال:إن الآية في غزوة بدر فلأنَّ الله تعالى قال قبل هذه الآية:﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)، فقد ذكر النصر مجملاً في هذه الآية فيكون ما بعدها تفصيلاً لمجملها، والعامل في:﴿ إِذْ ﴾،قوله:﴿ نَصَرَكُمُ ﴾،والتقدير:إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة تقول للمؤمنين. وتكون هذه الآيات بياناً لأسباب هذا النصر التي ذكر فيها شروط المدد الإلهي، وهو المتفق مع السياق، وبهذا قال جمع من المفسرين(٢)، واختاره ابن جرير ورجحه ابن كثير، وهو الراجح والموافق للسياق ، لأن القصة سيقت لبيان أسباب النصر، وأنها لما توفرت في غزوة بدر وجد النصر، ولما اختلت في أحد لم يقع النصر.(٣)

وذهب آخرون (٤) إلى أن هذه الآيات في غزوة أُحُد وأن هذا الوعد متعلق بقوله:﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥)،وتكون:﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾ ظرف زمان بدلاً من ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾، ويكون قوله:﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ معترضاً بين الكلامين ، لكن قالوا:كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر، فلما لم يصبروا لم يقع ولم يحصل الإمداد . (٦)

فقوله:﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾، أي:اذكر حين نصركم الله ﷻ ببدرٍ وأنت تقول للمؤمنين وتعدهم تثبيتاً لقلوبهم،وقد هابوا العدو لكثرتهم وقلة عدتهم وعددهم: ألن يكفيكم ويسد حاجتكم إمدادُ ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة أنزلهم الله تعالى لقتال الكفار؟

---

(١) سورة آل عمران (١٢٣).

(٢) منهم الحسن وقتادة وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) تفسير ابن أبي حاتم (١٦٠/٣)،الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٣) ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧)، الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٤) منهم مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وغيرهم ، ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٥) سورة آل عمران (١٢١).

(٦) ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢) .

ثم قال ﷻ:﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ،بلى حرف جواب، يفيد إبطال النفي،وإثبات كون ذلك العدد كافياً، أي: بلى يكفيكم ذلك الإمداد، وإن تصبروا على القتال، وتلتزموا التقوى، ويأتكم أعداؤكم على الفور يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مرسلين من عند الله لتقويتكم، مُعَلَّمِين أنفسهم أو خيلهم. (١)

فأوضحت الآية أن نزول المدد من السماء عند الشدائد، ولقاء العدو شرطه اقتران الصبر بالتقوى ، فمن تحلى بالصبر واستشعر تقوى الله، وعلم أن النصر من عند الله، فإنه لا محالة منتصر، وسيمده الله بروح منه، أولئك الملائكة الكرام. وقد أمد الله ﷻ المؤمنين ببدر بألف من الملائكة ثم أمدهم بثلاثة آلاف لما صبروا واتقوا ، ثم وعدهم بالزيادة بأن يمدهم بخمسة آلاف إن هم صبروا واتقوا حثاً لهم عليها وتقوية لقلوبهم وأتاهم المشركون من فورهم ليعجل لهم النصر ويسهل لهم الفتح .

قال أبو حيان (ت٧٤٥) في تفسيره:" رتب تعالى على مجموع الصبر والتقوى وإتيان العدد من فورهم إمداده تعالى المؤمنين بأكثر من العدد السابق وعلّقه على وجودها ، بحيث لا يتأخر نزول الملائكة عن تحليهم بثلاثة الأوصاف ". (٢)

ويؤكد السعدي(ت١٣٧٦) في تفسيره على شرط الإمداد من السماء فيقول: " فشرط الله بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط

الله له لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد الشرطين الأولين كما تقدم في قوله:﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗاۗ ﴾. " (٣)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨١/٣)، زهرة التفاسير(١٣٩٦/١).

(٢) البحر المحيط (٣٩/٣).**وأبو حيان**:محمد بن يوسف الغرناطي،نحوي عصره ولغويه ومقرئه، مات بمصر سنة(٧٤٥)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٢٨٧/٢), الأعلام للزركلي(١٥٢/٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٦

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قرن بين أمرين جليلين لهما الأثر الواضح في تحقيق النصر للمؤمنين، ونزول المدد من السماء عند الشدائد، ولقاء العدو وهم الملائكة الكرام ، وردِّ بغي المعتدين ، والقضاء على عدوان الظالمين، وهما: الصبر والتقوى ، وأن هذا الاقتران له أهميته وأثره في استنزال المدد من السماء ، لنصر المؤمنين وإضعاف كيد الكافرين، لما في هاتين الصفتين الصبرِ والتقوى من أثر عظيم ، فالصبر هو قوة الحروب، والصبر يعنى مواجهة العدو من غير خور أو فرار، والتقوى جماع الخير كله وهي تعنى التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الأخذ في الأسباب، فبالتقوى والصبر يتنزل النصر وينزل المدد من السماء . وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلم .

المبحث الثالث:بالصبر والتقوى تُنال أجور أهل العزم.

قال الله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾،(١)

الآية سيقت على وجه التسلية للمؤمنين، بأن ما حصل من إيذاء الكفار للمؤمنين يوم أحد وغيره ، وما يحصل من إيذاء في المستقبل بكل طريق يمكنهم إنما هو من البلاء ، وذلك لتتهيأ النفوس وتتوطن على احتماله، وتستعد للقائه،ولا يشتد جزعها بحلول ما يحل منه. فإن هجوم البلاء مما يزيد في اللأواء ،والاستعداد للكرب مما يهون الخطب.(٢)

وقد جاء الفعل:﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ مؤكداً بلام القسم الواقعة في جواب القسم المحذوف،وبنون التوكيد الشديدة التي هي أقوى في الدلالة على التوكيد من الخفيفة وذلك لإفادة تحقيق الابتلاء.(٣)

وقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية عن مواضع الابتلاء ، وكلها عزيزة يحرص عليها، وهذه المواضع هي المال، والنفس،والدين، وإنما قدم المال على النفس والدين على سبيل الترقي إلى الأشرف ، أو على سبيل الكثرة،لأنَّ الرزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس والدين. (٤)

فأما المال فالبلاء به يكون بإخراجه على سبيل النفقة الواجبة والمستحبة،وكذلك ما يصيبه من الآفات كالحوادث والعاهات والخسارة والنقصان، وأما البلاء بالنفس فبالجهاد وبالموت والأمراض والجراح وفقد الأحبة وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف.

وأما البلاء بالدين فقد أوضحه الله جل وعلا بقوله:﴿ أَذًى كَثِيرًاۚ ﴾، وهو يعمُّ

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨٦).

(٢) ينظر:التفسير الكبير (١٠٣/٩)، روح المعاني (١٤٧/٤).

(٣) ينظر:معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤٩٦/١)، التحرير والتنوير (٣٠٢/٣).

(٤) ينظر:البحر المحيط لأبي حيان (١٤١/٣).

كل ما يؤذي الأسماع من الألفاظ البذيئة كالطعن فى الدين ، والاستهزاء بالعقيدة ، والسخرية من الشريعة والاستخفاف بتعاليم الإسلام . (١)

وإنما كان البلاء بالدين أعظم هذه البلايا: " لأن المؤمن الصادق يهون عليه مالُه ، وتهون عليه نفسُه ، ولكنه لا يهون عليه دينه ، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى فى ماله ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذَى في دينه ". (٢)

ثم أخبر الله ﷻ عن العلاج الذي يعين على التغلُّب على هذا البلاء، وكيف يتعامل معه العبد المؤمن ؟ وهو أن يقابل ذلك كله بالصبر والتقوى، قال تعالى:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، فقرن ﷻ بين أمرين جليلين هما: الصبر والتقوى، فالصبر صبرٌ على تلك الشدائد ،وعلى ما ينال العبد المؤمن في ماله وفي نفسه من الابتلاء والامتحان وعلى ما يسمع من أذية الأعداء، ومقابلة ذلك بضبط النفس،وقوة احتمال الأذى. والتقوى تقوى الله تعالى فى كل ما أمر به، ونهى عنه ، فيتخذ ذلك وقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده. (٣)

وقد قدم ذكر الصبر ثم ذكر عقبه بالتقوى"لأن الإنسان إنما يقدم على الصبر لأجل أنه يريد الاتقاء عما لا ينبغي، وفيه وجه آخر وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة فأمر بالصبر تقليلاً لمضار الدنيا وأمر بالتقوى تقليلاً لمضار الآخرة فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة ".(٤)

ثم بيَّن ﷻ ما لهاتين الصفتين الجليلتين الصبرِ والتقوى، واقترانهما من أثر واضح، وهو صواب الرأي وحسن التصرف، وهو ما يجب العزم على التمسك به ثم الحزم عليه، لأنه مما أمر الله به.

يقول الرازي (ت٦٠٦) في تفسيره :"قوله:﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: من صواب

(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (١٣٧/٢)،لباب التأويل للخازن (٤٦١/١).
(٢) التفسير الوسيط ، سيد طنطاوي (٨١٩/١).
(٣) ينظر:التفسير الكبير للرازي (١٠٥/٩)، لباب التأويل للخازن (٤٦٢/١).
(٤) التفسير الكبير (١٠٥/٩).

التدبير الذي لا شك في ظهور الرشد فيه ، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه، فتأخذ نفسه لا محالة به، والعزم كأنه من جملة الحزم ".(١)

ويوضِّح البيضاوي (ت٦٨٥) في تفسيره أن تلك الصفتين من الصفات التي يجب العزم عليها من غير تردد ، فيقول:" من عزم الأمور،أي: من معزومات الأمور، أي:مما يجب العزم عليه من الأمور،أو مما عزم الله أن يكون يعني: أن ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا ".(٢)

فبالصبر والتقوى تكون العاقبة الحميدة لأهله ، وبهما تُنال أجور أهل العزم،يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣):" ووقع قوله:﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾،دليلاً على جواب الشرط،والتقدير:وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإنّ ذلك من عزم الأمور".(٣)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قرن بين أمرين جليلين لهما الأثر الواضح في مقاومة الابتلاء والأذى والاعتزام عليه وهما الصبر والتقوى، اللذان هما حلية أولي العزم الأقوياء وهما زاد الطريق حال الابتلاء .

وإنما قرن الله ﷻ بين هاتين الصفتين لما لهما من أهميته وأثر في مقاومة البلاء ودفع الأذى بعزم وحزم حتى تنال أجور أولى العزم الأقوياء الصابرين المتقين، ولما في هاتين الصفتين الصبرِ والتقوى من أثر عظيم، فبالصبر تتوطن النفوس على احتمال ما يحصل من بلاء في المال والنفس، أو أذى من الأعداء، وتتهيأ للقائه،ولا يشتد جزعها بحلوله. وبالتقوى التي هي جماع الخير كله تتحقق طاعة الله في كل شيء ،والتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب في دفع كل بلاء أو أذى، فبالصبر والتقوى تهون المصائب، وتقوى العزائم،وتعظم الأجور. وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلى وأعلم .

---

(١) التفسير الكبير (١٣٢٦/١).

(٢) أنوار التنزيل (١٢٧/٢). **والبيضاوي**:عبد الله بن عمر بن علي، من شيراز، ومن علماء الشافعية، قاض مفسر عالم بالفقه والأصول، توفي سنة(٦٨٥)، ينظر:البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٧/١٣)،طبقات المفسرين للداودي (٢٤٨/١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٧٣/٣).

المبحث الرابع: بالصبر والتقوى يتحقق الفلاح .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ،(١)

هذه الآية خاتمة سورة آل عمران ،وقد تضمنت وصية جامعة، ودعوة كريمة للمؤمنين، كما أنها جاءت في موقعها المناسب لختام السورة ولسياقها،" فسياق السورة حافل بذكر الصبر والتقوى ،يذكران مفردين ، ويذكران مجتمعين.كما أنه حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلة ،ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة،وإلى المرابطة والتقوى،فيكون هذا أنسب ختام".(٢)

وقد نادى الله ﷻ المؤمنين بمقتضى إيمانهم، وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الأربعة التي بها يتم الخير، ويعظم النصر، ويتحقق الفلاح والنجاح، وهذه الأوامر الأربعة هي على النحو التالي:

أولاً: الصبر،وهو جماع الفضائل وخصال الكمال ،وهو إمساك للنفس عن الجزع مما ينالها،ويعمُّ:الصبر على الشدائد والملمات،والصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي .

ثانياً: المصابرة،وهي أشد من الصبر،لأنها صبر في وجه الصابر، فهي تخصيص بعد تعميم،وهي تعني:أن يتحمل المؤمن المكاره الواقعة بينه وبين غيره،فهي أشدُّ الصبر ثباتاً في النفس " ذلك أنَّ الصبر في وجه صابرٍ آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قِرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه ، ثم إنَّ هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يملَّ قِرنه فإنّه لا يجتني من صبره شيئاً ، لأنَّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً ".(٣)

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٠٠) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٦/٢)، بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٨/٣) .

ثالثاً: المرابطة: وأصلها من الرباط، والربط وهو الشدُّ ، يقال: لكل من صبر على أمر ربط قلبه عليه.ويقصد بها الإقامة على مرابطة الغزو فى نحور العدو وحفظ الثغور بالترصد له ، والاستعداد لمحاربته حتى يكون المؤمن على حذر من عدوه. (١) وكذلك المرابطة بكثرة الخير والمداومة عليه ولزوم الطاعة.(٢)

رابعاً: التقوى، وهي جماع الخير كله، ولبُّ كل عمل صالح،وهي الإحسان في طاعة الله ﷻ،وترك معصيته، ودقة مراقبته في جميع الأحوال.

ثم إنَّ هذه الأوامر الأربعة التي أمر الله ﷻ بها ورتب عليها الفلاح والنصر تعود في الحقيقة لأمرين أساسين أولهما: الصبر، ويدخل فيه المصابرة والمرابطة لأنها تحمل للمكاره فهي نوع من الصبر، وثانيهما:التقوى التي قُرنت بالصبر ،وباقترانهما يتم الخير، ويعظم النصر في كل الأمور السابقة، ويتحقق الفلاح الذي هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب،الذي حقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم، وغايته رضى الله ،ونيل جزائه.

يقول الطبري (ت٣١٠) في تفسيره: " ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، يقول: لتفلحوا فتبقوا في نعيم الأبد، وتنجحوا في طلباتكم عنده ".(٣)

ويقول الآلوسي (ت١٢٧٠):" أي: لكي تظفروا وتفوزوا بنيل المنية،ودرك البغية، والوصول إلى النجاح في الطلبة وذلك حقيقة الفلاح ". (٤)

يقول السعدي (ت١٣٧٦): " يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك ،فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها. والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به ".(٥)

---

(١) ينظر: المفردات (٣٧٩/١)،تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٢) .

(٢) ينظر: التفسير الكبير (١٢٧/٩)، أنوار التنزيل (١٣٧/٢)،تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٢).

(٣) جامع البيان (٥٠٩/٧).

(٤) روح المعاني (١٧٥/٤) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص١٦٢

وإنما قرن الله ﷻ بين هذه الصفات، وهي الصبر على الطاعات، ومصابرة العدو والنفس والهوى، والمرابطة عند الثغور، وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، لما لها من أهمية وأثر عظيم من الفوز والنصر في الدنيا على الأعداء، والنجاة من عذاب الله، والظفر بنعيم الآخرة. وهذا هو سر اقتران الصبر وما عطف عليه بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

المبحث الخامس: بالصبر والتقوى تتحقق وراثة الأرض .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .(١)

لما تمالأ فرعون وملؤه، وأظهروا لموسى عليه السلام وقومه الأذى وشدة العداوة والبغضاء، وخاصة بعد إيمان السحرة بموسى عليه السلام وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة وقال فرعون مقالته: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾،(٢) هنالك جزع قوم موسى عليه السلام وتضجروا من ذلك، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن ثبَّتهم وسكَّن روعهم، وأرشدهم إلى الاستعانة على فرعون وقومه بالله العظيم والصبر على ما يلقونه من أذى فرعون وبطشه، لأنه لا سبيل لهم إلا الصبر والاستعانة بالله،ووعدهم أن الله سبحانه وتعالى يملك الأرض ومن عليها ويورثها لمن يشاء من عباده ولكن العاقبة الجليلة والمشرفة والتي يرضاها الله سبحانه هي لمن اتقى الله عز وجل.

وفي هذه الآية اقترنت ثلاثة أمور:

١-الاستعانة بالله ، وهو طلب العون منه في كل شيء ، ويعنى: الاعتماد على الله عز وجل في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، والثقة به، وهو في الآية مقصود به الاستعانة بالله وطلب العون والتأييد منه على رفع ذلك الوعيد والتهديد الصادر من فرعون وقومه،وعلى ما نزل بكم من البلاء فإن الله عز وجل هو الكافي لكم الحافظ الذي يقيكم كل شر. (٣)

٢-الصبر على تلك المكارة مع التمسك بالإيمان. ولا شك أن الصبر نتيجة الاستعانة بالله، فإن من علم أنه لا مدبر للعالم إلا الله تعالى انشرح صدره ، وزال همه،وهانت عليه

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٢٨) .

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٢٧) .

(٣) ينظر: لباب التأويل (٢٣٨/٢)، نظم الدرر (٨٧/٣) ، تيسير الكريم الرحمن ص٣٩.

مصيبته، وعلم أن كل ما يجري بهذا الكون بقضاء الله وقدره وتدبيره فبذلك يسهل عليه ما يواجهه من مصائب وأقدار. (١)

٣-التقوى ، وهي مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة، وعنوان السعادة ، والعبد أحوج ما يكون إلى لزوم التقوى في جميع أحواله حتى تصلح حاله وتتيسر أموره ويحقق له الله ﷻ وراثة الأرض ، وبهذا تكون العاقبة محمودة ، والخاتمة حسنة.

وجملة قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾،إشارة إلى أن ملك فرعون وجبروته وكبريائه صائر إلى الزوال ، وكذلك فيه إبعاد اليأس عن أنفس بني إسرائيل الناشئ عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه، وأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه لأن الأرض كلها لله. (٢)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن اقتران الصبر بالتقوى سبب في وراثة الأرض وأن المستخلفين فيها هم أهل التقوى، يقول الطبري (ت٣١٠) موضحاً هذا الأمر :" يقول:﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ ﴾، لعل الله أن يورثكم – إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم على السداد – أرضَ فرعون وقومه، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده،﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، يقول:والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأدَّى فرائضه ".(٣)

ويبين الرازي (ت٦٠٦) أثر التقوى وأنها سبب في عون الله ﷻ للعبد فيقول:"قوله:﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة ".(٤)

كما يوضح الخازن (ت٧٤١) في تفسيره أن العاقبة الحسنة والفوز والظفر لمن اتصف بالصبر والتقوى فيقول:" يعني: أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم , وقيل أراد الجنة يعني إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة ".(١)

---

(١) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/٣٠٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/٤٩٧) .

(٣) جامع البيان (١٣/٤٢) .

(٤) التفسير الكبير (١٤/١٧٣) .

فاتضح مما تقدم في ضوء الآية السابقة أن الله ﷻ وإنما قرن بين هذه الصفات الثلاث، وهي الاستعانة به على جميع الأمور ، والتي هي الوسيلة العظمى للصبر على ما يواجهه العبد من مكاره ، ومايناله من مصائب في هذه الدنيا، ثم تقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، لما لها من أهمية عظيمة في صلاح حال العبد واستقامته وتهيئته لأن يكون مستخلفاً في الأرض وارثاً لها . وهذا هو سر اقتران الصبر بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

المبحث السادس: بالصبر والتقوى يتحقق العز والتمكين.

(١) لباب التأويل (٢/٢٧٤). **والخازن**: علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي البغدادي، علاء الدين ، عرف بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق: عالم بالتفسير والحديث، ومن فقهاء الشافعية،مات عام (٧٤١).ينظر:طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/٤٢)، التفسير والمفسرون للذهبي (١/٢٩٠)

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾،(١)

هذه الآية وردت في سورة يوسف عليه السلام وفي نهاية القصة، وهي تلخص محور السورة ولبَّها وحكمتها الكبرى، وهو الصبر، فإنَّ نبي الله يوسف عليه السلام قد لقي" من أنواع البلاء ، وضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر وفي السجن وفي تآمر النسوة حتى نجاه الله من ذلك الضيق ".(٢)

وقد وقعت هذه الآية موقعها المناسب كما يوضح ذلك سياق الآيات، وذلك أنه لما جاء إخوة يوسف عليه السلام في المرة الثالثة وهم في حالة ضعف وعوز ووقفوا بين يديه،ووصفوا حالهم وقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٣) رقَّ قلبُ يوسف عليه السلام لهم ورحم حالهم، وانتهز تلك الفرصة لأنْ يكشف عن حقيقة نفسه ، ويبوح بالذي في نفسه، ويخبرهم بأن العزيز الذي يقفون بين يديه إنما هو أخوهم يوسف فقال لهم على وجه التلطف:﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾.(٤) وهو استفهام " عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ حيث ألقيتم يوسف في الجبّ، وعرضتموه للهلاك، وفرقتم بينه وبين أخيه، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافّة قاسية، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه ".(٥)

وأما قوله:﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ فهو كالاعتذار منه لهم كأنه قال: " أنتم إنما

(١) سورة يوسف، الآية (٩٠) .
(٢) صفوة التفاسير (٤٦/٢) .
(٣) سورة يوسف، الآية (٨٨) .
(٤) سورة يوسف، الآية (٨٩) .
(٥) التفسير المنير (٥٦/١٣) .

أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعني والآن لستم كذلك ".(١)

ولما كان سؤال يوسف عليه السلام إيَّاهم عما فعلوا به وبأخيه سؤالَ العارف بأمرهم وبحالهم أرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالاً على وجه التعجب والاستغراب فقالوا:﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، فأجابهم عما استفهموه:﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾، فأخبرهم كاشفاً لهم أمره ، وزادهم في الجواب قوله:﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾،لأنه سبق قوله :﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾، (٢) وليزيدهم ذلك معرفة له ، وليبني عليه قوله:﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾،بأن جمع بيننا على خير حال . (٣)

وقوله:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾،(٤)جملة تعليلية لقوله:﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾،أي:أن الله عز وجل أنعم علينا بالاجتماع بعد الفرقة وبعد طول المدة، وأعزنا في الدنيا والآخرة ،وذلك سببه التقوى والصبر، فمن يتق الله حق التقوى فيما أمر به ونهى، ويصبر على طاعة الله وعلى المحن التي يتعرض لها، فإن الله سيتولى أمره ويحميه من كل سوء، وينجيه من كل مكروه، ويحقق له العز والتمكين في الأرض.

ونبي الله يوسف عليه السلام امتُحن بالبلايا فصبر واتقى ،بدءاً من حسد إخوته له وكيدهم ثم رميه في الجبّ ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به ، ومراودته عن نفسه ، ثم محنة السجن بعد الرغد الذي لقيه في بيت العزيز ، فما كان منه إلا أن صبر على الأذى في سبيل الله واتقى الله ، فنقله الله تعالى من السجن إلى القصر وجعله عزيز مصر ، وملّكه خزائن الأرض وجعل له العز والتمكين في الأرض،قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ

(١) التفسير الكبير (١٦٨/١٨) .
(٢) سورة يوسف، الآية (٨٩) .
(٣) ينظر: البحر المحيط (٥ /٨٠)، نظم الدرر (٩٣/٤).
(٤) سورة يوسف، الآية (٩٠) .

﴿ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .(١) وهكذا يفعل الله تعالى بأوليائه المتقين الصابرين .(٢)

وفي هذه الآية الكريمة اقترن أمران مهمان هما: التقوى والصبر، اللذان هما جناحا الإحسان ، وأن من أثرهما العز والتمكين في الأرض وأن أهلهما من عباد الله المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

يقول البيضاوي (ت٦٨٥) في تفسيره: " إنه من يتق الله ويصبر على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ،وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر ".(٣)

ويقول أبو السعود (ت٩٨٢):" إنه من يتق، أي: يفعل التقوى في جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ويصبر على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ". (٤)

ويقول المراغي (ت١٣٧١) في تفسيره: " أي: إن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو: من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يؤتيه أجره في الآخرة ".(٥)

فاتضح مما تقدم في ضوء الآية السابقة أن الله ﷻ قد قرن بين صفتي التقوى

---

(١) سورة يوسف، الآية (٥٦) .

(٢) ينظر: صفوة التفاسير،(٤٦/٢)، التفسير المنير (٥٧/١٣) .

(٣) أنوار التنزيل (٣٠٧/٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم (٣٠٤/٤).**وأبو السعود**: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي من فقهاء الحنفية، تقلد قضاء القسطنطينية، توفي سنة (٩٨٢)، ينظر:البدر الطالع للشوكاني(٢٦١/١)، هدية العارفين للبغدادي(٢/ ٢٣٥)

(٥) تفسير المراغي (٣٥/٥) . والمراغي: أحمد بن مصطفى المراغي: مفسر مصري، تخرج بدار العلوم ثم درس بها. وولي نظارة بعض المدارس، توفي بالقاهرة سنة(١٣٧١)، ينظر:الأعلام للزركلي (٢٥٨/١).

والصبر ، تقوى الله في جميع أحواله ، وصبر العبد على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ، وأن من تمسك بهاتين الصفتين فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يوفيه أجره في الآخرة، وأن من أثرهما العز والتمكين في الأرض وأن أهلهما من عباد الله المحسنين . وهذا هو سر اقتران الصبر بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

– يُلاحظ أن كثيراً من الألفاظ نجد لها في المعاجم اللغوية معاني متقاربة توضح اللفظ وتقرب معناه ، وإن تعددت فهي تصب في معناه، ومن ذلك الصبر والتقوى ، فإن لهما في لغة العرب عدة إطلاقات يجمعها لفظ عام، فمثلاً: الصبر هو: الحبس والمنع والجمع ، وهي معانٍ تكاد تجتمع ، لأن الصبر صبر للنفس ومنع لها بشدة وقوة،مع جمع لقواها التي بها صلاح شأنها وعلو مقامها.وقلْ مثل هذا في لفظ التقوى .

– إنَّ تدبر كتاب الله الحكيم والتأمل في آياته، طريق الوقوف على أسراره الكامنة ودرره المغمورة وإظهار لها ، وإنَّ من أعظم مجالات تدبره تلك الآيات المتعلقة ببعض الأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة، والتي جاءت جامعة لمحاسن الطاعات ومكارم الأخلاق، والتي منها آيات الصبر التي كثر ورودها في القرآن الكريم وجاءت مقترنة بغيرها من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة،وكان لاقترانها أسرار بلاغية وآثار متميزة ، ومن هذه الصفات المقترنة صفة التقوى التي اقترنت بالصبر في مواضع متعددة ،كشفت عنها هذه الدراسة وجلت ما فيها من أسرار وخبايا.

– أوضحت تلك الدراسة أنَّ اقتران الصبر بالتقوى في القرآن الكريم له مناسبته التي تظهر عند التأمل في آياته وموطن ذكره والتي منها :

– تحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

– تحقق الوعد بالنصر واندفاع الشر وزوال المكر والكيد.

– مقاومة الابتلاء والأذى والاعتزام عليه،فهما حلية أولي العزم الأقوياء وزاد الطريق حال الابتلاء .

– أنَّ الصبر على الطاعات، ومصابرة العدو والنفس والهوى، والمرابطة عند الثغور، وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن لها الأثر العظيم من الفوز في الدنيا على الأعداء، والنجاة من عذاب الله، والظفر بنعيم الآخرة.

-كما أن اقترانهما له أهمية عظيمة في صلاح حال العبد واستقامته وتهيئته لأن يكون مستخلفاً في الأرض وارثاً لها، وبهما يحصل للعبد العز والتمكين في الأرض وأن يكون من عباد الله المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وختاماً أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١-إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر- شهاب الدين أحمد بن محمد ابن

عبد الغني الدمياطي، دار النشر / دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٩– ط ٢–
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي ،ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢.
٣–الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان.
٤– الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٥– الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.
٦–أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨.
٧– البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧.
٨– البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت ،لبنان.
٩–البحر المحيط أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢ ،١٤٠٣.
١٠–بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي — ت محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر، بيروت لبنان.
١١–البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة– محمد بن يعقوب الفيروزأبادي – دار النشر / جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت — ١٤٠٧ – الطبعة : الأولى، تحقيق : محمد المصري.
١٣– تاج العروس من جواهر القاموس– محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ،الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي– الناشر دار الهداية .
١٤– التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، صديق حسن خان.
١٥– تاريخ بغداد ، أحمد بن علي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٦- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.
١٧- التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني - الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ.
١٨- تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، ت: مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٠١هـ.
١٩- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي،ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،ط١، ١٤١٧هـ.
٢٠- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ،الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ.
٢١- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
٢٢-تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ،مصطفى أحمد الباز.
٢٣-التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ
٢٤-التفسير والمفسرون، محمد بن حسين الذهبي ، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٩٦هـ.
٢٥-التفسير الوسيط ، سيد طنطاوي _ بدون معلومات.
٢٦- تهذيب اللغة تهذيب اللغة- أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٢٧-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ .
٢٨-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ
٢٩-الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)،لابن القيم محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
٣٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- محمود الآلوسي أبو الفضل

الناشر : دار إحياء التراث العربي — بيروت.
٣١-زهرة التفاسير - محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة - دار النشر: دار الفكر العربي.
٣٢-سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد - محمد بن يوسف الصالحي الشامي، بدون معلومات.
٣٣-السنن الكبرى ،أحمد بن شعيب النسائي، ت: د.عبد الغفار سليمان البنداري ،سيد كسروي حسن ،الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ،ط ١ ،١٤١١
٣٤-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان،ط٢، ١٤٠٦
٣٥-الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية- إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور عطار-دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
٣٦-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله ابن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.
٣٧-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض، السعودية ١٤٠٠هـ.
٣٨-صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.
٣٩-طبقات الشافعية ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان.الناشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧ . الطبعة الأولى
٤٠-طبقات المفسرين - أحمد بن محمد الأدنروي- تحقيق : سليمان بن صالح الخزيم، الناشر : مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧
٤١-طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.
٤٢-طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
٤٣-عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين- لابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. الناشر:دار ابن كثير، دمشق، بيروت - مكتبة: دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية- الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ.

٤٤-العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الناشر : دار ومكتبة الهلال ،تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.
٤٥-غرائب القرآن ورغائب الفرقان- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري - دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ ط الأولى.
٤٦-في ظلال القرآن - في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، ط١٢، ١٤٠٦هـ.
٤٧-القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ.
٤٨- ابن القيم حياته وآثاره، د.بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩هـ)، مطابع دار الهلال،السعودية،الرياض ط١ ١٤٠٠ هـ.
٤٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٥٠-الكشف والبيان - أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ الطبعة : الأولى
٥١-لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد الشيحي، المعروف بالخازن تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت
٥٢-لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور،دار صادر،بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ
٥٣-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٤١٣هـ
٥٤-مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين — لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي- الناشر : دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ.
٥٥-المستدرك على الصحيحين ، الحافظ أبوعبدالله الحاكم، دار المعرفة، بيروت لبنان.

٥٦-مشاهير علماء نجد،عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ،دار اليمامة ،ط٢،١٣٩٤هـ

٥٧-المصنف في الأحاديث والآثار- أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي/ تحقيق: كمال يوسف الحوت - الناشر: مكتبة الرشد ، الرياض .

٥٨-مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي - تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

٥٩-معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٦٠-معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج،عالم الكتب، بيروت لبنان، ط١- ١٤٠٨هـ

٦١-المعجم الكبير- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني- الناشر : مكتبة العلوم والحكم — الموصل - الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ — ١٩٨٣

٦٢-معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.

٦٣-معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٤-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ

٦٥-النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

٦٦- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٦٧-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - المحقق : إحسان عباس الناشر : دار صادر - بيروت .

المحكم والمتشابه في القرآن

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١-١٤٣٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

* أولاً: المؤلفات في المحكم والمتشابه :

من أشهر المصادر التي ألفت في المحكم والمتشابه في القرآن الكريم:

١- الإكليل في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ).
٢- البرهان في متشابه القرآن للكرماني (ت بعد ٥٠٠هـ).
٣- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. عبد الرحمن المطرودي.
٤- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. إبراهيم مصطفى.
٥- معاني المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. أحمد حسن فرحات.
٦- الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (تعرض فيها للمحكم والمتشابه).
٧- كتب أصول الفقه عامة ومن أهمها الموافقات للشاطبي (ت٧٩٠هـ)
٨- كتب علوم القرآن عامة، ومن أهمها البرهان والإتقان والمناهل ومباحث الشيخ مناع ولمحات د. الصباغ وغيرها.

* ثانياً: أهمية موضوع المحكم والمتشابه:

١- أن هذا الموضوع، وهو من موضوعات علوم القرآن، في غاية من الأهمية، حيث إنه يحتاج إلى علم راسخ القدم قال تعالى عند الكلام عن المحكم والمتشابه في آية آل عمران: (**والراسخون في العلم يقولون آمنا به**)، وإلى دقة وعناية تامة وثبات في الأمور.

٢- أن هذا الموضوع من الموضوعات التي لها صلة بالعقيدة، والزلل فيه يؤدي إلى الوقوع في هاوية سحيقة، قال تعالى عند الكلام عن المحكم والمتشابه في آية آل عمران: (**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**) وهذا ما وقع لكثير ممن كتب في هذا الموضوع، وعلى رأس هؤلاء الذين لهم عناية في علوم القرآن كالزركشي في البرهان فقد تعرض للمحكم والمتشابه في النوع السابع والثلاثين، وهو في حكم الآيات المتشابهات الواردة في الصفات، وكذلك السيوطي في الإتقان في النوع الثالث والأربعين في المحكم والمتشابه، وقد ذكر تحته فصلاً في المتشابه في آيات الصفات، ثم جاء بعدهم الزرقاني في مناهل العرفان في المبحث الخامس عشر في محكم القرآن ومتشابهه حيث تكلم فيه عن متشابه الصفات، فكان أشد

وأنكى ممن سبقه، بل كان أكثر تخبطاً في هذا الموضوع، ومن غير بصيرة ودراية بالعقيدة الصحيحة التي تحمي صاحبها من الزلل والبعد عن الحق، وخاصة في مسائل الأسماء والصفات، ومثله صبحي الصالح في مباحثه في الفصل الثامن في علم المحكم والمتشابه.

فهؤلاء ومن مثلهم – عفا الله عنّا وعنهم– ادخلوا آيات الصفات في المتشابه من القرآن، ثُمَّ ساروا على مذهب الأشاعرة المؤولين، وحكوا كلامهم، وجعلوه المذهب الصحيح، ونسبوه إلى السلف وهو أبعد ما يكون من مذهب سلف أهل السنة والجماعة.

يقول الزرقاني في مناهله: (لقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فخاضوا في متشابه الصفات بغير حق وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه وتحتمل الكفر والإيمان حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا ومن المحزن أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون من ذلك قولهم إن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية وله من الجهات الست جهة الفوق ويقولون إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقا بمعنى أنه استقر فوقه استقرارا حقيقيا غير أنهم يعودون فيقولون ليس كاستقرارنا وليس على ما نعرف وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية وليس لهم مستند فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر ولقد تجلى لك مذهب السلف والخلف فلا نطيل بإعادته ولقد علمت أن حمل المتشابهات في الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأيا لأحد من المسلمين وإنما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى) أهـ.

وسيأتي بيان الحق في هذا وتفنيد كل ما ذكره وادّعاه مما هو أبعد ما يكون عن منهج السلف وما عليه الفرقة الناجية.

٣– أن هذا الموضوع أيضاً من الموضوعات المهمة المعاصرة وخاصة في هذه السنوات الأخيرة التي ظهر فيها الخوض في أحكام الشريعة وبدأ يتحدث فيها من شاء استدلالاً بالمتشابه والإعراض عن المحكم، ومحاولة تخريج النصوص المحكمة بأي نوع من أنواع التخريج بقصد إبعادها عن ساحة الحكم بين الناس، ومن ثم الاستدلال بالأدلة المتشابهة وإشاعة الأفكار المنحرفة في أوساط المجتمع، ومن أظهر الأمثلة على ذلك عرض المسائل الخلافية والاستدلال بالنصوص المتشابه التي لها أكثر من معنى كمسائل الاختلاط والحجاب والخلوة والسفر بلا محرم ونحوها، وهي مسائل تعتبر من المسلّمات التي لا ينازع فيها مؤمن ذو بصيرة.

ثم إن هؤلاء المتبعين المتشابه، منهم المستقل ومنهم المستكثر وغرضهم كما نطقت به الآية (**ابتغاء الفتنة**)، أي: صد الناس عن دين الله؛ لأن من الفتنة الصد عن دين الله،

(**وابتغاء تأويله**) أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسرونه على مرادهم، لا على مراد الله تعالى

ثالثاً: معنى المحكم في اللغة:

تقول العرب: حكمت وأحكمت بمعنى منعت ورددت، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكماً؛ لأنه يمنع الظالم من الظلم، ومنه سميت حكمة اللجام لأنها ترد الدابة.

ويقال: حكمت السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يديه، ومنه الحكمة: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق، وإحكام الشيء: إتقانه، والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد من الغي في أوامره، والمحكم منه ما كان كذلك.

* الإحكام العام

وصف الله كتابه الجليل القرآن الكريم بأنه محكم فقال: {**الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**},وقال: {**الر تلك آيات الكتاب الحكيم**},وقال: {**الم تلك آيات الكتاب الحكيم** }.

وعلى هذا فالقرآن كله محكم: أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وأنه منظم رصين متقن لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي كأنه بناء مشيد محكم، وهذا هو الإحكام العام.

رابعاً: معنى المتشابه في اللغة:

قال الراغب: الشبه والشبه والشبيه: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية، كاللون والطعم ، والشبهة: هو أن لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه؛ عيناً كان أو معنى، قال تعالى: {**وأتوا به متشابها**} ،أي: يشبه بعضه بعضا لونا لا طعما وحقيقة،وقيل: متماثلا في الكمال والجودة،أهـ

وقوله: {**مشتبها وغير متشابه**}، وقوله: {**متشابهاً**} ،أي متقارباً، وقوله: {**إن البقر تشابه علينا**} ،أي: التبس واشتبه ،وقوله: {**تشابهت قلوبهم**}، أي: في الجهالة والضلال.

والمتشابه مأخوذ من التشابه: وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر، والشبهة: هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه، وتشابه الكلام: هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا.

التشابه العام:

وصف الله جل جلاله كتابه القرآن الكريم كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال: {**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني**}، أي: أنه يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة، ويصدق بعضه بعضا في المعنى ويماثله.

قال السعدي: "متشابها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم" أهـ. وهذا هو التشابه العام.

خامساً: الجمع بين كون القرآن محكماً ومتشابهاً:

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه العام المتقدم لا ينافي الآخر، فالقرآن كله محكم بمعنى الإتقان، وهو متماثل ويصدق بعضه بعضا، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر، وإنما يأمر به أو بنظيره، وكذلك الشأن في نواهيه وأخباره، فلا تضاد فيه ولا اختلاف: {**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**}.

سادساً: معنى المحكم والمتشابه الخاص وأقوال العلماء فيهما:

قال تعالى: { **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** }،

ومعنى: «**آيات محكمات**» أي: متقنات في الدلالة والأحكام والأخبار، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال. ومعنى: {**وأخر متشابهات**}، يعني: أن أحكامها غير واضحة، وأخبارها غير واضحة. فصار المحكم هو المتقن في الدلالة سواء كان خبرًا أو حكمًا والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة سواء كان خبرًا أو حكمًا.

وقوله في وصف الآيات المحكمات: بـ (**هن أم الكتاب**) بيان لحالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات لأنها أم، وأم الشيء مرجعه وأصله، فهذه المحكمات يجب أن ترد إليها المتشابهات. أما موقف الناس من الآيات المتشابهات فقد انقسموا قسمين:

١- قسم يتبعون المتشابه ويضعونه أمام الناس ويعرضونه عليهم فيقولون: كيف كذا وكيف كذا ؟ أي: فهؤلاء في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (**هو الذي أنزل عليك الكتاب إلى قوله أولوا الألباب**)، قالت: قال

رسول الله ﷺ:(**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم**)، رواه البخاري.

٢- وقسم آخر يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يتخالف، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم، ويكون جميعه محكمًا. وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها. فهذا هو الإحكام الخاص والتشابه الخاص، وكل منهما يقابل الآخر، كما أن الراسخين في العلم يقابلون الذين في قلوبهم زيغ، وقد حُمل هذا التقابل على تعريف كل من المحكم والمتشابه، فوقع الخلاف فيهما وفي معناهما، وكثرت آراء أهل العلم في هذا الموضوع وتعددت وجهات نظرهم، وأهمها:

أ- المحكم: ما عرف المراد منه وما كانت دلالته واضحة، والمتشابه: هو الخفي وهو ما استأثر الله بعلمه كالحقائق الغيبية في القرآن، وهذا رأي القرطبي.

ب- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجها واحدا كالنص، والمتشابه: ما احتمل أوجها متعددة كالألفاظ المشتركة.

ج- المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

وهناك آراء لأهل العلم كثيرة إذا تأملناها وجدناها لا تكاد تخرج عن هذه الآراء الثلاثة المذكورة بل تدور في فلكها كما أننا لا نجد بين هذه الآراء الثلاثة تناقضا ولا تعارضا بل نلاحظ أن بينها تشابها وتقاربا.

سابعًا:إذا أوهم التعارض بين المحكم والمتشابه فما الحكم ؟

المحكم الخاص والمتشابه الخاص هما من باب التقابل، أي: أن المحكم يقابل المتشابه، وبعبارة أخرى: المحكم بمثابة الأصل، والمتشابه بمثابة الفرع، يقول القرطبي: " فالمحكم أبداً أصل تُردُّ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرع "؛ فإذا اشتبه الأمر ولم يتضح الفهم وأوهم التعارض بين المحكم والمتشابه فالقاعدة في درء التعارض وإزالة الاشتباه هو رد المتشابه إلى المحكم، جاء ابنَ عباس رضي الله عنهما رجل فقال: رأيت أشياء تختلف عليَّ من القرآن، فقال ابن عباس : ما هو؟ أشك؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول:{ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** } (الأنعام:٢٣) وقال:{ **ولا يكتمون الله حديثًا** } (النساء:٤٢) فقد كتموا؛ وذكر له أشياء أخر اختلفت عليه؛ وقد أجاب ابن عباس رضي الله عنه إشكالات السائل، ثم قال له: فما

اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرتُ لك، وإن الله لم يُنَّزل شيئًا إلا وقد أصاب الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون،أهـ.

وأوضح أهل العلم ما بينه ابن عباس رضي الله عنه لما سأله الرجل وهو أن ألسنتهم تقول والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فكتمُ الحق باعتبار اللسان وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل، وقيل بتعدد الأماكن فيكتمون في وقت ولا يكتمون في وقت آخر والعلم عند الله.

ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي

ثامناً:أنواع المحكم في القرآن:

المحكم درجات في وضوحه، ومن أجل ذلك يتفاوت الناس في استيعابه كله وفهمه والإحاطة بمعانيه ومدلولاته، وهناك آيات واضحات يستطيع كل إنسان أن يفهمها إذا كان عارفا باللغة العربية، وهناك آيات أقل وضوحاً فقد لا يدرك مدلولها إلا العلماء الواقفون على أسرار العربية، القادرون على الإفادة من قواعد الاستنباط وأصول الفقه وقواعد البلاغة، وهذا قد يدخل في المتشابه لكونه خافياً عن بعض الناس. وعلى هذا لا نستطيع تحديد المحكم تحديداً دقيقاً لكون المحكم ومعرفته أمراً نسبياً، والمتشابه أمر نسبي، فقد يكون النص محكماً عند أناس وغير محكم عند آخرين، ومن خلال ما تقدم في عرض الآراء في الإحكام الخاص تبين لنا أن المحكم هو ما عرف المراد منه وما كانت دلالته واضحة، أو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، أو هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان.

وقد ورد عن ابن عباس ﷺ أنه قال: التفسير على أربعة أوجه:

تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء

وتفسير لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب.

فالمحكم هو الواضح البين وهو درجات متفاوته، وهو أغلب آيات القرآن الكريم وهو الأصل والمتشابه فرع منه، ولذلك يجب رد المتشابه إليه، فكل لفظ تدركه وتعرف معناه ومراد الله منه فهو محكم واضح الدلالة ولذلك يطلق أحيانا لفظ المحكم على الآية الناسخة فيقال هذه آية محكمة غير منسوخة لكونها ظاهرة الدلالة.

تاسعاً: أنواع المتشابه في القرآن:

وكما ذكرنا أن المحكم درجات في وضوحه وبيانه فكذلك المتشابه درجات في غموضه ، وكما أننا لا نستطيع تحديد المحكم تحديداً دقيقاً لكون المحكم ومعرفته أمراً نسبياً فكذلك المتشابه لا نستطيع تحديد المتشابه تحديداً دقيقاً لكونه أمراً نسبياً يرجع إلى الناظر نفسه لا إلى الأمر نفسه ،فالناظر إما مقصر في فهمه أو متبع لهواه مبتغياً بذلك الفتنة ،وقد يكون النص متشابهاً عند أناس وغير متشابه عند آخرين، ومن خلال ما تقدم في عرض الآراء في المتشابه الخاص تبين لنا أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه كالحقائق الغيبية في القرآن ، أو ما احتمل أوجها متعددة كالألفاظ المشتركة ،أو ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره ، وعليه فقد تنوع المتشابه إلى أنواع متعددة منها:

١- **متشابه من حيث الألفاظ، أي: أن سبب غموضه اللفظ،كالألفاظ الغريبة،** مثل الأب فقد جاء عن عمر ﷺ أنه قرأ: {**وفاكهة وأباً**} فقال: ما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا أو قال: ما أمرنا بهذا، وورد أيضاً عن أبي بكر ﷺ في هذا المعنى وهو أنه قرأ: { **وفاكهة وأباً**} فقيل ما الأب؟ فقيل كذا وكذا فقال أبو بكر إن هذا لهو التكلف، أي أرض تقلني أو أي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"، ومثله التخوف فقد ورد أن عمر ﷺ قرأ على المنبر قوله تعالى (**أو يأخذهم على تخوف**) ثم قال ما تقولون فيها ؟ أي في معنى التخوف فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال: نعم، قال أبو كبير الهذلي:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر"عليكم بديوانكم لا تضلوا هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم".

وورد عن ابن عباس أنه قال ما أدري ما الأواه وما الغسلين ؟ يعني قوله: (**إن إبراهيم لأواه حليم**)وقوله: (**ولا طعام إلا من غسلين**).

وقد يكون سبب غموض اللفظ،كونه من الألفاظ المشتركة كالقرء يطلق على الحيض وعلى الطهر ، وعسعس بمعنى أقبل وأدبر، والشفق يكون للبياض وللحمرة والتواب هو الله (**إن الله كان تواباً رحيماً**)، ويوصف به العبد ، (**إن الله يحب التوابين**).

وقد يكون سبب الغموض تركيب اللفظ بسبب الاختصار والحذف كقوله:(**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**)، أي: فأفطر وقوله:(**وإن من قرية إلا نحن مهلكوها**) أي:

ظالمة، وهذا من التفسير الذي يعلمه العلماء، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه المتقدم..

٢- **متشابه من حيث المعنى،** وهو الأشياء التي لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى كحقائق الأمور الغيبية وكيفياتها من أمور الآخرة والجنة والنار وأسماء الله وصفاته، وهذا هو التفسير الذي لا يعلمه إلا الله، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه.

٣- **متشابه من حيث اللفظ والمعنى،** وينقسم إلى أقسام:

الأول: ما كان التشابه فيه من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: {**فاقتلوا المشركين**}، فهو عام من حيث الزمان مخصوص بالأشهر الحرم ابتداء لا دفاعاً ، وعام من حيث المكان مخصوص بالحرم ، وعام في الأشخاص مخصوص بأهل الذمة أو المعاهدين والمستأمنين، والنساء والشيوخ والأطفال.

الثاني: ما كان التشابه فيه من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو: {**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**}، وذلك أن دلالة الأمر في الآية تحتمل الوجوب وتحتمل الندب وتحتمل الإباحة أيضاً ، فيستدل به على أن النكاح واجب أو مندوب أو مباح.

الثالث: ما كان التشابه فيه من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو: {**فقدموا بين يدي نجواكم صدقة**} ،وقوله: {**أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات**}، فبينهما فترة زمنية، وقد يكون الأول ناسخاً والثاني منسوخاً، أو العكس.

الرابع: ما كان التشابه فيه من جهة الأمكنة والمواطن التي نزلت فيها، نحو: {**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**}، فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، وقيل كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وقد ذكر هذه الأقسام الأربعة الراغب في مفرداته.

فالمتشابه هو الذي لا تتضح دلالته ودرجات غموضه مختلفة اختلافاً نسبياً من شخص لآخر قوة وضعفاً، والواجب في مثل هذه الحال رد المتشابه إلى المحكم، فكل لفظ غمض ولم يتضح معناه أو كانت دلالته مترددة بين أمرين أو أكثر فيجب الوقوف عنده ورده إلى العلم وإلى الراسخين منهم.

عاشراً: منشأ الاختلاف في المتشابه في القرآن الكريم:

منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى: {**والراسخون في العلم**} هل هو مبتدأ خبره {**يقولون**} والواو للاستئناف، والوقف على قوله: {**وما يعلم تأويله إلا الله**}؟ أو هو معطوف و{**يقولون**}حال، والوقف على قوله: {**والراسخون في العلم**}.

الرأي الأول "الاستئناف" وذهب إليه طائفة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مستدلين بما يلي:

١- ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: "**وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به**".

٢- قراءة ابن مسعود: "**وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**".

٣- ما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة.

٤- ما رواه البخاري عن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {**هو الذي أنزل عليك الكتاب**} ... إلى قوله تعالى: {**أولو الألباب**}, قال رسول الله ﷺ: " **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم** ".

الرأي الثاني "العطف" وذهب إليه طائفة على رأسهم مجاهد، فقد أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: {**والراسخون في العلم**} قال: "يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به". واختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده، بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل:

بالرجوع إلى معنى "التأويل" يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان:

الأول: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.

الثاني: التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه.

الثالث: التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفسه ما يكون في اليوم الآخر. وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه

وسجوده: "**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**" يتأول القرآن". تعني قوله تعالى: {**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**}.

فالذين يقولون بالوقف على قوله: {**وما يعلم تأويله إلا الله**}، ويجعلون: {**والراسخون في العلم**}، استئنافا، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث، أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله :{**والراسخون في العلم**} على أن الواو للعطف وليست للاستئناف، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني وهو التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره.

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل.

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها، وأما نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله. ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: {**الرحمن على العرش استوى**}، قالوا: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك قبله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان".

فبين أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة.

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة. ففي الآخرة ميزان، وجنة ونار، وفي الجنة: {**أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى**}، وذلك نعلمه ونؤمن به، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

حادي عشر:المنهج الشرعي في آيات الصفات

أخبر الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، وهن بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو على بعضهم،

فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ولهذا قال تعالى: { **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب** } أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه { **وأخر متشابهات** }أي: يلتبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالحق في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريقة يصدق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، فهذا هو المنهج السليم والطريق القويم في النصوص المتشابه عموماً وردها إلى المحكم.

أما آيات الصفات فهل يجوز أن يقال إنها من المتشابه؟

آيات الصفات كثير من الناس يطلق عليها اسم المتشابه، وهذا من جهة صحيح ومن جهة خطأ، فكما بيَّن الإمام مالك بن أنس بقوله: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب"؛ فقوله: الاستواء غير مجهول يدل على أن معناه ليس من المتشابه؛ بل هو معلوم ومعروف عند العرب.. والكيف غير معقول وذلك يدل على عجز البشر عن إدراكه، وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهاً، فهو بالنسبة إلى الصفة غير متشابه، وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف به متشابه، لأنها غير معلومة، ومما استأثر الله بعلمه.

فإطلاق لفظ المتشابه على الصفات محمول على معنى أن كيفية اتصاف المولى- تبارك وتعالى- بهذه الصفات مما استأثر سبحانه بعلمه، ولا سبيل للبشر إلى إدراكه، فهو من هذه الحيثية متشابه، أما معاني الصفات فإنها معلومة وليست من المتشابه.

فهذا هو منهج السلف في المتشابه وهذا هو فهمهم للمحكم والمتشابه الوارد في آية آل عمران، منهج يتسم بالدقة ويتسق مع اعتقادهم في التوحيد، لاسيما في توحيد الصفات، فهم لما آمنوا بصفات حقيقية جاءت بها الأدلة السمعية، وفرقوا بين فهم المعنى الذي حواه اللفظ العربي وفهم الكيفية، وفقوا في تفسير المحكم والمتشابه.

فإذا كان المحكم هو المعلوم الواضح المعنى، وكان المتشابه عكس المحكم وهو المجهول الذي لا يعلم – على نحو ما تقدم – فإنهم يعتبرون معاني نصوص الصفات محكمات، والكيفية الغيبية فقط من المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله.

أما النصوص الأخرى غير نصوص الصفات من نصوص التكليف ونحوها فإن كان معنى النص معلوما والكيفية التي دل عليها معلومة ،كانت الآية محكمة لأهل العلم على تفاوتهم في المعرفة والفهم،كما هو الحال في جميع آيات الأحكام ، ولذلك سميت نصوص التكليف بما تحويه من أحكامٍ أحكاماً ، لوضوح معناها والعلم بكيفية أدائها .

هذا ما أطبقت كلمة الأئمة المتقدمين من سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وهو أن ما ورد في باب الصفات من الآيات والأحاديث، ينبغي حمله على ظاهره، من غير تأويل أو تحريف أو تعطيل أو تمثيل؛ وأن ظاهرها لا يقتضي تمثيل الخالق بالمخلوق. فقد ثبت عن الإمام مالك أنه سئل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

آيات الصفات عند الخلف:

الخلف هم من جاء بعد عصر السلف أي:بعد عصر القرون المفضلة ، وبدايته الحقيقية منذ سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون الرشيد ، وإن كان ظهور المنهج الكلامي أسبق من ذلك ، إلا أنه لم يكن على مستوى الخلافة ، وأما تحديد وصفهم فهم الذين اتبعوا المنهج الكلامي وعلم المنطق ، واعتبروه أصلا يسيرون على نهجه ، وميزانا لقياس الأمور العقائدية ، وما عارض ذلك من نصوص الوحي جعلوها أدلة لفظية لا تفيد اليقين ، أو مجازاً أو استعارة لا حقيقة لها ، وأن العقل عارضها فيجب تقديمه عليها ، وأنها أخبار آحاد لا يجوز أن يحتج بها على أصولهم ، هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديماً وحديثاً.

ومن أبرز المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله لدى هؤلاء أعني علماء الخلف والمتكلمين، آيات الصفات الخبرية، أو متشابه الصفات، كالآيات التي جاء فيها ذكر صفات الذات والأفعال، مثل الوجه واليد والفوقية، والاستواء والمجيء والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات الإلهية.

يقول ابن أبي العز شارح الطحاوية في وصف حالهم في باب الصفات: (يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات وما يخالفه إما أن يتأوله تأويلا يحرفون فيه الكلم عن مواضعه وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه فيجحدوا ما أنزله من معانيه) أهـ.

فمذهب الخلف في نصوص الصفات أنهم جعلوا المعنى المتبادر منها معنى باطلاً يدل على التشبيه والتجسيم وإثبات الجوارح والأعضاء، لأنهم صوَّروا الخالق في صورة المخلوق، ثم استقبحوا هذه الصورة

التي تخيلوها من دلالة النصوص، وأوجبوا تأويل المعنى أو تفويضه، كما قال اللقاني صاحب جوهرة التوحيد:

وكل نص أوهم التشبيها ..... أوله أو فوِّض ورم تنزيها

فتأويل الصفات عندهم أن يصرف لفظها عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به, وهذا ما ذكرناه مسبقاً من معاني التأويل الثلاثة ، وقد قصدوا بذلك تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون. وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلا إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يدا لأن للمخلوقين يدا، فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة، **والرد عليهم** أن ذلك تناقض منهم. لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في المعنى الذي نفوه، لأن العباد لهم قدرة أيضا. فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقا ممكنا كان إثبات اليد لله حقا ممكنا أيضا، وإن كان إثبات اليد باطلا ممتنعا لما يلزمه من التشبيه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلا ممتنعا كذلك.

وأما التفويض عندهم فهو القول بأن معنى النص مجهول ولا يعلمه أحد إلا الله وادعوا أن هذا مذهب السلف كمالك وغيره، والأمر ليس كذلك، فالسلف فوضوا العلم بالكيفية الغيبية إلى الله، أما المعنى فهو معلوم واضح من دلالة اللغة العربية التي نزل بها القرآن.

فالألفاظ التي نزل به القرآن، تحمل معاني معلومة واضحة الدلالة محكمة البيان، فهي محكمة غير متشابه ومعلومة غير مجهولة، والقول بتفويض معانيها عند ذلك عبث وقدح في البلاغ عن الله ، أما الحقائق والكيفيات الغيبية أو المشهودة التي دلت عليها النصوص والألفاظ ، فإن كان ذلك في حدود مدارك الإنسان ، فإن الكيفية محكمة أيضا غير مجهولة لأنها مرئية معلومة ، أما إن لم يكن ذلك في حدود مدارك الإنسان وإنما تتعلق في عالم الغيب ، فالكيفية من المتشابه المجهول الذي استأثر الله بعلمه ، والذي يجب الإيمان به ، والراسخون في العلم مهما بلغ علمهم فلن يدعي أحدهم أنه يعلم كيفية الحقائق في الغيبيات أو كيفية الذات والصفات ، فهذه عقيدة السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على طريقتهم إلى يوم الدين .

ثاني عشر: الحكمة من ورود المتشابه في القرآن الكريم:

أجاب عنه ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» فقال: إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه

إلا اللَّقن (سريع الفهم) وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خَفِيَ، ولو كان القرآن كله ظاهرًا مكشوفًا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لَبَطَلَ التفاضُلُ بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. وقالوا: عَيْبُ الغِنَى أنه يورث البَلَه، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة. وقال «أكثم بن صَيْفيّ»: ما يَسُرُّني أني مَكفِيٌّ كل أمر الدنيا. قيل له: ولم ؟ قال: أكره عادة العجز.

وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يَجِلُّ ومنه ما يَدِقُّ، ليرتقي المتعلم فيه رُتبةً بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويُدركَ أقصاه، ولتكون للعالم فضيلةُ النظر، وحسنُ الاستخراج، ولتقع المثوبةُ من الله على حسن العناية، ولو كان كل فن من العلوم شيئًا واحدًا: لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خَفيٌّ ولا جَليٌّ لأن فضائل الأشياء تُعرف بأضدادها، فالخيرُ يُعرف بالشر، والنفعُ بالضرّ، والحلو بالمر، والقليلُ بالكثير، والصغيرُ بالكبير، والباطن بالظاهر. [تأويل مشكل القرآن ص٨٦- ٨٧].

ومن العلماء من قسم المتشابه إلى قسمين: ما يمكن معرفة المراد منه، وما لا يمكن معرفة المراد منه.

فالحكمة من الأول:

١- حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

٢- ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره.

٣- الحصول على الثواب الأكبر، ذلك لأن المتشابه يوجب فهمه التعمق في العلوم.

والحكمة من الثاني وهو الذي لا يمكن علمه:

١- ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه.

٢- إقامة الحجة على الناس جميعا بهذا الكتاب، الذي جاء بكل ما يتطلع إليه الناس أفرادا وجماعات سواء كان في العقيدة التي تنأى عن الخرافة والباطل، وتدعو إلى الإيمان بحقائق يدرك الناس بعضها ويعجز العقل البشري عن إدراك بعضها، أو كان في التشريع المتكامل أو في الحياة الروحية السامية التي أقامها بين الناس.

٣- إقامة الحجة على العرب البلغاء حيث نزل القرآن بلغتهم، ومع ذلك عجزوا عن الوقوف على معنى بعض الآيات، فدل ذلك على أنه منزل من عند الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

الإسرائيليات في كتب التفسير

قسم القرآن وعلومه، مرحلة الماجستير

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العام الدراسي ١٤٣٩-١٤٤٠هـ

الإسرائيليات في كتب التفسير

أولاً: أهم المراجع

- الإسرائيليات في كتب التفسير والحديث، د.محمد حسين الذهبي.

-الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د.محمد محمد أبو شهبة.

-الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، د. رمزي نعناعة.

-الإسرائيليات في تفسير الطبري دراسة في اللغة والمصادر العبرية، د.آمال محمد عبد الرحمن ربيع.

-الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفاسير قديما وحديثا، سعد أبو عزيز

- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي.

ثانيًا: بعض الأمور المتعلقة بدراسة الإسرائيليات:

أولًا: من المعلوم أنه وردت أحاديث عن أخبار بني إسرائيل منها:

١ - (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) رواه البخاري.

٢ - (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) رواه البخاري.

ثانيًا: أن ما جاءنا عن بني إسرائيل على ثلاثة أقسام:

- ما يوافق شرعنا ، فهو مقبول.

- ما يخالف شرعنا ، فهو مردود.

- ما لم يوافق شرعنا و لم يخالفه ، وهو المسكوت عنه ، فهذا تجوز روايته على سبيل الاستشهاد لا الاعتقاد، وخاصة إذا كان فائدة أو كشف لمبهم أو إزالة مشكل ونحوه، وما سواه مما لا فائدة فيه فتركه والإعراض عنه أسلم.

ثالثًا: ينبغي التمييز بين الإسرائيليات التي مصدرها أخبار بني إسرائيل، وبين ما ينسب إليها مما هو دخيل؛ فالدخيل في التفسير مما ليس عن بني إسرائيل مردود في الجملة كبعض القصص والأكاذيب التي لا زمام لها ولا خطام، فروايات أما بني إسرائيل على ما تقدم بيانه بخلاف الدخيل.

رابعًا: موقف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من الإسرائيليات:

تعامل الصحابة رضي الله عنهم مع الإسرائيليات في حدود الإذن الشرعي ، وفي إطار (الاستشهاد لا الاعتقاد) ، وهم عند نقلهم لها في الغالب يسألون ويتحرون عمّا في التوراة يقيناً، لا مجرد ما يتناقله أهل الكتاب، فعند سؤالهم لكعب الأحبار مثلاً تجدهم يتحرّون التثبت يقولون: هل جاء في التوراة ؟ ، أو يقول: هل رأيته في التوراة ونحوه.

مع العلم أن ما صح عن الصحابة من الإسرائيليات هو مما يوافق شرعنا ، أو من المسكوت عنه مما فيه فائدة، ومما لا يوافق أو يخالف شرعنا.

ثالثاً: تعريف الإسرائيليات :

لغة جمع إسرائيلية،وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي، والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الاثني عشر وإليه ينسب اليهود فيقال: بنو إسرائيل، وقد ورد ذكرهم في القرآن منسوبين إليه في مواضع كثيرة. (١)

اصطلاحاً: اختلف فيه وفي ضبطه وبيان حده ، فمن العلماء من قال هي كل ما ورد من أخبار يهودية، ومنهم من توسع وقال هو كل ما ورد من أخبار يهودية ونصرانية ، ومنهم من توسع أكثر وجعل هذا المصطلح شاملاً كل خبر لا أصل له في الإسلام.

يقول د. فهد الرومي في منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير،: "يجب أن نوضح أنه يراد بالإسرائيليات ما هو أعم من لفظها إذ هو لا يدل على أكثر من الروايات المنسوبة إلى بني إسرائيل وهم اليهود وما يراد إضافة إلى هذه الروايات المنسوبة إلى النصارى أيضا فهي تطلق على ما يروى عن أهل الكتاب عامة ".

وأما محمد حسين الذهبي فيبين أن هذا المصطلح أشمل وأعم، فيقول: "بل توسع بعض المفسرين والمحدثين فعدوا من الإسرائيليات ما دسه أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم وإنما هي أخبار من صنع أعداء

---

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث ، محمد حسين الذهبي ص ١٣

الإسلام صنعوها بخبث نية وسوء طوية ثم دسوها على التفسير والحديث ليفسدوا بها عقائد المسلمين"(٢)

فإطلاق هذا المصطلح على جميع ما ذكر بلفظ "الإسرائيليات" هو من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني فإن الجانب اليهودي هو الأقوى والأكثر نقلاً ولكثرة أهله وظهور أمرهم وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن اتسعت رقعته في بلاد العالم .

رابعاً: تاريخ ظهور الإسرائيليات.

دخول الإسرائيليات في التفسير يرجع أمره إلى عهد الصحابة رضي الله عنهم، وكان رجوعهم رضوان الله عليهم إلى أهل الكتاب يعد مصدراً من مصادر التفسير عندهم رضي الله عنهم، مع أنهم لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء ولم يقبلوا منهم كل شيء بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحا لبعض القصص المجملة في القرآن والتي هي مفصلة في كتب أهل الكتاب مع توقفهم رضوان الله عليهم فيما يلقى عليهم منها فلا يحكمون عليها بكذب ولا بصدق امتثالا لأمر الرسول ﷺ "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا "آمنا بالله وما أنزل إلينا" رواه البخاري.

كما أن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن شيء يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام إلا إذا كان على سبيل الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن ، بل حتى أنهم إذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ؛ ردوا عليهم خطأهم وبينوا وجه الصواب فيه.

أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام وميل نفوس كثير من التابعين لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية، وبرز جماعة من المفسرين الذين حشوا تفاسيرهم بكثير من القصص المتناقض، بل بعضهم يشرح القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل والتنبؤ بما يطويه الغيب.

---

٢ الإسرائيليات في التفسير والحديث: محمد حسين الذهبي ص١٣، ١٤

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم يلصقون بالقرآن كل ما يرد لهم وإن لم يتصوره العقل واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والتولع بنقل هذه الأخبار التي أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير فوجد من المفسرين من حشو كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي. وكان كثير منها ينافي عصمة الأنبياء بل وفيه مبالغات كبيرة.

ونقل الصحابة عن الإسرائيليات قليل جداً مقارنة بالتابعين وأتباع التابعين.

وما ثبتت رواية الإسرائيليات عن أحدٍ من كبار الصحابة أبداً، لكن جاء عن بعض صغارهم، وجاء عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه شيء قليلٌ جداً، وأبو هريرة لم يحدث الكثير من التفسير، وكان يبين بوضوح ما ينقله عن كعب الأحبار، وابن عباس الذي كان مُكثراً في التفسير، وما رواه من الإسرائيليات قليل مقارنة مع مروياته الكثيرة. وأغلب من جاء بهذه الإسرائيليات من كان من أهل الكتاب وأسلم أو كان ينقل عنهم بكثرة.

خامساً:كيف تسربت الإسرائيليات إلى التفسير؟

تسربُ الإسرائيليات إلى التفاسير مسبوق بتسرب الثقافة الإسرائيلية إلى الثقافة العربية في الجاهلية فمن المعروف أن لليهود موضع قدم في الجزيرة العربية بعد تشتتهم وضياع شملهم وقد كانت لهم علاقات مع العرب في رحلاتهم التجارية إلا أن استمداد العرب من الثقافة اليهودية حينئذ كان ضيقا جدا لقلة التعلم ضيق الثقافة عند العرب قبل الإسلام.

ولما جاء الإسلام وجاء القرآن وظهرت في المدينة دروس لتعليم القرآن الكريم، ووجدت بعض قبائل اليهود في المدينة التي اختلطت بالمسلمين أسهم ذلك كله في تسرب الثقافة اليهودية ، ثم جاء ما عزز هذا وهو دخول بعض اليهود في الإسلام كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما ممن كانت له ثقافة يهودية واسعة وكانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة ومركز ملحوظ وبهذا كله التحمت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية بصورة أوسع وأشمل في العلوم كلها وخاصة علم التفسير والحديث، ساعد على ذلك شغف العامة بها وتساهل الخاصة في تناقلها من دون تبيان لما تحمله من بهتان.

وإن أردنا الدقة في تحديد زمن التسرب وكيفيته فنقول: مر علم التفسير بمراحل عديدة أولها مرحلة الرواية ثم مرحلة التدوين فكان ملحقا بكتب السنة بأسانيد رواتها ثم استقل بمصنف لوحده مع الحفاظ على الأسانيد ثم تطور الأمر وحذفت الأسانيد طلبا للاختصار وهنا وجدت الإسرائيليات منفذا تلج فيه إلى بطون كتب التفسير.

سادساً: أقطاب الإسرائيليات.

تدور الروايات الإسرائيلية على عدد من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلا أنه اشتهر منهم أربعة، هم عمدة من نقلها وأدخلها: وهم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه وابن جريج وإليك شيئاً من التبيين لبعض حياتهم ومزاياهم :

١-عبد الله بن سلام:

هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، من بني عوف بن الخزرج من الأنصار، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة قيل كان اسمه الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وشهد له بالجنة ، وقد كان على مبلغ من العلم، فقد جاء فى صحيح البخارى من إخباره عن نفسه: أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم، وإقرار اليهود بين يدى رسول الله ﷺ بذلك، بل إنه اشتهر بين الصحابة بالعلم ، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، روى له الجماعة، رضي الله عنه وأرضاه.

٢- كعب الأحبار:

هو أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار من آل ذي رعين ويقال من ذي الكلاع ثم من بني ميتم وهو من مسلمة أهل الكتاب أدرك النبي ﷺ وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، وقيل في خلافة عمر بن الخطاب ويقال إنه أدرك الجاهلية ، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا الروم فى خلافة عمر، ثم تحوَّل فى خلافة عثمان إلى الشام

فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢ هـــ ، وقيل مات لسنة بقيت من خلافة عثمان، روى عن النبي ﷺ مرسلا ، وخرج له الإمام مسلم فى صحيحه وأصحاب السنن، قال عنه ابن حجر: ثقة مخضرم.

٣- وهب بن منبه:

وهو أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كنار اليماني الصنعاني الذماري، تابعي ثقة وكان على قضاء صنعاء ، ولد لسنة بقيت من خلافة عثمان، ومات بصنعاء سنة عشر ومائة. قال عنه ابن حجر: ثقة، وروى عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وكان ثقة صادقا، كثير النقل من كتب الإسرائيليات قال الذهبى: كان ثقة صادقاً، كثير النقل من كتب الإسرائيليات ، وقال ابن حجر: وهب بن منبِّه الصنعانى من التابعين، وثَّقة الجمهور .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، في كعب الأحبار وفي وهب بن منبه: «سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حُرِّفَ وبُدّل ونسخ »، تفسير ابن كثير ٦ / ١٩٧

٤- ابن جريج:

هو أبو خالد أو أبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي، وأصله رومي نصراني ، ، كان من علماء مكة ومحدِّثيهم، وهو من أول مَنْ صنَّف الكتب بالحجاز، ولو رجعت إلى تفسير ابن جرير الطبري، وتتبعت الآيات التي وردت في النصارى، لوجدت كثيراً مما يرويه ابن جرير في تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك، الذى يُعَبِّر عنه دائماً بـــ "ابن جريج".

أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وتثبته فيما يرويه، وإنما اختلفت أنظارهم فيه، فمنهم مَن وثَّقه، ومنهم مَن ضعَّفه، وبالجملة كان ثقة فقيهاً فاضلاً وكان يدلس ويرسل ، مات سنة خمسين ومائة وقيل غير ذلك.

هؤلاء الثلاثة السالف ذكرهم هم المصدر لأكثر الإسرائيليات ولأكثر ما نقل عن أهل الكتاب، وأكثر هؤلاء الثلاثة كعب الأحبار ثم وهب بن منبه ثم ابن جريج ثم عبد الله بن سلام .

وأما غيرهم ممن ينقل عن بني إسرائيل فمنهم ابن إسحاق وقتادة والسدي الكبير وسعيد بن جبير وأمثالهم، فهؤلاء نقلة عن غيرهم، ، والسدي الصغير الكذاب وهو أكثرهم رواية للإسرائيليات.

سابعاً: موقف العلماء من الإسرائيليات:

لاشك أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل تعد دسيسة من الدسائس التي دخلت علينا فى شريعتنا وعظم خطرها،

وهذه الإسرائيليات من حيث قبولها وردِّها نذكر ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته (مقدمة في أصول التفسير) فقد قال: "ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني" أهـــ. وذلك لقول النبي ﷺ: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج.." رواه البخاري ، ولما رواه أبو هريرة قال:"كان أهل الكتب يقرؤون الكتاب بالعبرانية ويفسروها

بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم) الآية"رواه البخاري

يقول ابن حجر في الفتح شارحًا هذا الحديث: "وأخرج عبد الرزاق من طريق حريث بن ظهير قال: (قال عبد الله: لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم فتكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل) وأخرجه سفيان الثوري من هذا الوجه بلفظ (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل) وسنده حسن قال ابن بطال عن المهلب: هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، ولا يدخل في النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة، وأما قوله تعالى: (فسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) {يونس} ، فالمراد به من آمن منهم، والنهى إنما هو عن سؤال من لم يؤمن منهم، ويحتمل أن يكون الأمر يختص بما يتعلق بالتوحيد والرسالة المحمدية وما أشبه ذلك والنهي عما سوى ذلك.

والخلاصة فيما تقدم أنه يجب على المفسِّر أن يكون يقظاً وعلى حذر إلى أبعد الحدود ، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد ذا روية وتأمل ، حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب منهج القرآن، ويتفق مع العقل والنقل فعليه:
أولاً: ألا ينقل عن أهل الكتاب ما يتعارض مع ما جاء فى سُنة نبينا ﷺ تفسيراً لمجمل ما في القرآن، فمثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى:{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} مما ثبت عن النبي ﷺ وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمؤاخذة عليه، فلا يلتفت إلى ما ذكر من قصة صخر المارد وهو الشيطان الذي جلس على كرسي ملكه، وتصرف فيه مدة من الزمن ، وغير ذلك من الأمثلة.
ثانياً: على المفسِّر أن يلحظ أن الضرورة تقدَّر بقدرها، فلا يذكر في تفسيره شيئاً من تلك الإسرائيليات إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال، ليحصل التصديق بشهادة القرآن .
على أن من الخير للمفسِّر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يُعَد صارفاً عن القرآن، وشاغلاً عن تدبره والنظر فى حكمه وأحكامه .

يقول العلامة عبد الرحمن السعدي: "والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا مترلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ : "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم "فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق".

ثامناً: أثر الإسرائيليات على التفسير:

لا ريب أن للأخذ بهذه الإسرائيليات بتوسع ومن غير تمييز، ولا نظرًا للحاجة في بيان مجمل أو دفع موهم أو كشف مبهم، والأخذ بها في شرح كلام الله بها أثرا سيئاً على التفسير وفيما يلي إيجاز بأبرز تلك الآثار السيئة ومنها:

- أنها أسهمت في إفساد عقيدة المسلمين بما حوته من تشبيه وتجسيم لله تعالى أو تعطيل، أو وصفه بما لا يليق.
- كذلك صورت أنبياء الله وأصفياءه بصورة من استبدت بهم شهواتهم ودفعتهم إلى فضائح لا تليق بأي رجل من الناس، فضلا عن أن يكون نبياً اختاره الله لتبليغ رسالته إلى الخلق وليثق الناس به وبما دعا إليه .
- كما صورت الإسلام في صورة دين خرافي يُعنى بترهات وأباطيل لا أصل لها .
- كما أنها كادت تصرف الناس عن الغرض الأساس الذي نزل القرآن لأجله وتلهيهم عن تدبره والانتفاع بما فيه من وصايا وجواهر وهدى إلى تفاصيل لا

تعدو أن يكون الاشتغال بها محض عبث وتضييع للوقت مما دفع الكثير إلى عدم قبول شيء مما جاء فيها لاعتقاده أن الكل من واد واحد.

- أن هذه الإسرائيليات كانت سبباً في تمزيق المسلمين شيعا وأحزابا بما بثه اليهود من عقائد وأحاديث موضوعة أثارت الجدل والتعصب الذميم بين المسلمين،
- من آثارها أنها كانت عقبات وأشواكاً في طريق التقدم الفكري إذ كانت بعض ماشغل علماء المسلمين تخريجا لها وتنبيها إلى خطئها وتحذيرا من خطورتها في حين فتحت لأعداء الله من المبشرين والمستشرقين منفذا للطعن في الشريعة وتشويه سمعة الإسلام عن قصد.
- كما كادت تذهب بالثقة في بعض علماء السلف سواء من أسندت إليهم الإسرائيليات أم من عدلهم.

مقدمات في التفسير البياني

كلية أصول الدين

مسار القرآن

المستوى السابع

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أولًا: تعريف التفسير البياني:

يعرَّف التفسير بأنه "علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه.

وأما التفسير البياني فهو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام إلا أن التركيز فيه على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير.

ثانيا: نشأة التفسير البياني:

= عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

إن الناظر في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والمتأمل في أحاديثه في تفسير القرآن فإنه يلتمس الأصول الأولى للتفسير البياني وقواعده الأساسية فقد جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: لما نزلت: {حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود} [البقرة: ١٨٧] من الفجر قال له عدي بن حاتم: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالا أبيض وعقالا أسود، أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل، وبياض النهار» رواه مسلم في صحيحه. فالنبي صلى الله عليه وسلم انتقل به من المعنى الحقيقي إلى الاستعارة.

وأخرج الترمذي في جامعه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} [الواقعة: ٨٢] قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»: ففسر الرزق بالشكر فوضع الشكر موضع التكذيب.

= عهد الصحابة رضوان الله عليهم:

سار الصحابة رضوان الله عليهم من بعد النبي صلى الله عليه وسلم كذلك على وجه، تحكمهم سليقتهم العربية ليظهروا تفسير الآيات البياني، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في قوله تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦) قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السُّوء، رواه ابن جرير في تفسيره. وجاء عن ابن عباس في تفسير سورة النصر أنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخله معَهم، فقال: ما تقولون في قول الله، عز وجل: {إذا جاء نصر الله والفتح}؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: {إذا جاء نصر الله والفتح} فذلك علامة أجلك، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. رواه البخاري.

ثالثاً: جهود المتقدمين في التفسير البياني:

ما سبق ذكره من آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم في هذا النوع من التفسير البياني كان قبل عصر التدوين مما تناقله الرواة وسجله المؤلفون.

فمما جاء عن التابعين من عناية بالتفسير البياني ما ورد عن عكرمة أنه قال، في قوله: (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) قال: هذا من التقديم والتأخير، يقول: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا. وغيره من أقوال التابعين.

أما الجهود اللاحقة بعد التدوين فنجملها فيما يأتي:

١ -أبو عبيدة: أول من تحدث عن مسألة التفسير البياني في عصر التدوين، وأبو عبيدة معمر بن المثنى البصري المتوفى سنة ٢١٠هـ، له مؤلفات منها: مجاز القرآن، ويقصد به ما يجوز في اللغة لا ما اصطلح عليه علماء البلاغة من المجاز الذي يقابل الحقيقة. والكتاب في مجلد واحد يتحدث عن معاني القرآن مما يجوز في لغة العرب فهو كتاب من كتب معاني

القرآن، وله عناية بالتفسير البياني، وسأورد بعضا من الأمثلة الواردة في كتابه والتي تمثل جهدا متميزا في هذا النوع من التفسير، مكتفيا بالذكر دون التعليق خشية الإطالة:

– من مجاز ما جاء لفظُه لفظَ الواحد الذي له جماع منه، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع، قوله تعالى: «ثم يخرجكم طفلا» فإن مجازه أطفال، والعرب تضع لفظ الواحد فى معنى الجميع.

ومن مجاز ما يحول فعل الفاعل إلى المفعول أو إلى غير المفعول قوله تعالى: «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة»، والعصبة هي التي تنوء بالمفاتح.

٢ –الإمام الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء أمام الكوفيين والمتوفى ٢٠٧هـ من كتبه: معاني القرآن.

ومن الأمثلة في كتابه مما يتعلق بالتفسير البياني قوله تعالى:(فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قال الفراء: (ربما قال القائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه. ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم. ومثله من كتاب الله: «فإذا عزم الأمر»، وإنما العزيمة للرجال.

٣ –ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدّينوري، المتوفى سنة ٢٧٦هـ، كان إماما ضليعا في العربية له العديد من الكتب أشهرها: غريبَ القرآن وتأويل مشكل القرآن.

والذي يعنينا من كتبه النافعة الماتعة كتابه تأويل مشكل القرآن، فقد وقف عند كثير من آي القرآن الكريم يجلّي ما فيها من بيان مما كان له أثر عند العلماء.

من ذلك قوله تعالى: (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)، قال: أي كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيمانا يهتدي به سبل الخير والنجاة، فاستعار الموت مكان الكفر، والحياة مكان الهداية، والنور مكان الإيمان.

٤– الباقلاّني: محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر، المتوفى سنة٤٠٣هـ إمام من أئمة المتكلمين ومن منظري المذهب الأشعري.

كتب الباقلاني كثيرا من الكتب؛ مدافعا عن الدين، ذابا كل ما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات، وما يوحون به من شكوك، من هذه الكتب إعجاز القرآن، والتمهيد، والانتصار. أما كتابه إعجاز القرآن فأنه أشهر كتاب في الإعجاز؛ فلقد ظلَّ على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة؛ بل إن كثيرا من المتخصصين لم يعرفوا غيره.

ومن الأمثلة التي تحدث عنها الباقلاني مما يتعلق بعلم البيان قوله رحمه الله:(فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه، تأمل قوله تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوماً مُّسْرِفِينَ) في شدة التنبيه على تركهم الحق والإعراض عنه.

وقوله: (ولَن ينْفَعكُم الْيوم إِذ ظَّلَمتُم أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مشْتَرِكُونَ) وهذا بليغ في التحسير.

وقوله: (ولَو ردُّواْ لَعادواْ لِما نُهُواْ عنْه) وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقَوله: (الأَخلاَّءُ يومئذ بعضهم لبَعْضٍ عدُوٌّ إِلاَّ الْمتَّقِينَ) هو في نهاية المنع من الخلة إلا على التقوى.

٥ -الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٧١هـ.واضع أصول البلاغة، وإمام في اللغة والأدب والنحو والبيان والنقد، له نتاج بديع فيما يتصل بالقرآن وبيانه، ومن أبرزها الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، تحدث عبد القاهر الجرجاني عن البلاغة في أصالة معناها وسمو هدفها وغايتها، فجاء ووضع نظريته في المعاني، وهي نظرية تقوم عليها أن اللفظ لا ينظر إليه من حيث هو لفظ، وإن المعنى لا ينظر إليه من حيث هو معنى، وإنما ينظر إلى الأول من حيث هو قالب للمعنى، وينظر إلى الثاني من حيث المقصود فجاء بكتاب دلائل الإعجاز، وبين فيه أن جمال هذا النظم إنما يعظم ويحسن بقدر تأثيره بالنفوس وهذا ما اختص به كتابه دلائل الإعجاز.

أما كتابه الثاني فهو أسرار البلاغة، ولقد كانت دراسته فتحا جديدا في هذه الفنون وهو يطبق ذلك على آي الكتاب العزيز.

ومن الأمثلة التي أوردها وبلغ فيها الغاية شرحا وتفصيلا حديثه عن قوله تعالى:{وفجرنا الأرض عيونا} [القمر: ١٢] يقول الجرجاني: التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض

في اللفظ وقد حصل بذلك على معنى الشمول، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من أماكن فيها عيون متفرقة في الأرض.

ويتساءل عن قوله: (واشتعل الراس شيبا) فإن قلت: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب، على هذا الوجه، كان له الفضل؟ فالسبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى وأنه شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء؛ وهذا ما لا يكون إذا قيل: (اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس). بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة. ووزان هذا أنك تقول: (اشتعل البيت نارا) فيكون المعنى، أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: (اشتعلت النار في البيت) فلا يفيد ذلك.

فرحم الله الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي أسس قواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامة والذي شق طريقًا جديدًا سلكه من بعده العلماء، فظل عندهم إماما مجتهدا مبرزا، سبق إلى ما لم يخطه أحد قبله، وسيبقى نبراسا وسراجا منيرا لكل من يريد السعي بهمة وإخلاص للكشف عن سر هذا الكتاب العزيز والبحث فيه.

٦ -الزمخشري: محمود بن عمر جار الله أبو القاسم المعتزلي، والمتوفى٥٣٨هـ،

جمع الزمخشري، الكثير من علوم الدين والتفسير واللغة والأدب، سافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقَّب نفسه بجار الله، له العديد من الكتب النافعة والماتعة، من أهمها وأكثرها اتصالا بموضوعنا التفسير البياني تفسيره الكشاف.

جاء الزمخشري ليطبق نظرية عبد القاهر بحذافيرها كاملة غير منقوصة في تفسيره الكشاف، ولا يعني هذا بالطبع أنه كان ناقلا، وإنما أعطي الرجل من البيان حظا وافيا، وكان كما قال هو مقدمته: مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها.

لقد بقي الكشاف على مدى العصور مدرسة ينهل منها طلاب البيان، بين مختصر ومسهب

ومعلّق، فلقد أفاد منه النسفي في عبارته كلها، ولقد ضغط البيضاوي تلك العبارة.
وتفنن فيها أبو السعود، وليس هؤلاء فحسب بل الفخر الرازي وأبو حيان وغيرهما كانت لهم عبارة الكشاف مادة غزيرة يعجبون بها تارة ويردونها أخرى.
وسنقف هنا مع بعض الأمثلة مما ذكره في تفسيره لنرى مدى براعته وتفننه في عبارته وفهمه لآي كتاب الله، وكيف انتزع من خصومه ومنتقديه الاعتراف له بالفضل، يقول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى:(ذلك الكتاب لا ريب فيه) معناه: أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا، كما تقول: هو الرجل، أي الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال.
وعند تفسير قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الأنعام(٣٨)يقول: فإن قلت، هلا قيل: وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله في الأرض ويطير بجناحيه قلت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة في جميع الأرضين السبع، وما من طائر في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف.

٧- أبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الشهير بأبي السعود، توفي سنة ٩٨٢هـ. من علماء الدولة العثمانية، تلقى أبو السعود العلم على أعلام عصره حتى برز في فنون متنوعة وألف المؤلفات المتنوعة وتقلد وظائف عدة منها قضاء القسطنطينية.
الكتاب مطبوع في أربعة مجلدات، وهو يعد من أبرز التفاسير في بلاغة القرآن والتفسير البياني فقد أبرز فيه أبو السعود دلائل الإعجاز البياني للقرآن الكريم، والكشف عن أسرار القرآن البيانية، فالتفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصَّياغة وجمال التعبير، والكشف عن أسرار البلاغة القرآنية، حيث لم يسبقه إليه أحد، فذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير البياني.

وهذه بعض الأمثلة من تفسيره:

قال أبو السعود في قوله تعالى:" أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ "، مبيناً سرَ إيثار لفظَ "جَعل" على "أدخل"، وإيثار لفظ "الأَصابع" على "الأَنامل" مع أَن المعتاد أن الأنامل هي التي تجعل في الآذان لا الأصابع بكليتها، يقول: "وإيثار الجعل المنبئ عن التلبس واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد مجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل؛ للمبالغة في بيان سد المسامع، كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان سدها باعتبار الذات، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب.

وفي قوله تعالى:{وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} يبين سر تقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران بأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول.

والختم بجملة{وإليك المصير} أي الرجوع إلى الله بعد البعث بعد طلب المغفرة بقوله: (غفرانك) لبيان الحاجة الشديدة إلى المغفرة بعد الرجوع للحساب والجزاء.

٨-الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود المتوفى سنة١٢٧٠هـ مفتي بغداد ومرجع أهل العراق علامة في المنقول والمعقول، صاحب روح المعاني التفسير الجامع لكل قديم والمشتمل على كل مفيد.

لقد كان تفسيره روح المعاني جامعةً قرآنية لم يهمل فيها مسائل المتكلم ولا مشكلات النحوي ولا روايات الأثري ولا آراء الفقيه ولا نكات البياني.

من أمثلة التفسير البياني عند الآلوسي قوله تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) [النحل: ٥٨] قوله: ظَلَّ وجهه، أي: صار مسودًّا من الكآبة والحياء من الناس، وأصل معنى ظل أقام نهارا على الصفة التي تسند إلى الاسم، ولما كان التبشير قد يكون في الليل وقد يكون في النهار فسر بما ذكر وقد تلحظ الحالة الغالبة بناء على أن أكثر الولادات يكون بالليل ويتأخر إخبار المولود له إلى النهار خصوصا بالأنثى فيكون ظلوله على ذلك الوصل طول النهار. واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والنفرة التي لحقته بولادة

الأنثى، فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ومن لوازم الغم والحزن اسوداده فلذلك كني عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد،

التفسير البياني في العصر الحديث:

١ – الأستاذ أمين الخولي: المتوفى سنة ١٣٨٥هـ وهو أحد دعاة التجديد والإصلاح ومفكر إسلامي، وعضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ممن دعا إلى تفسير النص القرآني ودراسته دراسة أدبية. وهو يرى أن التفسير ينبغي أن يمر بالمراحل التالية:

– المرحلة الأولى: التفسير الموضوعي وهو جمع الآيات ذات الموضوع الواحد من أولها إلى آخرها، وفهم أماكنها المتفرقة، والنظر إليها نظرة واحدة، ورد لاحقها بسابقها؛ وبهذا يكون الفهم الصحيح، فالناظر في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة لا يمكنه أن يتغاضى عن قصته في سور أخرى كالأعراف والحجر والكهف.

– المرحلة الثانية: الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد: يجب على المفسر بعد جمعه لآيات الموضوع الواحد أن يرتب هذه الآيات حسب ترتيب النزول الزمني وأن يعرف مناسباتها وملابساتها الحافةَ بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده.

– المرحلة الثالثة: الدراسة، وتنقسم قسمين:

دراسة ما حول القرآن:

أولا: دراسة ما حول القرآن: وتنقسم قسمين أيضا:

أ– دراسة خاصة قريبة إلى القرآن: لا بد منها لفهم النص القرآني كأسباب النزول والنسخ ومعرفة المكي والمدني وهي موضوعات علوم القرآن.

ب– دراسة عامة بعيدة عن القرآن: وهي دراسة البيئة التي نزل فيها القرآن وعوامل تكوينها سواء أكانت تلك البيئة طبيعية أم اجتماعية أو مادية أم معنوية.

ثانيا: دراسة في القرآن: وهي كذلك تنقسم قسمين:

أ- النظر في المفردات: في تدرج دلالة الألفاظ والأثر المترتب على هذا التدرج من جيل إلى جيل والنظر كذلك إلى الظواهر المتعددة المؤثرة. فدراسة اللفظة القرآنية ينبغي أن يراعى فيها أصل وضعها ومدلولها في العهد الذي نزلت فيه ثم التطورات التي جدت عليها بعد ذلك. ومما يفيد في هذا كتاب المفردات للراغب الأصفهاني.

ب- النظر في المركّبات: مستعينا بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة ولكن لا على أن الصنعة النحوية والبلاغية عمل مقصود لذاته بل على أنه أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، وعلى أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية التي تمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني وتبين معارف هذا الجمال وتجلّيه في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية.
ألف الخولي كتابا شرح فيه منهجه في الدراسة الأدبية للقرآن الكريم سماه: "مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب.

٢ -عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: توفيت سنة ١٤١٩هـ أديبة وعالمة ومفسرة وهي زوجة الأستاذ أمين الخولي، أستاذة الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث بجامعة القرويين، وعملت في عديد من الجامعات على امتداد العواصم العربية من الرباط إلى بيروت، لها العديد من المؤلفات من أهمها فيما يختص بالدراسات القرآنية الإعجاز البياني للقرآن، التفسير البياني للقرآن الكريم،
ولقد كشفت الدكتورة بنت الشاطئ عن توجهها وانشغالها بالتفسير البياني للقرآن الكريم فقالت: "وقد شغلتني قضية الإعجاز البياني دون أن اتجه إليه قصدا فأثناء انشغالي بالتفسير البياني والدراسات القرآنية تجلى لي من أسراره الباهرة ما لفتني إلى موقف العرب من المعجزة القرآنية في عصر المبعث ووجهني إلى محاولة منهجية في فهم عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله وقد تحداهم والعربية لغته ولغتهم والبيان طوع ألسنتهم وهم بلا ريب قد أدركوا من أسرار إعجاز البيان ما أيأسهم من محاولة الإتيان بلفظ يقوم مقام اللفظ فيه أوان يأتوا بأية على غير الوجه الذي جاءت به في البيان المعجز. أهـ.

ألفت كتابها التفسير البياني والذي يقع في جزئين، ظهرت منه الطبعة الأولى (١٣٨٣هـ) جاء هذا الكتاب كثمرة لجهد مشترك بين عائشة عبد الرحمن وأستاذها الخولي، لقد سطرت الدكتورة لكتابها أهدافا، في مقدمتها خدمة كتاب العربية الأكبر، وإبراز أسراره البيانية المعجزة.

فالتفسير البياني للدكتورة عائشة بنت الشاطئ يعد محاولة لدراسة منهجية للقرآن الكريم في وجوه إعجازه البياني، تقوم على فهم القرآن وفق منهج استقرائي، لهذا نجدها تقول في مقدمة كتابها: "وما أعرضه هنا ليس إلا محاولة في هذا التفسير البياني للمعجزة الخالدة، حرصت فيها ما استطعت على أن أخلص لفهم النص القرآني فهما مستشفّا من روح العربية ومزاجها مستأنسة في لفظ بل في كل حركة ونظرة بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتجر الخلاف، على هدي التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه والتدبر الواعي لدلالة سياقه والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في بيان معجز.أهـ.

اختارت الدكتورة لهذه الغايات سورا قصارا، أغلبها من السور المكية، ملاحظة فيها وحدة الموضوع، حيث العناية بالدعوة الإسلامية في مراحلها الأولى وتثبيت أصولها الكبرى.

وقد ذكرت قواعد منهج بنت الشاطئ في تفسيرها مع سوقها للأمثلة والشواهد، وهذه القواعد هي:

أولا: العبرة بعموم اللفظ القرآني لا بخصوص السبب.

ثانيا: استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده.

ثالثا: الاهتمام بدلالة السياق.

رابعا: القرآن هو القاعدة.

خامسا: ترك الإطناب عما أُبهم في القرآن الكريم.

سادسا: رفض التفسير العلمي التجريبي.

سابعا: التفسير الموضوعي.

نماذج من تفسيرها:

تقول في تفسير قوله تعالى: (وبرزت الجحيم لمن يرى) النازعات: ٣٦: والقرآن يستعمل البروز، وقوة الشخوص والظهور، في موقف القيامة والحساب،

وتسمية جهنم بالجحيم في المصطلح الديني ملحوظ فيها الأصل اللغوي وهو شدة تأجج نارها، فالجحيم والجحمة في اللغة: النار الشديدة التأجج، وكل نار بعضها فوق بعض، والجاحم: الجمر الشديد الاشتعال.

وإسناد البروز إلى الجحيم بالبناء للمجهول تطّرد به الظاهرة الأسلوبية في صرف النظر عمدا عن الفاعل لأحداث القيامة تقريرا لفاعليتها التلقائية وتركيزا للانتباه فيها.

وتقول في تفسير لفظ المقابر في قوله تعالى: (حتى زرتم المقابر) التكاثر:٢: ولفظ المقابر لم يأت في غير آية التكاثر على حين جاءت القبور خمس مرات كما جاء القبر مفردا في سورة التوبة. وقد تجد الصنعةَ البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد

يحس أهل البلاغة ونحس معهم فيها نسق الإيقاع هذه الفاصلة، فهل تكون المقابر في آية التكاثر لرعاية الفواصل فحسب؟

المقابر جمع مقبرة وهي مجتمع القبور واستعمالها هنا يقتضيه معنويا، أنه اللفظ الملائم للتكاثر، الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فإن هناك حيث مجتمع القبور

ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم، وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم لفظ القبور بما هي جمع لقبر، فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت يتجلى إيثار البيان القرآني المقابر على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر به المتكاثرون، وحين يلفت إلى مصير هذه الحشود من ناس يلهيهم تكاثرهم عن الاعتبار بتلكم المقابر التي هي مجتمع الموتى ومزار الراحلين الفانين.

٤ -ابن عاشور: محمد الطاهر، توفي سنة ١٣٩٣هـ. شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم في تونس المعروف بجامع الزيتونة. امتاز بمتانة علمه، وسعة ثقافته، وعمق نظره، وكثرة تدويناته وتحقيقاته ومؤلفاته. ومن أهم هذه المؤلفات على الإطلاق؛ تفسيره الجامع التحرير والتنوير، وكتابه في مقاصد الشريعة الإسلامية.

كتب العلامة ابن عاشور تفسيره هذا في نحو أربعين سنة، وقد كان هذا الكتاب أول تفسير كامل شامل للقرآن الكريم يصنف في بلاد تونس على مر السنين.

لقد كان اهتمام ابن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم موجهاً نحو فن البلاغة ودقائقها ونكتها، يقول في مقدمة الكتاب: وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكات البلاغة وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان اتصال الآي بعضها ببعض، وهو مترع جليل ... ثم يقول: ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيطُ به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته، ومعاني جمله؛ كأنها فقرا متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله. واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق، مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة، وقد بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير.

نماذج من استقراءاته في كتاب الله تعالى:

يقول رحمه الله تعالى في مقدمته العاشرة التي تحدث فيها عن إعجاز القرآن وتحت

عنوان "مبتكرات القرآن": وقد تتبعت أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن

فوجدتها مما لا عهد بمثلها في كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى:(قد أنزل إليكم ذكرا رسولًا يتلو عليكم)، الطلاق(١٠) "رسولاً" بدلًا من "ذكراً" يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول. ويقول تحت عنوان "عادات القرآن": وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها: أن كلمة "هؤلاء" إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة، كقوله: (إن هؤلاء ليقولون. إن هي إلا موتتنا

الأولى وما نحن بمنشرين) الدخان(٣٥) وكقوله: (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) الزخرف (٢٩)، وقوله:(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين)، الأنعام (٨٩)

٥ –الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي: ولد سنة ١٩٣٣ نشأ محبا للقرآن والعربية، درس اللغة العربية في دار المعلمين العالية في بغداد ثم أكمل دراسة الدكتوراة في جامعة عين شمس في مصر، ثم عاد إلى بغداد ودرس في جامعتها، وعين فيها عميدا لكلية الدراسات الإسلامية وهو الآن أستاذ مادة النحو والتعبير القرآني في جامعة الشارقة، وله على

أصدر العديد من الكتب المتخصصة، وكثير منها اهتم بالقرآن وبيانه منها:

– التعبير القرآني: وهو دراسة في الإعجاز البياني للقرآن من خلال النص القرآني، من حيث التشابه والاختلاف في التعبير والتقديم والتأخير والذكر والحذف.

– بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: يتحدث فيه عن الإبدال والوصف والإفراد والتثنية والجمع وتعاور المفردات.

– لمسات بيانية في نصوص من التتريل: في هذا الكتاب يختار المؤلف آيات من

الكتاب العزيز ليستخرج منها درر البيان القرآني ويدل على مواطن الفن والجمال في التعبير الفني القرآني الرفيع.

أمثلة مما ذكره في حول التفسير البياني: في قوله تعالى:(وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها) حيث يتساءل لم جيء بصيغة المذكر في قوله تعالى:(وقال نسوة) ولم يقل وقالت

فيجيب بأن الجمع الذي ليس له مفرد من نوعه وهو هنا نسوة يعامل معاملة المذكر والمؤنث. والتذكير يدلّ على القلة (قال نسوة) لأن النسوة كانوا قلّة والتأنيث يدل على الكثرة (قالت الأعراب آمنا) وهكذا في القرآن كله كما في قوله تعالى (جاءتهم رسلهم) المجتمعات أكثر من (جاءكم رسل منكم).

وتحدث عن دخول لا على الفعل لا أقسم، وما اللمسة البيانية في استخدام (لا أقسم) في القسم في القرآن الكريم؟ (لا أقسم بيوم القيامة) ، (لا أقسم بهذا البلد)؟

فيجيب بأنه لم يرد في القرآن كله كلمة (أقسم) أبداً وإنما استخدم لفظ (لا أقسم) بمعنى أقسم و(لا) لتأكيد القسم. فقد يكون الشيء من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج لقسم وفي هذا تعظيم للشيء نفسه. وقد تعني (لا أقسم) أحياناً أكثر من القسم (زيادة في القسم). وكثيرا ما يثير تساؤلات حول الآيات المتشابهات ويجمع بينها فيزيل الإشكال فمثلاً يتساءل ما الفرق بين كلمتي (دارهم) و(ديارهم) في قوله سبحانه: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٦٧ وقوله سبحانه: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٩٤ ؟

فيجيب أن الصيحة هي أشمل وأهم من الرجفة لذا فإنها تصيب عدداً أكبر وتبلغ أكثر من الرجفة والمعلوم أن الصوت يمتد أكثر من الرجفة ولهذا فهي تؤثر في ديار عديدة لذا جاء استخدام كلمة (ديارهم) مع الصيحة كما في قوله تعالى : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٦٧ وقوله سبحانه : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود ٩٤ ، أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط لذا جاء استخدام كلمة (دارهم) مع الرجفة كما في قوله في سورة الأعراف(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) آية ٧٨ و٩١ (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وكذلك في قوله تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) سورة العنكبوت آية ٣٧.

ولم ترد في القرآن كلمة (ديارهم) إلا مع العذاب بالصيحة ولم ترد كلمة (دارهم) إلا مع العذاب بالرجفة.

الأصول التي يعتمد عليها في التفسير البياني:

يعتمد في التفسير البياني على الأصول التالية وهي أمور لابد من توفرها في المفسر

١-أن يكون عالما في علم اللغة.

٢- أن يكون عالما في علم التصريف.

٣- أن يكون عالما في علم النحو.

٤-أن يكون عالما في علوم البلاغة.

أولًا: علوم اللغة العربية فهي ضرورية جدًا فلا بد من التوسع فيها. فلا تغني المعرفة اليسيرة بل ينبغي للمفسر لكتاب الله تفسيرا بيانيا أن يكون على اطلاع واسع في علوم اللغة. جاء في كتاب البرهان للزركشي: "وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين

وجاء في كتاب الإتقان للسيوطي أن المفسر يحتاج إلى التبحر في لسان العرب.

فالمعرفة الواسعة والتبحر في علوم اللغة من ألزم الأمور للمفسر، وهي للمفسر البياني ألزم.

ثانيا: علم التصريف ويراد به معرفة تأليف الكلمة المفردة بتبيان وزنها وعدد حروفها و حركاتها وترتيبها، وما يعرض لذلك من تغيير وحذف، وما في حروفها وحركاتها وترتيبهما.

مثال ذلك: قال الله تعالى:(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) من اللَّبس، والمعنى للبسنا أي خلطنا عليهم وشبهنا عليهم حتى يصبح الأمر في لبس، وليس من اللُّبس الذي هو لبس الثوب.

ثالثا: علوم النحو، وهو أمر أوضح من أن تبين أهميته في هذا الشأن فإن تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيرت الحركات كما في قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع الله ونصب العلماء لفسد المعنى وأصبح كفرا.

وإذا كان لا يعلم الفرق في المعنى بين الحروف والأدوات فقد يؤدي ذلك في أحيان كثيرة إلى الإحالة في المعنى وربما إلى الكفر. وأظن أنه لا يخفى عليك قولُ ابن عباس وغيره في قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" أنهم لو قالوا (نعم) لكفروا لأن المعنى نعم لست بربنا

وأنه لو قال بدل قوله تعالى: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فقال (في

صلاتهم ساهون) لم ينج أحد من الويل...

ولا تكفي المعرفة اليسيرة في هذا الأمر كما قرره علماء التفسير بل على المتصدي لهذا الأمر أن يكون عالما بدقائق اللغة وما تؤديه التقديرات المختلفة إلى اختلاف في المعاني.

الفرق بين علم النحو وعلم الصرف:

علم النحو الذي يبحث في الكلمات العربية من ناحيتي البناء والإعراب وحركات الحرف الأخير من الكلمة ككتاب شرح قطر الندى لابن هشام الأنصاري.

وعلم الصرف يبحث في أوزان الأفعال واشتقاقاتها ككتاب شذا العرف في فن الصرف.

ثالثا: علوم البلاغة: فإنها من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة والأغراض التي يخرج إليها الكلام والفصل والوصل وأغراض التقديم والتأخير والحذف والزيادة وما إلى ذلك من أمور تتعلق بعلم البلاغة. فلا يجوز لمن ليس له علم واسع بكل ذلك أن يتكلم في التفسير وهو يجهل علم البلاغة.

الفصل والوصل، ومعنى الفصل: قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي، والوصل: ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي.

ومن أمثلة الفصل: قوله تعالى: (إنما نحن مستهزؤون. الله يستهزئ بهم...) يقول الزمخشري: فإن قلت: كيف ابتدئ قوله: (الله يستهزئ بهم) ولم يعطف على الكلام قبله؟ قلت: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل.

وفي التقديم والتأخير ما جاء في وصف المنافقين من سورة البقرة: ﴿صمٌّ بكْم عمي فَهم لاَ يَرْجعونَ﴾ [البقرة: ١٨] وتقديم الصم، هنا جاء في غاية الإحكام، لأن بداية ضلال أولئك الأَقوام حينما عطلوا سمعهم عن آيات الله التي تتلى عليهم.

في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل ﴿ونَحْشرهم يوم الْقيامة علَى وُجُوههِمْ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً﴾ [الإسراء: ٩٧] لقد تغيرت الصورة هنا. لذلك تغير مَعهاَ

نسق القول، فقدم العمى على السمع لأن العمى من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة في ذلك اليوم.

هذا ما تيسر ذكره مما يتعلق في التفسير البياني وما سيذكر في الدراسة التطبيقية في سور القرآن المحددة تتجلى الصورة البيانية أكثر، والله الموفق وبه نستعين.

كتابة القرآن وجمعه

من أفضل ما كتب في هذا الموضوع: كتاب تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته المؤلف : د.محمد بن سالم العوفي .

تاريخ الكتابة :

من المعلوم أن الأمة العربية كانت موسومة بالأمية لا تدري ما الكتابة ولا الخط، وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فقال جل وعلا : **(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ...)** ولم يذكر عن العرب من كان بعرف الكتابة والخط إلا القليل النادر وذلك قبيل الإسلام ولعله كان تمهيداً لمبعث النبي ﷺ ولرسالته التي حثت على الكتابة ودعت إليها فكان النزر اليسير ممن تعلموا الكتابة.

وقد اختلف المؤرخون في كيفية دخول الكتابة في هذا العدد القليل من قريش لأن قريشاً أمة أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، فمنهم من قال: إنها دخلت عليهم من طريق أمية بن حرب بن عبد شمس ، وهذا الرجل تعلمها من عبد الله بن جدعان الذي أخذها من أهل الأنبار في شمال الجزيرة العربية , من أهل العراق فكانوا يعرفون الكتابة فتعلمها العرب منهم ، وقال بعضهم إنها أخذت من قبائل في اليمن.

هذا بالنسبة لقريش في مكة.

أما أهل المدينة فكان فيهم أهل الكتاب من اليهود وكان فيهم من يعلم الصبيان الكتابة .

ثم لما ظهر نور الإسلام في مكة وجاء محارباً للجهل وحاثاً على العلم ورافعاً من شأن الكتابة كان أول آيات القرآن نزولا تحث على ذلك كما في قوله ﷻ : **(اقرأ باسم ربك الذي خلق ...)** ، وفي سورة القلم وهي ثاني السور نزولا يقسم الله بالقلم الذي هو أداة العلم والتعلم.

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على التعلم والكتابة حتى وجد ما يعرف بكُتَّاب الوحي .

أما النبي فلا شك أنه كان أمياً والقرآن وصفه بأنه أمي كما في سورة الأعراف **(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ...)** وفي العنكبوت **(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك..)** وكما قال ﷺ **: " نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)** .

جمع القرآن الكريم

الجمع يطلق ويراد به الحفظ ، ويطلق ويراد به الكتابة .

جمع القرآن : أي حفظه وجمعه في الصدور ، وكتابته في السطور.

المعنى الأول : جمع القرآن بمعنى حفظه وجماع القرآن : حفاظه ، ودليله قوله ﷻ : **(إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)** أي حفظه في صدرك ، وحديث المعالجة وهو حديث ابن عباس كما في صحيح البخاري معالجة الرسول للوحي وما يجده من معاناة في تلقيه للوحي جاء في كيفية تلقيه ﷺ للوحي وأنه كان يحرك شفتيه ولسانه بالقراءة يريد أن يحفظ القرآن بسرعة فيحرك لسانه وشفتيه بالقراءة قبل أن يفرغ جبريل ، فإذا ألقى جبريل الآية رددها ﷺ حرصاً منه ﷺ على حفظه . روى البخاري من رواية ابن عباس ﷺ قال : **" كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) قال : يقول : إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرأه : (فإذا قرأناه) يقول : إذا أنزلناه عليك : (فاتبع قرآنه) فاستمع له وأنصت (ثم إن علينا بيانه) أي نبينه بلسانك . وفي لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق ، وفي لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله)** .

وهذه القصة تبين أن سورة القيامة من أوائل ما نزل من القرآن ، كما يتبين حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن فكان ﷺ أول الحفاظ وسيدهم وكان يتلوه ﷺ على الناس ويحيي به الليل وكان جبريل عليه السلام يعارضه بالقران كل عام في شهر رمضان ، وفي العام الذي قبض فيه عارضه مرتين ، أما الصحابة ﷺ فكانوا يتسابقون إلى حفظه وتلاوته في جميع أوقاتهم ليلا ونهارا ،فكان الذي يمر ببيوتهم يسمع لها دويا كدوي النحل ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ : **(إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار)** فكان يسمع أصواتهم بالليل ويعرف أن هؤلاء هم الأشعريون ، وكان ﷺ يشجع على ذلك، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمه ويُقرؤه القرآن كما بعث مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم إلى المدينة قبل الهجرة . وقال عبادة بن الصامت كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منّا يعلمه القرآن ، وكان يُسمع في مسجد الرسول ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم النبي ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا .

*** بعض فوائد هذا الحديث :**

١/أن القرآن يؤخذ بالتعلم والإقراء فلا يتعلم الشخص من نفسه ولا يقرئ نفسه لقوله : (**دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن**).

٢/يبين كيف كان مسجد النبي ﷺ في زمنه يضج بهذه القراءة ، مما يدل على حرص الصحابة واهتمامهم بالقرآن .

٣/أمره ﷺ بخفض الصوت حتى لا يشوشوا على غيرهم ، ففيه أن رفع الصوت في القراءة عند أناس يقرؤون منهي عنه .

*** مسألة :**

– هل الحفظة من الصحابة محصورون بعدد معين أم أنهم كثير لا يحصون ؟

أورد البخاري في صحيحه سبعة من الحفاظ بثلاث روايات وهؤلاء هم (**عبدالله بن مسعود ،وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل ، أبي بن كعب ، زيد بن ثابث ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد بن السكن**) ، فهؤلاء فقط سبعة ، والبخاري عدهم بناء على الروايات الثابتة وهي ثلاث روايات :

الرواية الاولى : عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **(خذوا القرآن من أربعة : عبدالله بن مسعود وسالم بن معقل ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب)**

الرواية الثانية : **عن قتادة قال سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ؟ فقال : أربعة أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد)**

الرواية الثالثة : **عن أنس قال : مات النبي ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو زيد)**...فهؤلاء السبعة من الحفاظ جاء ذكرهم في الروايات الثلاث السابقة .

سؤال / هل يعني أنهم هم الحفظة فقط؟ كيف نوجه هذه الروايات ؟

جـ/ عرف من الصحابة وكثرتهم وحرصهم على حفظ القرآن وتلاوته وتنافسهم في ذلك وتعليمهم لنسائهم وأولادهم علم أن الحفظة كثيرون وأنهم غير محصورين بعدد **ومن الأدلة على ذلك** :

الأول : ماجاء عن أبي موسى الأشعري أن الرسول ﷺ **قال له : لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود ،فقلت : لو علمت والله يارسول الله أنك تستمع لقراءتي لحبرتك تحبيراً)** يدل على تحسين الصوت بالقراءة ،كما يدل على أن أبا موسى من الحفظة ولم يذكر فيهم ، لأنه كان حريصاً على تلاوته وحفظه وقراءته.

الثاني : **عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جمعت القرآن فقرأته به في كل ليلة فبلغ النبي ﷺ فقال : اقرأه في شهر فقلت : إني أطيق أكثر من ذلك، فلم أزل أطلب حتى قال ﷺ اقرأه في خمسة أيام)**

يدل على أن عبد الله كان من الحفظة ولم يذكر منهم حيث قال : جمعت أي: حفظت .

الثالث /حديث رفقة الأشعريين كما تقدم سابقاً وهذا يدل على أن الحفظة من الأشعريين كثيرون فكيف بغيرهم ؟! فهذا يدل على أن الحفظة من الصحابة كثير .

الرابع /حديث عبادة المتقدم ، أن الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى من يعلمه القرآن " دل على حرصهم على تعلم القرآن وتعليم الرسول لهم " .

الخامس / ماجاء في مناقب الصحابة وُجد أن القراء كثيرون منهم : الخلفاء الأربعة ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو هريرة ، وطلحة بن عبيد الله ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عمر ، و ابن عباس ، وابن الزبير ، وغيرهم كثير ممن جاء في سيرهم أنهم يحفظون القرآن كاملا ، وكذلك من النساء : عائشة ، وحفصة ، و أم سلمة ، وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث "الشهيدة "{كان النبيﷺ يزورها ويسميها الشهيدة

وأمرها أن تؤم أهل دارها ، جاء في سيرتها أنها استأذنت النبي ﷺ لتخرج معه في إحدى غزواته تساعدهم وتداوي الجرحى فأمرها بأن تبقى وقال لها :أنت الشهيدة لأنها كانت تتمنى الشهادة وقد نالتها حيث سمّها غلام لها }.

كذلك القرّاء السبعون الذين قتلوا في بئر معونة وسموا (قرّاء) لأنهم كانوا يقرؤون القرآن ويتقنونه ، {قصة القراء السبعين الذين قتلوا في بئر معونة وقد أنزل الله فيهم قرآنا ودعا النبي ﷺ على قاتليهم كما خرج لقتالهم، وهذا يدل على أن هناك من القراء سبعين غير السبعة الذين أوردهم البخاري .

ما أورده البخاري وجهه العلماء بتوجيهات..{قوله: لم يجمع القرآن إلا هؤلاء }:

التوجيه الأول : لم يجمعه بهذه الصورة تلقيا من الرسول ﷺ دون واسطة سوى هؤلاء السبعة ولذا جاء عن ابن مسعود"**تلقيت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة** " أكثر من نصف القرآن.

التوجيه الثاني : لم يجمعه : أي لم يكتبه فالجمع هنا بمعنى الكتابة ، وهؤلاء السبعة هم كتاب الوحي .

وقال بعضهم في توجيه هذا الرأي : لم يجمعه سوى هؤلاء الكتاب .

التوجيه الثالث : أي هؤلاء جمعوا القرآن بجميع حروفه وقراءاته.

* **والأرجح أن نقول** : أن هؤلاء السبعة تميزوا بمزايا جعلتهم يُخصون بذلك ، **وهذه المزايا هي** :

١- أنهم جمعوا القرآن كله في صدورهم وعرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم وغيرهم كثير لكن لم تتوافر فيهم هذه المزايا والله أعلم .

واشتهر بإقراء القرآن ـ شهرة عالية ـ والجلوس للتعليم من الصحابة في زمن النبي ﷺ وبعده سبعة هم : **عثمان ،وعلي ،وأبي بن كعب ،وزيد بن ثابت ،وابن مسعود ،وأبو الدرداء ،وأبو موسى الأشعري،** وهؤلاء نذروا أنفسهم وفرغوها لتعليم القرآن ، وقد أخذ من هؤلاء كثير من الصحابة ومن صغار الصحابة ومن التابعين ، وتبين أن جمعه : أي حفظه في صدور الرجال .

وأن النبي ﷺ جلس لتعليم القرآن وتلقاه الصحابة عنه وكان الحفاظ كثيرين جداً .

***المعنى الثاني : جمع القرآن بمعنى كتابته :**

كان الرسول ﷺ يأمر بكتابة القرآن واتخذ من الصحابة كُتّابا للوحي ، وذلك أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد بُعث في أمة أمية ، وكانت صدورهم أوعية ودواوين للقرآن الكريم فحفظوه واستظهروه ، إلا أن القرآن حظي بميزة أخرى زيادة على ما سبق وهي العناية بكتابته زيادة على حفظه ،

وقد اتخذ النبي ﷺ كتّابا للوحي يأمرهم بكتابة القرآن مبالغة في تثبيته وتقييده ، فتظاهرت الكتابة في السطر والحفظ في الصدر جميعا .

**كتّاب الوحي :

اشتهر عدد كبير من الصحابة بكتابة الوحي ،وقد أوصلهم بعض العلماء إلى أربعين صحابيا ..منهم : الخلفاء الأربعة ، ومعاوية ،وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد ، وكانت الكتابة في مكة إلا أنها قليلة لقلة الكتّاب ثم توسعت بعد الهجرة ..{قصة إسلام عمر أنه وجد الصحيفة مع أخته } دل على أنهم كانوا يكتبون لكن ذلك كان قليلا، ودعا النبي ﷺ بعض من يكتب فيأمره بكتابة الآية ويرشده إلى موضعها، **(فعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه السورة دعا بعض من يكتب فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا)** انتهى

وأحيانا يقول : ضعوا هذه السورة ، وأحيانا يقول : ضعوا هذه الآية ، وأحيانا يقول : ضعوا هذه الآيات في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا .

وسائل الكتابة

لم تكن أدوات الكتابة متيسرة في ذلك الوقت فكانوا يكتبون حسب ما تيسر لهم ومن ذلك مثلاً الرقاع والعسب والأكتاف واللخاف والحجارة .

- **الرقاع** : جمع رقعة وتكون من جلد أو قماش أو ورق ، يكتبون عليها .
- **العسب** : جمع عسيب وهو طرف الجريد العريض عندما يكشط الخوص عنه .
- **الأكتاف** : جمع كتف وهو العظم العريض ويسمى اللوح .
- **اللخاف** : جمع لخفة وهي نوع من الحجارة الرقيقة كانوا يكتبون عليها .

وغيرها من وسائل الكتابة المتوفرة في ذلك الوقت وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها صحابة رسول الله ﷺ في كتابة القرآن مقارنة بما توفر في هذا العصر من أنواع الورق والأقلام . ومع ذلك كانت همتهم قوية .

وكتابة القرآن الكريم في السطور كانت تؤيد حفظه في الصدور وكثير من الصحابة كان يعتمد على حفظه ويعرض ما حفظه على النبي ﷺ ، وبعضهم يدارس بعضاً وكان النبي ﷺ معتمداً على حفظه وكان يعارضه جبريل عليه السلام بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان ، فيدارسه القرآن وفي العام الذي قبض فيه عارضه القرآن مرتين ، وكان الصحابة يكتبون القرآن ولهم مصاحف خاصة إلا أن هذه المصاحف لم تكن دقيقة لاشتمالها على بعض الآيات المنسوخة وبعض التفسيرات : **كمصحف أبي بن كعب وابن مسعود وعلي بن أبي طالب** وغيرهم .

١- **فأبي بن كعب** ﷺ اشتهر أن له مصحفا خاصا يبدأ (**بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران**) .

٢- **وعبد الله ابن مسعود** ﷺ كان مصحفه يبدأ (**بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران**) .

٣- **وعلي بن أبي طالب** ﷺ كان له مصحف خاص مرتب حسب النزول فكان قد بدأ بسورة (**اقرأ ثم القلم ثم المزمل ثم المدثر إلى آخر سور القرآن نزولا**) بالمكي ثم المدني إلى آخر القرآن ، فكانت لهم مصاحف خاصة يكتبون القرآن .

والقرآن في عهد النبي ﷺ كتب كاملاً ولكنه في صحف مفرق الآيات والسور وأحياناً مرتب الآيات مفرق السور ، ولم يجمع كاملاً في مصحف واحد كما ذكر ذلك زيد بن ثابت حتى قبض رسول الله ﷺ .

الأسباب التي دعت إلى عدم كتابة القرآن في مصحف واحد في العهد النبوي :

١- أن النبي ﷺ كان يترقب ورود ناسخ لبعض آياته .

٢- لأن نزول الآيات كان لا يزال مستمراً وهذا يؤدي إلى المحو والإزالة في كل وقت وخاصة أنه نزل في فترة طويلة في (٢٣) سنة فيضطر للمحو والتغيير . (حتى ذكر أن سورة الأحزاب كانت بمقدار سورة البقرة) ولا زال النسخ فيها حتى وصلت إلى ما هي عليه .

فلما انقضى الوحي بوفاة النبي ﷺ وأُمن النسخ وعُلمت الآيات والسور ألهم الله جل وعلا الخلفاء الراشدين إلى كتابته في مصحف واحد وإن كان هناك مصاحف موجودة بين أيديهم لكنهم أرادوا أن يكون عندهم مصحف تميز بالتحري والدقة والشمولية والضبط أكثر ، فالجمع الأول في عهد النبي ﷺ **كان على نوعين هما:**

١- جمعه في الصدور (الحفظ) . ٢- جمعه في السطور (الكتابة) .

* **الجمع الثاني** : في عهد أبي بكر الصديق ﷺ :

لا شك أن القرآن قد كتب كله على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه كان مفرق الآيات والسور أو أنه مرتب الآيات ومفرق السور وأول من جمعه في مصحف مرتب الآيات ومرتب السور كما نزل هو أبو بكر الصديق ﷺ .

أسباب جمع أبي بكر الصديق ﷺ للقرآن :

ما حصل في موقعة اليمامة سنة (١٢ هـ) التي وقعت بين المسلمين وأهل الردة أتباع مسيلمة الكذاب وقد استشهد فيها ما يقرب من سبعين من حفظة القرآن الكريم من الصحابة فهال ذلك عمر بن الخطاب وجاء يعرض هذا الرأي على أبي بكر الصديق ، ويروي لنا هذه القصة كما في البخاري زيدُ بن ثابت قال : (**أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بـ كر ر ضي الـ له**

عنه إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإ ني أخ شى أن يـ ستحر القـ تل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم" حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عمر حياته ثم حفصة بنت عمر رضي الله عنه) أ.هـ .

*** سؤال / لماذا اختار أبو بكر الصديق زيد بن ثابت ؟**

– لا شك أن اختيار أبي بكر زيداً **لأسباب منها** :

١–أنه من الحفظة الذين كانوا يحفظون القرآن كاملاً .

٢– أنه من الكتبة كما قال أبو بكر : **(وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ)** فهو من الكتاب .

٣– وهو أقواها أن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة لما عرض جبريل عليه السلام على النبي ﷺ العرضة الأخيرة كان ممن شهدها زيد بن ثابت أي تلقاها من النبي ﷺ .

*** سؤال / جاء في الحديث: (وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره) فهل يعني ذلك أنها لم تعرف إلا مع هذا الصحابي وأن الصحابة لم يعرفوها ؟**

– الجواب: أن زيداً لم يجدها مكتوبة إلا مع هذا الصحابي لا أنها لم تعرف، لأن كثيراً من الصحابة كانوا يحفظونها ومنهم زيد لكن ورعاً منه واحتياطاً كان يشفع حفظه وحفظ الصحابة بالكتابة ، وبهذا يزول الإشكال وإن كانت محفوظة عند كثير من الصحابة ولكن زيد كان يحتاط أن يشفع الحفظ الموجود عنده بالكتابة عند الصحابة ، وهذا يبين دقة منهج زيد في كتابة المصحف .

المنهج الذي سار عليه زيد بن ثابت ﷺ في جمعه القرآن الكريم :

طفق زيد ﷺ يجمعه من العسب واللخاف والحجارة والرقاع إضافة إلى ذلك جمعه من صدور الرجال فكان ينهج فيه ما كان مكتوباً وما كان محفوظاً ولا يقبل آية أو آيات من القرآن الكريم إلا أن تكون محفوظة ومكتوبة بل إضافة إلى ذلك أنه يستشهد على ذلك بشاهدي عدل لذلك ، ثبت أن أبا بكر قال لعمر و لزيد : " **اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه** " فهذا دليل أنه كان لا يكتفي بالحفظ والكتابة بل يضيف الاستشهاد على هذه الآيات وثبوتها

ولذلك روي عن عمر أنه قال : " **من كان تلقى عن رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأت به** " وكانوا يكتبون ذلك في الصحف وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان على أن ذلك المكتوب كتب من بين يدي رسول الله ﷺ .

- **المدة التي مكثها زيد ﷺ في كتابة القرآن** :

وقد تم جمع المصحف في عهد أبي بكر الصديق ﷺ كاملاً خلال سنة واحدة تقريباً وذلك لأنه أمر زيداً بجمعه بعد وقعة اليمامة واستمر يجمعه حتى انتهى بوفاة أبي بكر الصديق ﷺ .

- **مآل هذه الصحف** :

جاء في صحيح البخاري ما يبين هذا حيث جاء فيما تقدم قال : " **فكانت الصحف عند أبي بكر ﷺ حتى توفاه الله ثم صارت إلى عمر ﷺ وظلت عنده حتى توفاه الله ثم صارت إلى حفصة بنت عمر ﷺ ثم طلبها عثمان ﷺ عندما أراد أن يجمع القرآن مرة أخرى فنسخها ثم أعادها إلى حفصة** " .

*** ما الأسباب التي دعت عمر بن الخطاب ﷺ أن يجعل الصحف عند ابنته حفصة ؟**

عمر بن الخطاب لم يوص بالخلافة لعثمان كما أوصى أبو بكر لعمر بها بل جعل الأمر شورى بين الستة من العشرة ، خرج من العشرة اثنان هما أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة قتل في زمن عمر ، وسعيد بن زيد كان بينه وبين عمر قرابة فنحاه حتى لا يتهم أنه أراد تقريب أحد أقاربه فسقط أربعة وبقي ستة هم : **عثمان وعلي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف** فجعل الشورى بينهم إلى أن انتهت الخلافة إلى عثمان فكان مشغولاً بالخلافة . وكذلك أنه طعن والصحف عند حفصة فبقيت عندها.

- **تسمية القرآن بالمصحف** :

تسمية القرآن الكريم بالمصحف نشأت في عهد أبي بكر ، عن ابن شهاب رحمه الله قال : " **لما جمع الصحابة القرآن وكتبوه على الورق قال أبو بكر : التمسوا لنا اسما فقال بعضهم : السفر (والسفر الكتاب العظيم جمع أسفار) فقال : ذلك اسم تسميه اليهود فكرهوا ذلك ، وقال بعضهم : هو المصحف فإن الحبشة يسمون مثله المصحف** " فاجتمع رأيهم على أن يسموه بالمصحف.

مزايا جمع أبي بكر الصديق ﷺ للقرآن

- تميز بمزايا عديدة **من أشهرها :**

١- أن هذا المصحف كان مرتب الآيات والسور على ما هو الآن ، مبدوء بالفاتحة مختوم بالناس .

٢- أن كتابته كانت في غاية من التثبت والدقة والتحري وهذا يبين المنهج الذي سلكه زيد فتميز بأن كتابته وجمعه في غاية من التثبت والدقة والتحري .

٣- اشتمال هذا الجمع على الأحرف السبعة.

٤- اقتصار هذا الجمع على ما لم تنسخ تلاوته ، فكانت مصاحف الصحابة لا تتميز بذلك فكان فيها آيات قد نسخت أما هذا المصحف فإنه أجمع الصحابة على اقتصاره على ما لم تنسخ تلاوته.

٥- تجريده من الزيادات أو التفسير والبيان لبعض آياته فمصاحف الصحابة كانت في كثير منها تفسير لآيات إما أنهم علموا أنها قراءة أو أنهم أرادوا كتابة تفسيرها .

٦- كتابة هذا المصحف في عهد قريب من مشكاة النبوة في السنة الثانية عشرة للهجرة والنبي ﷺ توفي في السنة الحادية عشرة للهجرة .

إذا علم هذا فليعلم أن هذا القرآن بقي عند أبي بكر ثم عمر ثم حفصة فلما تولى عثمان الخلافة في السنة (٢٣هـ) وبعد مضي سنة من خلافته عزم على جمع القرآن أو استنساخه مما كان قد جمع في عهد أبي بكر ومنهم من يسميه الجمع الثالث والصواب أن يقال أنه استنساخ وليس جمعا فقد قام بنسخ ما كان في الصحف عند حفصة ونشرها في بلاد المسلمين .

إن أبا بكر أراد بجمعه المصحف حتى لا يضيع القرآن وكان الصحابة عندهم مصاحف وكل صحابي عنده مصحف وله تلاميذ كما ذكرنا بدأت تختلف المناهج فالقراء والحفظة يختلفون فبدأ الخلاف يدب بين صفوف المسلمين وخاصة من التابعين وصغار الصحابة فأراد عثمان ﷺ القضاء على هذا الخلاف جمع الناس على مصحف واحد هو مصحف عثمان أو أبو بكر ﷺ ثم بعد جمعه يلغي ما سواه من المصاحف التي كان يتداولها الصحابة فيما بينهم .

* **الجمع الثالث : أو المرحلة الثالثة** : جمعه في عهد الخليفة عثمان أو استنساخه في عهده هذا الجمع يرويه لنا البخاري في صحيحه ، حيث روى بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه **أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف و قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق).**

هذا النص الذي رواه البخاري في هذه القصة يتبين فيه **أمور كبيرة هي على جانب عظيم من الأهمية** :

١- أن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن كان الباعث الأساس مع أمر عثمان ﷺ باستنساخ صحف حفصة وجمعه في مصاحف .

٢- أن اللجنة التي كلفت بهذا العمل كانت رباعية هم : **زيد بن ثابت** وكان مدنياً من الأنصار وثلاثة من قريش وهؤلاء كانوا من ثقات الصحابة وأفاضلهم وأجلائهم .

٣- أن اللجنة الرباعية باتخاذها من صحف حفصة أساساً لنسخ المصاحف إنما استندت في عملها إلى ما قام به أبو بكر في جمعه الأول .

٤- أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش فهي اللغة المفضلة لكتابة النص القرآني عند حدوث الخلاف بين القرشيين الثلاثة وزيد ﷺ .

٥- أن عثمان ﷺ أرسل إلى الآفاق الإسلامية بنُسخ من المصحف الذي نسخه عنده هؤلاء الأربعة ورأى حسماً للنزاع أن يحرق ما عدا ذلك من المصاحف الخاصة بالصحابة وأمر أن تحرق حتى يتفقوا على مصحف واحد ويجتمعوا عليه .

***سؤال/ هل كان حذيفة هو الذي فزع من هذا الاختلاف أو أن غيره كذلك ؟**

- لم يكن حذيفة وحده فزعاً من اختلاف المسلمين في القراءة فقد كثر الخلاف وساور القلق أنفس الصحابة الكرام وبلغ ذلك عثمان ففزع أيضاً من الأمر فأراد أن يتدارك الأمة قبل أن يستفحل الأمر فيهم ، ومما ساعد على هذا الاختلاف وجود المصاحف المتعددة في أيدي الكثير من الصحابة كمصحف أبي وعبد الله بن مسعود والمقداد وأبو موسى الأشعري ، فهذه المصاحف المختلفة هي التي أثارت هذا الخلاف بين الصحابة والتابعين ومن دخل في الإسلام بعد ذلك

سؤال / لم أمر عثمان ﷺ بإحراق المصاحف بعد هذا الجمع الأخير؟

١- لأن هذه المصاحف لم تكن دقيقة ومفحوصة هذا الفحص الدقيق .

٢- لأن بقاءها سيكون سبباً في الشقاق والنزاع والتذكير بما سبق من الخلاف الذي وقع بين الناس .

موقف الناس من فعل الخليفة عثمان ﷺ :

لما قام الخليفة عثمان ﷺ بهذا العمل الجليل وقع ذلك في قلوب الناس موقع القبول والاستحسان وكان هذا الرأي الذي رآه عثمان ﷺ رأيا للأمة كلها لأن فيه وحدة للكلمة والقضاء على كل سبب يورث النزاع .

عمل اللجنة الرباعية :

شرعت هذه اللجنة المكونة من أربعة من أجلاء الصحابة في تنفيذ ما أمر به عثمان ﷺ سنة (٢٥هـ) . وأمرهم بأن ينسخوا الصحف التي عند حفصة ﷺ ، وقد كان هؤلاء الصحابة الذين قاموا بهذه اللجنة من الحفظة لكتاب الله، وبعضهم كان عنده مصحف خاصٌ به إلا أنهم نسخوا هذه الصحف التي كانت

عند حفصة لكون مصاحف المؤمنين مستندة إلى أصل المصحف الذي عند أبي بكر ﷺ ، ولما تميز هذا المصحف بتلك المزايا المتقدمة ، وهذا هو السبب في الرجوع إلى صحف حفصة .

مصير الصحف بعد إعادتها إلى حفصة ﷺ

ظلت هذه الصحف عندها إلى أن توفيت سنة (٤٥هـ) . وقيل إن الخليفة الأموي مروان بن الحكم حاول سنة (٦٥هـ) أن يقوم بإحراقها أو أنه أحرقها وقال : " **إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتب وحُفظ بمصحف الإمام فخشيت إن طال بالناس زمان أن يَرتاب في شأن هذه الصحف مُرتاب** " .

*** عدد المصاحف التي نسخت في عهد الخليفة عثمان ﷺ وقامت به اللجنة الرباعية :**

قامت اللجنة المكلفة بهذا العمل بنسخ عدد من المصاحف ، ولكن العلماء اختلفوا في عددها لأن عثمان ﷺ أمر بنسخها ثم إرسال كل مصحف إلى الآفاق .

*** يقول أبو عمرو الداني في كتابه { المقنع } في رسم المصاحف :**

أكثر العلماء على أن عثمان ﷺ لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ وبعثها إلى كل ناحية : (**الكوفة والبصرة والشام وترك واحداً عنده**).

*** أما السيوطي في { الإتقان }** : فإنه يرى أن المشهور أنها خمس : (**الكوفة والبصرة والشام ومصر وواحد بالمدينة**).

وبعضهم أوصلها إلى ست فأضاف إلى ما تقدم (**اليمن**) . وبعضهم أوصلها إلى سبع فأضاف (**البحرين**) والمراد بالبحرين جهة الشرق من الجزيرة الأحساء والقطيف وما حولها .

مزايا المصاحف العثمانية :

اشتملت المصاحف العثمانية على سور القرآن الكريم (١١٤) سورة ، وقد كانت كتابتها خالية من النَّقْط والشَّكْل ، فلم يحدث التنقيط والتشكيل إلا بعد عهد عثمان بن عفان ﷺ .

*** سؤال / كيف يتم التفريق بين الحروف المتشابهة وقد كانت خالية من النقط والشكل ؟**

كان الرسم يختلف فمثلاً الزاي مجوفة أكثر من الراء ، النبرة في الثاء أوسع منها في الباء والتاء ، القاف مجوفة أكثر من الفاء وهكذا في سائر الحروف المتشابهة .

وكان المصاحف بالإضافة إلى ذلك خالية من أسماء السور والترقيم اقتداء بمصحف أبي بكر ، فقد كانت على هذا النمط . كما أن هذه المصاحف من مزاياها أنها جردت مما ليس بقرآن من الشروح والتفاسير ؛ فإن منهم من كان يكتب ما سمع من تفسير من الرسول ﷺ في مصحفه **فمثلاً :**

- كتب ابن مسعود في مصحفه : " **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج** .. " .
- وكذلك عائشة ﷺ في مصحفها : " **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر** .. " .

وقد حمل العلماء هذه الزيادة على أنها تفسير .

تميزت هذه المصاحف العثمانية التي أمر الخليفة عثمان بكتابتها بهذا الرسم المختص بخلوها من النَّقْط والشَّكْل لأجل أن تحتمل أكثر القراءات **نحو :**

- (**فتبينوا**) : تقرأ (**فتثبتوا**) .
- ومنها ما يتعلق بالشكل مثل قوله : (**إنه عَمَلٌ غيرُ صالحٍ**) : تقرأ (**إنه عَمِلَ غيرَ صالحٍ**) .

فكان معيناً على احتمال مثل هذه القراءات .

*** لما تم نسخ المصاحف على العدد المتقدم قام عثمان ﷺ بإرسال قارئ مع كل مصحف والسبب في ذلك :**

- ليزيد من إقبال الناس على تلقي القرآن من صدور الرجال وليكون الاعتماد على الحفظ و النسخ والكتابة مؤيدة لذلك ، ولأن القرآن لا يؤخذ إلا بالتلقي والمشافهة .

الحُفَّاظ الذين بعثهم الخليفة عثمان ﷺ :

١- بعث عبد الله بن السائب إلى مكة مقرءا لأهلها .

٢- بعث المغيرة بن شهاب لأهل الشام .

٣- بعث أبا عبد الرحمن السلمي لأهل الكوفة .

٤- بعث عامر بن عبد القيس لأهل البصرة .

٥- أبقى زيد بن ثابت عنده مقرءا لأهل المدينة .

هذا أقرب ما ذكر للاختلاف المذكور في عدد المصاحف ، وعليه أكثر العلماء .

*** العمل الذي قام به الخليفة عثمان ﷺ كان بإجماع الصحابة :**

وذلك أنه لما أحرق المصاحف الفردية التي كانت سبباً في شيوع الخلاف بين الناس لم يكن ذلك إلا بعد مشورة وتأييد من الصحابة ﷺ فكان قد جمع كثيراً من الصحابة واستشارهم في ذلك فأيدوا هذا الفعل فكان منهم إجماعاً .

*** مصير الصحف التي بعث بها الخليفة عثمان ﷺ إلى الأمصار :**

بقيت عند الصحابة ثم التابعين ثم لايعرف مصيرها ، وقد ذُكر أن الرحالة المشهور (**ابن بطوطة ت ٧٧٩هـ**) رأى بنفسه بعض تلك المصاحف فقد ذكر أنه رآها في غرناطة ومراكش والبصرة وبعض البلدان الأخرى .

وقد ذكر (**ابن كثير ت: ٧٧٤هـ**) أنه رأى مصحفاً في جامع دمشق يقول : " **رأيت كتاباً عزيزاً جليلاً بخط حسن مبين بحبر محكم في رقٍّ أظنه من جلود الإبل** " والله أعلم بذلك .

ولا يكاد يوجد منها مصحف اليوم وإنما تناسخت إلى أن وصلنا ما هو منسوخ ، أما ما كتب فلم يوجد ، وقيل إن هذا المصحف الذي رآه ابن كثير نقل إلى بريطانيا وظل هناك في دار الكتب فترة ، وقيل إنه احترق في جامع دمشق عام ١٣١٠هـ .

* ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم :

أولاً : ترتيب الآيات

* **تعريف الآية** : الآية في معناها اللغوي تطلق على معان متعددة **فتطلق على** :

١ – العلامة : فيقال هذه آية بمعنى : علامة ومنه قوله ﷻ : **(إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ..)** أي : علامة ملكه.

٢– وتطلق على **الدليل** : وهذا كثير في القرآن ومن ذلك قوله جل وعلا : **(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ..)** أي : دلائل قدرته .

٣– وتطلق بمعنى **العبرة** : كما تكرر لفظها في سورة الشعراء في قوله ﷻ : **(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)** بمعنى : عبرة لمن بعدهم ، وكذلك قوله:**(لتكون لمن خلفك آية)** أي : عبرة .

٤– وتطلق بمعنى **المعجزة** : كما في قوله ﷻ : **(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ..)** أي : معجزات ، وقوله : **(آيات مفصلات ..)** أي : معجزات .

وقد سمى الله الآيات في القرآن الكريم بهذه التسمية لاشتمالها على ما تقدم ، فالآية في القرآن علامة على نفسها وعلى انفصالها عن غيرها وهي في الوقت نفسه عبرة يعتبر بها السامع والقارئ وهي دليل من دلائل الله وهي معجزة على صدق الرسالة وقد سمى الله الآيات في كتابه فقال : **(تلك آيات الكتاب)** ، وقال : **(بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)** يبين أن القرآن مشتمل عليها .

* **الآية في اصطلاح العلماء** : هي **المقطع من السورة له مبدأ ونهاية** مثلا قوله ﷻ : **(والعصر)** فهذه آية ، **وآخر الآية يسمى بالفاصلة** .

* **الفرق بين الفاصلة ونهاية الآية** : الفاصلة هي : الكلمة التي تكون آخر الجملة مثال ذلك : **(إن في ذلك لآية)** هنا فاصلة ، **(الر)** فاصلة **(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت)** .

فالفرق بينهما : أن كل آية تنتهي بفاصلة (**فكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة تكون نهاية آية**) فالفاصلة أعم ، فالفاصلة قد تكون في النصف أو في آخر الآية فهي الكلمة التي تكون آخر الجملة .

* **آيات القرآن طوال وقصار** :

آيات القرآن الكريم تختلف طولاً وقصراً ، وأكثر الآيات الطوال تكون في السور الطوال أما الأغلب في الآيات القصار فتكون في السور القصار . مثلاً سورة المائدة آياتها طوال لكونها من الطوال ، وقصار

السور آياتها قصار و هذا الغالب لكن قد يأتي ما يخالفه مثلاً سورة المزمل في آخرها آية طويلة مع أنها من قصار السور ، وسورة الشعراء آياتها قصار وهي من طوال السور .

***أطول آية في القرآن** :

أطول آية في القرآن هي آية الدين في سورة البقرة .

***أقصر آية في القرآن** :

أما أقصر آية فمختلف فقيل:**(مدهامتان ، أو طه ، أو يس ، أو حم ، أو ثم نظر)**.

*** الفائدة من معرفة الآيات ومعرفة نهاياتها** :

معرفة الوقف والوقف على رؤوس الآي سنة كما جاء في الأحاديث الصحيحة في وصف قراءة النبي ﷺ أنه كان يقطعها آية آية: **(بسم الله الرحمن الرحيم ويسكت ، الحمد لله رب العالمين ويسكت ، الرحمن الرحيم ويسكت)** فالوقوف على رؤوس الآي سنة متبعة.

*** عدد آيات القرآن الكريم** : مختلف فيه ، فقد اختلف العلماء في عدد الآيات في المصاحف المعروفة مصاحف الصحابة والقراء البصريين والكوفيين والشاميين فوقع الخلاف في عدد الآيات وإجماع القراء على أنها (٦٢٠٠) ستة آلاف ومائتا آية ، ثم اختلفوا على ما زاد على ذلك ؛ فالمصحف الكوفي برواية حفص عدد آياته (٦٢٣٦) آية ، على اختلاف القراء في باقي المصاحف .

*** السبب في الاختلاف في عدد الآيات**

– الاختلاف في عدد الآي لما جاء عن النبي ﷺ فكان النبي يقف على رؤوس الآي ، وأحياناً يصل الآية بالآية لأجل إتمام المعنى فيحسب السامع أنها آية واحدة إذا وصلها فيظن أن الآية الأولى فاصلة ، ومنهم من نظر إلى الوقف ومنهم من نظر إلى الوصل فحدث الاختلاف في ذلك بين الصحابة ومن بعدهم .

* **فمثلاً (ا لم)** في ست سور هي آية منفصلة وهي : (**البقرة وآل عمران والأعراف والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة**) أما **(طس ون وص وق)** فهي فاصلة وليست آية ، **(ك هيعص)** في مريم آية وليست فاصلة .

*** كلمات القرآن وحروفه** :هذا مما بحثه العلماء ، والتوسع في ذكره لا طائل وراءه ، واهتمام العلماء به يدل على العناية التامة بكتاب الله فقد عدوا الآيات والكلمات والحروف فقالوا إن كلماته (٧٧٩٣٤) سبعة وسبعون ألفاً وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة ، كما اعتنوا بعد حروفه ، وبيان أنصافه وأخماسه وأرباعه حتى عدوا كم ألفاً وكم ياء وكم باء .

قال السيوطي في { الإتقان } : " **إن البحث في كل هذه الأمور والاشتغال بها مما لا طائل تحته** ".

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

ترتيب الآيات في القرآن كان بتوقيف النبي ﷺ ولم يكن باجتهاد الصحابة ، فقد أجمع العلماء من الصحابة ومن جاء بعدهم على أن ترتيب الآيات توقيفي وتواترت الأدلة الصحيحة على ذلك فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبي على مواضع الآيات وسورها وكان رسول الله ﷺ يقول : **(ضعوا آية كذا في سورة كذا)** .

الأدلة على أن ترتيب الآيات كان توقيفياً :

١- ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن الزبير قال : **قلت لعثمان: ﴿قوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) قال : قد نسختها الآية الأخرى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) قال ابن الزبير فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال عثمان : يا ابن أخي لا أغير شيئا من مكانه)** . فدل هذا على أن الأمر توقيفي .

٢- ما رواه مسلم عن عمر قال : **(ما سألت النبي عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : أما تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء)** وهذا يدل على أن الآيات مرتبة ترتيباً توقيفياً **(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة)**.

٣- ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : **(من قرأ الآيتين من خواتيم سورة البقرة في ليلة كفتاه)** ، فالرسول ﷺ أشار إلى آخر آيتين ولو لم تكن مرتبة لما عرف الصحابة ما هي خواتيم البقرة.

٤- ما أخرجه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : **كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..)** النحل آية (٩٠) .

٥- ما روي عن المسور بن مخرمة قال : **قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرني عن قصتكم يوم أحد قال : اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا) قوله : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين ..)** .

٦- ما ثبت عنه من قراءته لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، وقرأ المفصل كاملاً وغير ذلك ، وقراءته لهذه السور لا شك أنها مرتبة الآيات .

هذه الأدلة وغيرها تدل على أن ترتيب الآيات كان ترتيباً توقيفياً بأمر النبي ﷺ الذي أوحى الله به إليه ، وهو الترتيب المعهود.

***ثانياً: ترتيب السور في القرآن الكريم**

* **تعريف السورة** : في **اللغة** : مأخوذة من سُور المدينة **لإحاطتها** بآياتها إحاطة السُوْر بالبنيان ، أو مأخوذة من سور المدينة **لارتفاعها** فإن سور المدينة لا بد أن يكون مرتفعاً فالسورة تكون مرتفعة ارتفاعا معنوياً وهو ارتفاع الرتبة والمنزلة ، وقيل السورة مأخوذة من سور المدينة لكونها ضمت آيات منها ، وسور المدينة تكون من لبنات عديدة ، فالسورة مأخوذة من ثلاثة أوجه : **الإحاطة والارتفاع وكونها من أجزاء.**

* **السورة في اصطلاح العلماء** : **هي طائفة من الآيات لها بداية ونهاية .**

وتسمية السورة قد ورد في القرآن الكريم ففي سورة النور قال ﷻ : **(سورة أنزلناها وفرضناها)** ، وفي سورة هود **(قل فأتوا بعشر سور)** وفي يونس **(فأتوا بسورة من مثله)** .

* **الحكمة من جعل القرآن سوراً متعددة** :

١- حسن الترتيب والتنويع فالجنس إذا انطوى تحته أصناف وأنواع كان أحسن وأتم وهذا مشاهد .

٢- تسهيل الحفظ على الأمة والنشاط في حفظه ، فإذا كان الإنسان يقرأ أو يحفظ سورة ثم أتقنها علم أنه أخذ من كتاب الله حظا ونصيبا ، فيعظم عنده ما حفظ ويعظم هو عند الناس، وفي حديث أنس قال:" **إن الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيننا**".

* **الحكمة في كون سورالقرآن الكريم منها الطوال والقصار** :

الذي يظهر وهو الأقرب وهو التدرج في تعليم القرآن من القصار إلى ما فوقها وهذا تيسير من الله على عباده لحفظ كتابه حتى يكون حافزاً في حفظ كتاب الله .

* **عدد السور في القرآن الكريم** :

مائة وأربع عشرة سورة (١١٤) بإجماع العلماء ، ونقل عن مجاهد أنه عدها مائة وثلاث عشرة سورة (١١٣) فجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة والأول هو المعول .

* **عدم ذكر البسملة في أول سورة براءة (التوبة)** :

١- أن سورة الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وبراءة من آخر ما نزل بالمدينة وقد توفي النبي ولم يبين لهم في هذا الأمر شيئاً فتركوه .

٢- أن سورة براءة نزلت بالسيف وفيها آية السيف وذكر الرحمة بالبسملة ينافي هذا الأمر ومن عادة العرب إذا أرادت أن تخاطب بالسيف لا يقدمون مقدمات تتناول الرحمة .

٣- أن سورة براءة نسخ منها آيات عديدة منها البسملة .

٤ــ وقيل لأنها لم ترد عن النبي ﷺ وهو الصحيح .

تعدد أسماء السور

يكون للسور اسم وهذا الغالب في سور القرآن وقد يكون لها أكثر من اسم **مثل** :

- **الفاتحة** : قيل لها خمسة وعشرون اسما (٢٥) : (أم الكتاب ، أم القرآن ، السبع المثاني ، الفاتحة ، الشافية ، الكافية) إلى غير ذلك .
- **الإسراء** : تسمى (سورة بني إسرائيل) ، وتسمى (سورة سبحان) .
- **محمد** : تسمى (سورة القتال) .
- **الزمر** : تسمى (سورة الغرف) .
- **فصلت** : تسمى سورة (المصابيح) .
- **ص** : تسمى (سورة داود) .
- **طه** : تسمى سورة موسى (سورة موسى) . وهكذا ..

*** سؤال / هل تسمية السور توقيفية أم كانت اجتهادية ؟**

هذه المسألة اختلف فيها العلماء على **ثلاثة أقوال** :

الأول : أن التسمية توقيفية ، أي أن النبي ﷺ هو الذي سماها .

الثاني : أن التسمية كانت اجتهاداً من الصحابة .

الثالث : أن تسمية سور القرآن الكريم بعضها توقيفي وبعضها باجتهاد من الصحابة .

والأخير هو الأقرب لأننا إذا نظرنا إلى ما ورد عن النبي ﷺ فهو توقيفي ، ومما يقويه ما ذكره النبي ﷺ في الحديث لمن سأله عن الكلالة قال : **(أما تكفيك الآية التي في آخر النساء)** فأطلق عليها النساء . وأيضاً قوله : **(من قرأ الآيتين من البقرة ..)** فسماها البقرة ، ومالم يرد فيه حديث نقول إنه باجتهاد من الصحابة.

*** تقسيم السور باعتبار الطول والقصر** :

تنقسم سور القرآن الكريم باعتبار الطول والقصر **إلى أربعة أقسام** :

١- **الطُّوال** : وهي السبع (البقرة – آل عمران – النساء – المائدة – الأنعام – الأعراف – الأنفال مع التوبة – وقيل يونس) .

٢- **المِئُون** : وهي ما ولي الطوال وهي ما تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها (هود – يوسف – الكهف – الإسراء) .

٣- **المثاني** : وهي التي تلي المئين وهي السور التي آياتها تقارب المائة فما دون (الأحزاب – غافر – الزمر) وسميت المثاني لأنها تثنى أكثر وتعاد كثيراً .

٤- **المفصل** : سمي بذلك **لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة** ويبدأ من (ق إلى آخر القرآن) .

* **وينقسم إلى أقسام :**

أ- **طوال المفصل** : من ق إلى عم .

ب- **أواسط المفصل** : من عم إلى الضحى .

ج- **قصار المفصل** : من الضحى إلى الناس

ترتيب سور القرآن هل كان اجتهاديا أو توقيفيا ؟

الرأي الأول : **ذهب طائفة من أهل العلم أن ترتيب سور القرآن الكريم كان بتوقيف من النبي ﷺ** فلم توضع سورة في موضعها من المصحف إلا بناء على أمر النبي ﷺ . **وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة منها :**

١- إجماع الصحابة ﷺ على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر الصديق ﷺ ثم نسخ في عهد عثمان ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة ولو لم يكن ترتيب المصحف توقيفياً لحصل خلاف بين أصحاب رسول الله في تقديم أو تأخير ، لكن مادام أنه لم يحصل فقد علموا أن الترتيب توقيفي بأمر النبي ﷺ.

٢- ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة ﷺ قال : **" كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف وفيهم قال : فقال لنا رسول الله ﷺ طرأ علي حزبي فأردت ألا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وحزب المفصل من ق حتى نختم "** أ . هـ . فهذا يدل على أن الترتيب كان في عهد النبي ﷺ وفي حضرته.

٣- روى ابن أبي شيبة **أن النبي كان يجمع المفصل في ركعة من ق إلى الناس** ، قالوا :وحزب المفصل خمس وستون (٦٥) سورة، وقد جمعه وقرأه ﷺ في ركعة ففيه دليل أنه رتب في عهده .

٤- ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : **(في بني إسرائيل والكهف و مريم و طه والأنبياء أنهن من العتاق الأول وهن تِلَادي)** أي من أوائل السور نزولاً و لا يزلن حديثات لم يتغيرن ولم ينسخن ، { **التلاد :الشيء الجديد** } .

٥- قوله ﷺ في ما رواه مسلم : **(اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران)** ، فجاءت مرتبة كترتيبها في المصحف .

٦- ما رواه البخاري **(أن النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قرأ بقل هو الله أحد والمعوذتين)**.

الرأي الثاني : **أن ترتيب سور القرآن كان باجتهاد من الصحابة** وقد استدل أصحاب هذا الرأي باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة وقد كانت أدلتهم **على النحو التالي :**

١- قالوا إن الصحابة كانت لهم مصاحف مختلفة في الترتيب فمنهم من رتب على حسب نزول القرآن الكريم كمصحف علي بن أبي طالب ﷺ أوله (**اقرأ ثم المدثر ثم نون والقلم ثم المزمل وهكذا**) بدأ بالمكي ثم إذا انتهى بدأ بالمدني ، وأن مصحف عبد الله بن مسعود مبدوءاً (**بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران** ..) وهكذا ، ومصحف أبي كان مبدوءاً (**بالحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران**).

٢- ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال : **(قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطُّوال فقال عثمان : وكان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ولم يتبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قَرَنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال)** أ.هـ . **الشاهد** : **قول عثمان** : فقرنت بينهما وقوله فظننت أنها منها دليل على أنه من تصرفه واعتراض ابن عباس دال على أن الترتيب كان بالاجتهاد .

القول الثالث : **أن الكثير من سور القرآن الكريم ترتيبه بالتوقيف ، وبعضه كان ترتيبه باجتهاد من الصحابة** وإلى هذا ذهب كثير من العلماء فقالوا : ما ثبت بالأدلة التي استدل بها أصحاب القول الأول كان توقيفياً وما لم يأت دليل على ترتيبه كالأنفال والتوبة ما كان باجتهاد من الصحابة وهذا أولى في الجمع فمنها ما كان توقيفياً ومنها ما كان باجتهاد الصحابة وهذا يجمع بين القولين .

مناقشة أدلة القول الأول :

- حديث حذيفة ليس فيه دلالة صريحة على أنه كان توقيفياً لأنهم لم يوردوا الترتيب بل عددوا السور فليس فيه دلالة صريحة على ترتيب السور بأسمائها ، والأدلة الأخرى فيها ترتيب جزئي أي لبعض سور القرآن كترتيب الإخلاص والمعوذتين وغيرها . وأقوى ما استدلوا به إجماع الصحابة على ترتيبه ثم حديث حذيفة الثقفي وهو لما قال له أصحاب رسول الله ﷺ(**كنا نحزب القرآن**) ، وهذا ليس فيه دلالة صريحة بترتيب سور القرآن بأسمائها وإنما هو في ذكر أحزابه فقد تكون بعضها مقدمة على بعض ، فمثلاً قوله : **(نحزبه ثلاث سور)** قد تكون البقرة وآل عمران والنساء أو العكس أو غيرها فليس فيه دلالة صريحة .
- وحديث ابن مسعود في **(بني إسرائيل والكهف و مريم...)** ترتيب جزئي، وكذا حديث:**(اقرؤوا الزهراوين ...)** ترتيب جزئي كذلك ، و قراءته للإخلاص والمعوذتين ترتيب جزئي .

♦ فأدلتهم إما غير صريحة كالدليل الأول أو أن الأدلة الأخرى تدل على الترتيب الجزئي لا الكلي . أما دليلهم الأول وهو إجماع الصحابة فقد يكون إجماعهم مبنياً على توقيف النبي ﷺ أو إجماعا مبنياً على قول أبي بكر وعمر ﷺ .

مناقشة القول الثاني :

١- **الدليل الأول** اختلاف ترتيب مصاحف الصحابة كانت أحادية أي أن كل شخص على حدة وكان يكتب بنفسه ، ثم إن الصحابة لما علموا بترتيب مصحف أبي بكر ثم عثمان تركوها ثم أن عثمان لما أمر بإحراق جميع المصاحف ما عدا مصحفه الذي كتبه استجاب الصحابة لهذا الأمر وتركوا مصاحفهم ، وتركهم مصاحفهم دليل على أن هذا لم يكن ترتيباً دقيقاً مجمعا عليه.

٢- أن ما استدلوا به من قصة ابن عباس مع عثمان حديث غير صحيح لأن في سنده يزيد القاضي وفي بعض النسخ الفارسي وهو مجهول الحال فلا يصح الاعتماد عليه وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد : هذا حديث لا أصل له . وعلى فرض صحته فنقول: إنه يدل على ترتيب هاتين السورتين بالاجتهاد فقط . أما سواهما فهو توقيفي .

اختار شيخ الإسلام القول الثاني وكذا الشيخ **محمد بن عثيمين** وأما **الحافظ ابن حجر** فيرجح القول الثالث وهو ،وأما **الشنقيطي** يرى أنه كان توقيفيا ما عدا براءة والأنفال ، وإن قلنا بأنه توقيفي عن النبي ﷺ وبعضه اجتهادي فإنه يجب ترتيبه على هذا النسق وإن قلنا بالقول الثالث فإنه يجب ترتيب القرآن الكريم على هذا النسق المعروف ولا يجوز مخالفته لأنه انعقد الإجماع في عهد أبي بكر وعهد عثمان وترك الصحابة مصاحفهم استجابة لأمر عثمان لأن النبي ﷺ أرشد الأمة إلى الأخذ بأقوال الصحابة **(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)** وقوله ﷺ : **(اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)** .

* الرسم العثماني :

المراد به ومعناه : **هو رسم المصحف على الطريقة التي ارتضاها عثمان ﷺ ومن كان معه من الصحابة في كتابة كلمات القرآن ورسم حروفه بالمصاحف التي وجه بها إلى الآفاق .**

وهذا الرسم الذي عرف في عهد الصحابة كان له قواعد وأسس انطلق منها وعليه فقد استخرج العلماء من هذا الرسم وهذه الطريقة قواعد وقد تكون القواعد مخالفة للكتابة الإملائية والقواعد الإملائية المعروفة

والأصل في الكتابة أن توافق المنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل إلا أن الرسم العثماني كان له أحرف خالفت قواعد الخط واتخذت طريقة خاصة عرفت بالرسم العثماني.

قواعد الرسم العثماني :

١- **قاعدة الحذف** كحذف الألف أو الياء أو الواو، فالألف مثل: **(ه سلمت مؤه نت قنـ تنـ)**، **(سمعون)**، والياء مثل : **(ياعبادِ فاتقون)**، **(فأر سلون)**، **(اء بدون)**، **(اذ شون)** ، ووردت بإثبات الياء في موضع واحد في سورة البقرة **(واخشوني)** ومثال حذف الواو **(و يدعُ الإنسان)** في الإسراء ، **(سندعُ الزبانية)** في العلق ، **(ويمحُ الله الباطل)** في الشورى .

٢- قاعدة الزيادة كزيادة الألف أو الياء أوالواو:

- مثال الألف:**(وتظنون بالله الظنونا)**، **(ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا)** في سورة الأحزاب.
- مثال الياء : **(ومن آنائي الليل فسبحه)**، **(والسماء بنيناها بأييد)** .
- مثال الواو : **(أولوا الألباب)**، **(وأولات الأحمال)**، **(أولوا الأرحام)**.

٣- **قاعدة كتابة الهمزة حيث خالفت القواعد الإملائية (تفتؤ)**، **(أتوكؤ)**، **(مايعبؤ)** .

٤- قاعدة البدل:

- إبدال الألف واواً نحو : **(الصلوة)**، **(الزكوة)**، **(مشكوة)**، **(منوة)** .
- أن تبدل التاء المربوطة بتاء مفتوحة نحو : **(امرأت فرعون)**، **(رحمت الله)**، **(شجرت الزقوم)**، **(نعمت الله)**، **(سنة الله)** . وعند الوقف يوقف على تاء ساكنة .

٥- **قاعدة الفصل والوصل** كما في **(ألا تقولوا)** ، **(ألا تعلو)** ، وتكتب : **(أن لا تعلوا)** ومثلها **(مما ملكت) (من ما ملكت)**، **(عن ما نهوا) (عما نهوا)** . و الأصل أنها توصل في أكثر المواضع .

مافيه قراءتان وكتب على إحداهما مثل : **(ملك)** يكتب بإحدى القراءتين ويرمز للقراءة الثانية وهي **(مالك)** حيث أشير بألف صغيرة . **(ووعدنا موسى)**، **(ولولا دفع الله الناس)** وعلى قراءة **(دفاع)** .

يرجع في هذا لكتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار لأبي عمرو الداني.

حكم كتابة المصحف بالرسم العثماني :

اختلف العلماء في حكم كتابة المصحف بالرسم العثماني هل هو توقيفي أو اجتهادي **على أقوال** :

القول الأول : أن كتابة المصحف بالرسم العثماني توقيفي يجب الأخذ به في كتابته ونسبوا التوقيف إلى النبي ﷺ كان يأمر كتبة الوحي بهذه الطريقة وذكروا في ذلك حديثاً ضعيفاً واستدلوا بآثار عن السلف .

القول الثاني : أن كتابة القرآن بالرسم العثماني ليست توقيفية عن النبي ﷺ ولكنها اصطلاح ارتضاه عثمان وتلقته الأمة بالقبول فلا بد من الأخذ به وقد سئل الإمام أحمد عن الرسم العثماني وقال تحرم مخالفته .

القول الثالث : أن الرسم العثماني اصطلاحي ولا مانع من مخالفته إذا اصطلح الناس على رسم خاص وقالوا إنه لم يرد عن النبي ﷺ رسم معين يجب الأخذ به ولا في إجماع الصحابة دليل على تحريم كتابته بغير هذا الرسم وقالوا فكل من ادعى أنه يجب على الناس هذا الرسم المعروف وجب عليه أن يقيم الحجة وأن يأتي بالدليل .

* **ومن خلال عرض هذه الأقوال الثلاثة يتبين أن الأقرب هو القول الثاني وهو أن نقول** : إن الرسم العثماني توارثته الأمة بالقبول زمناً بعد زمن والحفاظ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن من التغيير والتبديل ولو أبيحت كتابته بالخطوط الإملائية كما في القول الثالث لأدى ذلك إلى تغيير المصحف في كل عصر وفي كل زمن فعليه يكون الأقرب هو القول الثاني الذي يرى أن كتابة القرآن اجتهاد من الصحابة لا يجوز تغييره ، واصطلاح ارتضاه عثمان رضي الله عنه وتلقته الأمة بالقبول فيجب الأخذ به.

الأطوار التي مر بها المصحف العثماني

نسخت المصاحف العثمانية وهي خالية من الشكل والنقط ، **والشكل هو** :**الحركات التي تكون على الأحرف أو تحتها كالضمة والفتحة والكسرة ونحوها ، والنقط : هو ما يسميه العلماء بالإعجام** فالنقطة على العين تقلبها غيناً ، والنقطة على الراء تقلبها زياً وهكذا .

فاحتملت بكتابتها على هذا النحو عدداً من الوجوه والقراءات التي كان الناس في الأمصار يميزون بينها بالسليقة فلا يحتاجون لقراءتها بصورة صحيحة إلى الشكل والنقط . ومثال ذلك قوله ﷻ : **(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)** وقرأت **(فتثبتوا)** كانوا يميزون بين هذه القراءات بالسليقة ولا يحتاجون إلى النقط ، أما بالنسبة للحركات فهي تؤخذ بالتلقي مثل قوله ﷻ : **(قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غَيرُ صالح)** وقرأت **(عَمِلَ)** .

وقد ظل الناس فترة يقرأون القرآن في مصحف عثمان خالياً من الشكل والنقط ، قالوا إنه بلغ بضعاً وأربعين سنة على هذه الحال حتى خلافة عبد الملك بن مروان سنة (٦٥هـ) وحينئذ كثرت التصحيفات

وانتشرت في العراق خاصة في خلافة عبد الملك فخاف بعض رجال الحكم أن يتطرق التحريف إلى النص القرآني ففكروا بإحداث أشكال معينة تساعد على القراءة الصحيحة واختلف العلماء في أول من نقط القرآن وذكر **أكثرهم ثلاثة من العلماء :**

(**أبو الأسود الدؤلي**) وهذا هو الأشهر (ت: ٦٩هـ) ، (**ويحيى بن يعمر**) (ت: ١٢٩هـ) ، و(**نصر بن عاصم الليثي**) (ت: ٨٩هـ) .

* **أما أبو الأسود** فقد اشتهر بأنه سبق إلى وضع مسائل في العربية بأمر علي بن أبي طالب ﷺ ، ويظهر أن عمله بالقرآن بالتنقيط لم يكن إلا امتداداً لعمله السابق ويذكر بعض العلماء قصة في هذا الموضوع تبين شدة غيرته على لغة القرآن .

قيل أنه سمع قارئاً يقرأ (**أن الله بريء من المشركين ورسوله**) فقرأها بجر اللام ، فأفزعه هذا اللحن وقال : "**عز وجه الله أن يبرأ من رسوله** " ثم ذهب إلى والي البصرة وأخبره الخبر وكان والي البصرة زياد بن أبيه ثم طفق أبو الأسود وجَدَّ جده وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف وجعل علامة السكون نقطتين ، وكان عمله سنة (٦٥هـ) .

***ثم امتد الزمان** فازدادت عنايتهم بالرسم العثماني وتيسيره فظهرت أشكال جديدة وحركات جديدة عما سبق فقد كان **الخليل بن أحمد الفراهيدي** (ت: ١٧٥هـ) له النصيب الأوفر في الحركات وظهورها فوضع **الحركات المعروفة وهي :**

- الفتحة على شكل مستطيل صغير فوق الحرف .
- مثله الكسرة مستطيل صغير تحت الحرف .
- واو صغيرة للضمة .
- التنوين شرطتان فوق الحرف للنصب ، في حال الجر شرطتان تحت الحرف ، وفي حال الرفع واوان صغيرتان فوق الحرف .

وفي ذلك الزمان أيضا قسم القرآن إلى أحزاب وأجزاء تبعا لعدد الحروف أو الآيات، وتنسب بعض المصادر هذا العمل إلى نصر بن عاصم ويحيى بين يعمر أيضا، فقد روي أن الحجاج بن يوسف كلف طائفة من الحفاظ والقراء بعدّ آيات القرآن، وتم تحزيب القرآن تبعا لهذا العد.

وقيل إن تجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً – وهي التجزئة التي عليها مصاحفنا اليوم– منسوبةً إلى أبي بكر بن عياش المتوفى سنة ١٩٣هـ ، والواقع أننا لا ندري على وجه الدقة من صاحب هذه التجزئة، أهو الحجاج أم غيره؟ ورأى بعض الباحثين المعاصرين أن التجزئة المعروفة حاليا في المصاحف تقوم على أساس

عدد الصفحات لا عدد الآيات أو عدد الكلمات والحروف، وقد وضعت بحيث يكون لكل جزء عشرون صفحة، فيكون مجموع صفحات المصحف ستمائة صفحة.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحزبون القرآن، بمعنى أنهم يقسمونه إلى أجزاء في التلاوة، وكان تقسيمهم قائما على اعتبار السور لا الآيات كما ظهر في العصر الأموي وما بعده واستقرت عليه كتابة المصاحف، فكان يحزبونه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم.

ولاشك أن تحزيب القرآن على هذا النحو —وإن كان متفاوت الأجزاء- يراعي اتصال آيات السور ولا يقطع حديثا متصلا، فإن التحزيبات المحدثة بالحروف أو بالآيات لم يراع فيها الوقف والابتداء ؛ فكثيراً ما تتضمن الوقوف على كلام متصل بما بعده ويكون الابتداء بما له ارتباط وثيق بما قبله ، وذلك كالابتداء بقوله تعالى " والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم " مع اتصالها الشديد بما قبلها .

* **واعتنى العلماء بالتخميس** (علامة كل خمس آيات) والتعشير (علامة عند كل عشر آيات) ويسمونه معشرا وأخذوا ذلك من قول أبي عبد الرحمن السلمي أخبرنا صحابة رسول الله ﷺ " **أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يحفظوها ويعملوا بما فيها ، فقالوا تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا** " .

***ثم وضع ترقيم الآيات** ووضعت السجدات ثم بعد ذلك وضعوا في فواتح السور اسم السورة وعدد آياتها ونوعها مكية أو مدنية .

* **ثم وضعت علامات الضبط** وهي علامات الوصل والوقف إلى غير ذلك من وجوه التحسين التي مر بها القرآن الكريم .

ومن حيث الحكم فمنهم من منع ومنهم من أجاز واستند المانعون إلى قول ابن مسعود "**جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء** " والذين أباحوا ذلك نظروا إلى أن هذا فيه صيانة القرآن من اللحن والتحريف، فإن وجد داع لذلك فالأمر واسع ، ولعل ابن مسعود لا يريد بذلك النقط والتشكيل وإنما أراد الزيادة في القرآن كالتفسير ونحوه .

طباعة المصحف

* **وقد طبع المصحف** الطبعة الأولى عام (١٥٣٠م) ، طبع في أوروبا ولكنه لم ينتشر ثم طبع في روسيا عام (١٧٨٧م) وانتشر لكنه انتشر انتشاراً قليلاً ثم في الهند ثم في تركيا حاضنة الإسلام عام (١٨٧٧م

) ثم في القاهرة طبع طبعة أنيقة ودقيقة عام (١٣٤٢هـ /١٩١٢م) بإقرار لجنة علمية وقد كتب هذه الطبعة برواية حفص عن عاصم ثم بعد ذلك انتشرت الطبعات القرآنية في مصر طباعة ونشراً وتوزيعاً.

الطبعات المصرية للمصحف الشريف

يتداول الناس مقولة ذائعة تقول إن القرآن نزل في الحجاز، وكتب في تركيا، وقرئ في مصر، وذلك لما تميزت به دار السلطنة العثمانية في كتابة المصاحف ومبادرتها إلى طبع المصحف، ولما تميزت به الديار المصرية من إتقان التلاوة وجمالها، غير أن واقع تاريخ المصحف يشير إلى أن القرآن طبع في مصر أيضا كما قرئ فيها، بمعنى أن مستوى الإجادة التي قرئ بها في مصر لا يقل عن مستوى الدقة التي طبع بها، ولذلك من الحق أن يقال إن القرآن قرئ في مصر وطبع فيها أيضا.

ففي مطبعة بولاق الشهيرة بمصر التي عرفت فيما بعد بالمطبعة الأميرية طبع المصحف الشريف لأول مرة على الأرجح سنة ١٨٣٣م لكنه لم يخل من أخطاء دفعت بعض علماء الأزهر إلى حث الخديوي عباس الأول على الأمر بمصادرتها، ثم توالى طبع المصحف بعد ذلك في مطبعة بولاق وبلغ من العناية به أن خصص جزء من مطبعة بولاق لطبعه خاصة ، وعرف باسم مطبعة المصحف الشريف.

وفي مصر ظهر أول مصحف مطبوع موافق للرسم العثماني كتبه الخطاط عبد الخالق حقي المعروف بابن الخوجه ، وكانت المصاحف المطبوعة كلها تهمل هذا الرسم وتسير على الرسم الإملائي أو لا تدقق في تحري رسم جميع الكلمات على وفق الرسم العثماني، وهو عمل جليل صدر بإشراف أحد أعلام الإقراء وهو الأستاذ العلامة المحقق الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي، الذي نسب إليه المصحف وشاع خطأ أنه هو الذي تولى كتابته بنفسه، والظاهر أن يكون الشيخ قد كتب النسخة التي نقل عنها ابن الخوجه، فقد وقع في ضبط بعض الكلمات ورسمها أخطاء فادحة لا يمكن أن تصدر عن الشيخ المخللاتي المعروف بدقته وضبطه.

المصحف الأميري:

ونظرا لما شاب مصحف المخللاتي من هنات ومآخذ، فقد سعى الملك فؤاد الأول إلى طباعة المصحف مجددا على نفقته، وانتدب لهذا العمل لجنة علمية ترأسها شيخ المقارئ المصرية آنذاك الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني الشهير بالحداد، بمصاحبة الأستاذ حفني ناصف العالم اللغوي، ومصطفي عناني المدرس بمدرسة المعلمين، وأحمد الإسكندري رئيس المصححين بالمطبعة الأميرية، فكتبوا القرآن كله حسب قواعد الرسم العثماني، وأتموا ضبطه وفق ما ذهب إليه المحققون من العلماء، وبينوا في ترجمة كل سورة عدد آيها وأنها مكية أو مدنية، وأنها نزلت بعد سورة كذا، ووضعوا لكل آية رقمها، ووضعوا علامات للوقوف وجعلوها خمسة أقسام: م للمتنع، قلي وتعني الوقف أولى، صلي وتعني الوصل أولى، ج لجواز الوجهين، لا للوقف الممتنع، كما وضعوا علامات الأجزاء والأحزاب والأرباع والسجدات. وقد أثبتوا في خاتمة المصحف تعريفا به لا يزال متداولا في المصاحف إلى يومنا هذا.

مصحف الشمرلي

يرتبط مصحف الشمرلي بأذهان جيل كامل من المصريين، فقد كان هو المصحف الذي تعلق به كبار القراء والعلماء وطلاب العلم وعوام المسلمين وخواصهم في مصر والدول العربية إلى أن أنشئ مجمع الملك فهد، وقد علل الدكتور المعصراوي –شيخ المقارئ الحالي– انتشار مصحف الشمرلي بعنايته البالغة بطباعة المصحف متمثلة في قلة الأخطاء وجودة الورق وتنوع الأحجام واعتدال الثمن.

ولا يزال حفظة القرآن من الشيوخ الكبار يعتمدون على هذا المصحف الذي احتفظت ذاكرتهم بصورته، فيستطيعون أن يحددوا فيه مواضع الآيات وبدايات السور ونهايتها بالذاكرة البصرية، ويذكر أحد الباحثين في دراسة قدمها لندوة طباعة القرآن الكريم ونشره التي عقدت منذ عامين بالسعودية، أن الشيخ الحصري كان يكثر من إهداء هذا المصحف المفضل لديه لكل زائر لبيته، فكانت عربة المطبعة تأتي إليه كل شهر بكم كبير من المصاحف ليقوم بتوزيعها.

طباعة المصحف الشريف في المملكة العربية السعودية

تعود بداية طباعة المصحف الشريف في المملكة العربية السعودية إلى عام ١٣٦٩هـ عندما ظهر المصحف المعروف بمصحف مكة المكرمة، الذي طبعته شركة مصحف مكة المكرمة.

ففي مقال للأستاذ عبد القدوس الأنصاري في مجلة المنهل، ذكر أن فكرة طباعة هذا المصحف كانت للأستاذ محمد سعيد عبد المقصود عندما كان مديرًا لمطبعة أم القرى الحكومية، إلا أنه توفي قبل تحقيقها، ثم تبنى المشروع الأساتذة: محمد علي مغربي، وإبراهيم النوري، وعبد الله باحمدين، وفي بيان إجمالي عن هذا المصحف في جريدة أم القرى، ذكر أنه عندما نضجت فكرة طباعة مصحف مكة المكرمة، تكوَّنت شركة مساهمة محدودة سجلت رسميًا باسم ((شركة مصحف مكة المكرمة)) مؤلفة من: محمد سرور الصبان، وعبد الله باحمدين (المدير الرسمي للشركة) ، وإبراهيم نوري (المراقب العام لأعمالها) ، ومحمد علي مغربي (أمين الصندوق) ، ومحمد لبنى، وكان رأس مالها مائتي ألف ريال سعودي .

اشترت الشركة مقرًا لها في مكة المكرمة، واشترت آلة طباعة حديثة من أمريكا، يمكن أن يطبع فيها المصحف الشريف بأحجام مختلفة، واتفقت مع مهندسين فنيين لتركيبها.

وتم الاتفاق مع الخطاط المعروف الأستاذ محمد طاهر الكردي في سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥م) على كتابة المصحف على قواعد الرسم العثماني، وقام بذلك خير قيام، وعندما انتهى من كتابته صححته لجنة من علماء مكة: السيد أحمد حامد التيجي أستاذ علم القراءات بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح إمام وخطيب المسجد الحرام، والسيد محمد أحمد شطا المعاون الثاني لمدير المعارف بمكة، والسيد إبراهيم سليمان النوري المفتش بمديرية المعارف بمكة، ثم أرسل إلى مشيخة الأزهر فوافقت على التصحيح، وكان شيخ القرّاء والمقارئ المصرية الشيخ محمد علي الضَّباع ممن صححه ووضع خاتمه الرسمي عليه .

وبعد خمس سنوات استغرقها العمل بين الكتابة والتصحيح تم الانتهاء من هذا المصحف في عام ١٣٦٧هـ، وبدأ طبعه بالحجم الكبير ابتداءً من ليلة الجمعة الموافق ١٧ من شهر ذي القعدة عام ١٣٦٨هـ، وانتهى في ٧ من شهر ربيع الأول عام ١٣٦٩هـ، ثم بدئ في طبع الحجم الصغير، وبقية الأحجام. ووصفت جريدة أم القرى هذا المصحف بما يلي:

١. أن ابتداء كل صفحة أول آية، كما أن نهاية كل صفحة آخر آية.

٢. أن ابتداء كل جزء في أول صفحة، كما أن انتهاء كل جزء في آخر صفحة.

٣. أن كل جزء عشرون صفحة ما عدا جزء عمّ.

٤. أن علامات الأحزاب وأنصافها وأرباعها قوسية هلالية.

٥. أن علامات السجدات رسم الكعبة.

٦. أن النقوش التي حول الفاتحة في الصفحة الأولى، وحول أوائل البقرة في الصفحة الثانية مركبة من كلمة مكة بالأحرف الكوفية.

٧. وضع بعد نهاية المصحف في آخره دعاء جامع يتلى عند ختم القرآن، وهو مختار من الأدعية المأثورة.

وكان صدى ظهور هذا المصحف واسعًا في داخل المملكة وخارجها، وكانت فرحة الملك عبد العزيز رحمه الله بظهوره كبيرة، وقدم للقائمين عليه دعمًا ماديًا ومعنويًا سخيًا، وكذلك أصحاب السمو الأمراء والمعالي الوزراء وكبار موظفي الدولة، كما لاقى استحسان المسلمين في خارج المملكة وثناءهم، وأشادت به الصحف الصادرة في بعض تلك البلاد .

وبعد ثلاثين عامًا من ظهور مصحف مكة، ظهر مصحف آخر في مدينة جدة، وذلك في عام ١٣٩٩هـ، بمطابع الروضة، بعد مراجعته والموافقة عليه من الجهة المخولة بذلك في المملكة العربية السعودية، وأشرف على هذه الطبعة عدد من القائمين على المطبعة وعلى رأسهم: الأستاذ عبد الله باعكضه مدير عام مطابع الروضة، وزميلاه: محمد طرموم، ومحمد بلجون.

وفي شهر المحرم من عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) أُعلن عن افتتاح أعظم وأكبر مطبعة في العالم تقوم على خدمة القرآن الكريم في المدينة المنورة، وهو أول عمل حكومي رسمي لطباعة القرآن الكريم، وفتح عظيم نفع الله به ملايين المسلمين في مختلف بقاع الأرض.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

تتجلى أروع مظاهر العناية بالقرآن الكريم التي قامت بها المملكة العربية السعودية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة.

فعندما كثرت الطبعات التجارية وغيرها للمصحف الشريف، والتي لم تَحْظَ بالعناية الكافية من التدقيق والضبط وحسن الطباعة والإخراج، وفَّق الله ولاة الأمر في هذه البلاد لإنشاء مجمع لطباعة المصحف الشريف، وزوّد بأرقى التجهيزات الطباعية الحديثة، وأمهر الفنيين المختصين في مجال الطباعة.

ووقع الاختيار على مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لتكون مقرًّا لهذه المنشأة العظيمة؛ لمكانتها في نفوس المسلمين، ولأنها عاصمة الإسلام الأولى التي تنزل فيها الوحي على خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وشع منها نور القرآن فأضاء أنحاء المعمورة.

واتفق على تسمية المصحف الذي يتم طبعه في هذا المجمع بمصحف المدينة النبوية؛ تيمنًا بهذه البقعة المباركة.

ففي السادس من شهر صفر عام ١٤٠٥هـ، الموافق ٣٠ أكتوبر ١٩٨٤ كان حدثًا عظيمًا أثلج صدور المسلمين عندما أزاح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز الستار إيذانًا بتشغيل المجمع، بعد أن اكتمل بناؤه وتجهيزاته الفنية والبشرية،

أهداف المجمع:

١. طباعة المصحف الشريف بالروايات المشهورة في العالم الإسلامي.
٢. ترجمة وطباعة معاني وتفسير القرآن الكريم إلى أهم وأوسع اللغات انتشارًا.
٣. تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات مشاهير القراء.
٤. إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية المطهرة.
٥. نشر إصدارات المجمع على الشبكات العالمية.
٦. تلبية حاجة المسلمين في الداخل والخارج من إصداراته المختلفة.

طُبع المصحف الشريف في المجمع برواية حفص عن عاصم، وهي الرواية التي يُقرأ بها في معظم بلاد العالم الإسلامي، وكتب هذا المصحف على قواعد الرسم العثماني، وضُبط على ما قرره علماء الضبط مع الأخذ بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشارقة، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية وفقًا للعدد الكوفي، ومجموع صفحات ٦٠٤ صفحة تنتهي كل صفحة بآية،

كما طُبع برواية ورش عن نافع المدني، وهي الرواية التي يُقرأ بها في معظم دول المغرب العربي (المغرب، والجزائر، وتونس، وموريتانيا) إضافة إلى السنغال، وتشاد، ونيجيريا، وكتب هذا المصحف بالخط المشرقي على حسب قواعد الرسم العثماني، وضُبط بالضبط المغربي، وعدد آياته ٦٢١٤ آية وفقًا لعدد المدني الأخير، ومجموع صفحاته ٥٥٩ صفحة.

كما طبع برواية الدوري عن أبي عمرو البصري، وكتب بالخط المشرقي على حسب قواعد الرسم العثماني، وضبط على ما قرره علماء الضبط مع الأخذ بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشارقة، ما عدا بعضًا يسيرًا، فقد روعي في ضبطه مذهب أكثر المغاربة، وما جرى العمل به في السودان. وعدد آياته ٦٢١٤ آية وفقًا للعدد المدني الأول، ومجموع صفحاته ٥٢١ صفحة، ولا تنتهي صفحاته بآية.

كما طبع مصحف نسخ تعليق برواية حفص عن عاصم، على حسب قواعد الرسم والضبط المتعارف عليها في باكستان وما جاورها، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية وفقًا للعدد الكوفي، وعدد صفحاته ٦١١ صفحة.

الوحي مفهومه ودلالاته

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١-١٤٣٢هـ

الوحـــــي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد

فهذه مسائل تتعلق بالوحي جمعتها من مصادر متعددة لتكون متيسرة بيدي القارئ، ولتعم الفائدة، وهي تتمثل في النقاط التالية:

١- الوحي: تعريفه، إطلاقاته في القرآن الكريم، المراد بالوحي في علوم القرآن.

٢- إمكانية الوحي ووقوعه:

٣- أنواعه، وهي نوعان:

٤- آثار ه على النبي ﷺ .

٥- صدق الوحي وأنه حق من عند الله.

٦- ما يتميز به الوحي.

تمهيد:

الوحـــــي:

سمى الله ﷻ القرآن الكريم في كتابه وحياً فقال ﷻ: **(قل إنما أ نذركم بالوحي ..)** فالوحي من الموضوعات ذات الصلة القوية بالقرآن الكريم، بل هو أساس القرآن فالتعرف عليه تعرف على القرآن الكريم.

ثم إن هذا الوحي كان أمراً معلوماً من النبي ﷺ بأن ما يلقى إليه حق من عند الله وليس خطرات نفس ووساوس، كما أنه ﷺ لم يكن أول رسول أوحي إليه، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه قال تعالى: (**إنا أوحينا إليك كما أوحي نا إ لى نوح والنب يين من بعده**)، وقال:**(كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم)**،

كما أنه لم يكن في نزول الوحي على النبي ﷺ ما يدعو إلى العجب أو الاستغراب، ولذا أنكر الله على من تعجب واستنكر هذا ، قال تعالى: (**أ كان لل ناس عج با أن أوحي نا إ لى ر جل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين**).

أولاً :تعريف الوحي في اللغة

قال الراغب: " معنى الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمرٌ وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي " أهـ.

وقال ابن منظور: " الوحي الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، ووحى وحيا وأوحى أيضا، أي: كتب "أهـ.

ففعل الوحي وحي وأوحى، يقال: وحيت إليه وأوحيت، الأول ثلاثي والثاني رباعي وهو الأفصح وهو استعمال القرآن قال ﷻ: **(إنا أوحينا إليك ...)، (وإذ أوحيت إلى الحواريين ..)**

والوحي مصدر يقال: وحياً وإيحاءً، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: **الخفاء والسرعة** فإذا كان الكلام خفياً وسريعاً سمي وحياً.

والوحي إذا هو الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، وبإشارة ببعض الجوارح.

فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره.

وقد بين القرآن الكريم أنواع الوحي في سورة الشورى بقوله تعالى :(**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء**).

فالآية أشارت إلى أنواع الوحي إجمالاً وهي على النحو التالي:

١- أن يلقي كلامه ﷻ على نبيه بكيفية غير معتادة فيعيه.

٢- أن يكلمه ﷻ من وراء حجاب فلا يراه النبي بل يسمع كلامه وقد وقع هذا لموسى عليه السلام ولنبينا محمد في معراجه إلى السماء وفرضيه الصلاة

٣- أن يرسل رسولاً من الملائكة ورسول الوحي والرسالات جبريل عليه السلام.

*** إطلاقات الوحي :** ورد لفظ الوحي في القرآن الكريم في ثلاثين سورة وفي ثمانين موضعاً، بإطلاقات مختلفة هي على **النحو التالي** :

١- الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى قال تعالى:**(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه)** أي فطرها وأنشأها على إرضاعها لطفلها وهي ركيزة ركزها الله في الأم حيث تميل لإرضاع طفلها بفطرة الله ، ومثله قوله تعالى: **(إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت)**،

ومثله قوله تعالى: **(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبر سولي ..)**، أي أن الله ألهم الحواريين أتباع عيسى بن مريم عليه السلام، الإيمان به.

٢- الإلهام الغريزي للحيوان، أو التسخير، كالوحي إلى النحل قال تعالى: **(وأو حى ر بكإ لى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وه ما يعر شون)** أي غرز وأودع في هذا الحيوان الميل والتوجه لهذا الشأن، وهذا السخير له ولغيره من سائر الحيوانات التي ألهمها وأودع فيها هذا الأمر.

٣-الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: (**يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى ل ها**)، وقال تعالى: (**وأوحى في كل سماء أمرها**).

٤-الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء نبي الله زكريا عليه السلام فيما حكاه القرآن عنه: **(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بـ كرة وع شيا)** وجاء التصريح في سورة آل عمران بالرمز فقال: **(ثلاثة أيام إلا رمزا)**.

٥-وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان وقال تعالى: **(وإن ال شياطين ليو حون إ لى أوليائهم ليجادلوكم)** ، وقال تعالى:**(وكذلك جعلنا لكل ن بي عدواً شياطين الإ نس وال جن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)** ويسمى إيحاء.

٦-ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه قال تعالى: **(إذ يوحي ربك إلى الملائكة أ ني مع كم فثبتوا الذين آمنوا)**.

* المراد بالوحي الشرعي:

اختلف أهل العلم في تعريف الوحي فمنهم من قال:

هو كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه.

وعليه فإن ما أنزل على نبينا محمد وحي أوحي إليه هو من مسميات القرآن الكريم قال تعالى: (**إن هو إلا وحي يوحى**).

وقيل: **هو إعلام الله نبيه بما يريد أن يبلغه إليه من شرع بواسطة أو بغير واسطة،**

وفيه إشارة إلى أنواع الوحي، وكلاهما متقاربان.

ثانياً : إمكانية الوحي ووقوعه

هناك أدلة شرعية وعقلية واقعية على ثبوت الوحي وإمكانية وقوعه وحقيقته، فمن الأدلة الشرعية قوله ﷻ: **(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)** وغيرها كثير، وقد شاهده النبي ﷺ وذكره للناس ، وشاهده الصحابة على صورة إنسان ، فهذا دليل على إمكانية وقوعه ، والأدلة الشرعية على ذلك كثيرة .

أما الأدلة العقلية والواقعية على إمكانية الوحي ووقوعه فهي كثيرة أيضاً، منها:

١- الأحاديث المسجلة التي تحملها اليوم موجات الأثير دون رؤية ذويها بل قد يكون ذلك بعد وفاتهم بزمن .

٢- تخاطب الناس في الهواتف الثابتة والنقالة وقد يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ولا يسمع الجالسون بجانبهما إلا شيئاً يسيراً كدوي النحل الذي هو من صفة الوحي.

٣- حديث النفس في اليقظة وفي المنام مما يدور في خلد الإنسان دون أن يرى متكلماً أمامه.

فالأدلة الشرعية متوافرة ، والأدلة حسية مشاهدة مما هي من صنع البشر، وكلها تدل دلالة قطعية على وقوع الوحي وإمكانيته بلا شك أو تردد ولن ينكرها إلا مكابر.

ثالثاً : أنواع الوحي

النوع الأول : وحي الله جل وعلا إلى ملائكته الكرام عليهم السلام.

النوع الثاني : وحي الله جل وعلا إلى رسله عليهم الصلاة والسلام .

***النوع الأول**: وحي الله إلى ملائكته الكرام ، وهو

- **القسم الأول** : أن يوحي إليهم من غير واسطة .
- **القسم الثاني** : أن يوحي إليهم بواسطة ، وهو جبريل عليه السلام فيبلغه إلى الملائكة .

أدلة القسم الأول :

أدلته كثيرة منها قوله ﷻ: **(إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم..)**، وقوله ﷻ: **(إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ..)**، وقوله ﷻ : **(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..)** ، وهي

تدل على وحي الله إلى ملائكته عموما، وقد جاءت بلفظ الإيحاء تارة وبالتكلم أو القول تارة.

أدلة القسم الثاني :

ودليله ما جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **"إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي ، أخذت السموات منه رجفة أو قال : رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : " قال الحق وهو العلي الكبير " فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل " .**

فهذا حديث ثابت وصحيح أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد وصححه وهو صريح في بيان كيفية وحي الله بوساطة الملك جبريل ليبلغه إلى الملائكة.

مسألة: أوحى الله بالقرآن إلى جبريل عليه السلام ثم من جبريل إلى محمد ﷺ، وثبت أن القرآن الكريم كتب في اللوح المحفوظ كما في قوله ﷻ: **(بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ)**، وثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان، قال تعالى: **(إنا أنزلناه في ليلة القدر)**،وقال :(**إنا أنزلناه في ليلة مباركة)**، فكيف أوحى الله بالقرآن ؟

اختلف أهل العلم في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن على أقوال:

١- أن جبريل عليه السلام تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص وبمعناه، وذلك أن الله تكلم به بصوت مسموع فسمعه جبريل عليه السلام بلفظه ومعناه وأخذه وألقاه إلى النبي ﷺ .

٢- أن جبريل عليه السلام حفظه من اللوح المحفوظ.

٣- ألقى الله المعنى إلى جبريل عليه السلام فكانت الألفاظ من جبريل، أو من محمد ﷺ.

والأصح من هذه الآراء الرأي الأول، وهو ما عليه سلف الأمة وأهل السنة والجماعة، ويؤيده حديث النواس بن سمعان السابق ، وما جاء في القرآن من إضافة القرآن إلى الله ونسبته إليه في أكثر من آية، قال ﷻ: **(وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم)** ،وقال: **(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ..)**، وذكر في محاجة المشركين قوله: **(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي)** .

فالقرآن كلام الله بألفاظه وحروفه ومعانيه وليس من جبريل عليه السلام ولا من محمد ﷺ والله أعلم.

النوع الثاني: وحي الله ﷻ إلى رسله:

وحي الله إلى رسله له طريقان:

أحدهما: وحي من غير واسطة.

والآخر بواسطة، وهو جبريل الملك الموكل بالرسالات وبالوحي.

الأول: وحي من غير واسطة، وهو أن يكون من الله ﷻ إلى أحد رسله، **وينقسم إلى ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: الرؤيا الصالحة في المنام: وهي نوع من الوحي لأن رؤيا الأنبياء حق من الله ،والشيطان لا يتمثل بالأنبياء والرسل ، وما يراه النبي ﷺ في منامه هو حق يجب اتباعه، والدليل عليه ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: **"أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"** والحديث متفق عليه، فكان يرى الرؤى في المنام فتأتي متحققة ساطعة في اليقظة، ولعل هذا كان ذلك إرهاصاً وتهيئة لرسول الله ﷺ وتمهيداً له حتى يتلقى الوحي يقظة، فلا يتفاجأ منها، وهذه الرؤى ليس فيها شيء من القرآن، والقرآن كله أوحي إليه يقظة.

ولم تكن هذه الرؤى، قبل بدء فحسب بل كانت في حياته، ومنها رؤيا دخول مكة وذلك أن رسول الله ﷺ قد أُرى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، وقد تحقق ذلك الأمر وصدقت رؤياه قال تعالى: **" لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا"**

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم ﷺ لما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل وذلك في قوله تعالى: **"فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم."**، فهذه الرؤيا وحي يجب اتباعه لذلك أقدم إبراهيم عليه السلام على ما أقدم عليه ، ومثل هذه الرؤية التي رآها إبراهيم ونبينا محمد ﷺ عامة الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن ، وإن لم تكن وحياً فإنها جزء من الوحي، قال ﷺ: **"ذهبت النبوة وبقيت المبشرات "**، رواه ابن

ماجه وصححه الألباني، وقال ﷺ:(**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**) **رواه البخاري.**

النوع الثاني: الإلقاء في روع النبي ﷺ: وهو نوع من وحي من الله، وقد جاء في قصة نزول سورة الكوثر، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه **: "بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال: "نزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر ﴾**، وهو إلقاء بلا واسطة.

ومثل هذا الإلقاء أي في روع النبي ﷺ: ما جاء في الحديث: **(أن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله و أجملوا في الطلب)**. والحديث فيه ضعف.

*مسألة : ما الفرق بين الرؤيا الصالحة والإلقاء في الروع ؟

- أن ما جاء من أنه أغفى قد يكون ذلك من شدة الوحي فلا يقال الإغفاء نوماً.
- أن الرؤى لم يثبت بها قرآن بخلاف الإلقاء في الروع.

وهذه المسألة قد ذكر ها ابن القيم في كتابه زاد المعاد، ج١/٧٨

النوع الثالث: الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة بدون واسطة .

وهو ثابت لثلاثة من الأنبياء:

أ- موسى ﷺ فقد كلمه الله ﷻ من وراء حجاب يقظة بدون واسطة، قال ﷻ: **(وكلم الله موسى تكليما)**، وقال: **(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)**.

ب- آدم ﷺ فقد كلمه الله، قال ﷻ: **(يا آدم أنبئهم بأسمائهم..)**، قال ﷻ **(يا آدم اسكن أنت وزوجك)**.

ج- نبينا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين والمرسلين فقد كلمه الله ﷻ حين فرضت عليه الصلاة في واقعة الإسراء والمعراج.

<u>الثاني : وحي بواسطة</u> ، وهو جبريل الملك الموكل بالرسالات و بالوحي ، وله صور منها:

الصورة الأولى : وهو أن يأتي الملك جبريل مخاطباً النبي ﷺ بصوت وكلام ، فيلقي على قلبه القول الثقيل، فيسمع لهذا صوت متعاقب متدارك كصوت الجرس المصلصل المجلجل وذلك مثل صلصلة الجرس ، وهذه الحالة أشد أحوال الوحي على النبي ﷺ، فهي أشد وطأ وأثقل قولا،كما قال تعالى: (**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**)،

وقد كان يصحب هذه الحالة من الوحي شدة وثقل ومعاناة مثل أن يرشح جبينه عرقا، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: "**ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا** " رواه البخاري، بل كان وطأة الوحي في هذه الحالة تبلغ أحيانا من الشدة والثقل ما يجعل راحلته إذا نزل عليه الوحي تبرك به إلى الأرض فهذه الحالة كانت شديدة على النبي، فقد جاء عن عبد الله بن عمرو أنه سأل النبي ﷺ هل تحس بالوحي ؟ فقال: **أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض،** وفي رواية **إلا ظننت نفسي تقبض،** رواه الإمام أحمد بسند صحيح، وفي حديث زيد بن ثابت: (**كنت أكتب لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة – أي ثقل – وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سري عنه**)، انظر: مجمع الزوائد.

روى البخاري أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه، فقال فبينا النبي ﷺ بالجعرانة، وعليه ثوب قد أظل به، معه ناس من أصحابه، إذ جاءه أعرابي عليه جبة، متضمخ بطيب، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد ما تضمخ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده: أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه، يغطُّ كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: (**أين الذي يسألني عن العمرة آنفا**)، فالتمس الرجل فأتي به ، فقال: (**أما الطيب الذي بك فأغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك**).

وعن عبادة بن الصامت قال: كان النبي ﷺ **إذا أنزل عليه الوحي، نكّس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما سري عنه، رفع رأسه.**

ولقد جاءه الوحي مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها" رواه البخاري عن زيد بن ثابت قال:(إني قاعد إلى جنب رسول الله ﷺ ، إذ أوحي إليه، قال:

وغشيته السكينة، قال: فوقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئا قط أثقل من فخذ رسول ﷺ ، ثم سري عنه فقال: " **اكتب يا زيد** ". **فأخذت كتفا فقال: "اكتب: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون)** فكتبت ذاك في كتف، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم –وكان رجلا أعمى –فقام حين سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى، وأشباه ذلك؟ قال زيد: فوالله أن قضى كلامه حتى غشيت النبي ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى، ثم سري عنه **فقال: اقرأ** ، فقرأت عليه: **(لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون)، فقال:(غير أولي الضرر)** قال زيد: فألحقتها، فوالله لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف.

وهذه الحالة هي الأكثر مجيئاً والأكثر نزولاً، وهي التي ينزل بها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ بالقرآن.

مسألة: ما الحكمة من وقوع هذه الشدة وحصول هذا الثقل؟

لأن الأجسام أوعية للأرواح ولكل جسم روح تناسب حجمه وكثافته فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها فيعاني شدة ويعرق ويحمر، لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر فإذا سمت الروح وعلت لم يحتملها الجسد والله أعلم.

الصورة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ، أي يأتيه في صورة رجل بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، وهي الأندر في الوقوع وقد دل عليها حديث عمر بن الخطاب في مجيء جبريل الذي بيّن فيه مراتب الدين ، ومثله حديث أم سلمة رضي الله عنها لما كان رسول الله ﷺ عندها فجاء رجل إليه وخاطبه ثم ذهب ، فقال لها من هذا ؟ قالت : دحية الكلبي وكان من أجمل العرب ظناً منها أنه دحية ، فقالت: ما علمت أنه جبريل حتى خرج النبي ﷺ من عندي فصعد المنبر ثم قال : أتاني جبريل آنفاً ، فعلمت أنه جبريل ولم يكن دحية .

وقد دل على هذه الحالة ما تقدم من حديث عائشة ﵂ أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ **فقال رسول الله: أحيانا**

يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول.

وهذا إخبار عن الأغلب عن مجيء الوحي على هاتين الصورتين، وقد نص أهل العلم على أن الصورة الأخيرة لم ينزل فيها قرآن.

مسألة: هل هذه الحالة وهو أن يتمثل له الملك رجلاً ، أو يأتيه في صورة رجل بشر كانت خاصة بالنبي ﷺ أو أنها وقعت لغيره ؟

قال تعالى: (**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط**).وهم من الملائكة الكرام جاءوا في صورة بشر ضيوفاً، ولذلك بادر بإكرامهم فخاطبهم وخاطبوه ، قال تعالى: (**قال فما خطبكم أيها المرسلون**)، بل خاطبوا امرأته: (**قالوا أتعجبين من أمر الله**)، وجاءوا لوطاً عليه السلام في صورة شباب مرد وخاطبوه فقالوا: (**إنا رسل ربك لن يصلوا إليك**)، وقال تعالى في مريم:{ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** } أي رجلاً من الرجال في صورة جميلة، والسبب كونها لا تحتمل رؤيته على خلقته.

وقال تعالى :(**وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العلمين**)،

مسألة: هل يقال إن مريم بنت عمران نبيه لأن الوحي أتاها ؟

اختلف العلماء في ذلك والجمهور على أنها صديقة من الصالحات ولم تكن نبية لقوله تعالى: (**وأمه صديقة**) ولقوله:(**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم**)، فالنبوة لا تكون إلا في الرجال كما هو نص القرآن، ولأن الوحي -كما تقدم - **هو كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه** ، والنبي من أوحي إليه بشرع.

وذهب ابن حزم والقرطبي إلى أنها نبية لأن جبريل نزل عليها، والصحيح ما تقدم.

فعلم أن هذه الحالة وهو أن يتمثل له ﷺ الملك رجلاً، أو يأتيه في صورة رجل بشر لم تكن خاصة بالنبي ﷺ بل وقعت له ولغيره.

ويدل على ذلك أحاديث منها ما جاء في صحيح مسلم: (**أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخا لى فى**

هذه القرية. قال هل لك عليه من نعمة تربها قال لا غير أنى أحببته فى الله عز وجل. قال فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه).

الصورة الثالثة : أن يأتيه الملك في صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها،ولم يقع ذلك للنبي ﷺ إلا مرتين ، فقد وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل، ولم يره في صورته إلا مرتين).

الأولى قد أشارت إليها الآية في قوله تعالى: (**ولقد رآه بالأفق المبين**) وذلك بمكة له ستمائة جناح ، قد سد الأفق ، ودليله حديث جابر عند البخاري أنه سمع النبي ﷺ يقول: **ثم فتر عني الوحي فترة، فبينا أنا أمشي ، سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت منه، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: (يا أيها المدثر)**، معنى: جأث: فزع وفرق وذُعر. وذلك عند والأخرى عند سدرة المنتهى عندما عرج به ﷺ ،قال تعالى:(**ولقد رآه نزلة أخرى**).

مسألة: مجيء جبريل إلى النبي في غار حراء.

روى البخاري وغيره عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ـــ والغط الغم وحبس النفس ـــ ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال" اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم "فرجع بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة:كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن

أسد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من بن أخيك فقال له ورقة يا بن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل على موسى يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي

جاء في حديث جابر قوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء

مسألة: هل نزول جبريل ومجيئه للنبي ﷺ خاص بنزول القرآن ؟

لم يكن ذلك خاصاً بالقرآن بل جاءه بالقرآن وبالسنة كما في حديث جبريل الطويل في مراتب الدين المتقدم، والحديث الآخر وفيه: (**أتاني جبريل وقال: صل في هذا الوادي المبارك –وادي العقيق الذي في ذي الحليفة– ثم قل: عمرة في حجة**).

وفي حديث أبي ذر عند البخاري وفيه: (**قال لي مكانك لا تبرح حتى آتيك ثم انطلق في سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت أن يكون قد عرض للنبي ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله لي لا تبرح حتى آتيك فلم أبرح حتى أتاني قلت يا رسول الله لقد سمعت صوتا تخوفت فذكرت له فقال وهل سمعته قلت نعم قال ذاك جبريل أتاني فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق**).

وهذا يدل على أن نزول الوحي يكون بالقرآن وبغيره وأن الحالة التي تعتريه بنزول القرآن قد تكون بغيره.

مسألة: احتباس الوحي عن النبي ﷺ وكم وقع من مرة ؟

أولاً: العهد المكي: وقد وقع مرتين، وقيل أكثر:

الأولى: ، أي بعد نزول الخمس آيات من سورة العلق وقبل نزول سورة المدثر ، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله ﷺ أن يكون قد انقطع عنه الوحي ، وهي التي رأى عقبها جبريل

على كرسي بين السماء والأرض ، وقيل: إن مدة انقطاع الوحي في هذه الفترة كانت أربعين يوماً ولم يشعر بها المشركون لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه.

الثانية: أنه فتر بعد نزول نحو من ثمان سور أو تسع على خلاف، وأول سورة نزلت بعد الفترة الثانية هي سورة الضحى، وكان احتباس الوحي في هذه المرة لمدة اثني عشر يوماً. وأن سبب احتباس الوحي هو الرفق بالنبي ﷺ كي تسْتَجِمَّ نفسه وتعتاد قوته تحمُّل أعباء الوحي إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوماً ثم كانت الثانية اثني عشر يوماً أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وقيل كان سبب احتباس الوحي كون جرو في بيته، فلمّا نزل عليه جبريل سأله رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: يا محمد أما علمت أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

وقيل: إن الاحتباس الثالث في نزول سورة الكهف، قال أهل التفسير: إن اليهود حين قالت لقريش: سلوا محمداً عن مسائل ثلاثة عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فسألوهن قال ﷺ :(**أجيبكم عنها غداً**)، ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه خمس عشرة ليلة). وقيل: أربعين يوماً ثم نزل قوله: (**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً**).

لكن هل احتبس الوحي عن هذه السورة وعن الجواب أو كان انقطاعاً مطلقاً ؟

ثانياً: العهد المدني: وقد وقع مرات متعددة منها:

أولاً: احتباس الوحي شهراً في حادثة الإفك ، فقد حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأن الصديقة وبراءتها فنزلت الآيات العشر من سورة النور.

ثانياً: احتباس الوحي خمسين ليلة في قصة الثلاثة الذين خلفوا قال تعالى:(**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت**).

قال كعب بن مالك :(فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا, قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا, فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت, سمعت صارخاً على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك, قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا, فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر.

هذان مثالان لانقطاع الوحي في العهد المدني، وقد يجد المتتبع للآيات القرآنية وأسباب النزول وكتب التفسير غير ما ذكرناه، والله أعلم.

آثار الوحي على الرسول ﷺ

ثبت في الأحاديث الصحيحة مما تقدم ذكره أن للوحي آثاراً تظهر على النبي ﷺ منها:

١- أنه تأخذه البُرحاء حتى يتفصَّد عرقاً في اليوم البارد، ففي حديث عائشة رضي الله عنها: "**ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا** " رواه البخاري، وفي حديث زيد بن ثابت :(**كنت أكتب لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة – أي ثقل – وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سري عنه**).

٢- أنه يحمر وجهه ﷺ ففي حديث يعلى المتقدم وفيه: فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه ، يغط كذلك ساعة ، ثم سري عنه ، فقال :(**أين الذي يسألني عن العمرة آنفا**).

٣- أنه يثقل جسمه بالوحي، ففي حديث زيد بن ثابت قال: (كنت قاعدًا إلى جنب رسول الله ﷺ، إذ أوحي إليه، قال: وغشيته السكينة، قال: فوقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئا قط أثقل من فخذ رسول ﷺ ، ثم سري عنه ،ورد أنه قال كادت فخذ النبي ﷺ ترض فخذي لما كانت فخذه ﷺ على فخذي ، وكان هذا عند نزول آية النساء **(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر)**

٤- أنه كان وطأة الوحي تبلغ أحيانا من الشدة والثقل ما يجعل راحلته إذا نزل عليه الوحي تبرك به إلى الأرض، روى وابن جرير والحاكم وصححه عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تتحول حتى يسري عنه. والجران هو باطن العنق

٥- أنه ﷺ كان يسمع صلاصل وأصواتاً ويجد شدة عظيمة، جاء عن عبد الله بن عمرو أنه سأل النبي ﷺ هل تحس بالوحي؟ فقال: **أسمع صلاصل ثم أسكت**

عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض، وفي رواية **إلا ظننت نفسي تقبض،** رواه الإمام أحمد بسند صحيح،

٦- أن الصحابة ﷺ كانوا يسمعون عنده أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل.

فعند أبي داود من حديث عمر رضي الله عنه قال: كنا نسمع عنده مثل دوي النحل.

صدق الوحي :

جاءت الأدلة الصريحة على أن الوحي من عند الله وأنه صدق وحق وليس من عند محمد ﷺ ، ولا هو تخيلات نفسية، ومن الأدلة الدالة على ذلك مايلي:

الدليل الأول : النوازل التي تنزل بالنبي ﷺ ثم يتطلب لها حلًا فلا يجد لها حلا إلا بالوحي، وأحياناً يمكث الأيام الطويلة والأشهر وهو ينتظر الوحي، والأمثلة عليه كثيرة منها :

- ♦ حادثة الإفك وقد مضى عليها ما يقرب من شهر، والمنافقون يتكلمون في عرضه فلم يستطع أن يبرئ عائشة، وكان يقول لها " **إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله** ".
- ♦ قصة الثلاثة الذين خلفوا، فلم تنزل توبتهم إلا بعد خمسين ليلة.
- ♦ قصة المجادلة، فلم يحكم النبي ﷺ فيها إلا بعد نزول الآيات.
- ♦ قصة ميراث المرأة، فلم يحكم النبي ﷺ فيها إلا بعد نزول آيات المواريث.

الدليل الثاني : أن القرآن ينزل ليصوب النبي ﷺ ويوجهه في كثير من القضايا وهذا بلا شك دليل على أن الوحي حق وصدق، ومن أمثلة ذلك:

- ما جاء في قصة نزول سورة عبس، فقد عاتب الله نبيه ﷺ في انصرافه عن مخاطبة الأعمى وانشغاله بكبار قريش.
- وقوله جل وعلا في قصة أسرى بدر، قال تعالى: **(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)** حين استشار النبي ﷺ أبا بكر الصديق فقال: هؤلاء أقاربنا نأخذ منهم الفدية ، أما عمر فقال: بل نقتلهم فتردد النبي ﷺ ثم مال إلى رأي أبي بكر الصديق

فجاء القرآن مصوبا ومؤيداً رأي عمر بن الخطاب . والشاهد من ذلك أنه ﷺ لم يكن يعرف الحكم حتى جاء القرآن مصوباً وموجهاً له.

فهذه الأمثلة تدل على أن الوحي صدق حق جاء من عند الله وليس من عند محمد ﷺ .

الدليل الثالث :

أن القرآن الكريم ينزل بالقول المجمل أو بالأمر المشكل ثم يبقى الإشكال بين الصحابة ﷺ ، ويأتي القرآن موضحا ومفصلا ومبينا لهذا الإشكال، ومثاله ما جاء في خواتيم سورة البقرة في قوله ﷻ : **(وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخ فوه يحا سبكم به الا له)** فوقف الصحابة متحيرين كيف يحاسبنا الله على ما في دواخلنا ؟ فجاء التخفيف من الله سبحانه وتعالى في قوله: **(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ...)**. على رأي من يرى أن بين الآيتين نسخاً.

فهذه الأدلة تدل على صدق الوحي وأنه ليس من عند محمد ﷺ .

مزايا الوحي

١- الوحي حالة غير اختيارية، يعني أن الوحي إذا جاء إلى الرسول ﷺ فإنه يعتريه بعض التغيرات مثل: احمرار الوجه وأنه يتفصد عرقا ويثقل جسمه، وإذا كان على ناقة بركت ناقته، فكل هذه الأمور غير اختيارية فهي آثار تحصل لاتصال الوحي بالنبي ﷺ.

٢- أنه أمر عارض وغير اعتيادي، وتأثر عارض وليس مستمراً كما ذكر سابقاً.

٣- أن الوحي قوة خارجية تتصل بالنفس حيناً بعد حين أي على فترات متقطعة وليست كل وقت.

٤- أن الوحي وسيلة إلى العلم والمعرفة، والله ﷻ ذو العلم اللدني العالم بكل شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، أحاط بكل شي علماً فإعطاؤه شيئاً من علمه لرسله الكرام إنما يكون عن طريق الوحي.

الشبهات التي أثيرت حول الوحي:

أثار أعداء الإسلام من المستشرقين والمستغربين أو ممن فتن بهم شبهاً حول الوحي لتشكيك المسلمين في مصدر شريعتهم ومصداقية رسالة النبي ﷺ ، وهي حقيقة شبه واهية مردودة وسخيفة تتهافت عند كل من لديه أقل القليل من العلم والمعرفة بهذه الشريعة وبسيرة صاحبها

ﷺ، ومع هذا فقد تصدى لها ولإبطالها وتفنيدها الجهابذة من أهل العلم، ويمكن تلخيص ما أثاروه من الشبه حول الوحي في ثلاث شبه رئيسة:

الشبهة الأولى : أن القرآن الكريم ليس من عند الله، وإنما هو من عند محمد ألفه وابتكر معانيه ، وصاغ ألفاظه ،فإنه كان عربياً فصيحاً ألفه وكتبه ثم نسبه إلى الله .

وهذه شبه واهية ساقطة.

الرد عليها من وجوه:

١/ أن النبي ﷺ كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد وصف في القرآن بذلك ، قال تعالى : (**النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ..)**، وقال:(**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم)** .

٢/ لو سلمنا أنه هو الذي صاغه وألفه من عنده، فإن هذا الكتاب جاء فيه التحدي الصريح للعرب قاطبة بأن يأتوا بمثله أو شيء منه، قال تعالى:(**فأتوا بسورة من مثله**)، وقال: (**فاتوا بحديث مثله**) فعجزت العرب أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله ، فلما لم يقدر العرب على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب، علم أنه ليس من كلام البشر ، فلو كان من عنده لما وقف فصحاء العرب وبلغاؤهم متحيرين أمام هذا الكتاب العظيم ، مع كونهم بأمس الحاجة للطعن فيه فقد أبطل آلهتهم وسفه أحلامهم .

٣/ أن القرآن فيه خطابات موجهة للنبي ﷺ ، وهذا دليل على أنه ليس من عنده، فليس أحد يؤلف كتاباً ثم يوجه خطاباته لنفسه.

قال تعالى:(**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك..**) ، وقال تعالى: (**يا أيها النبي لم تحرم** ..)،وقال تعالى : (**قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن** ..)

٤/ ورد في القرآن أشياء كان رسول الله ﷺ يتحرج من ذكرها، مثل وصف الرسول ﷺ من قِبل المشركين بأوصاف لا تليق، قولهم: ساحر، شاعر، مجنون، وكقوله تعا لى:(**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) .**

كل هذه أوصاف لا تليق، ولو كان هذا القرآن من تأليف محمد كما زعموا لما ذكرها.

٥/ ما جاء من ذكر قصص الأنبياء السابقين وما يتعلق بالخلق الأول مما لا يعلمها محمد ولا قومه، وكذلك مما يذكر من الأمور الغيبية المستقبلية، قال تعالى:(**تلك من أنباء الغيب نوحيها**

إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا)، فلو كان من عنده لما استطاع أن يتحدث بها بتفاصيلها الدقيقة.

فهذه الشبهة واضحة البطلان ساقطة لا يقول بها كل من قرأ كتاب الله وتأمله وتدبر معانيه.

الشبهة الثانية : أن محمداً ﷺ كان ذكياً نافذ البصيرة وكان قوي الفراسة ، شديد الفطنة ، وصادق التأمل، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر، والحق والباطل، بالإلهام، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي، فهذا القرآن جاء عن أثر الاستنباط العقلي، والإدراك الوجداني ، عبر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

و الرد عليها من وجهين:

١/ أي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور؟

فالجانب الإخباري فيه وقد شغل حيزاً كبيراً من القرآن لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم، فأمور الغيبية السابقة واللاحقة لا يستطيع أحد أن يأتي بها مهما كان ذكاؤه ، كخلق آدم ، الحديث عن الأنبياء والسابقين ، وكذا الأمور الغيبية المستقبلية .

٢/ أن في القرآن أنباء دقيقة تناولت أرقاماً حسابية التي لا تعلم إلا بالوحي والتلقي من لدن علام الغيوب، ففي قصة نوح: قال تعالى:(**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**)، وفي قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: (**ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا**)، فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لولم يكن يوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ؟

الشبهة الثالثة : أنه ﷺ كان يتلقى القرآن من معلم وليس من عند الله ، قال تعالى: (**وقالوا معلم مجنون ..)** وقال تعالى:(**ولقد نعلم أنهم ليقولون إنما يعلمه بشر**)، قال تعالى: (**وليقولوا درست**).

الرد عليها من وجوه:

١/ أن القرآن قد تصدى لها بالرد حيث أثارها المشركون إبان نزول القرآن، قال تعالى : (**ولقد نعلم أنهم ليقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ..)**

قال المشركون كان رسول الله ﷺ يتلقى القرآن من رجل رومي حداد يصنع السيوف، وكان يحفظ الأساطير والقصص السابقة.

٢/ أن هذا القرآن فصيح عربي بليغ عجز العرب أن يأتوا بمثله ، بل عجزوا أن يقدحوا فيه بما يخالف فصاحة اللغة العربية، فلو كان أخذه من معلم لاستطاعوا القدح فيه.

٣/ أن رسول الله ﷺ لما سافر مع عمه أبي طالب والتقى الراهب بَحيرا لم تذكر قريش أنه أخذ منه ولم تذكر أنه أخذ من ورقة بن نوفل وقد التقى بكثير من علماء اليهود والنصارى ولم يذكر أنه أخذ شيئاً منهم لا قبل النبوة ولا بعدها، وقد قال تعالى: (**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..)**، وقال: (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ..)** فبفصاحته أعجز الأولين والآخرين فكيف يكون من عند محمد ﷺ ، أو تلقاه من بشر.

هذا ما تيسر جمعه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

أسباب النزول
وما يتعلق به من مسائل

جمع وترتيب
أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

١٤٤١-١٤٤٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

* أولاً: أهمية أسباب النزول:

مدخل:

من المعلوم أن سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وبناءً على هذا فإنّ آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

الأول: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم، وأكثره في النزول المكي.

الثاني: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقل، وأغلبه مدني، ولأهميتها أفردها العلماء بالدراسة والبيان.

أهمية أسباب النزول:

اعتنى العلماء –رحمهم الله تعالى– عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وتظهر عنايتهم في ثلاث صور:

الأولى: أنهم أفردوا أسباب النزول بباب مستقل من أبواب علوم القرآن الكريم في مؤلفاتهم.

الثانية: أن المفسرين يوردون أول ما يوردون في تفسير الآية سبب نزولها –إن كان لها سبب نزول– ويعتنون بذلك ويستندون إليه في تفسير الآية.

الثالثة: أن العلماء أفردوا أسباب النزول بمؤلفات مستقلة وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرده، بالتأليف علي بن المديني "ت٢٣٤هـ" وممن ألف فيه أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي "ت٤٦٨هـ" واسم كتابه "أسباب النزول"، وطبع مرارًا. وقد اختصره الجعبري بحذف أسانيده. ومنهم ابن الجوزي "ت٥٩٧هـ" واسم كتابه "أسباب نزول القرآن" ومنهم ابن حجر العسقلاني "ت٨٥٢هـ" واسم كتابه "العجاب في بيان الأسباب" وقد ذكر السيوطي أنه اطلع على مسودة هذا الكتاب وأنّ ابن حجر مات قبل أن يبيضه.

ومنهم السيوطي "ت٩١١هـ" الذي ألف كتابا سماه "لباب النقول في أسباب النزول" وطبع في مجلد واحد، ولا أعرف أحدًا اعتنى بتحقيقه.

ومنها كتاب "الصحيح المسند من أسباب النزول" للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

ومنها المحرر في أسباب النزول من خلال الكتب التسعة للدكتور خالد المزيني.

وكذلك كتب التفسير عامة، وكتب الحديث عامة.

ثانياً: معنى أسباب النزول:

هو "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه" كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها، أو كسؤال يوجه إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

ويفيد قولنا "وقت وقوعه" أنه لا بد أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة كالآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة إبني آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زمنا يسيرا؛ فإن قوله تعالى: {وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}. قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.

ثالثاً: طريق معرفة أسباب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم– ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة عمن شاهده وحضره ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز لأنه من القول في القرآن بغير علم قال تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن. وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عَبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله، وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن. وقال الواحدي: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب".

صيغة سبب النزول عند الصحابي: إذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تخلو عبارته أن تكون جازمة و صريحة في السببية: بأن يقول: "سبب نزول هذه الآية كذا" أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول حدث كذا وكذا أو سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية.

وإما أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: "نزلت هذه الآية في كذا" فإنها تحتمل أن المراد بها سبب النزول وتحتمل أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، بل يراد بيان حكم من الأحكام الواردة في الآية.

متى يقبل قول التابعي في أسباب النزول؟

إذا ورد سبب النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط:

١-أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول: "سبب نزول هذه الآية كذا" أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول حدث كذا وكذا أو سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية.

٢-أن يكون الإسناد صحيحًا.

٣- أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.

٤- أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قبلت وصار لها حكم الحديث المرسل.

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي أنه "قد يقبل إذا صح المسند إليه، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك".

وبهذا ندرك الحيطة الشديدة التي اتخذها العلماء -رحمهم الله تعالى- لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

رابعًا: فوائد معرفة أسباب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

١- معرفة حكمة التشريع. وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ودفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرحمة بها وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة -رضي الله عنها- حين جاءت إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وهو أوس بن الصامت. فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرد.

٢- معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح ودفع اللبس والإشكال عن معناها كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب". ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}.

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر ولا في فرض ولا في نافلة وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية كما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}.

مثال آخر: قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}. فظاهر هذه الآية نفي الجناح عمن طاف بالصفا والمروة مع أن الطواف بهما فرض، والتعبير بنفي الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب النزول زال الإشكال: فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة وكانوا يطوفون بهما فلما جاء الإسلام تحرج هؤلاء عن الطواف بهما فنزلت هذه الآية, وقد روى البخاري عن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعار الجاهلية حتى أنزل الله {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

٣- من فوائد معرفة سبب النزول تيسير الحفظ وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها؛ لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن.

٤- معرفة من نزلت فيه الآية بعينه حتى لا يبرَّأ المتهم أو يتهم البريء وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، روى البخاري أن مروان بن الحكم كان على الحجاز استعمله معاوية فخطب

فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي} فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري.

٥- ومن فوائد معرفة أسباب النزول تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، مثال قوله تعالى: {لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبنّ أجمعين فقال ابن عباس: وما لكم ولهذا إنما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه ما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، كذلك حتى قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}.

إلى غير ذلك مما يذكر من فوائد معرفة سبب النزول.

خامساً: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

هذه قاعدة من قواعد التفسير التي ينطلق منها المفسر، وتفهم من خلالها آيات كثيرة على وجهها الصحيح.

وأسباب النزول لا تخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يتفق ما نزل مع السبب في العموم، أو يتفق معه في الخصوص، وهنا يحمل العام على عمومه، والخاص على خصوصه.

ومثال الأول قوله تعالى: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} فعن أنس قال: "إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسُئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، فأنزل الله: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ

الْمَحِيضِ} .. الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح".

ومثال الثاني قوله: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى, الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}، فإنها نزلت في أبي بكر، والأتقى: أفعل تفضيل مقرون: بـ "أل" العهدية فيختص بمن نزل فيه، وإنما تفيد "أل" العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع على الراجح، و"أل" في "الأتقى" ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، و"الأتقى" ليس جمعًا، بل هو مفرد، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز، وذلك كاف في قصر الآية على مَن نزلت فيه، ولذا قال الواحدي: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين: "عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يُعذَّب في الله، وفيه نزلت {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى} إلى آخر السورة.

الحالة الثانية: أن يكون السبب خاصًّا تنزل الآية بصيغة العموم، وهذه الحالة اختلف الأصوليون: أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

١- فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللِّعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته: "فعن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بشريك بن سحماء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "البيِّنَةُ وإلا حدٌّ في ظهرك" فقال: يا رسول الله.. إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البيِّنَة؟ فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "البيِّنَة وإلا حدٌّ في ظهرك" فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليُنزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، ونزل جبريل فأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} حتى بلغ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأي الراجح والأصح، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة،، والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها. كنزول آية الظهار في أوس بن الصامت، أو سلمة بن صخر - على اختلاف الروايات في ذلك، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم، قال ابن تيمية: "قد يجيء هذا كثيرًا ومن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصًا كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وأن قوله:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ} نزلت في بني قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو

في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسُّنَّة تختص بالشخص المعيَّن، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين أمرًا أو نهيًا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كان خبرًا يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته".

٢- وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب.

هذا ما تيسر ذكره فيما يتعلق بأسباب النزول والله الموفق.

ما يوهم الاختلاف والتناقض والتعارض في القرآن الكريم

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٤١-١٤٤٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

* أولاً: ما يوهم الاختلاف والتناقض والتعارض:

أولًا: معنى الوهم: هو إدراك مرجوح طرفي المتردَّد فيه، كالسهو والغلط والظن والنسيان ونحوه.

ثانيًا: معنى الاختلاف في القرآن: أي: الاختلاف عن ذات القرآن، بمعنى أن القرآن يأتي بما بالأمرين المتغايرين بحيث لا يمكن الجمع أو التلاؤم بينهما، وهو قريب من التضاد. وهذا مما لا يمكن أن يقع على الحقيقة، فالقرآن في ذاته لا اختلاف فيه أبدًا، وما يظن فيه أو يتوهم لا حقيقة له أبدًا، لقول الله تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)، وقد عرف السيوطي ما يوهم الاختلاف بقوله: " قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافا وليس به في الحقيقة، فاحتيج لإزالته".

ثالثًا: معنى التناقض في القرآن: هو التناقض بين معاني الآيات بحيث يكون ظاهر بعض الآيات يقتضي شيئاً ويكون ظاهر آياتٍ أخرى يقتضي نقيض ذلك الشيء، سواء في أسلوبه أو ألفاظه أو معانيه، وهذا ما قد يظهر للمبتدئ، ولكنه في الحقيقة والواقع لا تناقض، وسرعان ما يزول عند النظر والتأمل والفحص الدقيق لمن تأهل لذلك.

رابعًا: معنى التعارض في القرآن:

معنى التعارض في القرآن: أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبته لشيء والأخرى نافية فيه. ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأنه إن وقع كان نسخًا فالأول منهما قد نسخ حكمه بالثاني فلا أثر له في المعارضة.

فما أوهم الاختلاف بين الآيات أو التناقض أو التعارض فإن العلماء قد اجتهدوا في إزالته ودفعه بطرق متعددة فلا ثمةَ اختلاف أو تناقض أو تعارض، ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب " دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب " للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

* ثانياً: المراد بموهم الاختلاف ووقوعه عند السلف:

أورد السيوطي في الإتقان في النوع الثامن والأربعون: في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض، فقال: " المراد به ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزه عن ذلك كما قال: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا}، ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافا وليس به في الحقيقة، فاحتيج لإزالته.

وقد تكلم في ذلك ابن عباس رضي الله عنه وحكي عنه التوقف في بعضها، فعن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: رأيت أشياء تختلف علي من القرآن فقال ابن عباس ما هو؟ أشك قال: ليس بشك ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك قال: أسمع الله يقول: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}، وقال: {ولا يكتمون الله حديثا} فقد كتموا، وأسمعه يقول :{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} ثم قال: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} وقال: {لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين} حتى بلغ {طائعين} ثم قال في الآية الأخرى {أم السماء بناها} ثم قال: {والأرض بعد ذلك دحاها} وأسمعه يقول:{كان الله} ما شأنه يقول:{كان الله}؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه: " أما قوله: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين} فإنهم لما رأوا يوم القيامة وأن الله يغفر الذنوب ولا يغفر شركًا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا:{والله ربنا ما كنا مشركين}، فختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك "يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا"، وأما قوله: {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله:{خلق الأرض في يومين} فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخانًا فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قوله: {والأرض بعد ذلك دحاها}، يقول: جعل فيها جبلا، وجعل فيها نهرا وجعل فيها شجرا، وجعل فيها بحورا. وأما قوله: {كان الله} فإن الله كان ولم يزل كذلك وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك. فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك وإن الله لم يُنزل شيئا إلا وقد أصاب الذي أراد ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه وأصله في الصحيح.

قال ابن حجر في شرحه: حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها.

الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه.

الثالث: خلق الأرض أو السماء أيهما تقدم

الرابع: الإتيان بحرف"كان " الدالة على المضي مع أن الصفة لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس عن الأول أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني، أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث، أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة ثم خلق السموات فسواهن في يومين ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

وعن الرابع، بأنّ "كان" وإن كانت للماضي لكنها لا تستلزم الانقطاع بل المراد أنه لم يزل كذلك

فأما الأول فقد جاء فيه تفسير آخر، أن نفي المساءلة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط وإثباتها فيما عدا ذلك وهذا منقول عن السدي أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن نفي المساءلة عند النفخة الأولى وإثباتها بعد النفخة الثانية.

وقد تأول ابن مسعود نفي المساءلة على معنى آخر وهو طلب بعضهم من بعض العفو فأخرج ابن جرير من طريق زاذان قال أتيت ابن مسعود فقال يؤخذ بيد العبد يوم القيامة فينادى ألا إن هذا فلان فمن كان له حق قِبَلَه فليأت قال فتود المرأة يومئذ أن يثبت لها حق على أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون.

ومن طريق أخرى قال: لا يسأل أحد يومئذ بنسب شيئا ولا يتساءلون به ولا يمت برحم.

وأما الثاني، فقد ورد بأبسط منه فيما أخرجه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أن نافع بن الأزرق: أتى ابن عباس فقال: قول الله: {ولا يكتمون الله حديثا} وقوله: {والله ربنا ما كنا مشركين} فقال: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت لهم آتي ابن عباس ألقي عليه متشابه القرآن فأخبرهم أن الله إذا جمع الناس يوم القيامة قال المشركون إن الله لا يقبل إلا ممن وحّده فيسألهم فيقولون: {والله ربنا ما كنا مشركين} قال فيختم على أفواههم وتستنطق جوارحهم.

ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في أثناء حديث، وفيه: ثم يلقى الثالث فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك ويثني ما استطاع فيقول: الآن نبعث شاهدا عليك فيذكر في نفسه من الذي يشهد علي فيختم على فيه وتنطق جوارحه"

أما الثالث، ففيه أجوبة أخرى، منها أن "ثم" بمعنى الواو فلا إيراد وقيل: المراد ترتيب الخبر لا المخبر به كقوله: {ثم كان من الذين آمنوا}

وقيل: على بابها وهي لتعارف ما بين الخلقين لا للتراخي في الزمان وقيل: "خلق" بمعنى "قدر" وأما الرابع، وجواب ابن عباس عنه فيحتمل كلامه أنه أراد أنه سمى نفسه "غفورا رحيما" وهذه التسمية مضت لأن التعلق انقضى.

وأما الصفتان فلا تزالان كذلك لا ينقطعان لأنه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرحمة في الحال أو الاستقبال وقع مراده قاله الشمس الكرماني.

قال: ويحتمل أن يكون ابن عباس أجاب بجوابين أحدهما أن التسمية هي التي كانت وانتهت والصفة لا نهاية لها والآخر أن معنى "كان" الدوام فإنه لا يزال كذلك

ويحتمل أن يحمل السؤال على مسلكين والجواب على دفعهما كأن يقال هذا اللفظ مشعر بأنه في الزمان الماضي كان غفورا رحيما مع أنه لم يكن هناك من يغفر له أو يرحم وبأنه ليس في الحال كذلك لما يشعر به لفظ "كان"

والجواب عن الأول بأن كان في الماضي تسمى به وعن الثاني: بأن "كان" تعطي معنى الدوام وقد قال النحاة: كان لثبوت خبرها ماضيا دائما أو منقطعا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أن يهوديا قال له: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم؟ فقال: إنه كان في نفسه عزيزا حكيما

موضع آخر توقف فيه ابن عباس قال أبو عبيدة حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن {في يوم كان مقداره ألف سنة} وقوله: {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه الله أعلم بهما.

وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه وزاد: "ما أدري ما هما وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم" قال ابن أبي مليكة: فضربت البعير حتى دخلت على سعيد بن المسيب فسئل عن ذلك فلم يدر ما يقول فقلت

له: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس فأخبرته فقال ابن المسيب للسائل: هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيهما وهو أعلم مني.

وروي عن ابن عباس أيضا أن يوم الألف هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه ويوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

فأخرج ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا قال له: حدثني ما هؤلاء الآيات {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} و {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة} {وإن يوما عند ربك كألف سنة}

فقال: يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة والسموات في ستة أيام كل يوم يكون ألف سنة و{يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما} قال: ذلك مقدار المسير وذهب بعضهم إلى أن المراد بهما يوم القيامة وأنه باعتبار حال المؤمن والكافر بدليل قوله: {يوم عسير على الكافرين غير يسير}" أهـ.

* ثالثاً: أسباب الاختلاف وتوجيه أهل العلم لها:

قال الزركشي في البرهان: " للاختلاف أسباب:

أحدها: وقوع المخبر به على أنواع مختلفة وتطويرات شتى كقوله في خلق آدم: {من تراب} ومرة: {من حمأ مسنون} ومرة {من طين لازب} ومرة {من صلصال كالفخار} فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمإ والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

وكقوله {فإذا هي ثعبان} وفي موضع: {تهتز كأنها جان} والجان الصغير من الحيات والثعبان الكبير منها وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

الثاني: اختلاف الموضوع كقوله: {وقفوهم إنهم مسؤولون}، وقوله: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} مع قوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} قال الحَليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل والثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه وحمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة ففي موضع يسألون وفي آخر لا يسألون وقيل: إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ والمنفي سؤال المعذرة وبيان الحجة.

وكقوله: {اتقوا الله حق تقاته} مع قوله: {فاتقوا الله ما استطعتم} حمل الشيخ أبو الحسن الشاذلي الآية الأولى على التوحيد بدليل قوله بعدها: {ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} والثانية على الأعمال وقيل: بل الثانية ناسخة للأولى، وكقوله: {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} مع قوله: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم} فالأولى تُفهم إمكان العدل والثانية تنفيه.

والجواب: أن الأولى في توفية الحقوق والثانية في الميل القلبي وليس في قدرة الإنسان.

وكقوله: {إن الله لا يأمر بالفحشاء} مع قوله: {أمرنا مترفيها ففسقوا فيها} فالأولى في الأمر الشرعي والثانية في الأمر الكوني بمعنى القضاء والتقدير.

الثالث: لاختلافهما في جهتي الفعل كقوله: {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت} أضيف القتل إليهم والرمي إليه صلى الله عليه وسلم على جهة الكسب والمباشرة ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير:

الرابع: لاختلافهما في الحقيقة والمجاز كقوله: {وترى الناس سكارى وما هم بسكارى} أي سكارى من الأهوال مجازا لا من الشراب حقيقة.

الخامس: بوجهين واعتبارين كقوله: {فبصرك اليوم حديد} مع قوله: {خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي} قال قطرب فبصرك أي علمك ومعرفتك بها قوية من قولهم بصر بكذا أي علم وليس المراد رؤية العين قال الفارسي: ويدل على ذلك قوله: {فكشفنا عنك غطاءك}

وكقوله: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله} مع قوله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة وجوابه: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجه القلوب لذلك وقد جمع بينهما في قوله: {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}.

ومما استشكل أيضا قوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا} {فمن أظلم ممن كذب على الله} مع قوله: {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه} {ومن أظلم ممن منع مساجد الله} إلى غير ذلك من الآيات ووجهه أن المراد بالاستفهام هنا النفي والمعنى: "لا أحد أظلم" فيكون خبرا وإذا كان خبرا وأخذت الآيات على ظواهرها أدى إلى التناقص وأجيب بأوجه:

منها تخصيص كل موضع بمعنى صلته أي لا أحد من المعاندين أظلم ممن منع مساجد الله ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا وإذا تخصص بالصلات زال التناقض.

وقال الخطابي: سمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله: {لا أقسم بهذا البلد} فأخبر أنه لا يقسم به ثم أقسم به في قوله: {وهذا البلد الأمين} فقال أيما أحب إليك أجيبك ثم أقطعك أو أقطعك ثم أجيبك فقال اقطعني ثم أجبني فقال له اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا وعليه مطعنا فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ولكن القوم علموا وجهلت ولم ينكروا منه ما أنكرت ثم قال: له إن العرب قد تدخل لا في أثناء كلامها وتلغي معناها وأنشد فيه أبياتا.

تنبيه:

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: إذا تعارضت الآي وتعذر فيها الترتيب والجمع طلب التاريخ وترك المتقدم بالمتأخر ويكون ذلك نسخا وإن لم يعلم وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين علم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا له العمل بها قال: ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هذين الوضعين قال غيره: وتعارض القراءتين بمنزلة تعارض الآيتين نحو: {وأرجلكم} بالنصب والجر ولهذا جمع بينهما بحمل النصب على الغسل والجر على مسح الخف وقال الصيرفي: جماع الاختلاف والتناقص أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض وإنما التناقض في اللفظ ما ضاده من كل جهة ولا يوجد في الكتاب والسنة شيء من ذلك أبدا وإنما يوجد فيه النسخ في وقتين.
وقال القاضي أبو بكر: لا يجوز تعارض آي القرآن والآثار وما يوجبه العقل فلذلك لم يجعل قوله: {الله خالق كل شيء} معارضا لقوله: {وتخلقون إفكا} {وإذ تخلق من الطين} لقيام الدليل العقلي أنه لا خالق غير الله فتعين تأويل ما عارضه فيؤول "وتخلقون" على "تكذبون" وتخلق على" تصور".

فائدة

قال الكرماني عند قوله تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا}: الاختلاف على وجهين اختلاف تناقض وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر وهذا هو الممتنع على القرآن واختلاف تلازم وهو ما يوافق الجانبين كاختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر والنهي والوعد والوعيد." أهـ. والله أعلم.

خَصَائِصُ النَّبِيِّ ﷺ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ

دِرَاسَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ

إِعْدَادُ

د. يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الشِّبْلِ

الْأُسْتَاذِ الْمُشَارِكِ بِكُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ فِي جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد الصادق الأمين،وعلى آله الطيبين الطاهرين،وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإنَّ نبينا محمداً ﷺ أرسله الله ﷻ بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وإنَّ كتاب الله الكريم قد أنزله ﷻ على قلب سيد المرسلين هادياً للناس ومنيراً لهم طريق السعادة ، فكان لعلماء الإسلام على مرِّ القرون عناية متميزة ، واهتمام عظيم بهذا الكتاب العظيم ، يتأملونه و يتدبرون آياته، ويستخرجون حكمه، ويستنبطون أحكامه، ويكشفون ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه ، ويظهرون أسراره الكامنة وكنوزه المغمورة ، وكأنهم أمام بحر موّاج ،لا يُدرك غوره ،ولا يتوصل إلى أعماقه،ولا يُحاط بأسراره وعجائبه.

هذا وإنَّ من وسائل تدبره واستخراج حكمه واستنباط أحكامه وكشف أسراره الكتابةَ في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن الكريم ، أو في سورة معينة منه، وهو مما ظهر مؤخراً خدمة لكتاب الله ﷻ وإبرازاً لهداياته، وقد جاءت هذه الدراسة التي بين أيدينا لإبراز مكانة النبي

ﷺ بما أشادت به سورة الأحزاب من بيان خصائصه ﷺ التي خُصَّ بها وأكرمه الله بها وفضله بها على سائر النبيين والبشرية أجمعين والتي وسمتها بعنوان:

[خصائص النبي ﷺ في سورة الأحزاب،دراسة موضوعية].

ولقد كان من دوافع اختياري هذا الموضوع هو تجلية مقام النبي ﷺ وبيان مكانته وفضله ، وما خص به من خصائص تعظيماً لشأنه ﷺ وبياناً بأن الله ﷻ قد أكرمه به من منح وهبات لم تكن لغيره تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً مما يدل على جليل منزلته عند ربه. فمعرفة ذلك تجعل المسلم يزداد إيماناً مع إيمانه، ومحبةً وتبجيلاً لنبيه، وشوقاً له ويقيناً به. وتدعو غيرَ المسلم لدراسة أحوال نبيِّنا محمد ﷺ ومِن ثَمَّ الإيمانُ والتصديق به، وبما جاء به ويعلم أنه ﷺ جاء رحمة للعالمين،إن لم يكن من المكابرين المعاندين.

فمعرفة أحواله وشمائله وخصائصه وما يتعلق به ﷺ طريق لما يجب علينا تجاهه فنعرف له منزلته وقدره.

وهذه الدراسة جاءت استكمالاً لدراسة سابقة كانت في صفات النبي في سورة الأحزاب حيث أوردتِ السورةُ اثنتي عشرة صفة من صفاته ﷺ قمت بجمع تلك الصفات ، ودراستها دراسة تفسيرية ، وتجلية ما فيها من أسرار وهدايات .

وهذه الدراسة التي بين أيدينا جاءت لإبراز خصائص نبينا الكريم محمد ﷺ التي أشادت بها سورة الأحزاب حيث أوردت السورة عشر خصائص خص بها نبينا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد ﷺ فاستخراجها ودراستها سبيل للتعرف على سيرة نبينا وتعظيمه وتوقيره والاقتداء به والسير على نهجه والتمسك بسنته واقتفاء أثره.كما أن في هذا إنارة للقلوب وتبصرة لها ، وزيادة في الإيمان ومحبة للنبي المجتبى ﷺ وتعظيماً له.

وإنما وقع الاختيار على دراسة هذا الموضوع لأنَّ سورة الأحزاب تميزت عن غيرها من سور القرآن بالإشادة بذكر نبينا محمد ﷺ سواء مما يتعلق بصفاته الجليلة، أو بخصائصه الكريمة فأحببت أن أشارك في إبراز تلك الخصائص الكريمة والفضائل العظيمة المتميزة خدمة لكتاب الله ﷻ ووقوفاً على هداياته، وتوقيراً لنبينا محمد ﷺ وإبرازاً لشيء من حقوقه.

الكتابات السابقة:

كُتبت في خصائص نبينا محمد ﷺ كتابات عديدة وقفتُ على شيء منها إلا أنني لم أقف على من كتب في بيان خصائصه ﷺ من خلال ما جاء في سورة الأحزاب،وآياتها الكريمة التي تضمنت ذلك ، ودَرَسَها دراسة تفسيرية وأبرز هداياتها القرآنية . ومن هذه المؤلفات:

- بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ للعز بن عبد السلام(ت٦٦٠هـ)، وهو كتاب صغير الحجم، طبع بتحقيق:محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.
- غاية السول في خصائص الرسول ﷺ لابن الملقن(ت٨٠٤هـ)، وقد حققه الباحث:عبد الله بحر الدين عبد الله في رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سنة:(١٣٩٨هـ).
- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب للجلال السيوطي(ت٩١١هـ)، وهو مختصر من الخصائص الكبرى للمؤلف نفسه الذي سماه: أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب .

أسباب اختيار الموضوع:

– تعلقه بكتاب الله ﷻ وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

– أن الكتابة في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن، أو موضوع في سورة معينة مما برز مؤخراً خدمة لكتاب الله وإبرازاً لهداياته وكشفاً لأسراره، وقد جاءت هذه الدراسة في بيان مكانة النبي ﷺ بما أشادت به سورة الأحزاب من بيان خصائصه الجليلة ﷺ، لتكون دراسة تفسيرية، مجليةً ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، ومبرزةً ما حوته من أوجه بلاغية، وأسرار بديعية.

– أن سورة الأحزاب تناولت جوانب مهمة في حياة المسلم حيث اشتملت على أحكام وتعاليم وآداب تربوية للفرد والمجتمع وللرجال والنساء ، ولهذا كتب عمر بن الخطاب ﷺ(ت٢٣هـ):« أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ».[1]

لهذا الأمر ولرغبتي في خدمة كتاب الله تعالى عمدت إلى الشروع في دراسة هذا الموضوع وجمع شتاته، إسهاماً في إبراز الهدايات القرآنية في الأحكام والأخلاق والفضائل ، فاستعنت بالله فنظمت خطته في مقدمة وتمهيد وعشرة مباحث وخاتمة وفهارس .

المقدمة وفيها: أهمية البحث وسبب الكتابة فيه،وخطته،والمنهج المتبع،والدراسات السابقة.

التمهيد وفيه: التعريف بسورة الأحزاب.

توطئة: معنى الخصائص .

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائله (٢/٤٤).

المبحث الأول: نداؤه ﷺ بوصف النبوة.

المبحث الثاني:أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

المبحث الثالث: أن أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين .

المبحث الرابع:أن الله تولى تزويجه من غير ولي و لاعقد ولا مهر.

المبحث الخامس:أن الله ﷻ أباح له ﷺ التزوج من النساء ما شاء.

المبحث السادس: أن الله ﷻ أباح له ﷺ الهبة في النكاح.

المبحث السابع:أن القسم بين نسائه ﷺ ليس واجباً عليه.

المبحث الثامن:أنه ﷺ ليس أبا أحد من الرجال.

المبحث التاسع:أنه ﷺ خاتم النبيين.

المبحث العاشر: تعظيمه ﷺ بالصلاة عليه من الله تعالى وملائكته وعباده المؤمنين.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات .

منهج البحث:

كان المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

– أُورد في كل مبحث الآية أو الآيات المتعلقة به، ثم أبين معناها ووجه الدلالة منها ، وإبراز ما فيها من الأسرار البلاغية والهدايات القرآنية مما يذكره أهل التفسير.

– عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

– تخريج الأحاديث و الآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

– تعريف الأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

– توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

– وضع فهارس في آخر البحث.

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد وفيه: التعريف بسورة الأحزاب.

أولاً: اسم السورة:

تسمى السورة بسورة الأحزاب،لما ورد في بعض الآثار،ومنها:

-عن زِرِّ بن حبيش(ت٨٢هـ) قال:قال لي أُبي بن كعب ﷺ (ت٢٠هـ):كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها ؟ قال: قلت: ثلاثا وسبعين آية: فقال: قَط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ،ولقد قرأنا فيها:«الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله،والله عزيز حكيم».[1]

-عن حارثة بن مضرِّب قال:كتب إلينا عمر بن الخطاب ﷺ:« أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ».[2]

وهذه التسمية هي المثبتة في المصاحف وكتب التفسير، ولا يعرف لها اسم آخر، ووجه تسميتها بذلك ذكر غزوة الأحزاب فيها، فإن المشركين تحزبوا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٣٤/٣٥)،والنسائي في السنن الكبرى (٢٧١/٤)، برقم (٧١٥٠) ، والحاكم في المستدرك (٣٥٩/٤) وصححه، وحسن إسناده ابن كثير في تفسيره (٣٧٥/٦)، **وزر بن حبيش** بن حباشة الأسدي: تابعي،أدرك الجاهلية والإسلام،ولم ير النبي ﷺ ،كان عالماً بالقرآن،توفي (٨٢هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء للذهبي(١٨٢/٧)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٢١/٣)،**وأُبي بن كعب** الأنصاري، من أجلاء الصحابة،وسيد القراء شهد المشاهد كلها، توفي (٢٠هـ)،ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر(٢٧/١)، الإصابة لابن حجر(٣١/١).

(٢) تقدم تخريجـــــه ، **وحارثة بن مضرب** العبدي الكوفي، قيل إنه أدرك النبي ﷺ ، روى عن عمر وغيره،ينظر:

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦٥٥/١)، تهذيب التهذيب (١٦٦/٢).

على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب[1] على حرب المسلمين، ولكن الله ﷻ ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال.[2]

ثانياً:نوع السورة:

سورة الأحزاب مدنية، حكى الإجماعَ على ذلك جمع من المفسرين.[3]وقد دل على ذلك ما جاء عن ابن عباس ﷺ (ت٦٨هـ)أنه قال:« نزلت سورة الأحزاب بالمدينة».[4]

ومن تأمل آياتها جزم بأن السورة مدنية ، لما فيها من خصائص السور المدنية حيث تحدثت عن غزوة الأحزاب (الخندق) التي وقعت في شوال من السنة الخامسة من الهجرة، وعن حصار بني قريظة الذين ظاهروا المشركين ثم قتالهم، بعد وقعة الأحزاب، والحديث عن مواقف المنافقين وإيذائهم النبي ﷺ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها، وذكر بعض التشريعات المتعلقة بالنبي ﷺ وبغيره من المؤمنين.[5]

---

(١) غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بطن متسع كثير الشعوب والبطون، منازلهم مما يلي وادي القرى وجبل طيىء، ينظر:جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٢٤٨، وبنو قريظة:قبيلة من يهود خيبر،وقد دخلوا في العرب. ينظر: أسماء القبائل وأنسابها للقزويني ص٢٣٠، وأوباش العرب:جموعها،ينظر:لسان العرب (٣٦٧/٦).

(٢) ينظر: صفوة التفاسير للصابوني (٥١٠/٢)،التفسير المنير د.وهبة الزحيلي (٢٢٥/٢١)،

(٣) ينظر:المحرر الوجيز لابن عطية (٣٦٧/٤)، التفسير الكبير للرازي (١٨٩/٢٥)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٦/١٤).

(٤) ينظر:الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٢١٢

(٥) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٩٤-١١٨)،وينظر:صفوة التفاسير للصابوني(٥٠٩/٢)، التفسير المنير للزحيلي (٢٢٦/٢١)

ثالثاً:مقصد السورة:

مقصد السورة نصرة النبي ﷺ وتأييده بالأمر بالثبات على تقوى الله ﷻ ولزوم طاعته وتأدية واجبات رسالة ربه ﷻ على أكمل وجه ، مع الحذر من أن يفسد عليه أعداؤه من الكافرين والمنافقين دعوته ، وهذا النصر والتأييد يتمثل في النقاط التالية:

١) نصرتُه ﷺ على قوى البغي والشر الذين تحزبوا حول المدينة لقتاله وتأييدُهُ بجنود من الله ﷻ ، وعلى يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد وتعاونوا على المسلمين.

٢) نصرته وتأييده ﷺ بدفع أذى أعدائه من اليهود والمنافقين وخذلانهم وكشف عوارهم ، وتسليطه ﷺ عليهم بإخراجهم من المدينة.

٣) تأييده وإعزازه ﷺ بما ورد في السورة من خصال حميدة وصف بها ﷺ، وخصائص وفضائل لم تكن لغيره .[1]

رابعاً: أبرز موضوعات السورة:

اشتملت هذه السورة على موضوعات عديدة ، ففيها أحكام تشريعية،وآداب إسلامية ، ودروس وعبر، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أولاً: تعرضت السورة الكريمة إلى بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار، والتبني ، والإرث، والطلاق والعدة ، وتعدد زوجات النبي ﷺ الطاهرات والحكمة منه ، وفرضية الحجاب على نساء المؤمنين وبيان الحكمة منه ، وغير ذلك.

(١) ينظر: تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٣ .

ثانياً: تعرضت السورة الكريمة إلى بعض الآداب الاجتماعية من توقير النبي ﷺ وتبجيله والحذر من إيذائه أو إيذاء المؤمنين،والحديث عن أمهات المؤمنين وتوقيرهن وعدم نكاحهن،وعن بيت النبوة وآداب الدخول إليه، وآداب الوليمة ،وإبطال التبني بالقول والفعل بإيراد قصة النبي ﷺ وزواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها(ت٢٠هـ) بعد طلاقها من زيد بن حارثة ﷺ(ت٨ هـ).[1]

ثالثاً: تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) ، فبدأت بتذكير المؤمنين بنعمة النصر، حيث تكالبت عليهم قوى البغي والشر من كفار مكة وغيرهم من قبائل العرب واليهود من الخارج، وتمالأ عليهم المنافقون من الداخل ، فكان ذلك امتحاناً شديداً من الله للمؤمنين. فانكشف الغطاء عن خفايا المنافقين وطويتهم، من الخيانة والكيد للإسلام وأهله ، وعن اليهود ونقضهم العهد ، فكان النصر من الله لنبيه ﷺ والمؤمنين على أعدائهم بإرسال الريح والجنود ، فكانت تلك معركة مليئة بالدروس والعبر والتوجيهات.

رابعاً: ختمت السورة الكريمة ببيان عظم أمانة التكليف وثقلها، وأنها ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، ثم حملها هذا الإنسان بضعفه وجهله، وأن الله ﷻ سيجازي كل عامل بعمله.[2]

---

(١) زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، أمها أُميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ ، تزوجها النبي بعد طلاقها من زيد ﷺ سنة خمس من الهجرة وتوفيت سنة (٢٠هـ)، ينظر:الاستيعاب (٤/٣٠٦)، الإصابة (٤/٣٠٧)، وزيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي، تبناه النبي ﷺ وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ ،(الأحزاب: ٥)، شهد بدراً وما بعدها واستشهد في غزوة مؤتة،ينظر: الاستيعاب (١/٥٢٥)،الإصابة (١/٥٤٥).

(٢) ينظر:صفوة التفاسير (٢/٥٠٩)،تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٧ .

توطئة: تعريف الخصائص:

الخصائص جمع:خصيصة،وهي الصفة التي يتميز بها الشخص ويتفرد بها دون غيره.

قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ): " التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص: تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم ".[١]

وفي لسان العرب:"خصه بالشيء يخصه خصاً وخصوصاً وخُصوصية وخَصوصية والفتح أفصح وخصيصى وخصصه واختصه أفرده به دون غيره ".[٢]

فالخَصِيصة تعني: الانفراد بالشيء حيث لايشاركه به غيره وتكون سمة يتميز بها عن غيره على وجه التفضل ومزيد من العناية،قال تعالى:﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٣]

وخصائص نبينا وحبيبنا محمد ﷺ هي الفضائل والأمور التي انفرد بها ﷺ وامتاز بها عن غيره، إما عن إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، مثل كونه خاتم النبيين، وإما عن غيره من أمته،مثل إباحة النكاح له بأكثر من أربع،فتفضَّلَ الله ﷻ بهذه الخصائص عليه وخصَّه بها.

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص٣٠٠ والراغب الأصفهاني: الحسين بن المفضل، أديب مفسر لغوي، عاش ببغداد وتوفي سنة (٥٠٢)، ينظر:سير أعلام النبلاء (١٢٠/١٨)، معجم المفسرين (١٥٨/١).

(٢) لسان العرب (٢٤/٧) .

(٣) سورة آل عمران، الآية (٧٤).

وكما أنه ﷺ خصَّه الله ﷻ بخصائص انفرد بها عن غيره فقد خصّ بعض أنبيائه بخصائص تميزوا بها عن غيرهم ، فمثلاً نبي الله موسى عليه السلام خصه الله تعالى عن سائر الرسل عدا محمداً ﷺ بأن كلمه من غير واسطة بصوت مسموع وناداه من جانب الطور بالوادي المقدس،قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1] وخص نبيه سليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾[2] إلى غير ذلك مما خص به بعض أنبيائه .

وتخصيص نبينا محمد ﷺ بخصائص دل عليها القرآن الكريم ، ووردت السنة الصحيحة بها ﷺ ،وهي خصائص عظيمة ووفيرة مثل تخصيصه ﷺ بكون رسالته عامة للثقلين وأنه أعطي الكوثر، وأن الله قد أخذ العهدَ والميثاقَ على الأنبياء أن يؤمنوا به ،وبأن الله ﷻ أحلَّ له مكةَ ساعة من نهار،إلى غير ذلك من الخصائص الواردة بالكتاب والسنة[3]، إلا أن سورة الأحزاب تميزت بأنها تعرضت لطائفة من خصائصه بلغت عشراً، فدفعتني لأن أجمع تلك الخصائص، وأتعرض لها بالبيان والتفصيل في هذه الدراسة حتى نتعرف جميعاً فيها على عظيم قدره ﷺ وجليل رتبته وعلو مكانته عند ربه ﷻ .

---

(١) سورة النساء ، الآية (١٦٤).

(٢) سورة ص، الآيات (٣٥ – ٣٨).

(٣) ينظر: بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام ص٥٤، غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن (٣/١).

المبحث الأول: نداؤه ﷺ بوصف النبوة في القرآن الكريم :

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي أشارت إليها سورة الأحزاب نداؤه بوصف النبوة في القرآن الكريم ، حيث ناداه الله ﷻ بوصف النبوة في سورة الأحزاب خاصة خمس مرات[1]، هي على النحو التالي:

١) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.[2]

٢) وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .[3]

٣) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.[4]

٤) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾.[5]

---

(١) أما في القرآن الكريم فقد نودي بوصف النبوة في ثلاثة عشرة موضعاً، في سورة الأنفال، الآيات:(٦٤،٦٥،٧٠)، وفي التوبة، الآية:(٧٣)، وفي الأحزاب، الآيات: (١،٢٨،٤٥،٥٠،٥٩)، وفي الممتحنة، الآية:(١٢)، وفي الطلاق،الآية:(١)، وفي التحريم الآية(١،٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٢٨).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٤٥).

(٥) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

٥) وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.(١)

ونداؤه ﷺ بوصف النبوة في القرآن الكريم دون دعائه باسمه المجرد خصوصيةٌ خُصَّ بها ﷺ وأُثبت فيها فضله وقدره على سائر النبيين ، وذلك أن كل نبي من أنبياء الله ناداه ﷻ باسمه، نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾،(٢)وقوله: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾،(٣) وقوله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾،(٤)وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾،(٥) وهكذا.

وهذه النداءات الخمس الواردة في سورة الأحزاب، جاءت لأهداف متنوعة تتعلق بأحكام تشريعية،منها ما هو خاص به ﷺ،ومنها ما يتعلق به وبغيره،وإليك بيان هذه النداءات:

النداء الأول: وقد جاء في افتتاحية السورة ، وفيه ذكر شيء من واجبات النبي ﷺ نحو ربه ﷻ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.(٦)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (٣٣).

(٣) سورة هود، الآية (٤٦).

(٤) سورة الصافات، الآية (١٠٤).

(٥) سورة الأعراف، الآية (١٤٤).

(٦) سورة الأحزاب، الآية (١).

وافتتاح السورة بنداء النبي ﷺ بوصف النبوة، خصوصيةٌ خص الله ﷻ بها نبيه محمداً وأثبت فيها فضله على سائر النبيين، كما أن فيه إشارة إلى أن الأهم من سياق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ ، وأن الهدف الأساس من هذه السورة هو تحديد واجبات رسالة النبي ﷺ وتأديتها على أكمل وجه ، مع الحذر من أن يفسد عليه أعداؤه دعوته ورسالته ، وهذا ما يسمى ببراعة الاستهلال.(١)

النداء الثاني: وهو ما جاء لغرض التنويه بمقام أزواجه ﷺ، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.(٢)

وافتتاح هذه الآيات بنداء النبي ﷺ بوصف النبوة خصوصية له وتشريف وتكريم. وهذا النداء الثاني في هذه السورة، ووجه ارتباطه بالنداء الأول الذي افتُتحت به السورة هو أن فضائل الأخلاق تكاد تنحصر في شيئين: التعظيم لأمر الله ﷻ ،والشفقة على الخلق، ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه محمداً ﷺ إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لربه ﷻ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ .(٣) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة فبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة.(٤)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٢١/٢٤٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: (٢٨،٢٩).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (١).

(٤) ينظر: التفسير الكبير(٢٥/٢٥٠).

النداء الثالث: ما يتعلق بشؤون رسالته تجاه أمته،قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1]

وافتتاح الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة خصوصية وتشريف وتكريم ، وإشارة إلى بيان مهمته في دعوته الخلق ، وفي رسالته التي بعثه الله بها إلى الناس ، وقد خصه الله في هذه الآية بأن ناداه بأحسن الألقاب وأشرفها علواً لقدره، وتعظيماً لمقامه ﷺ ، فوصفه بوصف النبوة ، ثم ذكَّره بأبرز مهام رسالته وهي الشهادة على أمته وعلى أعمالهم خيرها وشرها ، والبشارة لمن آمن بالأجر العظيم ، والنذارة لمن كفر وعصى بالوعيد الشديد ، ودعوة الخلق إلى عبادة ربهم، وبيان أن رسالته إلى الخلق نور يشعُّ في الكون ، ويضيء للخلق فيهتدون بهداه ويستنيرون بنوره.[2]

النداء الرابع:ما يتعلق بأحكام تزوجه وسيرته مع نسائه ﷺ،قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.[3]

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٥،٤٦).

(٢) ينظر:تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

وافتتاح الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة خصوصية وتشريف له وتكريم ، وذلك ليرتب عليه ما أحل له من النساء توسعة عليه وتيسيراً له في تبليغ الرسالة ، وهن أربعة أصناف: أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، ثم ما أحل له من الإماء من السبي مما فتح الله عليه، ثم ما أحل من الأقارب من بنات العم والعمات وبنات الخال و الخالات ممن هاجر معه، دون من لم تهاجر لأن الهجرة شرف عظيم، ثم ما أحل له من نكاح الهبة الذي خُص به دون غيره من المؤمنين توسعة عليه وتيسيراً له.(١)

النداء الخامس:ما ورد في تبليغه ﷺ آداب النساء لأهل بيته ولعامة المؤمنات،قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.(٢)

ونداؤه ﷺ في الآية بوصف النبوة خصوصية له وتشريف وإجلال لقدره ، وذلك ليرتب عليه أمراً عظيماً من أمور الشريعة ينبغي العناية به وتبليغه للأمة، وهو الحجاب الذي فرضه على نساء المؤمنين، لما فيه من البعد عن مواطن الريب ومظان التُّهم وأذى الفساق.(٣) فبدأ بتوجيه الأمر لأزواجه بالحجاب ، لأن الغيرة عليهن أشد، ثم بناته ،لأن مسؤولية الوالد عن أولاده أعظم ، ثم عامة نساء المؤمنين.(٤)

---

(١) ينظر:تفسير القرآن العظيم (٦/٤٤١)،إرشاد العقل السليم (٤/٤٢٥).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٥٩).

(٣) ينظر:التفسير الكبير (٢٥/٢٣٠)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/١٥٦).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٧١ .

هذه هي مواطن نداءاته ﷺ بوصف النبوة في سورة الأحزاب ، وهو الوصف الذي يعدُّ من أبرز أوصافه ، وأخص خصائصه التي خُص بها، وأُثبت فيها فضله وجلالة قدره على سائر النبيين .

أما الآيات التي ذُكر فيها ﷺ باسمه، فلم تأت في القرآن الكريم إلا في أربعة مواضع، وقد جاءت على سبيل الإخبار لا على سبيل النداء،قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾،(١) وقال تعالى:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ،(٢)وقال تعالى: وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾،(٣) وقال تعالى:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾.(٤)

ومما يؤكد خصوصيته ﷺ بندائه بوصف النبوة أنه قد ورد النهي الصريح بأن ينادى باسمه، وألاَّ ينادى إلا بوصفه:يا رسول الله، يا نبي الله، تبجيلاً له وإجلالاً،قال الله تعالى:﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ ،(٥)

قال ابن عباس ﷺ(ت٦٨هـ):« كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم فنهاهم الله ﷻ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ ، وأمرهم أن يقولوا : يا نبي الله، يا رسول الله ».(٦)

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٤٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٣) سورة محمد، الآية (٢)).

(٤) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٥) سورة النور، الآية (٦٣).

(٦) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٦٥٤) .

فتبين مما تقدم أن من خصائص نبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب نداءَهُ بوصف النبوة الذي يعد من أشرف أوصافه دون دعائه باسمه المجرد، وأن ذلك خصوصية خصه الله ﷻ بها، وأثبت فيها فضله ﷺ وعلو مقامه وتميزه على سائر النبيين.

المبحث الثاني:أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم :

قال الله تعالى:﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ .(١)

فمن خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في سورة الأحزاب وميزه بها عن سائر الخلق أنه أولى بالمؤمنين وأقرب من أنفسهم ، وفي هذا تعظيم له ﷺ وتكريم وتشريف ، حيث خصه بهذه الخصوصية ، وبوَّأه هذه المنزلة، وفضَّله بها على سائر خلقه ، فجعله أولى وأقرب بالمؤمن من نفسه، وأبرَّ به منها، وأحب إليه منها من جميع الوجوه ، وهذه الولاية تعني أنه ﷺ أحق بالمؤمنين من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، فقد جاء عنه أنه قال:« ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ،».(٢)

قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ)،(٣) عند تفسير الآية: « أي: يجب عليهم أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها ، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب ، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه ، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه ، لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٦) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٧٩٥/٤) كتاب التفسير، باب { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } ،برقم (٤٥٠٣)،عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) **الزمخشري**: محمود بن عمر الخوارزمي ، برع في اللغة والنحو والبيان ، أخذ بمذهب الاعتزال ودافع عنه، توفي سنة (٥٣٨هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٤، طبقات المفسرين للداودي (٣١٤/٢).

النجاة والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار ».[١]

وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

– تقديم محبة النبي ﷺ على كل شيء حتى على محبة النفس ، بمعنى أن يكون النبي ﷺ أحب إلى المؤمن من كل شيء حتى من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ومعلوم أن المؤمن نفسه أحب إليه من غيرها،فهذه الأولوية تقتضي أن تكون محبة النبي ﷺ أولى من محبة كل شيء،وبذلك يحصل له اسم الإيمان،يوضح هذا ما جاء في قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .[٢]

ولما جاء عنه ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين ».[٣]

ولما قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من

(١) الكشاف (٣/٥٣١).

(٢) سورة التوبة، الآية (٢٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/١٤)،كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان،برقم (١٤)، ومسلم في صحيحه (١/٦٦) كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ،برقم (١٦)،عن أنس ﷺ .

نفسك »، فقال: يا رسول الله،والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ:« الآن يا عمر».[1]

–التسليم الكامل والانقياد التام لأمره ﷺ ولما جاء عنه ، فهذه الأولوية يلزم منها كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم لأمره، وإيثاره على ما سواه، قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ،[2] فليس لأحد من أهل الإيمان اختيار فيما حكم به الله تعالى وحكم به رسوله ﷺ ، بل السمع والطاعة والقبول والتسليم والإذعان لقضائهما ، وبهذا تتحقق الأولوية ، وتحصل له السعادة والفلاح في تسليمه الأمر لله ولرسوله وإذعانه بأنه ﷺ أولى به من نفسه، وأبر به منها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .[3]

– بيان أن هذه الأولوية تقتضي حرصه ﷺ الشديد وشفقته على أمته بإنقاذهم من الهلاك واجتهاده في نجاتهم، وحرصه على تخليصهم من الهلكات التي بين أيديهم فهو أولى بهم من أنفسهم ،لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو ﷺ يدعوهم إلى النجاة، فقد جاء ما يؤيد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.[4] وقوله:

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/٢٤٤٥)،كتاب الأيمان والنذور،باب كيف كانت يمين النبي ﷺ،برقم (٦٢٥٧)،عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

(٣) سورة النور، الآية (٥١).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.[١]

وجاء عنه ﷺ أنه قال: « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه »،[٢] وفي رواية: « وأنتم تفلتون من يدى ».[٣]

قال القرطبي (ت٦٧١هـ): " وهذا مثل لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا، فهو أولى بنا من أنفسنا، ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا اللعين[٤] بنا صرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ".[٥]

فتبين مما تقدم أن من خصائص نبينا الكريم ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في هذه السورة أنه أولى بالمؤمنين وأقرب من أنفسهم ، وأبرُّ بهم منها، وأحب

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١٧٨٧/٤) كتاب الفضائل ،باب شفقته ﷺ على أمته،برقم (٢٢٨٤) ،عن أبي هريرة ﷺ ، والحُجز: معاقد الإزار والسراويل ، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر(٨٩٧/١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١٧٩٠/٤)كتاب الفضائل ،باب شفقته ﷺ على أمته، برقم(٢٢٨٥) ، عن جابر ﷺ.

(٤) لعل القرطبي يشير إلى ما عاناه وعاينه من نكبة المسلمين في الأندلس على أيدي النصارى.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٢٢/١٤) ، **والقرطبي**: محمد بن أحمد الأنصاري من كبار المفسرين،من أهل قرطبة نزل مصر واستقر بها، وتوفي بها سنة(٦٧١هـ)، ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩ ، طبقات المفسرين للداودي (٦٩/٢).

إليهم منها من جميع الوجوه ، وفي هذا تكريم وتشريف له ﷺ ، حيث خصه ﷻ بهذه الخصوصية ، وبوَّأه هذه المنزلة، وفضَّله بها على سائر خلقه.

المبحث الثالث: أن أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين :

قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ ،[1]

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في سورة الأحزاب أن أزواجه الطاهرات رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن أمهاتُ المؤمنين، وفي هذا رفعٌ لمقام أزواج النبي ﷺ حيث بوأهن ﷻ منزلة الأمومة لجميع المؤمنين، تكريماً من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ وتشريفاً له ، وهذه الأمومة تتمثل في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ،دون الخلوة والمحرمية .[2] فهن أمهات للمؤمنين أي: في تحريم نكاحهن على التأبيد ، ووجوب إجلالهن وتعظيمهن ، إجلالاً لرسول الله ﷺ وتعظيماً له .

قال الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ):"أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع".[3]

فهذه الخصيصة خص بها سيد المرسلين ﷺ حيث جعلت أزواجه الطاهرات أمهات للمؤمنين تكريماً وتشريفاً وإعظاماً وإجلالاً له ﷺ ، وفيه تكريم لهن رضي الله عنهن جميعاً وأرضاهن وتشريف وتعظيم لحقهن ، وإعلاء لقدرهن بين الأمة ، ولا ريب أن في هذا تكريماً للمؤمنين وحفزاً لهم لمعرفة قدر أزواج نبيهم ﷺ وفضلهن وما لهن على المؤمنين من حقوق وواجبات .[4]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٦).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٨٢/١٤) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٨١/٦) **وابن كثير**: إسماعيل بن عمر الدمشقي،كان مفسراً محدثاً مؤرخاً،توفي سنة(٧٧٤هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي(١١١/١)،البدر الطالع للشوكاني(١٥٣/١)،

(٤) ينظر: تأملات في قوله تعالى: " وأزواجه أمهاتهم " د. عبد الزراق البدر، مجلة البحوث الإسلامية العدد ٥٣ ص٢٦٥ .

فإذا علم منزلة أمومة أزواج النبي ﷺ لجميع المؤمنين، وفضلهن وحقهن على المؤمنين من التقدير والإجلال والتوقير والإكرام ، فإن هذا يقتضي تحريمهن على المؤمنين؛ فلا يجوز نكاحهن على التأبيد، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾،[1] أي:حكم أمومة أزواج النبي ﷺ للمؤمنين حكم دائم في حياته وبعد مماته ، وإنما جاء التصريح بأنه حكم ثابت من بعده،لأن ثبوت ذلك في حياته قد عُلم من قوله تعالى:﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.[2]

ولقد جاء تأكيد هذا التحريم في الآية بمؤكدات منها:تأكيد الظرف (بعدُ) بإدخال (من) ، ثم تأكيد عمومه بظرف (أبداً) ، وفائدته ليُعلم أن هذا التحريم تحريم مؤبد لا يتطرقه النسخ ،ثم زيد ذلك تأكيداً وتحذيراً بقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، فالإشارة إلى ما ذكر من إيذاء النبي ﷺ والتزوج بأزواجه ،ووصفه بالعظيم أي: في الإثم والجريمة بقرينة المقام ، وتقييد العظيم بكونه عند الله للتهويل والتخويف لأنه عظيم في الشناعة.[3]

فإذا علم أن أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين في الحرمة والاحترام، والتوقير والإعظام، وأن هذا يقتضي تحريم نكاحهن على المؤمنين تحريماً مؤبداً فهل يقال:إن النبي ﷺ أبٌ للمؤمنين ؟

تكلم على هذه المسألة كثير من المفسرين عند تفسيرهم لقوله ﷻ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ،حيث إنَّ هذه الآية الكريمة يفهم منها أن النبي ﷺ أبٌ لهم ،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٩٤) .

لأن أزواجه أمهات لهم، وقد جاء عن ابن عباس ﷺ وغيره أنه كان يقرأ هذه الآية:«النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم »[١]

فالأبوة في هذه القراءة أبوة دينية ، بمعنى أنه يربيهم ويرشدهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم لما ثبت عنه ﷺ أنه قال: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ».[٢] فهذا فيه دلالة على أن النبي ﷺ أب للمؤمنين أبوة نصح وبيان وتوجيه وإرشاد . ومن ذهب إلى أنه لا يجوز أن يسمى النبي ﷺ أباً للمؤمنين،استدلالاً بقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ،[٣] فيجاب عليه بما أجاب به القرطبي(ت٦٧١هـ) في تفسيره فقال:" والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أب للمؤمنين: أي: في الحرمة ، وقوله تعالى:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، أي: في النسب ".[٤] فلا تعارض بين الأبوة المثبتة والأبوة المنفية ، فالأبوة المنفية هي أبوة النسب ، وأما الأبوة المثبتة فهي أبوة التعليم والنصح والإرشاد .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢ /٤١٥) وقال:صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه ابن جرير في تفسيره (١٢٢/٢١) عن مجاهد ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣١١٥/٩) عن عكرمة .

(٢) رواه النسائي في سننه (٣٨/١) كتاب الطهارة،باب النهي عن الاستطابة بالروث ،برقم (٤٠)، وأبو داود في سننه (٧/١)كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة برقم (٨)، وابن ماجه في سننه (١١٤/١) كتاب الطهارة،باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرِّمَة برقم (٣١٣)، والإمام أحمد في المسند (٣٢٦/١٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، عن أبي هريرة ﷺ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١٤) .

المبحث الرابع:أن الله تولى تزويجه من غير ولي و لاعقد ولا مهر :

قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ .(١)

الوطر: الأرب والحاجة، وقضاء الوطر بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، والمراد:انقضاء العدة ،لأن القضاء الفراغ من الشيء على التمام ،فكأنه قال:فلما قضى زيد ﷺ حاجته من نكاح زينب رضي الله عنها فطلقها وانقضت عدتها فلم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة من فراقها زوجناكها.(٢)

وفيه دلالة على أن زيداً ﷺ هو الذي فارقها مختاراً من غير أن يكرهه أحد، كما أن التصريح باسمه ﷺ تشريف ومنقبة له وتنويه به ، حيث لم يذكر غيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين،(٣) ولذا قيل: كان يقال له زيد بن محمد ، فلما زال عنه هذا الشرف حين نزل قوله تعالى:﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾(٤) شرَّفه الله ﷻ بخصيصة لم يكن يخص بها أحداً من الصحابة، وهي التصريح باسمه في القرآن الكريم،وفي هذا تأنيس له وتعويض من الفخر بأبوَّة محمد ﷺ.(٥)

وفي قوله تعالى:﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾، خصيصة من خصائص النبي محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في سورة الأحزاب وميَّزه بها عن سائر الخلق وهي أن الله تولى تزويجه من فوق سبع سموات من غير عقد ولا ولي ولا مهر .

قال القرطبي (ت٦٧١هـ) في تفسيره: " ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٣٧).

(٢) ينظر: نظم الدرر (١٥/٣٥٩)، فتح القدير (٤/٢٨٤).

(٣) ينظر: منحة الكريم الوهاب ص١١٤

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٥).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٢٥) .

حقوقنا ومشروعاً لنا ، وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين ".[١]

وجاء في تحفة الأحوذي: " قوله:﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، أي:لم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته ، وهذا من خصوصياته التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ".[٢]

ولذا كانت زينب رضي الله عنها تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول:« زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات ».[٣]

وفي الحديث:" أنه لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة ﷺ: « اذهب فاذكرها علي »، فانطلق حتى أتاها وهي تُخَمِّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري – حتى ما أستطيع أن أنظر إليها – أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي ﷻ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن "[٤]

وجاءت صيغة الماضي في قوله:﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾، للتأكيد على أن أمر الزواج قضي وقدر وأنه صائر بأمر الله ﷻ ،لقوله تعالى:﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾،أي:كان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٢٥).

(٢) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٩/٦٩)

(٣) رواه البخاري في صحيحه(٦/٢٦٩٩)كتاب التوحيد،باب{ وكان عرشه على الماء} برقم (٦٩٨٤)،عن أنس ﷺ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢/١٠٤٦) كتاب النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش برقم (١٤٢٨)، عن أنس ﷺ .

قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة، وفيه إشارة إلى أن زواج نبينا محمد ﷺ من زينب رضي الله عنها لم يكن لقضاء شهوة ، بل لحكمة تشريعية ، أوضحها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ .[1]

قال ابن كثير(ت٧٧٤هـ): " أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ".[2]

فكان هذا الزواج بأمر من الله ﷻ ،لا لشهوة في نفسه ﷺ ، وكان لغرض نبيل وغاية شريفة، وهو إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أن الابن الدَّعي لا يجوز لمن ادعاه وتبناه أن يتزوج بزوجته من بعده ، ظناً منهم أنه بمنزلة الابن الحقيقي .[3]

(١) ينظر:التفسير الكبير (٢١٢/٢٥)، تفسير القرآن العظيم (٤٢٧/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٢٧/٦).

(٣) ينظر:روائع البيان (٣٢٢/٢).

المبحث الخامس:أن الله ﷻ أباح له ﷺ التزوج من النساء ما شاء :

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1]

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في سورة الأحزاب أن الله قد أباح له التزوج من النساء بأكثر من أربع، وقصر غيره من المؤمنين على أربع، إكراماً منه ﷻ لنبيه وتشريفاً له وتوسعة عليه لما رزقه الله من القوة ، وتيسيراً عليه ، ليتفرغ لشؤون الرسالة ونشر الدعوة، وتخفيفاً عليه ، ورحمة به ﷺ .

وافتتاح الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً له ، وليرتب عليه ما أكرمه به ﷻ وأنعم عليه مما أحله له من أصناف النساء ، فبدأ بأزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، ثم ما أحل له من الإماء من السبي مما فتح الله عليه، ثم ما أحل من الأقارب من بنات العم والعمات ، وبنات الخال والخالات ممن هاجر معه، ثم ما أحل له من نكاح الهبة الذي خص به دون غيره من المؤمنين توسعة عليه وتيسيراً له.[2]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٤٤١)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٩

فاختص الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ في هذه الآية دون غيره من المؤمنين فأباح له التزوج من النساء بأكثر من أربع، وقصر غيره من المؤمنين على أربع ، إكراماً منه لنبيه ﷺ وتوسعة عليه وتيسيراً له في تبليغ رسالة ربه ﷻ .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، فقيل: إن المراد أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، وعليه تكون الآية محللة له ﷺ نكاح جميع النساء حاشا ذوات المحارم ، وأن هذه خصيصة خصه الله بها حيث أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها من غير حد، وهو قول طائفة من المفسرين.[1]

وقيل: إن المراد أحللنا لك أزواجك، أي: الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها، وهو قول جمهور المفسرين،[2] وذلك أن الله ﷻ لما أمر نبيه محمداً ﷺ أن يخير نساءه فاخترنه على الدنيا وزينتها،حرَّم عليه التزوج بغيرهن والاستبدال بهن، مكافأة لهن على فعلهن لقوله تعالى:﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾.[3] ولقول ابن عباس ﷺ : « نهي رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئًا ».[4]

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/١٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٣)،فتح القدير (٤/٢٩١).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/١٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٣)،تفسير القرآن العظيم (٦/٤٤٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٥٢).

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/٢١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣١٤٦).

وعلى هذا فإنَّ القائلين بالإباحة مطلقاً وأنَّ الله قد أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها يرون أن الآية: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ ،[1] ناسخة للآية: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾.[2]

ووجه النسخ- عندهم – التعارض بين الآيتين، فإن إحداهما تبيح والأخرى تحرم ، وقالوا: إن الله ﷻ لما حرم على نبيه ﷺ النساء وقصره على نسائه اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة تطييباً لقلوبهن ومكافأة لهن على ذلك، نسخ ذلك التحريم بإباحة التزوج بمن شاء من النساء، وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف، واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها: « ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء ».[3]

وأما الجمهور فعلى أنه لا نسخ بين الآيتين لإمكان الجمع ، فإن الله ﷻ أثاب نساء النبي ﷺ ورضي عنهن حين اخترنه بأن قصره عليهن فلم يحل له غيرهن لما اخترنه، فلا يحل له النساء من بعد اللاتي أحلهن الله له، ولما جاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال في قوله:﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾،: « نهي

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٥٢).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٤/٢٢)، وأحمد في مسنده (١٨٠/٦)،والدارمي في سننه (٢٠٥/٢)كتاب النكاح باب قول الله تعالى { لا يحل لك النساء من بعد }) برقم (٢٢٤١)،والنسائي في سننه (٥٦/٦)كتاب النكاح،باب ما افترض الله ﷻ على رسوله ﷺ وحرمه على خلقه ليزيده إن شاء الله قربة إليه، برقم (٣٢٠٥)، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٣٠٠٤).

رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئًا »،[1] وهذا رأي عامة المفسرين[2] واختيار الطبري(ت٣١٠هـ) حيث يقول: " وأولى الأقوال عندي بالصحة قول من قال: معنى ذلك لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك بقولي: إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهن إلخ، وإنما قلت ذلك أولى بتأويل الآية،لأن قوله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ ﴾ ، عقيب قوله:﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾، وغير جائز أن يقول: قد أحللت لك هؤلاء ولا يحللن لك إلا بنسخ أحدهما صاحبه، وعلى أن يكون وقت فرض إحدى الآيتين قبل الأخرى منهما، فإذا كان ذلك كذلك ولا برهان ولا دلالة على نسخ حكم إحدى الآيتين حكم الأخرى، ولا تقدم تنزيل إحداهما قبل صاحبتها وكان غير مستحيل مخرجهما على الصحة لم يجز أن يقال إحداهما ناسخة الأخرى ".[3]

قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) بعد ذكر اختيار الطبري:" وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف" .[4]

قلت: وأما حديث عائشة المتقدم الذي استدل به القائلون بالنسخ فقد ذكر القاضي ابن العربي(ت٥٤٣هـ)، بأنه حديث ضعيف لا تقوم به حجة، وأنه على فرض صحته خبر آحاد، وأخبار الآحاد لا ينسخ بها القرآن المتواتر.[5] وعلى

---

(١)تقدم تخريجه .

(٢) ينظر:جامع البيان (٢٢/٢١-٢٢)، الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٢١٤،الكشاف (٣/٥٥٣)، أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٥٧١)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٤١).

(٣) جامع البيان (٢٢/٢٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/٤٤٩).

(٥) ينظر: الناسخ والمنسوخ لابن العربي (٢/٣٣٣)،**وابن العربي**: محمد بن عبدالله الأندلسي من فقهاء المالكية ومن علماء الأندلس، توفي سنة (٥٤٣هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص٩٠، طبقات المفسرين للداودي (٢/١٦٧).

القول بأن الحديث صحيح فإنه لا يتعارض مع الآية المدعى عليها النسخ فإن الله ﷻ بين أنه لا يحل لنبيه محمد ﷺ من بعد ما أحل له من أصناف النساء المذكورات في قوله: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ ، فإنها بينت الأصناف التي يتزوج منها النبي ﷺ، والحديث يؤيد ذلك ، فقد أبيح له من أصناف تلك النساء ما شاء والله أعلم.[١]

وعليه يكون المراد بأزواجه اللاتي أحلهن له أزواجه اللاتي في عصمته وقت نزول الآية ، بدليل قوله: ﴿ أَحْلَلْنَا ﴾ بصيغة الماضي، ولأن الله ﷻ سمّاهن أزواجه فهن اللاتي في عصمته زمن نزول الآية ، ولقوله: ﴿ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ ،أي: فيما مضى ، فيكون المراد بالإحلال تأكيد الحل والامتنان عليه ودفع ما يعاب به من اجتماع تسع نسوة في عصمته.[٢] فلما خص الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ بهذه الخصوصية دون غيره من المؤمنين من إباحة التزوج من النساء بأكثر من أربع، إكراماً منه له ﷺ ، وامتناناً وتوسعة عليه ، وتيسيراً له في تبليغ الرسالة ، وقد نزلت آية التخيير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾[٣] فخيَّرهن ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة.ويؤيد هذا التأويل ما ورد عن

---

(١) ينظر: فتح المنان في نسخ القرآن، علي حسن العريض ص٣٢٨ ، الآيات المنسوخة عند السيوطي،يوسف بن عبد العزيز الشبل .

(٢) ينظر: منحة الكريم الوهاب ص١٣٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٢٨).

ابن عباس أنه قال في قوله :﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾،«نهي رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأُوَل شيئاً »[1]

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ ،:" إن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضي عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم في الآية.فلما اخترن رسول الله ﷺ ،كان جزاؤهن أن الله قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن،أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن،ولو أعجبه حسنهن ".[2]

ولما أباح الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ التزوج من النساء بأكثر من أربع، إكراماً منه ،وامتناناً وتوسعة عليه، وخصه بهذه الخصوصية دون غيره من المؤمنين طعن فيه من طعن من المنافقين في كثرة أزواجه فدفع الله ﷻ ذلك المطعن عن نبيه ﷺوبين أنه طعن،بما لا مطعن فيه،فقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ [3]

قال ابن سعدي (ت١٣٧٦هـ):"هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه،وأنه طعن بما لا مطعن فيه،فقال:﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ أي: إثم وذنب،﴿ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ أي:قدر له من الزوجات، فإن هذا، قد أباحه الله للأنبياء قبله ".[4]

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/٤٤٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٦ ، **وابن سعدي**: عبدالرحمن بن ناصر السعدي من علماء القصيم برع في فنون شتى وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٣٧٦هـ. ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص(٢٩٢)، معجم المفسرين عادل نويهض (١/٢٧٩).

المبحث السادس: أن الله ﷻ أباح له ﷺ الهبة في النكاح :

قال تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ،[1]

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في هذه السورة الجليلة أنه قد أباح له الهبة في النكاح من غير مهر، إكراماً منه وتشريفاً وتوسعة عليه لما رزقه الله من القوة، وتيسيراً عليه ، ليتفرغ لشؤون الرسالة ونشر الدعوة، وتخفيفاً عليه ﷺ .

فقوله: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ﴾عطف على قوله: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾،أي:وأحللنا لك امرأة مؤمنة تهب نفسها من غير صداق، وهذه خصوصية له ﷺ دون غيره من المؤمنين، والقيد بالمؤمنة يدل على أن غير المؤمنة لا تحل له كالكتابية،لأنها لا تكون أماً للمؤمنين، قال ابن العربي (ت ٥٤٣هـ):" والصحيح عندي تحريمها عليه ، وبهذا يتميز علينا فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقصر هو ﷺ لجلالته على المؤمنات ".[2]

وقوله تعالى: ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ،أي: إن وهبت المرأة نفسها وقبلها النبي ﷺ حلت له من دون مهر ولا عقد ولا ولي

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

(٢) أحكام القرآن (١٥٥٩/٣).

، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك ، وإظهار لفظ " النبي " في الموضعين في مقام الإضمار إشارة إلى علو شأنه وسمو منزلته وجلالة قدره.(١)

وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي ﷺ وأنه لا يجوز لغيره لقوله:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ،أي: ما فرضه الله ﷻ على المؤمنين في حق أزواجهم من شروط العقد وحقوقه فإن ذلك فرض عليهم لا يجوز الإخلال به.(٢)

وقد جاء عن النبي ﷺ ما يؤكد تلك الخصوصية، وذلك لما جاءته امرأة وقالت: يارسول الله، إني قد وهبتُ نفسي لك ، فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة،فقال رسول الله ﷺ:« هل عندك من شيء تُصدقها إياه ؟ » فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: « إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك، فالتمس شيئاً ». فقال: لا أجد شيئاً. فقال: « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: « هل معك من القرآن شيء؟ » قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا ، لسور يسميها.فقال له رسول الله ﷺ: « زوجتكها بما معك من القرآن ».(٣)

واختلف في الواهبات أنفسهن له ﷺ هل قبل منهن أحداً ؟ كما اختلف في عددهن وأسمائهن،فقيل: إنهن أربع: ميمونة بنت الحارث، وخولة بنت حكيم ،وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر رضي الله عنهن أجمعين.(٤)

---

(١) ينظر: الكشاف (٣/٥٥٠) ، التحرير والتنوير (٢٢/٦٩).

(٢) حكى الإجماع الشوكاني في تفسيره (٤/٢٩٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/١٩٦٨)، كتاب النكاح،باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح،برقم(٤٨٢٩)، ومسلم في صحيحه (٤/١٤٣)كتاب النكاح ،باب الصداق برقم (٣٥٥٢).

(٤) ينظر: الكشاف (٣/٥٥٠)، وميمونة بنت الحارث الهلالية،أم المؤمنين وآخر أزواجه ﷺ وآخر من مات منهن، ينظر:الاستيعاب (٤/٣٩١)، الإصابة (٤/٣٩٧). وخولة بنت حكيم،

والصحيح أنه لم ينكح النبي ﷺ من الواهبات أنفسهن أحداً ولم يكن عنده منهن شيء، لما جاء عن ابن عباس(ت٦٨هـ) ﷺ أنه قال: « لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ».[١]

قال ابن كثير(ت٧٧٤هـ): " أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته " .[٢]

وقال ابن حجر (ت٨٥٢هـ)في الفتح:" والمحفوظ أنه لم يدخل بأحد من الواهبات".[٣]

فتبين مما تقدم أن نكاح الهبة من غير صداق من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في هذه السورة الجليلة، إكراماً منه وتشريفاً وتوسعة عليه لما رزقه الله من القوة، وتيسيراً عليه ، ليتفرغ لشؤون الرسالة ونشر الدعوة، والله أعلم.

= السلمية امرأة عثمان بن مظعون، يقال لها أم شريك،كانت امرأة صالحة فاضلة، ينظر: الاستيعاب (٢٨١/٤)، الإصابة (٢٨٣/٤). **وزينب بنت خزيمة** بن الحارث الهلالية، أم المؤمنين، تسمى أم المساكين، كانت تحت عبيدة بن الحارث فقتل ببدر فتزوجها النبي ﷺ ولبثت عنده ثمانية أشهر ثم ماتت،ينظر:الاستيعاب (٣٠٥/٤)، الإصابة (٣٠٩/٤)، **وأم شريك**: القرشية العامرية، اسمها غُزَية – بضم الغين وفتح الزاي– بنت جابر بن عون، كانت من الواهبات أنفسهن للنبي= ﷺ =،وذلك بمكة،ينظر: الاستيعاب (٤٤٥/٤)، الإصابة(٤٤٦/٤)

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٢٢)، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح (٣٨٦/٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٤٤/٦).

(٣) فتح الباري (٣٨٦/٨)،**وابن حجر**: أحمد بن علي العسقلاني،من أئمة العلم،ومن الحفاظ،له تصانيف كثيرة،توفي(٨٥٢هـ)،ينظر:الضوء اللامع للسخاوي(٣٦/٢)،البدر الطالع للشوكاني (٨٧/١).

المبحث السابع:أن القسم بين نسائه ﷺ ليس واجباً عليه :

قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ ،[1]

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في هذه السورة الجليلة أنه لما أباح له التزوج من النساء بأكثر من أربع، وجعل ذلك من خصائصه ، وقصر غيره من المؤمنين على أربع ، و أباح له الهبة في النكاح من غير مهر، وجعله خالصاً له من دون المؤمنين خصه بخصوصية أخرى تميز بها عن غيره ، فجعل القَسْم بين نسائه أمراً غير واجب عليه ، فأباح له أن يسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن ، فصار حق المبيت حقاً له ﷺ لا لهن ، بخلاف سائر المؤمنين ، إكراماً منه ﷻ وتشريفاً له ﷺ وتوسعة عليه، وتيسيراً ، ليتفرغ لشؤون الرسالة ونشر الدعوة.

والإرجاء : التأخير ، يقال:أرجأ الأمر إذا أخره ، مهموزاً ومخففاً، والإيواء:الإرجاع، من المأوى وهو المكان، يقال: آوى ، إذا رجع إلى مكانه.[2]

وللمفسرين في عود الضمير الوارد في قوله:﴿ مِنْهُنَّ ﴾ ، قولان:

القول الأول: أنه عائد على أزواجه اللائي في عصمته ﷺ ،أي: لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتضاجع من شئت، وتترك من شئت، يدل على ذلك الآيةُ التي قبلها:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾،[3] وقولُه بعدها:﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥١).

(٢) ينظر: اللسان (٨٣/١) رجأ ، (٥١/١٤) أوي.

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾، وما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺكان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية:﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾، فقيل لها: ما كنت تقولين؟ فقالت:« كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً».[1] فالحديث يدل على أن الآية نزلت في القَسْم بين نسائه وأنه غير واجب عليه ﷺ ،وفي هذا توسعة من الله ﷻ على نبيه ﷺ حيث أباح له أن يسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن فصار حق المبيت حقاً له لا لهن بخلاف بقية المؤمنين ، وهذه من خصائصه التي تميز بها عن غيره مما جاء في هذه السورة ، ومع ذلك كان ﷺ يقسم لهن وإن لم يكن القسم عليه واجباً.[2]

القول الثاني: أنه عائد على الواهبات أنفسهن، أي: تؤخر من شئت من الواهبات أنفسهن فلا تقبلها،ومن شئت قبلتها،[3] يدل على ذلك ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت:« كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى:﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِيٓ إِلَيْكَ

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٧٩٨/٤)، كتاب التفسير، باب قوله:{ ترجئ من تشاء منهن} برقم (٤٥١١) ومسلم في صحيحه (١١٠٣/٢) كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية،برقم(١٤٧٦).

(٢) ينظر:جامع البيان (١٨/٢٢)،الجامع لأحكام القرآن (١٣٨/١٤)،تفسير القرآن العظيم (٤٤٦/٦)

(٣) ينظر:جامع البيان(١٩/٢٢)،الجامع لأحكام القرآن(١٣٨/١٤)،تفسير القرآن العظيم(٤٤٦/٦)

مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾، قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ».[1]

قال ابن كثير بعد عرضه هذين الرأيين: " فهذا الحديث – يعني حديث عائشة في القَسْم– يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القَسْم، وحديثها الآخر يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن".[2]

فظهر مما تقدم أن القَسْم بين نسائه ﷺ في حقه غير واجب ، بل إنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، فأبيح لـه أن يسقط حق بعض نسائـه في المبيت معهن ، فصار حق المبيت حقاً له ﷺ ، وجعل ذلك من خصوصياته ﷺ التي خص بها في هذه السورة إكراماً منه ﷻ وتشريفاً له ﷺ وتوسعة عليه، وتيسيراً .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٧٩٧/٤)، كتاب التفسير، باب قوله:{ ترجئ من تشاء منهن} برقم (٤٥١٠) = = ومسلم في صحيحه (١٠٥٨/٢)، كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها برقم(١٤٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٤٦/٦).

قال الفراء (ت٢٠٧هـ):" هذا ممَّا خُصّ به النبي ﷺ أن يجعل لمن أحب منهن يوماً أو أكثر أو أقل،ويعطّل مَنْ شاء منهن فلا يأتيه ، وقد كان قبل ذلك لكل امرأة من نسائه يوم وليلة".[1]

وقال الجصاص(ت٣٧٠هـ):" وهذه الآية تدل على أن القسم بينهن لم يكن واجباً على النبي ﷺ وأنه كان مخيراً في القسم لمن يشاء ، وترك من شاء منهن ".[2]

ومع أن نبينا محمداً ﷺ كان مخيراً في القَسْم بين أزواجه لمن يشاء ، وترك من شاء منهن، وأن الأمر فيه قد جُعل إليه ، إلا أنه ﷺ لم يأخذ لنفسه به على أزواجه، بل إنه ﷺ مع ما جعل الله تعالى له من التوسعة يسوي بينهن في القسمة،تطييباً لنفوسهن، ولذا يقول الزهري(ت١٢٤هـ): " ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحداً من أزواجه بل آواهن كلَّهن ".[3]

---

(١) معاني القرآن (٣٤٦/٢)،**والفراء:** يحيى بن زياد الديلمي إمام أهل العربية ومن أعلم أهل الكوفة بالنحو،مات (٢٠٧هـ)، ينظر:تاريخ بغداد للبغدادي(١٤٩/١٤)،بغية الوعاة للسيوطي(٣٣٣/٢).

(٢) أحكام القرآن (٥٤١/٣)، **والجصاص:**أحمد بن علي الرازي، أبو بكر من كبار الحنفية،سكن بغداد ومات فيها سنة(٣٧٠هـ)، ينظر:الدرر السنية في طبقات الحنفية للغزي (٤١٢/١)، طبقات المفسرين للداودي(٥٦/١).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره(١١٨/٢)، **والزهري:** محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من كبار التابعين ومن أشهر الحفاظ والفقهاء توفي سنة(١٢٤هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٩٤/٩).

المبحث الثامن:أنه ﷺ ليس أبا أحد من الرجال :

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ،[1]

من خصائص نبينا محمد ﷺ التي خصه الله ﷻ بها في هذه السورة الجليلة وهي أنه لم يكن أبا أحد من الرجال ، وقد تقرر فيما تقدم أن نبينا محمداً ﷺ أبٌ للمؤمنين كلهم،وأزواجه أمهاتهم، وأن هذه الأبوة أبوة تبجيل وتعظيم، وتعليم ونصح وإرشاد ، لا أبوة نسب أو ادعاء.

وقد ذكر القرطبي(ت٦٧١هـ) في تفسيره: " أن الآية نزلت لما تزوج النبي ﷺ من زينب رضي الله تعالى عنها قال الناس: تزوج امرأة ابنه زيد ﷺ فنزلت الآية، أي: ليس هو بابنه حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمته في التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام ، فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، وأعلم أن محمداً ﷺ لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة ".[2]

فالنبي ﷺ لم يكن أبا أحد من الرجال لا نسباً ولا تبنياً،أما تبنيه لزيد بن حارثة ﷺ فقد أبطله القرآن الكريم قولاً وفعلاً حين تزوج ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها التي كانت زوجة لزيد، وأما أبوَّتُه نسباً فلم يكن أبا أحد من الرجال، لأن أبناءه ﷺ قد ماتوا صغاراً. قال البغوي (ت٥١٠هـ) في تفسيره:"وقوله:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾،يعني: زيد بن حارثة، أي: ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٢٧) .

فإن قيل: أليس أنه كان له أبناء: القاسم، والطيب، والطاهر، وإبراهيم، وكذلك: الحسن والحسين، فإن النبي ﷺ قال للحسن: إن ابني هذا سيد؟ قيل: هؤلاء كانوا صغاراً لم يكونوا رجالاً ".[1]

فإن قيل: كيف كان عدم أبوَّة النبي ﷺ لأحد من الرجال خصيصة من خصائصه ؟

فالجواب: أن نبينا محمداً ﷺ هو خاتم النبيين ، ولا نبي بعده ، ومن المعلوم أن الأنبياء ذرية بعضها من بعض ، والرسل عليهم الصلاة والسلام لم يخل غالباً عمود أبنائهم من نبي. وكون النبي ﷺ ليس أبا أحد من الرجال تجعله خاتم النبيين في نسله ، فلا نبي بعده، وهذا يقتضي أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوة لأجل ختم النبوة به ، وفي هذا غض من حقه ﷺ دون سائر الرسل ، فلذا كان عدم أبوَّة النبي ﷺ لأحد من الرجال خصيصة من خصائصه ، وميزة تميز بها عن غيره من الأنبياء والرسل.[2]

---

(١) معالم التنزيل (٣٥٨/٦)، **والبغوي**:الحسين بن مسعود ، محي السنة، المعروف بابن الفراء كان إماماً حافظاً مفسراً محدثاً ، مات سنة (٥١٠هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٤١٣/٣٧)، طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي(١٧٥/٧)، والحديث أخرجه البخاري (١٣٢٨/٣) كتاب المناقب،باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٤٣٠)، عن أبي بكرة ﷺ .

(٢) ينظر:الكشاف (٥٥٣/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١٤)، حاشية الشهاب على البيضاوي(٤٩٤/٧)،التحرير والتنوير(٤٤/٢٢).

المبحث التاسع:أنه ﷺ خاتم النبيين :

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ،[1]

من خصائص النبي ﷺ التي ورد ذكرها في هذه السورة الجليلة أنه خاتم النبيين، وآخر المرسلين، فلا نبي بعده، فبه ختم الله ﷻ الرسالات السماوية، و بشرعه أتم الله دينه، فالآية الكريمة لما نفت في صدرها أن يكون نبينا محمد ﷺ أبا أحد من الرجال لا نسباً ولا تبنياً أثبتت في آخرها تميزه ﷺ واختصاصه بأن جعله الله ﷻ خاتم النبيين وجعل رسالته خاتمة الرسالات، فانفرد ﷺ بهذا الأمر وبغيره عن إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فأصبح ختم النبوة من خصائصه ﷺ فهو خاتم النبيين وآخر المرسلين فلا نبي بعده. والخاتم أو الختم:الطبع على الشيء وإنهاؤه ونهايته، جاء في الصحاح:" ختمت الشيء ختماً فهو مختوم، وختم الله له بخير، وختمت القرآن: بلغت آخره، واختتمت الشئ: نقيض افتتحته ، وخاتمة الشيء: آخره ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ".[2]

وقد قرئت (خاتم) في الآية بقراءتين: الأولى: قراءة الكسر (خاتِم)،وهي قراءة جمهور القراء ، على أنه اسم فاعل من قولك: ختم النبيين فهو خاتمهم ، لأنه يختم النبيين فهو خاتمهم. والثانية: قراءة الفتح (خاتَم)،وهي قراءة الإمام عاصم(ت١٢٩هـ)[3]، والمعنى: أنه خُتم به النبيون، والذي يختَم به يقال

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣) .

(٢) الصحاح (١٩٠٨/٥)، مادة (ختم).

(٣)الإمام عاصم بن أبي النجود الضرير الكوفي، أحد القراء السبعة، توفي سنة (١٢٩هـ)، ينظر:معرفة القراء الكبار ص٥١، تهذيب التهذيب (٣٨/٥).

فيه:خاتم ، فعلى هذه القراءة يكون المعنى: آخر النبيين مبعثاً ، فبه انتهت النبوة .[١]

وعلى كلتا القراءتين فإنَّ الآية تفيد أنه ﷺ خاتم النبيين وآخر المرسلين فلا نبي بعده، وأن النبوة والرسالة قد انقطعت بمجيئه،وعلى هذا عامة المفسرين.[٢]

وقد وردت أحاديث تبين أنه ﷺ خاتم النبيين، وآخر المرسلين، وأنه لا نبي بعده، ولا رسول ، منها: ما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان مَنْ دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة،فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء، عليهم السلام».[٣]

ففي الحديث أنه ﷺ شبَّه رسالته بين رسالات الأنبياء برجل بنى بيتاً على أحسن ما يكون البناء، لكنه ترك منه موضعاً لم يكمله، كما أنه ﷺ اعتبر رسالته خاتم الرسالات التي سيتم بها إتمام بناء الرسالات السماوية على الوجه الأكمل والأفضل.[٤]

وجاء في حديث آخر ما يدل على أن المنفي النبوة والرسالة جميعاً، قال رسول الله ﷺ:« إن الرسالة والنبوة قد انقطعت،فلا رسول بعدي ولا نبي ».[٥]

---

(١)ينظر:جامع البيان(١٣/٢٢)،السبعة لابن مجاهدص٥٢٢،الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي (١٩٩/٢) .

(٢) ينظر: الكشف والبيان (٥٠/٨)،تفسير القرآن العظيم (٤٢٨/٦)، لباب التأويل (٤٢٩/٣)

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٣٠٠/٣)كتاب المناقب باب خاتم النبيين ﷺ برقم (٣٣٤١)، ومسلم في صحيحه (١٧٩١/٤) كتاب الفضائل،باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٧).

(٤) ينظر: كتاب عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية لأحمد الغامدي ص٤٠ .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٦/٢١)، والترمذي في سننه (٥٣٣/٤)كتاب الرؤيا عن رسول الله ﷺ ،باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات برقم (٢٢٧٢)،وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم(١٨٥٣).

ولعل من الحكمة في كون النبي المجتبى ﷺ خاتمَ النبيين وآخرَ المرسلين ، وأن ذلك من خصائصه التي اختص بها دون غيره هو أن نبينا ورسولنا محمداً ﷺ وسائرَ الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق،كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ،[1] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ ،[2] ومع ذلك فإن هذه الصفوة لا شك أن يكون خاتمها وصفوة الصفوة سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغُرِّ المحجلين محمد بن عبدالله ﷺ، وقد علم أن الأخير والخاتم هو الأفضل؛ فكانت نبوته ورسالته أتم شيء وأكمله في سلسلة الأصفياء والأتقياء من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين .

(١) سورة الحج ، الآية (٧٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٤).

المبحث العاشر:تعظيمه ﷺ بالصلاة عليه من الله تعالى وملائكته وعباده المؤمنين :

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1]، هذه الآية فيها تشريف وتكريم من رب العالمين لسيد المرسلين وإمام المتقين محمد بن عبد الله ﷺ ، وخصيصة من خصائص النبي ﷺ حيث شرَّفه الله سبحانه وتعالى بالصلاة عليه في حياته وبعد مماته منه ﷻ ، ومن ملائكته الكرام ،وعباد الله المؤمنين ،تعظيماً وتكريماً وتشريفاً وإجلالاً له ﷺ ، ورفعاً لذكره،وإعلاء لمكانته في الملأ الأعلى وبين المؤمنين في حياته وبعد مماته.

وقد افتتحت الآية بالجملة الاسمية.ثم جيء بالفعل بصيغة المضارع ، وذلك لإفادة الدوام والاستمرار، وأن هذا الثناء والتمجيد دائم ومتجدد في كل وقت، كما أن افتتاحها باسم الجلالة للتعظيم في هذا الحكم، وذكر صلاة الملائكة الكرام مع صلاة الله ﷻ ليكون مثالاً من صلاة أشرف المخلوقات على النبي ﷺ ، وليرتب عليه أمر المؤمنين بالصلاة عليه ﷺ اهتماماً بأمره وإظهاراً لشرفه وتعظيماً لشأنه، فيكون ما قبل هذا الأمر من الثناء توطئة وتمهيداً له.[2] وأما معنى هذه الصلاة فقد قال ابن عباس(٦٨هـ)ﷺ: « يصلون:يُبرِّكون »،[3]أي:يدعون له بالبركة،وقال أبو العالية(ت٩٣هـ):«صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة،وصلاة الملائكة الدعاء».[4]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٩٧)، روائع البيان (٢/٣٦١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/١٨٠١)،كتاب التفسير،باب قوله:{ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ }.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/١٨٠١)،كتاب التفسير،باب قوله:{ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ } ،وأبو العالية:رفيع بن مهران الرياحي من كبار التابعين، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ من أئمة الحديث والتفسير، توفي سنة (٩٣هـ)، ينظر:طبقات المفسرين للداودي (١/١٨٧).

وقال ابن القيم (ت٧٥١هـ):" معنى صلاة الله ﷻ على النبي ﷺ الثناء على الرسول والعناية به، وإظهار شرفه، وفضله وحرمته، وصلاتنا على النبي ﷺ تعني أننا نطلب من الله الزيادة في ثنائه على النبي ﷺ وإظهار فضله وشرفه وتكريمه وتقريبه له " .(١)

فإن قيل: لم خص المؤمنون بالسلام دون الله ﷻ والملائكة ؟ فالجواب: أن السلام هو تسليم النبي ﷺ مما يؤذيه، فكأن الآية تشير إلى التحذير من إيذائه بأي وجه من الأذى، ومن المعلوم أن الأذية إنما هي من البشر، لذا ناسب تخصيصهم بها والإشارة إليه.(٢)

فمما تقدم تبين لنا أن هذه الآية فيها خصيصة لخير البرية وأزكاها ﷺ ،ومنقبة عظيمة ، حيث عظَّمة الله سبحانه وتعالى بالصلاة عليه في حياته وبعد مماته منه ﷻ ، ومن ملائكته الكرام ، وعباده المؤمنين تشريفاً وتكريماً وإجلالاً له ﷺ ، ورفعاً لذكره ، وإعلاء لمكانته في الملأ الأعلى وبين المؤمنين في حياته وبعد مماته.

فأخبرت الآية في صدرها بهذه الخصيصة وتلك المزيَّة لنبينا محمد ﷺ ، والتي هي الصلاة عليه من الله جل ثناؤه ومن ملائكته المكرمين تعظيماً لمكانته وسمواً لمنزلته، وختمت في آخرها بأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه إظهاراً لاحترامه وتبجيلاً له وتنويهاً بحقه على أمته .

---

(١) جلاء الأفهام ص٢٦١ .

(٢) ينظر: الفتوحات الإلهية للعجيلي (٣/٤٥٤).

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

– أن سورة الأحزاب من السور المدنية التي تناولت أحكاماً تشريعية وآداباً اجتماعية،وقد كان مقصدها الأساس: نصرة النبي ﷺ وتأييده بالأمر بالثبات على تقوى الله ﷻ ولزوم طاعته وتأدية واجبات رسالة ربه ﷻ ، وقد تمثَّل هذا في نصرته ﷺ على قوى البغي والشر الذين تحزبوا حول المدينة لقتاله، وتأييده بجنود من الله ﷻ ،وكذلك نصرته ﷺ بتوقيره وتبجيله والحذر من إيذائه بأي لون من ألوان الأذى ، واحترام أزواجه أمهات المؤمنين وأهل بيته، ونصرته بدفع أذى أعدائه من اليهود والمنافقين وخذلانهم وكشف عوارهم .

– أنَّ سورة الأحزاب قد تميزت عن غيرها من سور القرآن بالإشادة بذكر خصائص جليلة خُصَّ بها نبينا محمد ﷺ وأكرمه الله ﷻ وشرفه بها على سائر الأنبياء والمرسلين والبشرية أجمعين بلغت عشراً ، فجاءت هذه الدراسة مجلِّيَة هذه الخصائص المتميزة في تلك السورة خدمة لكتاب الله ﷻ وإبرازاً لهداياته، وتعظيماً لجناب نبينا محمد ﷺ وتبجيلاً، وإبرازاً لشيء من حقوقه على أمته ، ليتعرف المؤمن من خلالها ما لهذا النبي الكريم ﷺ من تعظيم وتوقير، ثم من وجوب تعظيمه ومحبته، وطاعته، والسير على نهجه والتمسك بسنته.

– أنَّ سورة الأحزاب ذكرت خصائص متنوعة جليلة خص بها نبينا محمد ﷺ بلغت عشر خصائص تدل على عظيم مكانته وعلو مقامه وسمو منزلته عند

ربه ﷻ ،ودراسةُ هذه الخصائص وإبرازها وكشف ما فيها من هدايات وتوجيهات وأسرار مما ينير القلوب ويبصرها ويزيدها إيماناً ومحبة وتعظيماً لهذا النبي الكريم ﷺ.

– أنَّ هذه الدراسة جاءت مستقصية مواطن كل خصيصة من خصائص نبينا محمد ﷺ، راصدة ما أورده الله تعالى في هذه السورة الجليلة، ومن ثم دراستها دراسة تفسيرية ، وتجلية ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، وإبراز ما حوته من أوجه بلاغية وأسرار بديعية.

وختاماً أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١– أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، دار الفكر،بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.

٢–أحكام القرآن، أبوبكر ابن العربي، ت: محمد علي البجاوي، دار الجيل ، بيروت لبنان،١٤٠٨ هـ.

٣– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي ،ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٤– الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان.

٥– أسماء القبائل وأنسابها – محمد المهدي الحسيني القزويني، ت: كامل الجبوري، الدار

العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦– الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٧– الآيات المنسوخة عند السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، دراسة ونقد ، تأليف: يوسف بن عبد العزيز الشبل،نشر: دار كنوز أشبيليا، الرياض ،ط١،١٤٣٣هـ

٨– بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم ،العز عبد العزيز بن عبد السلام ،تحقيق ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي.

٩- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٠- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت لبنان.

١١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي – ت محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر، بيروت لبنان.

١٢- تأملات في قوله تعالى: " وأزواجه أمهاتهم " د. عبد الزراق البدر، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية،العدد ٥٣ ، إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، الرياض.

١٣- تاريخ بغداد ، أحمد بن علي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٤- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.

١٥- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ،محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، ضبط ومراجعة:عبد الرحمن محمد عثمان،نشر دار الفكر.

١٦- تفسير سورة الأحزاب ، الغزالي خليل عيد، نشر:مؤسسة المد الله – ١٤٠٢ هـ ١٦- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي،ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،ط١، ١٤١٧هـ.

١٧- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشروالتوزيع ،الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

١٩- التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

٢٠- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، مطبعة مجلس دائرة المعارف الهندية١٣٢٥هـ.

٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ .

٢٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ.

٢٣- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٤- جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٥- حاشية الشهاب،عناية القاضي وكفاية الراضي، أحمد بن محمد الخفاجي، دار الكتب العلمية–بيروت، لبنان،ط١، ١٤١٧هـ.

٢٦- الدرر السنية في تراجم الحنفية ، تقي الدين بن عبد القادر الغزي الحنفي ، ت عبد الفتاح الحلو، دار الرفاعي للنشر والتوزيع ، الرياض، السعودية، ط١ ١٤٠٣هـ.

٢٧- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني ، مكتبة الغزالي ،سوريا، ط٢ ،١٣٩٧هـ.

٢٨–السبعة في القراءات لابن مجاهد،تحقيق:شوقي ضيف،دار المعارف، القاهرة، مصر ط٣.

٢٩– سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي الناشر: دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣٠– سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، إشراف: الشيخ صالح ابن عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية ط١،١٤٢٠هـ.

٣١– سنن الدارمي– عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ،١٤٠٧.

٣٢– السنن الكبرى ،أحمد بن شعيب النسائي، ت: د.عبد الغفار سليمان البنداري ،سيد كسروي حسن ،الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ،ط ١ ،١٤١١.

٣٣– سنن ابن ماجه : محمد بن يزيد القزويني الناشر : دار الفكر – بيروت – تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٤– سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان،ط٢، ١٤٠٦.

٣٥– الصحاح–تاج اللغة وصحاح العربية– إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور عطار–دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.

٣٦–صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله ابن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.

٣٧–صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض، السعودية ١٤٠٠هـ.

٣٨– صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.

٣٩– الضوء اللامع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان

٤٠– طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.

٤١– طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.

٤٢– عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ،أحمد الغامدي،دار طيبة، الرياض، السعودية،ط ١١٤٠٥هـ .

٤٣– غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، لعمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن ،تحقيق : عبد الله بحر الدين عبد الله،نشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٤٣– فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني – دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

٤٤– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ، مكتبة المعارف، الرياض.

٤٥- فتح المنان في نسخ القرآن، علي بن حسن العريض، نشر مكتبة الخانجي بمصر،ط١،١٩٧٣م.

٤٦- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان بن عمر العجيلي ، الشهير بالجمل ، دار إحياء الكتب العربية.

٤٧- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه ، أبو عبيد القاسم بن سلام،ت:أحمد عبد الواحد الخياطي، مطبعة فضالة، المغرب، ١٤١٥هـ.

٤٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٤٩- الكشف والبيان – أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٤٢٢ هـ الطبعة : الأولى .

٥٠- الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب ، ت محيي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان، ط٥ ١٤١٨هـ.

٥١- لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد الشيحي، المعروف بالخازن تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .

٥٢- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور،دار صادر،بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ .

٥٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٤١٣هـ .

٥٤- المستدرك على الصحيحين ، الحافظ أبوعبدالله الحاكم، دار المعرفة، بيروت لبنان.

٥٥- المسند ،الإمام أحمد بن حنبل ،ت:مجموعة من العلماء بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ.

٥٦- مشاهير علماء نجد،عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ،دار اليمامة ،ط٢،١٣٩٤هـ

٥٧- معرفة القراءة الكبار على الطبقات والأعصار-محمد بن أحمد الذهبي- تحقيق: محمد

حسن الشافعي-دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان-ط١، ١٤١٧هـ.

٥٨- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٥٩- معاني القرآن ، يحيى بن زكريا الفراء،ت أحمد نجاتي ، محمد النجار.

٦٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.

٦١- معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٢- منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب ، د. سليمان بن إبراهيم اللاحم ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، الرياض، السعودية، ط١ ١٤٢٦هـ.

٦٣- الناسخ والمنسوخ، أبوبكر ابن العربي، تحقيق د.عبدالكبير المدغري، المملكة المغربية - ١٤٠٨هـ.

٦٤- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبوجعفر النحاس، رواية أبي بكر الأدفوي - المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤٢٥هـ.

٦٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.

فهرس الموضوعات

المقدمة	١٣
التمهيد	١٩
توطئة	٢٣
المبحث الأول: نداؤه ﷺ بوصف النبوة	٢٥
المبحث الثاني:أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم	٣٢
المبحث الثالث: أن أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين	٣٧
المبحث الرابع:أن الله تولى تزويجه من غير ولي و لاعقد ولا مهر	٤٠
المبحث الخامس:أن الله ﷻ أباح له ﷺ التزوج من النساء ماشاء	٤٣
المبحث السادس: أن الله ﷻ أباح له ﷺ الهبة في النكاح	٤٩
المبحث السابع:أن القسم بين نسائه ﷺ ليس واجباً عليه	٥٢
المبحث الثامن:أنه ﷺ ليس أبا أحد من الرجال	٥٦
المبحث التاسع:أنه ﷺ خاتم النبيين	٥٨
المبحث العاشر: تعظيمه ﷺ بالصلاة عليه من الله تعالى وملائكته وعباده المؤمنين	٦١
الخاتمة	٦٣
فهرس المصادر والمراجع	٦٥
فهرس الموضوعات	٧٣

الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان مفسراً

إعداد

د. يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن من أجل العلوم،وأفضلها وأوجبها،هو علم تفسير القرآن الكريم؛لأن الله ﷻ أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه ، والاهتداء بآياته ، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ . (١)

فلو أنفق العبد جوهر عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيراً في جانب ما هو أفضل المطالب ، وأعظم المقاصد .

وإنَّ من هؤلاء العلماء الذين أفنوا أعمارهم، وصرفوا أوقاتهم في خدمة العلم وأهله الميامين واجتهدوا في نشره وتأليف المؤلفات المتنوعة، وخاصة ما تعلق بكتاب الله تفسيراً وبياناً لمعانيه ، واستنباطاً لحكمه وأحكامه ، العالم المبجَّل والشيخ الجليل الشيخ عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن السلمان – رحمه الله – المتوفى سنة (١٤٢٢هـ)، والذي تميز بسعة نظره، ودقة مؤلفاته، حيث صنف المصنفات النادرة في بابها الغزيرة في علمها، المتنوعة في علومها،كما قدم للأمة الإسلامية تفسيراً اشتمل على آيات جامعات، سماه:(**الأنوار الساطعات لآيات بينات**)، وهو تفسير قيم اقتصر فيه مؤلفه على تفسير آيات من القرآن جامعات وشرحها شرحاً وافياً من غير إسهاب ولا تطويل، قد استقى تفسيره من أمهات كتب التفسير,كتفسير ابن جرير وابن كثير وغيرهما.

---

(١) سورة ص ، الآية (٢٩).

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، ومكانة مؤلفه العلمية وما تميز به تفسيره من كثرة استنباط الفوائد والأحكام من الآيات، فقد رغبت أن أبرز هذا الجهد وأجلي ما فيه من تميز، وفاءً لحق هذا العالم الكبير في جانب قد يخفى على الكثير، وخاصة ما يتعلق بجانب علم التفسير حيث كانت له العناية البالغة في هذا الجانب، وقد سميته: (**الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان مفسراً**).

أسباب اختيار الكتابة في هذا الموضوع:

كان لاختيار هذا الموضوع عد ة أمور أجملها فيما يلي:

١- المنزلة العلمية الرفيعة والمكانة العالية التي حظي بها فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان -رحمه الله- تعالى، فهو أحد أبرز علماء هذا العصر ،وأئمة هذا الزمان.

٢- بيان ما كان يتميز به -رحمه الله- من منهج فريد في تدريسه وتأليفه في مختلف فنون العلم ، ومن أهمها التفسير.

٣- حاجة المكتبة القرآنية إلى مثل هذه الأبحاث التي تُعنى بإبراز منهج الشيخ -رحمه الله- في التفسير .

٤- أن هذا البحث يعد رمز وفاء وتقدير وإجلال لهذا العالم الجليل على ما قدم خدمة للإسلام والمسلمين من جهود في مجال العلم والتعليم.

فلهذه الأسباب وغيرها عقدت العزم على كتابة هذا البحث سائلاً المولى تعالى التوفيق والسداد والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

خطة البحث:

هذا وقد جعلت البحث في: مقدمة وفصلين وخاتمة، وفهارس.

فالمقدمة اشتملت على أهمية الموضوع،وأسباب اختياره،وخطة البحث،والمنهج المتبع.

الفصل الأول: التعريف بالشيخ عبد العزيز السلمان ، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : نسبه ومولده.

المبحث الثاني: حياته العلمية والعملية .

المبحث الثالث: عقيدته ومذهبه الفقهي.

المبحث الرابع: آثاره العلمية ووفاته.

الفصل الثاني:التعريف بتفسير:(الأنوار الساطعات) ومنهج مؤلفه فيه،وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بتفسير:(الأنوار الساطعات) .

المبحث الثاني: بيان طريقة مؤلفه فيه.

المبحث الثالث: منهج مؤلفه فيه، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: أصح طرق التفسير عند الشيخ، ويشمل :

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن.

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة.

ثالثاً: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .

المطلب الثاني : عنايته بالتفسير بالرأي ، ويشمل:

أولاً: عنايته بتفسير الألفاظ الغريبة.

ثانياً: عنايته في تفسيره بالمسائل النحوية والصرفية.

ثالثاً: عنايته في تفسيره بالشواهد الشعرية.

رابعاً: اهتمامه في تفسيره بإبراز الأوجه البلاغية.

خامساً:اهتمامه بعلم المناسبات.

سادساً: عنايته بالاستنباط.

المطلب الثالث : عنايته بتفسير آيات الاعتقاد .

المطلب الرابع : عنايته بتفسير آيات الأحكام .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت .

الفهارس .

المنهج المتبع في كتابة هذا البحث:

كان المنهج المتبع في كتابة هذا الموضوع على النحو التالي:

١- الاستقراء والتتبع لأبرز ملامح منهج الشيخ -رحمه الله تعالى- في تفسيره (الأنوار الساطعات).

٢- عندما أتحدث عن منهج الشيخ -رحمه الله - فإنني أورد في التمثيل لبيان منهجه مثالاً أو مثالين من الشواهد لتتضح الصورة في بيان منهجه،قصداً للإيجاز قدر المستطاع.

٣- قمت بعزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٤- قمت بتخريج الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

٥- التعريف بالأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

٦- توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

هذه هي أبرز ملامح المنهج المتبع في كتابة هذا البحث والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الفصل الأول: التعريف بالشيخ عبد العزيز السلمان ،

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : نسبه ومولده.

المبحث الثاني: حياته العلمية والعملية .

المبحث الثالث: عقيدته ومذهبه الفقهي.

المبحث الرابع: آثاره العلمية ووفاته.

الفصل الأول: التعريف بالشيخ عبد العزيز السلمان ،

المبحث الأول : نسبه ومولده:

هو الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه الفرضي الأصولي اللغوي الورع الزاهد أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن بن سلمان بن علي بن حمد بن راشد بن صالح بن راشد بن سعود بن جلهم، وأسرة آل سلمان ترجع إلى عشيرة آل راشد من الأساعدة بطن من قبيلة الرُّوَقَة إحدى قبائل عُتَيْبَة القبيلة العربية الشهيرة في نجد والحجاز وغيرها.

وكان الشيخ عبد المحسن بن سلمان من علماء بلدة الزلفي، وقد ولي قضاءها بعد أبيه بتعيين من الإمام فيصل بن تركي ، وقد خلَّف ابنين صالحين هما عبد الرحمن ومحمد، اللذان انتقلا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري من الزلفي إلى عنيزة واستقرا بها، وكان عبد الرحمن ــ وهو جدُّ المترجم له ــ ممن اشتغل بالعلم والتجارة ، وآل سلمان في عنيزة هم ذريته ،وقد توفي سنة(١٣٤٠هـ).(١)

وأما الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– فكانت ولادته في مدينة عنيزة إحدى مدن القصيم ليلة الخامس والعشرين من رمضان سنة (١٣٣٧هـ)، وقيل: (١٣٣٩هـ). (٢)

(١) ينظر: فتح المنان ص٩٦ مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي، علماء نجد خلال ثمانية قرون لابن بسام (٢/٢٥٩، ٥/٢١).

(٢) ينظر: فتح المنان ص٩٧ مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي .

المبحث الثاني: حياته العلمية والعملية .

نشأ الشيخ عبد العزيز في أسرة كريمة وفي عائلة عرفت بالدين والاستقامة والعلم والزهد والورع،وقد مات والده محمد رحمه الله تعالى وهو صغير، فكفلته والدته رقية بنت الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم السناني (١) رحمهم الله تعالى.

ولما بلغ الثامنة من عمره، وذلك عام (١٣٤٥هـ) دخل الكُتَّاب –على عادة ذلك الزمان لعدم انتشار المدارس النظامية– عند شيخه الأول الشيخ عبد العزيز بن محمد آل دامغ، الملقب بـ."ضعيف الله"،(٢) وتخرج فيها بعد ثلاث سنوات، ثم التحق بالمدرسة الأهلية التي افتتحها الأستاذ صالح بن ناصر الصالح (٣) وتعلم فيها الكتابة والقراءة والخط والحساب،وتخرج فيها بعد ثلاث سنوات متقناً الكتابة والقراءة والخط والحساب، وقد أكمل حفظ القرآن الكريم خلال سنتين فقط، وكان عمره ست عشرة سنة .

وكان في بداية عمره قد اشتغل بالتجارة وفتح محلاً يقوم فيه بالبيع والشراء ، لكنه لم يمكث طويلاً فسرعان ما توجه إلى طلب العلم.

وفي عام (١٣٥٣هـ) بدأ بالقراءة والتعلُّم على شيخه علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدي ،(٤) ولازمه ملازمة تامة ،وكانت تلك الخطوة الأولى للشيخ –رحمه

---

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم السناني من علماء عنيزة، تتلمذ على علماء بلده ثم رحل إلى الشام والعراق فأخذ عن علمائها منهم جمال الدين القاسمي والعلامة شكري الآلوسي، توفي سنة (١٣٢٧هـ)،ينظر:علماء نجد خلال ثمانية قرون لابن بسام (٥٠٣/٣).

(٢) هو الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن سليمان آل دامغ،يلقب بـ.ضعيف الله،أي: الفقير إلى ربه ،وكان له مدرسة يعلم فيها القرآن الكريم بجوار مسجد أم حمار بعنيزة وكان مؤذناً للمسجد ، وقد حفظ عليه القرآن كثير من طلبة الشيخ ابن سعدي ، توفي سنة (١٣٨٧هـ)،ينظر: شبكة الألوكة موقع الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ،رابط الموضوع:http://www.alukah.net/Web/alaqeel/0/35453/#ixzz1izKaJ2R

(٣) هو صالح بن ناصر بن عبد المحسن آل صالح من مواليد عنيزة ، أنشأ فيها مدرسته الشهيرة، تقلّد عدة مناصب،توفي بالرياض سنة (١٤٠٠هـ)،ينظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٥٤٩/٢).

(٤) هو عبدالرحمن بن ناصر السعدي من علماء القصيم برع في فنون شتى وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة (١٣٧٦هـ). ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص٢٩٢، معجم المفسرين عادل نويهض (٢٧٩/١).

الله- في طريقه وانضمامه إلى عالم العلم والعلماء ،وهي مدرسة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي التي مكث فيها وتعلم عليه قرابة ستة عشر عامًا أي:حتى سنة (١٣٦٩هـ)، وقد حفظ خلال هذه المدة بعض المتون العلمية، كزاد المستقنع وبلوغ المرام،وألفية ابن مالك،كما قرأ خلال ملازمته لشيخه علوم العقيدة والفقه والحديث واللغة العربية وغيرها.

وفي سنة (١٣٦٩هـ) قدم مدينة الرياض ، وبعد تسعة أيام من قدومه عينه مفتي الديار السعودية سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى، (١) إمامًا في مسجد سمحة بحي الديرة شمالي الجامع الكبير بالرياض، واستمر في الإمامة إلى عام (١٤٠٥هـ)، فكانت مدة إمامته للمسجد ستة وثلاثين عاماً تقريباً.

وفي سنة (١٣٧٠هـ) عينه سماحة العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- معلمًا في المعهد العلمي بالرياض إبان إنشائه فباشر فيه التدريس مدة من الزمن ، ثم انتقل إلى معهد إمام الدعوة العلمي، وقد تولى تدريس المواد الشرعية كالتوحيد والفقه والتفسير والحديث،ويعد أول معلم يتم تعيينه في المعاهد العلمية، واستمر في تعليمه وتدريسه في المعهد المذكور حتى انتهاء مدة تمديد تقاعده،والتي استمرت مدة خمس سنوات، وانتهت في شهر الله المحرم سنة (١٤٠٤هـ)، فكانت مدة تدريسه في المعهد خمسة وثلاثين عاماً تقريباً. (٢)

(١) هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن إمام الدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، مفتي الديار السعودية،كانت له جهود، وأعمال مباركة في مجال العلم والتعليم وإنشاء المعاهد والكليات في السعودية، توفي سنة (١٣٨٩هـ)، ينظر: الأعلام (٣٠٦/٥) ، مشاهير علماء نجد للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ (٢٩/٢) .

(٢) ينظر: فتح المنان ص١٠٠ مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي ، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين كتاب إلكتروني ضمن المكتبة الشاملة لـ.خالد الكحل.

المبحث الثالث: عقيدته ومذهبه الفقهي.

كان الشيخ عبد العزيز السلمان -رحمه الله- على عقيدة أهل السنة والجماعة، في التوحيد بأنواعه الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وكذلك في مسائل القدر والإيمان والغيب وغيرها من مسائل الاعتقاد، وكان منهجه في الاستدلال عليها الاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة،مع الإيمان بهذا النصوص دون تأويل ولا تحريف.

وكان قد اعتمد كثيراً بعد الكتاب والسنة على ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فكان كثيراً ما يقرأ في مؤلفاتهما ويستقي منهما العقيدة الصافية المبنية على الكتاب والسنة فأفاد منها علماً غزيراً تجلى ذلك في مؤلفاته الأسئلة وأجوبة المختصرة وكذا المطولة على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتابه الشهير: الكواشف الجلية عن معاني الواسطية .

أما مذهب الفقهي فقد نشأ الشيخ –رحمه الله- في بلاد القصيم التي شاع فيها مذهب الإمام أحمد بن حنبل –رضي الله عنه-، وجلُّ أهلها على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد تفقَّه الشيخ رحمه الله على شيخه الأول العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – الذي كان من فقهاء الحنابلة، فالشيخ حنبلي المذهب، ولكنه لم يكن متعصِّباً للمذهب، بل لم يكن يلتزمه دائمًا في آرائه الفقهية وفتاواه، وإنما كان يعتمد المذهب ما قام الدليل، فإذا رأى الدليل في غيره أرجح قال به دون حرج أو تردد، يظهر ذلك جلياً في مؤلفاته وفتاواه وخاصة في كتابه الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية.(١)

(١) ينظر: فتح المنان ص٩٨ مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي.

المبحث الرابع: آثاره العلمية ووفاته.

لقد أثرى الشيخ عبد العزيز السلمان –رحمه الله–المكتبة الإسلامية بمؤلفات عديدة، قيمة في بابها، وقد كانت مؤلفاته –رحمه الله–كثيرة متفاوتة الأحجام فمنها ما اشتمل على عدد من المجلدات، ومنها ماكان في مجلد واحد، ومنها الرسائل الصغيرة، وأما موضوعاتها فكانت متنوعة فقد ألف في التفسير والعقيدة والفقه والوعظ والإرشاد.

وكان الداعي لتأليفها إما طلب بعض تلاميذه إبَّان تدريسه في المعهد العلمي، كما في كتب العقيدة والفقه، أو أنه ألفها لتقرأ في المساجد بين العشاءين أو لمناسبة شهر رمضان والحج،كما في كتابي المناهل، وأوضح المسالك، وأما ما يتعلق بالوعظ والإرشاد فكان سبب التأليف فيه هو أنه رأى كثيراً من الناس قد غفل عن الآخرة والاستعداد لها وانشغل بالدنيا الزائلة فرغب في تذكيرهم بهذه المواعظ.

وقد حظيت مؤلفاته –رحمه الله– بقبول حسن بين طلاب العلم وغيرهم،وانتشرت انتشاراً واسعاً وقد عُلم أن الشيخ –رحمه الله – قد أوقف جميع مؤلفاته لله تعالى، فلا يباع شيء منها،كما أنه أذن لكل من أراد طباعتها وقفاً لله وتوزيعها ، مع أن كثيراً من دور النشر قد طلبت من الشيخ –رحمه الله– أن تقوم بطباعتها وبيعها ونشرها، فامتنع من ذلك وجعلها وقفاً على العلم وأهله الميامين ، وهذه المؤلفات هي على النحو التالي:

أولاً: التفسير وعلوم القرآن، وفيه مؤلفان هما:

١– كتاب"الأنوار الساطعات لآيات جامعات" أو "البرهان المحكم في أن القرآن يهدي للتي هي أقوم" ويقع في جزأين ، وقد كان الفراغ من تأليفه في شهر صفر سنة (١٤٠٢هـ)، وهو موضوع الدراسة التي بين أيدينا وستأتي دراسته مفصلة .

٢– رسالة في: "دعاء ختم القرآن الكريم"، وهي رسالة صغيرة اشتملت على أدعية تتعلق بالقرآن الكريم ،كان الفراغ من جمعها في (١٣٨٥/١٠/١٦هـ).

ثانياً:العقيدة، وفيه ثلاثة مؤلفات وهي:

١– كتاب "مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية" وهو جزء واحد، ويعد هذا الكتاب أول مؤلفات الشيخ –رحمه الله–وقد فرغ من تأليفه يوم الأربعاء

(١٣٨١/١/٣٠هـ).

٢- كتاب " الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية"وهو جزء واحد، جاء تأليفه بعد الكتاب السابق ،وقد بيَّن الشيخ -رحمه الله- في مقدمة الكتاب سبب تأليفه، فقال:« فعندما كنت أدرس التلاميذ في السنة الرابعة الثانوية في العقيدة الواسطية طلب مني بعض التلاميذ أن أضع لهم عليها أسئلة وأجوبة للمراجعة» (١)،وقد فرغ من تأليفه في (١٣٨٢/٦/١٦هـ). (٢)

٣- كتاب "الكواشف الجلية عن معاني الواسطية" وهو جزء ضخم، وقد أوضح الشيخ –رحمه الله-سبب تأليفه بقوله:« فبما أنه طلب مني أحد إخواننا أن أحول الأسئلة والأجوبة الأصولية إلى شرح للعقيدة الواسطية فأجبته إلى ذلك » (٣)،وقد فرغ من تأليفه في (١٣٨٨/١١/٧هـ).

ثالثاً: الفقه، وفيه ستة مؤلفات، وهي:

١- كتاب "الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية" في سبعة أجزاء،ولم يكمله،وصل فيه إلى نهاية باب العتق ، وقد أوضح الشيخ –رحمه الله-أن سبب تأليفه هو طلب بعض تلاميذه منه أثناء تدريسه، وقد فرغ من تأليف الجزء السابع من كتاب" الأسئلة والأجوبة الفقهية" الذي انتهى بباب العتق، في (١٤٠٠/٩/٥هـ).

٢- كتاب "إتحاف المسلمين بما تيسر من أحكام الدين، علم ودليل" في جزأين، وقد وصل فيه إلى نهاية كتاب الأضاحي ولم يكمله،ويعد هذا الكتاب مختصراً للكتاب السابق، وكان تاريخ الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).

٣- كتاب "التلخيصات لجلِّ أحكام الزكاة"، وهي رسالة صغيرة الحجم لخص فيها

(١) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص٥

(٢) وقد أوضح الشيخ-رحمه الله- سبب تأليف الكتاب الأول وهو المختصر ص٤ ،بقوله:« فبما أن الأسئلة والأجوبة الأصولية مبسطة جامعة لأصول كثيرة ، وقد طلب مني بعض الأخوان اختصارها، ونظراً لضعف الهمم وتزاحم الدروس على الطلاب وقد كان عندنا الأساس الأول مختصراً فعزمت على التسبب في طبعه».، فبهذا يتبين أن الشيخ -رحمه الله- ألف كتاب الأسئلة والأجوبة بعد المختصر. والله أعلم.

(٣) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص٥

معظم أحكام الزكاة، فرغ من تأليفها ضحوة الأربعاء (٢٤/٣/١٣٨٣هـ).

٤- كتاب "المناهل الحسان في دروس رمضان" ويقع في مجلد واحد، يتعلق بأحكام الصيام والقيام والزكاة،وكان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب كانت سنة (١٣٨٦هـ).

٥- كتاب "أوضح المسالك إلى أحكام المناسك"، وهو كتاب اشتمل على كثير من أحكام الحج والعمرة،فرغ من تأليفه في جمادى الآخرة سنة (١٣٩٢هـ).

٦- كتاب"الكنوز الملية في الفرائض الجلية" مجلد واحد،يتعلق بأحكام المواريث، وكان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب سنة (١٤١٢هـ).

رابعاً: محاسن الإسلام ، وفيه مؤلف واحد ، وهي رسالة صغيرة، عنوانها:" من محاسن الدين الإسلامي"، ذكر فيها محاسن الدين الإسلامي في كثير من أحكامه وشرائعه، وقد بين الشيخ –رحمه الله– أنه أفردها من كتابه موارد الظمآن لدروس الزمان.

خامساً: المعجزات النبوية ، وفيها كتاب واحد وهو" من معجزات النبي ﷺ " أفرده من كتابه موارد الظمآن لدروس الزمان.

سادساً:شعر الزهد والحكمة، وفيه كتاب واحد وهو:"مجموعة القصائد الزهديات" ويقع في جزأين، اشتمل قصائد زهدية كانت مبثوثة في مؤلفات الشيخ –رحمه الله– فقام بتتبعها وجمعها في كتاب مستقل،وكان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب سنة (١٤٠٩هـ) .

سابعاً: الوعظ والإرشاد والتوجيه، وفيه ستة مؤلفات، وهي:

١- كتاب " موارد الظمآن لدروس الزمان " ويقع في ستة مجلدات ضخمة اشتمل على خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق، ولم يذكر الشيخ –رحمه الله– تاريخ تأليفه، وأصله كتاب المناهل الحسان في دروس رمضان ، لذا لم يصدر له طبعة أولى ، وإنما صدرت له طبعة سادسة في ثلاثة أجزاء سنة (١٣٩٥هـ). (١)

٢- كتاب "إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد" وهو جزء واحد،،وقد فرغ الشيخ – رحمه الله– من تأليفه يوم السبت (٢/٤/١٤٠٦هـ).

٣- كتاب "إيقاظ أولي الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية" ويقع في جزء واحد

(١) ينظر: فتح المنان ص١٠٧مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي.

لطيف الحجم ، وكان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب سنة (١٤٠٧هـ) .

٤- كتاب "سلاح اليقظان لطرد الشيطان" وهو كتاب واحد لطيف الحجم،كان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب سنة (١٤٠٨هـ) .

٥- كتاب "اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات"،وهو كتاب متوسط الحجم ، كان تاريخ الطبعة الأولى للكتاب سنة (١٤٠٩هـ) .

٦- كتاب "مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار" ويقع في ثلاثة أجزاء ، وسبب تأليفه هو غفلة كثير من الناس عن الاستعداد ليوم المعاد فضمنه مؤلفه شيئاً من المواعظ والخطب والحكم والأحكام والفوائد ،ولم يذكر تاريخ الفراغ منه، إلا أن الطبعة الأولى للكتاب كانت سنة (١٤١٣هـ)، وهذا الكتاب هو آخر مؤلفات الشيخ -رحمه الله-.

وفاته :

توفي الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان –رحمه الله تعالى– فجر يوم الأحد التاسع عشر من شهر صفر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٢٢/٢/١٩هـ) عن عمر بلغ خمسة وثمانين عاماً ، وتألَّم الناس لموته وحزنوا عليه حزنًا شديدًا ،وصُلي عليه بعد صلاة العصر في الجامع الكبير بالرياض (جامع الإمام تركي بن عبد الله –رحمه الله–), ثم حمل بعد ذلك ودفن بمقبرة النسيم شرقي مدينة الرياض، وقد شهد جنازته جمع غفير.

فرحم الله تعالى الشيخ عبد العزيز الذي أمضى عمره في العلم والتعليم والوعظ والإرشاد والنصح والجهاد، والذي رحل من الدنيا بصمت وعاش طوال حياته بصمت دون أي بروز أو حبٍّ لمظهر من مظاهر الدنيا الزائفة، بل كان يكره الإطراء والمدح ،وقد حرص أن تكون جميع أعماله العلمية خالصة لله عز وجل ، بل إن جميع العروض المادية لأجل بيع مؤلفاته رفضها وكان يأذن لأهل الخير بطبعها وقفاً لله عز وجل، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ، وأسكنه فسيح جناته.

الفصل الثاني:التعريف بتفسير:(الأنوار الساطعات) ومنهج مؤلفه فيه،

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بتفسير:(الأنوار الساطعات) .

المبحث الثاني: بيان طريقة مؤلفه فيه.

المبحث الثالث: منهج مؤلفه فيه .

المبحث الأول: التعريف بتفسير:(الأنوار الساطعات لآيات جامعات) .

تفسير "الأنوار الساطعات لآيات جامعات" أو "البرهان المحكم في أن القرآن يهدي للتي هي أقوم" تأليف الشيخ: عبد العزيز بن محمد السلمان –رحمه الله– يقع في جزأين وهو متوسط الحجم، جاوزت عدد صفحاته الألف وستين صفحة (١٠٦٠).

أما سبب تأليفه فقد ذكر الشيخ –رحمه الله– السبب الذي دعاه إلى تأليفه في مقدمة التفسير بقوله:« فبما أني منذ زمن طويل وأنا ألتمس كتاباً تتناسب قراءته مع عموم الناس فيما بين العشاءين، خصوصاً في شهر رمضان المبارك ، وحيث إن الناس يقبلون على تلاوة كتاب الله في شهر رمضان المبارك رأيت أن أكتب آيات من القرآن الكريم ، وأجمع لها شرحاً وافياً بالمقصود من كتب المفسرين» .(١)

وقد ألفه في أواخر فترة تدريسه في معهد إمام الدعوة،أي:قبل تقاعده بسنتين تقريباً،حيث انتهت مدة تمديده للتقاعد في أوائل سنة (١٤٠٤هـ)، وبعد أن ألف معظم مؤلفاته ،وقد جاء في آخر الجزء الأول تاريخ الفراغ من تأليفه هذا التفسير، حيث قال: «وكان الفراغ من هذا الكتاب في ليلة الثلاثين من شهر صفر بعد صلاة العشاء سنة (١٤٠٢هـ) ». (٢)

أما عن مصادره في تفسيره فقد ذكر الشيخ –رحمه الله– في مقدمة تفسيره أشهر المصادر التي اعتمد عليها وهي على النحو التالي:

١– جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري.

٢– تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٣– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي.

٤– تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي.

---

(١) مقدمة تفسيره الأنوار الساطعات (٣/١).

(٢) الأنوار الساطعات (٥٥٢/١).

هذه المصادر التي صرح بذكرها في مقدمة تفسيره وأنه اعتمد عليها، وهناك مصادر أوردها صريحة في ثنايا تفسيره وأخرى لم يصرح بها ولكنه نقل منها، وهي على النحو التالي :

١- النكت والعيون للماوردي.

٢- معالم التنزيل للبغوي .

٣- زاد المسير لابن الجوزي .

٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي

٦- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

٧- فتح القدير للشوكاني .

٨- في ظلال القرآن لسيد قطب.

٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي.

وهناك مراجع عامة أفاد منها الشيخ وهي على النحو التالي:

١- السيرة النبوية لابن هشام .

٢- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية .

٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية.

٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية.

٥- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية.

٦- مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية.

٧- نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، لابن القيم.

٨- منظومة ابن عبد القوي (الألفية في الآداب الشرعية) لابن عبدالقوي المرداوي.

٩- نونية القحطاني، لعبدالله بن محمد الأندلسي القحطاني.

المبحث الثاني: بيان طريقة مؤلفه فيه.

لم يفسر الشيخ -رحمه الله- القرآن الكريم كاملاً ، وإنما كان يختار آيات جامعات من القرآن -كما هو ظاهر من عنوان الكتاب- فيتناولها بالتفسير والكشف والبيان،فيبدأ بعنوان يتناسب مع الآية أو الآيات ثم بذكر الآية أو الآيات ثم ببيان غريب مفرداتها،وتارة يبدأ ببيان مناسبة الآية أو الآيات لما قبلها،وتارة بذكر سبب النزول، ثم يبين المعنى العام للآية أو الآيات، ثم يذكر ما تضمنته الآية أو الآيات من أحكام وفوائد واستنباطات، ويطيل النفس بذكرها وسردها.

وقد جعل تفسيره في جزأين، الأول منهما احتوى على عدد من الآيات الجامعات، بلغت ثلاثين موضعاً، اختارها من مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، وذلك لكونها تكثر قراءتها وتكرر على الأسماع في الصلوات الجهرية، وهو الغاية من تأليف الكتاب .

وأما الجزء الثاني فقد ابتدأه بتفسير الآيات (٩-١٦)، من سورة الإسراء ، ثم لما رأى أن الآية التاسعة وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(١) شاملة لكل ما شرعه الله من العقائد والأحكام عاد إليها فاستخرج ما دلت عليه من دلالات وأحكام وفوائد حتى بلغ (٢٨٠٠)، ثم قال:« إلى هنا ينتهي ما جمعت وألفت مما يدخل تحت قول الله عز وجل:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾،والذي أرى أنه يدخل تحتها جميع ما شرعه الله من الأحكام ، ولكن هذا ما يسره الله وهو ألفان وثمانمائة (٢٨٠٠) ».(٢) فكان الجزء الثاني في بيان ما دلت عليه آية الإسراء وهو أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وهو ما دل عليه العنوان الآخر للكتاب:" البرهان المحكم في أنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم "، ولعل الشيخ قصد هذا في ذكره العنوان الآخر.

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٩).

(٢) الأنوار الساطعات (٥١٢/٢).

المبحث الثالث: منهج مؤلفه فيه، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: أصح طرق التفسير عند الشيخ، ويشمل :

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن.

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة.

ثالثاً: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .

المطلب الثاني : عنايته بالتفسير بالرأي ، ويشمل:

أولاً: عنايته بتفسير الألفاظ الغريبة.

ثانياً: عنايته في تفسيره بالمسائل النحوية والصرفية.

ثالثاً: عنايته في تفسيره بالشواهد الشعرية.

رابعاً: اهتمامه في تفسيره بإبراز الأوجه البلاغية.

خامساً:اهتمامه بعلم المناسبات.

سادساً: عنايته بالاستنباط.

المطلب الثالث : عنايته بتفسير آيات الاعتقاد .

المطلب الرابع : عنايته بتفسير آيات الأحكام .

المبحث الثالث: منهج مؤلفه فيه،وفيه مطالب:

المطلب الأول: أصح طرق التفسير عند الشيخ –رحمه الله–:

أولاً: تفسيره القرآن بالقرآن:

إنَّ تفسير القرآن بالقرآن لهو أحسن طرق التفسير وأصحها، وهو أيضاً أجل أنواع التفسير وأشرفها، لأنه تفسير لكلام الله تعالى بكلام الله، ولا أحد أعلم بمراد الله من الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:« إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر ». (١)

وقد أدرك الشيخ عبد العزيز – رحمه الله– أهمية هذا النوع من التفسير، فاعتمد عليه أيما اعتماد واعتنى به، ومن أبرز ملامح منهج الشيخ –رحمه الله– في تفسيره القرآن بالقرآن ما يلي:

أولاً: أنه يفسر الكلمة من القرآن بكلمة أخرى أوضح منها وأبين معنىً ، والأمثلة على ذلك كثيرة، فمن ذلك :

١– عند تفسير قوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ ،(٢) قال الشيخ –رحمه الله–:« المراد بدعائهم الشيطان عبادتهم له، ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ،(٣)وقول الخليل: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ ﴾،(٤)وقوله: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ .(٥)».(٦)ففسر كلمة الدعاء في الآية بالعبادة .

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٦

(٢) سورة النساء الآية (١١٧).

(٣) سورة يس ، الآية (٦٠).

(٤) سورة مريم ، الآية (٤٤).

(٥) سورة سبأ ، الآية (٤١).

(٦) الأنوار الساطعات (٢٢١/١) .

٢- وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ،(١) قال الشيخ -رحمه الله-:« وهذا الذي ذكره جل وعلا عن إبليس في هذه الآية من قوله:﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾،الآية، بيَّنه في مواضع أُخر من كتابه، كقوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ،(٢)وقوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ،(٣) إلى غير ذلك من الآيات ».(٤)فالشيخ -رحمه الله- بيَّن كلمة (أحتنكن) بكلمة أخرى من القرآن أوضح منها وهي الإغواء والإضلال من كل وجه.

ثانياً: أن الشيخ -رحمه الله- يفسر الجملة المبهمة بجملة أوضح منها وأبين، ومن الأمثلة على ذلك:

١- عند تفسير قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ،(٥)يقول الشيخ -رحمه الله- :« والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ ، (٦)» .(٧)

٢- عند تفسير قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ،(٨) نجد أنه -رحمه الله- يوضح المراد بما يعلمون ويفسره بالقرآن فيقول:« أي أنه ليس له شريك ولا نظير لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال،كما أخبر جل ثناؤه عنهم بقوله: ﴿

(١) سورة الإسراء ، الآية (٦٢).
(٢) سورة الأعراف الآيتان (١٦-١٧).
(٣) سورة ص ، الآية (٨٢).
(٤) الأنوار الساطعات (١/٣٧٤) .
(٥) سورة الفاتحة، الآية (٧).
(٦) سورة النساء ، الآية (٦٩).
(٧) الأنوار الساطعات (١/ ١٧) .
(٨) سورة البقرة ، الآية (٢٢).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، (١) وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ، (٢) » .(٣)

ثالثاً: ومن اهتمامه –رحمه الله– بتفسير القرآن بالقرآن أنه يفسر المعنى العام للآية أو الآيات بآيات من القرآن، وإليك الأمثلة على ذلك:

١ – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ ،(٤) يقول:« الإنسان هو الإنسان، فما تنجلي عنه الغمرة وتحس قدمَاه ثبات الأرض من تحته، حتى ينسى لحظة الشدة فينسى الله ويعرض عنه وتتقاذفه الأهواء، وتحرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر، فيرجع إلى ما كان عليه من الكفر، إلا من عصمه الله فأشرق واستنار بنور الإيمان، وهذا المعنى المذكور أوضحه جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .(٥)

وقوله: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .(٦) وقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .(٧) وقوله:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ

(١) سورة الزخرف ،الآية (٨٧).
(٢) سورة يونس ،الآية (٣١).
(٣) الأنوار الساطعات (٣٢/١) .
(٤) سورة الإسراء ، الآية (٦٧).
(٥) سورة يونس ، الآيتان (٢٢-٢٣).
(٦) سورة الأنعام ، الآيتان (٦٣-٦٤).
(٧) سورة لقمان ، الآية (٢٢).

مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ .(١) إلى غير ذلك من الآيات». (٢)

٢- وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ ،(٣) يقول:« المعنى: أن من يعرض عن القرآن الكريم يقيض الله له شيطانًا يقارنه ويعده ويمنيه ويوسوس له، ويزين له السوء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ ،(٤) وكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ،(٥) وكقوله جل وعلا: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .(٦) الآية ».(٧)

رابعاً:أنه -رحمه الله-يفسر الكلمة من القرآن فيحكم عليها بالعموم ثم يستدل عليها من القرآن ، فمن ذلك:

١- عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .(٨) يقول-رحمه الله-:« وقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ،هذا عام في الدماء والأموال والأعراض والأديان، وفي كل شيء يقع التداعي والاختلاف فيه، وفي كل كلام يُراد به وجه الله، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ،(٩) وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

(١) سورة الزمر، الآية (٨).
(٢) الأنوار الساطعات (٣٨٥/١) .
(٣) سورة الزخرف ، الآية (٣٦).
(٤) سورة النساء، الآية (١١٥).
(٥) سورة الصف، الآية (٥).
(٦) سورة فصلت، الآية (٢٥).
(٧) الأنوار الساطعات (٥٠١/١) .
(٨) سورة النساء، الآية (١١٤).
(٩) سورة النساء، الآية (١٢٨).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾،(١) وقال تعالى: .(٢)

».(٣)

٢-عند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ .(٤) يقول-رحمه الله-:« أي: من أعرض عن اتباع القرآن وابتغى الهدى من غيره،أو تهاون بأوامره ونواهيه، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله، بل ينقض ظهره، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ ،(٥) فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع له » .(٦)

خامساً:أنه-رحمه الله-عندما يعرض أقوال المفسرين ويختار ما يراه راجحاً يؤيد ذلك بالآيات القرآنية ، والأمثلة على ذلك كثيرة فمنها :

١- عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ ،(٧) يقول -رحمه الله- بعد عرضه لأقوال المفسرين في معنى الإمام :« والقول بأن المراد بالإمام كتاب الأعمال هو الذي تميل إليه النفس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ،(٨) وقوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ ،(٩) وقوله بعدها: ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ، والله أعلم » . (١٠)

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١).
(٢) سورة الحجرات، الآية (١٠).
(٣) الأنوار الساطعات (٢١٠/١) .
(٤) سورة طه، الآية (١٠٠).
(٥) سورة الأنعام، الآية (١٩).
(٦) الأنوار الساطعات (٤٠١/١) .
(٧) سورة الإسراء، الآية (٧١).
(٨) سورة يس، الآية (١٢).
(٩) سورة الكهف، الآية (٤٩).
(١٠) الأنوار الساطعات (٣٩٤/١) .

ثانياً: تفسيره القرآن بالسنة:

إنَّ تفسير القرآن بالسنة يعد بياناً وإيضاحاً للقرآن الكريم كما قال تعالى:﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .(١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–:« فإن أعياك ذلك أي:تفسير القرآن بالقرآن فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ». (٢)

ولهذه الأهمية والمكانة للسنة النبوية في تفسير القرآن نجد أنَّ الشيخ عبد العزيز–رحمه الله– قد اعتنى بالسنة النبوية غاية الاعتناء واعتمدها في تفسيره للقرآن، وقد تنوعت ملامح منهج الشيخ عبد العزيز –رحمه الله–في تفسيره القرآن بالسنة فكان من أبرزها ما يلي:

أولاً: أنه يفسر الكلمة ويوضح معناها بما جاء بالسنة ، وإليك أمثلة ذلك:

١– عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ،(٣) يبين –رحمه الله– معنى الأنداد ويوضح ذلك بما جاء في السنة فيقول:« والأنداد جمع ند،وهو المثيل والنظير والكفؤ ، وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: « **أجعلتني لله نداً ؟**»،(٤) وفي الحديث الآخر: « **نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله وشاء فلان**» ،(٥) فالقرآن والسُّنة يشددان في النهي عن الشرك لتخلص العقيدة نقية ». (٦)

---

(١) سورة النحل،الآية (٤٤).

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٦

(٣) سورة البقرة،الآية (٢٢).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٧٤ والإمام أحمد في مسنده (٣٣٩/٣) والنسائي في السنن الكبرى (٢٤٥/٦)، وصححه الألباني.

(٥) رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/٧)،وصححه الألباني.

(٦) الأنوار الساطعات (٣١/١) .

٢- وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ،(١) يبين المراد بالصور بما جاء في السنة ثم يسوق الأحاديث الواردة في ذلك فيقول: « الصور قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر،- ثم قال- وثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سُئل عن الصور، فقال: «**قرن ينفخ فيه**» ،(٢) وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة رضي الله عنه :« **إنه قرن عظيم الدائرة منه بقدر السموات والأرض،ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام** » . (٣)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ**»، فقال: يا رسول الله، وما تأمرنا ؟ قال:« **قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**» (٤)» . (٥)

ثانياً: من عنايته-رحمه الله- بتفسير القرآن بالسنة أنه يفسر المعنى العام للآية أو الآيات بالأحاديث التي توضحه، وإليك الأمثلة على ذلك:

١- عند تفسيره آية الوضوء يبين المراد من القيام الوارد في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ،(٦) فيقول:« وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين

(١) سورة طه،الآية (١٠٢).
(٢) رواه أبو داود في سننه (٣٧٨/٤) والترمذي في سننه (٦٢٠/٤) والنسائي في السنن الكبرى (٣٩٢/٦)، وصححه الألباني.
(٣) هذا جزء من حديث الصور الطويل الذي رواه ابن جرير في تفسيره (٥٠٣/١٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢١٠/١١)، وابن راهويه في مسنده (٨٤/١)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (٨٢٢/٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢٨٧/٣) هذا حديث مشهور وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة،وفي بعض ألفاظه نكارة.
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (١٤٥/٥) والترمذي في سننه (٣٧٥/٥) وصححه الألباني.
(٥) الأنوار الساطعات (٤٠١/١) .
(٦) سورة المائدة،الآية (٦).

فاغسلوا وجوهكم... إلخ، وهذا الحكم مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بريدة ﷺ قال:« وكان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر ﷺ:يا رسول الله،إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله، فقال:« **عمداً فعلته يا عمر** »،(١) وروى البخاري وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصاري ﷺ:سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول:« كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث»،(٢) وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ:«**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ** ».(٣) ».(٤)

٢- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ ،(٥) يبين رحمه الله معنى الآية بما ورد من أحاديث فيقول في معناها:« أي:أخرجه وهو محب له راغب فيه،نص على ذلك ابن مسعود،وسعيد بن جبير (٦) وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٦٥/٣٨)، ومسلم في صحيحه (٢٣٢/١)، وأبو داود في سننه (٦٦/١) والترمذي في سننه (٨٩/١)، والنسائي في سننه(٨٦/١)، وابن ماجه في سننه (١٧٠/١)، وبريدة هو ابن الحصيب الأسلمي الصحابي الجليل ، أسلم بعد منصرف النبي ﷺ من بدر سكن البصرة ، مات سنة (٦٣هـ)، ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٥٦/١) الإصابة لابن حجر (٢٨٦/١)،.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨٧/١) وأبو داود في سننه (٦٦/١) والترمذي في سننه (٨٨/١)، والنسائي في سننه(٨٥/١)، وابن ماجه في سننه (١٧٠/١)، وعمرو بن عامر بن مالك ابن النجار الأنصاري الخزرجي المازني قيل إنه ممن شهد بدراً، ينظر: أسد الغابة لابن الأثير (٨٥٨/١)، وأنس بن مالك بن النضر من بني النجار ،خادم رسول الله من المكثرين للرواية، سكن البصرة وتوفي سنة (٩١هـ)، ينظر: الاستيعاب (٣٥/١)،الإصابة (١٢٧/١)،

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨٧/١) وأبو داود في سننه (٦٦/١) والترمذي في سننه (٨٨/١)، والنسائي في سننه(٨٥/١)، وابن ماجه في سننه (١٧٠/١).

(٤) الأنوار الساطعات (٢٣٤/١) .

(٥) سورة البقرة ،الآية (١٧٧).

(٦) ابن مسعود:هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي من السابقين للإسلام ، شهد بدراً وما بعدها توفي سنة(٣٢هـ)، ينظر الاستيعاب (٣٠٢/١)،الإصابة (٢٣٣/٤)، وسعيد بن جبير الأسدي مولاهم،المقريء المفسر ،من التابعين قتله الحجاج بواسط سنة (٩٥هـ)،سير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) غاية النهاية ص١٣٤

مرفوعاً:«**أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشي الفقر**»،(١) وقد روى الحاكم عن ابن مسعود ﷺ، قال:قال رسول الله ﷺ:« ﴿ **وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ** ﴾، **أن تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر**».(٢)» .(٣)

ثالثاً: من عنايته بتفسير القرآن بالسنة أنه عندما يفسر الآية أو الآيات فإنه يسوق الأحاديث الواردة في موضوع الآية، وإليك الأمثلة على ذلك:

٢- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ** ﴾ ،(٤) يبين -رحمه الله- معنى الآية ثم يسوق الأحاديث الواردة في فضل الإنفاق فيقول:« وقد وردت أحاديث في الحث على الجود والإنفاق في وجوه الخير، فمنها: ما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ:« **ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان،فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا،ويقول الآخر:اللهم أعط ممسكًا تلفًا** » متفق عليه، (٥) وعنه أن رسول الله ﷺ قال:« **قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك**» متفق عليه (٦).». (٧)

وقد ساق في هذا سبعة أحاديث،مما يدل على عنايته البالغة واهتمامه بالسنة في تفسيره،بل إنه أورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾ ،(٨) عشرة أحاديث في فضل بر الوالدين،(٩) وساق عند تفسير قوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري (٢/٥١٥)،وصحيح مسلم(٢/٧١٦).
(٢) المستدرك (٢/٢٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
(٣) الأنوار الساطعات (١/٧٣) .
(٤) سورة آل عمران ،الآية (١٣٤).
(٥) صحيح البخاري (٢/٥٢٢)،وصحيح مسلم (٢/٧٠٠).
(٦) صحيح البخاري (٤/١٧٢٤)، وصحيح مسلم (٢/٦٩٠).
(٧) الأنوار الساطعات (١/١٢٤) .
(٨) سورة النساء ،الآية (٣٦).
(٩) الأنوار الساطعات (١/١٥٦) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ ،(١) سبعة أحاديث في شأن الأمانة،(٢) وأورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ،(٣) في بيان حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم أربعة عشر حديثاً (٤)،وهكذا في مواضع كثيرة نجده يهتم بالسنة في تفسيره اهتماما بالغاً .

ومما تجدر الإشارة إليه مما يتعلق بمنهج الشيخ –رحمه الله–في تفسير القرآن بالسنة ما يلي:

١– أن الشيخ –رحمه الله– عندما يورد الأحاديث يوردها غالباً،كاملة ويذكر من رواها من الصحابة ﷺ ومن أخرجها من أهل العلم، مثال ذلك ما قاله الشيخ –رحمه الله– عند تفسير سورة الفاتحة :« ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، ومعناها: اللهم استجب ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« **إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه،**».(٥)

ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال:« **إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه**».(٦) ». (٧)

٢– أن الشيخ رحمه الله عندما يورد الأحاديث ويستشهد بها فإنه غالباً ما يتعقبها بالحكم عليها، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ ،(٨) قال رحمه الله « ومن أفضل اللباس البياض، كما ورد عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ :« **البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم،**

(١) سورة النساء ،الآية (٥٨).
(٢) الأنوار الساطعات (١/١٧٩) .
(٣) سورة التوبة ،الآية (١٢٨).
(٤) الأنوار الساطعات (١/٣٣١) .
(٥) صحيح البخاري (١/٢٧٠)، صحيح مسلم (١/٣٠٧).
(٦) صحيح مسلم (١/٣٠٧) .
(٧) الأنوار الساطعات (١/٢٦) .
(٨) سورة الأعراف ،الآية (٣١).

وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير كحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر»(١)، هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم، ولأحمد أيضاً وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:« **عليكم بثياب البياض فالبسوها،فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم** »(٢).» .(٣)

وتارة يورد الأحاديث الضعيفة والغريبة دون أن يذكر من رواها أو أخرجها ولا يتعقبها أيضاً، فمن ذلك ما أورده عن أبي أمامة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:« **إن إبليس لما أنزل إلى الأرض، قال: يا رب، أنزلتني إلى الأرض، وجعلتني رجيمًا، فاجعل لي بيتاً، قال: الحمام، قال: فاجعل لي مجلساً، قال: الأسواق ومجامع الطرقات، قال: فاجعل لي طعاماً، قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: فاجعل لي شراباً، قال: كل مسكر، قال: فاجعل لي مؤذناً، قال: المزمار، قال: فاجعل لي قرآناً، قال: الشعر، قال: فاجعل لي كتاباً، قال: الوشم، قال: فاجعل لي حديثاً، قال: الكذب، قال: فاجعل لي رسلاً، قال:الكهنة، قال: فاجعل لي مصائد، قال: النساء**» (٤).

ومنها حديث ثعلبة بن حاطب ﷺ (٥) في سبب نزول قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ،(٦) وكذا حديث

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٩٤/٤)، وأبو داود في سننه (٩/٤) والترمذي في سننه (٣١٩/٣)، والنسائي في سننه(٣٤/٤)

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٧/٣٣)،والترمذي في سننه (١١٧/٥)، والنسائي في سننه (٣٤/٤)،وابن ماجه في سننه (١١٨١/٢) وصححه الألباني، وسمرة بن جندب بن هلال الفزاري من صغار الصحابة نزل البصرة وتوفي بها سنة (٥٩هـ)،ينظر: الاستيعاب (١٩٧/١)،الإصابة (١٧٨/٣).

(٣) الأنوار الساطعات (٢٩٨/١)

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠٧/٨)،قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦/٨): "رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف "، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٤١/٣٦) منكر جداً، وأبو أمامة هو صدي بن عجلان مشهور بكنيته من أجلاء الصحابة،سكن حمص وتوفي سنة (٨١هـ)،ينظر:الاستيعاب (٢٢٢/١)،أسد الغابة (٥١٧/١).

(٥) ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري صحابي جليل ممن شهد بدراً، توفي في خلافة عمر وقيل في خلافة عثمانﷺ ، ينظر:الاستيعاب (٦٣/١)،أسد الغابة (١٥٠/١).

(٦) سورة التوبة ،الآية (٧٥)، وهي قصة طويلة ومشهورة ذكرها كثير من المفسرين في سبب نزول الآية، وقد رواها الطبري في تفسيره (٣٧٠/١٤)،وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٥/٧)،والطبراني في المعجم الكبير (٢١٨/٨)،

الصور المتقدم.(١)

ثالثاً: تفسيره القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

تظهر أهمية تفسير الصحابة ﷺ للقرآن الكريم إذا عُلم أن النبي ﷺ قد بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، ولا يحصل البيان والبلاغ المقصود إلا بذلك،ومعلوم أن الصحابة ﷺ قد سمعوا من النبي ﷺ الأحاديث الكثيرة،ورأوا منه من الأحوال المشاهدة، وعلموا بقلوبهم من مقاصده، ودعوته ما يوجب فهم ما أراد بكلامه.

وإذا كان للصحابة من ذلك ما ليس لمن بعدهم كان الرجوع إليهم في ذلك دون غيرهم متعيناً قطعاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–:« وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ». (٢)

وأما تفسير التابعين –رحمهم الله– للقرآن الكريم فله منزلة ومزية خاصة، فهو يأتي في المرتبة الرابعة بعد تفسير القرآن بأقوال الصحابة ﷺ،فهم الذين تعلموا على أيدي صحابة النبي ﷺ وأخذوا من علمهم المبارك، وقد عاشوا في زمن قريب من عصر النبوة المبارك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–:« إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في

وقد أنكر أهل العلم هذه القصة وحكموا ببطلانها، فممن قال بذلك الإمام ابن حزم، قال في المحلى (١١/ ٢٠٨): "على أنه قد روينا أثرا لا يصح وأنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف، ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة وقال: "وهذا باطل لا شك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلما ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرا ففرض ألا يبقى في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفي رواته معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد – هو ابن عبد الملك – وكلهم ضعفاء" أهـ.

(١) قال عنه ابن كثير "غريب جداً "، ينظر: ص٢٦

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص٣٧

السنة،ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين».(١)

ولهذه الأهمية والمكانة في تفسير الصحابة والتابعين للقرآن الكريم نجد أنَّ الشيخ عبد العزيز-رحمه الله- قد اعتنى بهذا الجانب غاية الاعتناء واعتمده في تفسيره للقرآن الكريم،بل إنك لتجد أن منهج الشيخ عبد العزيز -رحمه الله- تنوعت أساليبه في عرضه لتفاسيرهم فكان من أبرزها ما يلي:

أولاً:أنه يفسر الكلمة ويبين معناها مؤيداً ذلك بما ورد من تفاسير الصحابة والتابعين، وإليك أمثلة ذلك:

١- من تفسير الصحابة ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾،(٢) فإنه -رحمه الله- يبين معنى الأنداد ويستشهد على ذلك بما ورد عن ابن عباس ﷺ فيقول:« والأنداد جمع ند،وهو المثيل والنظير والكفؤ، عن ابن عباس في قوله عز وجل:﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ، قال:« الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله،وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا ؛ فإن هذا كله به شرك »،(٣) ».(٤)

٢- ومن تفسير التابعين ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾،(٥) فإنه -رحمه الله- يبين معنى القبيل ويستشهد على ذلك بتفسير التابعين فيقول:« قبيله:جنوده، قال مجاهد (٦):يعني الجن والشياطين،وقال ابن زيد: (١) قبيله نسله.(٢) ». (٣)

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٤١

(٢) سورة البقرة،الآية (٢٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥٨/١).

(٤) الأنوار الساطعات (٣١/١).

(٥) سورة الأعراف،الآية (٢٧).

(٦) مجاهد بن جبر من التابعين، كان إمامًا في التفسير والقراءات ، توفي سنة (١٠٣هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء

ثانياً: أنه في تفسير الآية يعرض لعدد من أقوال الصحابة والتابعين ويجمع في الغالب بينها على أنها تفاسير تحتملها الآية، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ ،(٤) حيث يقول: « في الأسباب أربعة أقوال: أحدها:أنها المودَّات، وإلى نحوه ذهب ابن عباس ومجاهد، والثاني: أنها الأعمال، رواه السدي (٥) عن ابن مسعود وابن عباس وهو قول أبي صالح (٦) وابن زيد، والثالث: أنها الأرحام، رواه ابن جريج عن ابن عباس،(٧) والرابع: أنها تشمل جميع ذلك، فيدخل في ذلك الصلة التي كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا من الأنساب والقرابة والصداقة والمودة والصلات والأواصر والعلاقات » (٨)

ثالثاً:أنه كثيراً ما يعتني في تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين وخاصة عند ذكر أسباب النزول، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سبب نزول قوله:﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ،(٩) حيث يقول:« قال ابن عباس وجابر

(٤٤٩/٤)، طبقات المفسرين للداودي (٣٠٥/٢).

(١) ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني من التابعين من مشاهير المفسرين،حدث عن أبيه، توفي سنة (١٨٢هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٦٢/١٥)، طبقات المفسرين للداودي (٢٧١/١).

(٢) رواهما الطبري في تفسيره (٣٧٦/١٢).

(٣) الأنوار الساطعات (٢٩٠/١).

(٤) سورة البقرة،الآية (١٦٦).

(٥) السدي إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ،كان رأساً في التفسير،صدوق يهم،توفي سنة (١٢٧هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء (٣١٥/٩)، طبقات المفسرين للداودي ( ).

(٦) أبو صالح باذام مولى أم هانئ،،تابعي توفي سنة (١٢١هـ)،ضعفه البخاري وقال النسائي ليس بثقة، ينظر: ميزان الاعتدال (٢٩٦/١) تهذيب التهذيب (٣٦٤/١).

(٧) رواها الطبري في تفسيره (٢٨٨/٣-٢٨٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٢٠/١).وابن جريج عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ، رومي الأصل من موالي قريش، توفي بمكة سنة (٥٠هـ) ،ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٩٦/١١)، طبقات المفسرين للداودي ( )،

(٨) الأنوار الساطعات (٦٣/١).

(٩) سورة آل عمران،الآية (١٩٩).

وأنس وقتادة (١):إنَّ هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ نزلت في النجاشي (٢) ملك الحبشة، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:«**اخرجوا، فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم،النجاشي**» فصلى كما يصلي على الجنائز،فكبر أربعًا، فقال المنافقون:يصلي على علج مات بأرض الحبشة! فأنزل الله:﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ﴾، الآية» . (٣)

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من المكثرين للرواية توفي سنة (٧٤هـ)، ينظر: الاستيعاب ا (٦٦/١) الإصابة (٤٣٤/١)،وقتادة بن دعامة السدوسي من التابعين مفسر حافظ ضرير أكمه، توفي سنة (١١٧هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٢٣/٩)،غاية النهاية لابن الجزري (٢٨٦/١)

(٢) النجاشي: أصحمة بن أبجر ملك الحبشة، أسلم على عهد رسول الله ﷺ ولم يهاجر إليه ، ينظر: سير أعلام النبلاء (٤٢٨/١)، الإصابة (١١٧/١).

(٣) الأنوار الساطعات (١٤٦/١).

المطلب الثاني : عنايته بالتفسير بالرأي.

التفسير بالرأي هو الجزء المتمم للتفسير بالمأثور القائم على الرواية، وباجتماع هذا وهذا تكتمل حُلَّة التفسير ما بين رواية قائمة على النقل الصحيح ودراية قائمة على تدبر العقل الصريح.

والشيخ عبد العزيز –رحمه الله– في تفسيره هذا عندما اعتنى بالتفسير بالمأثور القائم على الرواية الصحيحة،لم يغب عنه التفسير بالدراية القائم على التدبر والعقل الصحيح، بل اعتنى اعتناء ظاهراً في توظيف الرأي والاجتهاد في تفسيره للقرآن الكريم، فكان منهجه –رحمه الله– الجمع بين هذا وهذا .

والمتأمل في تفسير الشيخ–رحمه الله–يجد أن لتفسيره بالرأي والاجتهاد ملامح ظاهرة قد اعتمدها ، يمكن عرضُها وإبرازها في النقاط التالية:

أولاً: عنايته بتفسير الألفاظ الغريبة:

يقصد بالألفاظ الغريبة الألفاظ الغامضة التي تحتاج إلى توضيح بما جاء في لغة العرب وكلامهم، والملاحظ أن الشيخ –رحمه الله– في تفسيره اعتنى بهذا الجانب فكان يقف مع المفردات الغريبة في القرآن فيقوم بتفسيرها ويوضح معانيها،وكان له في بيانها طريقتان:

١– الطريقة الأولى:بيان معاني الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى توضيح في بداية كل مقطع يقوم بتفسيره،فيأتي على الألفاظ الغريبة ويبينها ثم يشرع بعد ذلك في التفسير، وهذا كان في أغلب المواضع التي قام بتفسيرها .

٢– الطريقة الثانية: بيان معاني الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى توضيح، وهذا جرى في أغلب تفسيره، وقد تنوعت أساليبه في تناوله ، وإليك بيان ذلك:

أ– بيان الألفاظ الغريبة بإرجاعها إلى أصلها كما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا** ﴾ ،(١) يبين–رحمه الله– معنى المريد فيقول:« والمريد والمارد

(١) سورة النساء، الآية (١١٧).

والمتمرد العاتي الخارج عن الطاعة، وأصل مادة (م ر د) للملامسة والتجرد، ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها ،ووصف الشيطان بذلك؛ إما لتجرده للشر أو لتشبيهه بالأملس الذي لا يعلق به شيء، وقيل: لظهور شره كظهور ذقن الأمرد وظهور عيدان الشجرة المرداء ».(١)

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ،(٢) بين الشيخ –رحمه الله– معنى الإجلاب فقال:« أصل الإجلاب: السوق بجلبة من السائق، والجلبة الأصوات، تقول العرب: أجلب على فرسه، وجلب عليه إذا صاح به من خلفه واستحثه للسبق » .(٣)

ب– بيان الألفاظ الغريبة بإرجاعها إلى أصلها مؤيداً ذلك بالشواهد القرآنية التي تدل على هذا المعنى،كما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ ﴾ ،(٤) حيث يقول:« والنزع الجذب للشيء بقوة عن مقره، ومنه: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ،(٥) ومنه نزع القوس، ويستعمل في الأعراض، ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب ونزع فلان كذا سلبه، ومنه: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴾ ،(٦) لأنها تقلع أرواح الكفرة بشدة، ومنه المنازعة وهي: المخاصمة، والنزع عن الشيء: الكف عنه، والنزوع: الاشتياق الشديد، ومنه نزع إلى وطنه ».(٧)

(١) الأنوار الساطعات(١/٢٢٢).
(٢) سورة الإسراء، الآية (٦٤).
(٣) الأنوار الساطعات(١/٣٧٦).
(٤) سورة الأعراف، الآية (٢٧).
(٥) سورة القمر، الآية (٢٠).
(٦) سورة النازعات، الآية (١).
(٧) الأنوار الساطعات(١/٢٩٠).

ج- بيان الألفاظ الغريبة مؤيداً ذلك بالشواهد الشعرية التي تدل على هذا المعنى، كما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ ،(١) حيث يقول:« ومن يعش، أي يتعامى ويتغافل ويعرض عن ذكر الله، وأصل العَشْو: تثبت النظر بغير علة في العين، يقال منه:عَشَا فلان،يَعْشُو عَشْواً،إذا ضَعُفَ بصرُه وأظلمت عينُه كأن عليه غشاوة، كما قال الشاعر:(٢)

مَتَى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْء نارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقِدِ

وأما إذا ذهب البصر ولم يبصر، فإنه يقال فيه: عشي فلان، يعشي ،عشي منقوص، ومنه قول الأعشى:(٣)

أَأَنْ رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبلُ » (٤)

د- بيان الألفاظ الغريبة مؤيداً ذلك بكلام أهل اللغة، كما جاء عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ،(٥) يبين -رحمه الله- معنى العمى ثم يؤيد ذلك بكلام أهل اللغة فيقول:« أعمى أفعل تفضيل أي أشد عمى وهذا مبني على أنه من عمى القلب، إذ لا يقال ذلك في عمى العين، قال الخليل وسيبويه (٦):لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال: ما أعماه! كما لا يقال:ما أيداه! لأنه

(١) سورة الزخرف، الآية (٣٦).
(٢) البيت للحطيئة ، ينظر ديوانه ص٥٣
(٣) ديوان الأعشى ص٤٨ والمثبت في ديوانه هكذا:
أأنْ رأتْ رجلاً أعشى أضر بهِ لِلّذّةِ المرْءِ لا جَافٍ وَلا تَفِلُ
والأعشى هو ميمون بن قيس بن جندل من فحول شعراء العرب أدرك الإسلام ولم يسلم، توفي سنة (٧هـ)، ينظر: طبقات فحول الشعراء للجمحي (٥٢/١)،الأعلام (٣٤١/٧).
(٤) الأنوار الساطعات (٥٠٠/١).
(٥) سورة الإسراء، الآية (٧٢).
(٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي،كان رأساً في اللغة أنشأ علم العروض توفي سنة (١٧٥هـ)، سير أعلام النبلاء (٤٢٩/٧)،البلغة في تراجم النحو واللغة (٢١/١)، وسيبويه عمر بن عثمان بن قنبر أبو بشر، إمام النحاة، له الكتاب، توفي سنة (١٨٠هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٥١/٨)، والبلغة ص٤٩.

على أكثر من ثلاثة أحرف، وقد حكى الفراء (١) عن بعض العرب أنه سمعه يقول:ما أسود شعره! ». (٢)

ثانياً: عنايته في تفسيره بالمسائل النحوية والصرفية.

اعتنى الشيخ –رحمه الله– في تفسيره بالمسائل النحوية والإعرابية والصرفية وأولى هذا الجانب اهتماماً بالغاً فكان يقف مع الآيات القرآنية ويوضح الجانب النحوي، والإعرابي أو الصرفي وبناء الألفاظ ، ولم يكن للشيخ –رحمه الله– وقوف طويل عند هذه المسائل إلا إذا كان لها أثر في تفسير الآية وبيانها فإنه يعرض لها بأسلوب يدل على تمكُّنه من هذه العلوم ، ومن الأمثلة التي تدل على عنايته بالإعراب ما جاء عند تفسير البسملة حيث يقول:« والمتعلق بالباء في بسم الله مقدر، إما بفعل وإما باسم، فأما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائي؛ فلقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ،(٣)، ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً، نحو: أبدأ بسم الله، أو ابتدأت باسم الله؛ فلقوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ ،(٤) ».(٥)

ومثله ما جاء عند تفسير قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ،(٦) حيث يقول: « وقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، مفسراً للصراط المستقيم وانتصب على أنه بدل من الأول وفائدة التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان وفائدته الإيضاح. ».(٧)

وأما ما يتعلق بالصرف وبناء الكلمة فمن الأمثلة عليه ما جاء عند تفسير الاستعاذة

---

(١) الفراء يحيى بن زياد إمام أهل العربية ومن أعلم أهل الكوفة، توفي سنة (٢٠٧هـ)،تاريخ بغداد (١٤٩/١٤) بغية الوعاة للسيوطي (٣٣٣/٢)

(٢) الأنوار الساطعات (٣٩٥/١)، وقد نقله المؤلف من فتح القدير للشوكاني (٣٥٣/٣)، وينظر: معاني القرآن للفراء (٧٧/٣).

(٣) سورة هود، الآية (٤١).

(٤) سورة العلق، الآية (١).

(٥) الأنوار الساطعات (٩/١).

(٦) سورة الفاتحة، الآية (٧).

(٧) الأنوار الساطعات (١٧/١).

حيث يقول: « والرجيم: فَعِيل بمعنى مَفْعول، أي إنه مرجوم مطرود عن الخير كله ».(١)

ومثله ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ ،(٢)حيث يقول:«القرين هنا فعيل بمعنى مفاعل،كالجليس والخليط،أي:المجالس والمخالط، ومنه سميت الزوجة قرينة، ومنه قيل لما يلز من الإبل والبقر: قرينان» .(٣)

ثالثاً: عنايته في تفسيره بالشواهد الشعرية.

لاجرم أن للشعر أهمية كبيرة في تفسير القرآن الكريم لا سيما في بيان معانيه وما خفي من ألفاظه ، وقد جاء عن ابن عباس قال: « إذا قرأ أحدكم شيئاً من القرآن فلم يدر ما تفسيره فليلتمسه في الشعر فإنه ديوان العرب» .(٤)

والشيخ –رحمه الله–كان له عناية كبيرة بالأدب والشعر، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من القصائد والمنظومات والأبيات والشواهد الشعرية ، بل كان يكتب الشعر ، وقد تقدم أنه –رحمه الله– قد ألف في شعر الزهد والحكمة،كتابه:القصائد الزهديات في جزأين.

وإدراكاً لهذه الأهمية فقد اعتنى الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– بالرجوع إلى الشعر العربي للاستشهاد به في تفسيره، ومن أبرز ملامح منهج الشيخ في الاستشهاد بالشعر في تفسيره ما يلي:

أ– الاستشهاد في توضيح المفردات اللغوية الواردة في الآيات، وذلك أن الشيخ –رحمه الله– عندما يبين مفردات الآية فإنه كثيراً ما يؤيد ذلك بالشواهد الشعرية التي تدل على بيان تلك المفردات، وقد مرَّ معنا شيء من ذلك في بيان اهتمامه بالألفاظ الغريبة، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ ،(٥) حيث يقول: « التبتيك في اللغة: التقطيع، ومنه قول زهير: (١)

(١) الأنوار الساطعات(٥/١).
(٢) سورة الإسراء، الآية (٣٨).
(٣) الأنوار الساطعات(١٦٦/١).
(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤١/١٠) موقوفاً.
(٥) سورة النساء، الآية (١١٩).

حَتَّى إذا مَا هَوَتْ كفُّ الوَلِيدِ لهَا طَارَتْ وَفِي كَفِّهِ مِنْ رِيشَهَا بَتِكُ ».(٢)

ومثله ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ ﴾ ،(٣) حيث يقول: « ترى أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول الذي بعثه الله رحمة للعالمين ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق حتى يتدفق من جوانبها لكثرته، قال امرؤ القيس: (٤)

فَفَاضَتْ دُموعُ العَينِ منِّي صَبابةً على النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمعيَ مِحمَلي».(٥)

ب- الاستشهاد بالشعر في المسائل النحوية والإعرابية التي يعرض لها، فإن الشيخ -رحمه الله-كثيراً ما يستشهد بالشواهد الشعرية على ما يقرره من مسائل نحوية، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا ﴾،(٦) حيث يقول: « والمراد بالسيئات: الشرك، والكفر، والمعاصي، وفي الآية محذوف، وفي تقديره قولان: أحدهما: أن فيها إضماراً "لهم" والمعنى:لهم جزاء سيئة بمثلها، وأنشد ثعلب:

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٢ ، وزهير هو ابن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من أصحاب المعلقات ،حكيم الشعراء في الجاهلية توفي سنة (١٣ ق هـ)،ينظر:طبقات فحول الشعراء (٥١/١)،الأعلام (٥٢/٣)

(٢) الأنوار الساطعات(١٦٦/١).

(٣) سورة المائدة، الآية (٨٣).

(٤) ديوان امرئ القيس ص١ والمثبت في ديوانه:

ففاضتْ دُموتُ العين مني صبابة نزُولَ اليماني ذي العيابِ المحمَّلِ

وامرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ،من أشهر شعراء العرب، صاحب المعلقة،توفي سنة (٨٠ ق هـ) ينظر: طبقات فحول الشعراء (٥١/١)، الأعلام (١١/٢)

(٥) الأنوار الساطعات(١٦٦/١).

(٦) سورة يونس، الآية (٢٧).

فإن سأل الواشون عنه فقل لهم ملم وذاك عطاء للوشاة جزيل

بليلى لمة ثم إنه لهاجر ليلى بعدها فمطيل (١)

أراد: هو ملم.

والثاني: أن فيها إضماراً "منهم" المعنى: جزاء سيئة منهم بمثلها، تقول العرب: رأيت القوم صائم وقائم، أي منهم صائم وقائم، وأنشدوا: (٢)

حتى إذا أضَاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ وَغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ وَمَحْصُودٌ

أي منه مَلْوِيٌّ ».(٣)

ج- الاستشهاد في تفسير الآية وتوضيح المعنى العام لها،فالشيخ -رحمه الله-عندما يبين المعنى العام للآية يستشهد له بالشواهد الشعرية في توضيح هذا المعنى، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ ،(٤) حيث يقول: « العفو عن الناس التجاوز عن ذنوبهم وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك، يعني الصافحين عن الناس المتجاوزين عما يجوز العفو والتجاوز عنه مما لا يؤدي إلى الإخلال بحق الله تعالى، فيدخل في العفو عن الناس عن كل من أساء إليك بقول أو فعل.

ولله در القائل: (٥)

وإن أساء مسيء فليكن لك في عروض زلته صفح وغفران

وقال الآخر: (١)

---

(١) نقل المؤلف البيتين من ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥/٤)،وقد أنشدهما أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري لامرأة من بني عقيل، ينظر: أشعار النساء للمرزباني ص٨ ، وثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، إمام الكوفيين في النحو واللغة، توفي سنة (٢٩١هـ)،ينظر: البلغة في تراجم النحو واللغة ص٩، الأعلام (٢٦٧/١).

(٢) نقل المؤلف البيت من ابن الجوزي في زاد المسير (٢٦/٤)، وهو من شواهد الفراء في معاني القرآن (١٠٧/٤).

(٣) الأنوار الساطعات (٣٥٣/١)، وقد نقله المؤلف من زاد المسير (٢٦/٤)، وينظر:إعراب القرآن للنحاس (٤٦٩/٣)، الدر المصون للسمين الحلبي (٤٩٢٦/١)

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

(٥) هو أبو الفتح البستي، ينظر:قصيدة عنوان الحكم لأبي الفتح البستي ص٣٦

وأحلم عن خلي وأعلم أنه متى أجزه حلمًا على الجهل يندم

وقال أيضًا: (٢)

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ».(٣)

د- الاستشهاد في تفسير الآية وما يستنبطه منها، فنلحظ أن الشيخ -رحمه الله- يستنبط بعض ما تشير إليه الآية ثم يؤيد ذلك بالشواهد الشعرية، ومثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ ،(٤) حيث يستنبط منها ما تشير إليه الآية فيقول: « وفي الآية إيماء إلى أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه ﷺ به، ولما طلبه إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ ،(٥)

قال أبو الطيب: (٦)

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

وقال الآخر: (٧)

(١) هو أبو الطيب المتنبي ، ينظر ديوانه بشرح الواحدي (١٧٩/٢).

(٢) هو أبو الطيب المتنبي ، ينظر ديوانه بشرح الواحدي (٦١/٢).

(٣) الأنوار الساطعات (١٢٧/١).

(٤) سورة الزخرف، الآية (٤٤).

(٥) سورة الشعراء، الآية (٨٤).

(٦) ينظر ديوانه بشرح الواحدي (٢٤٠/٢). وأبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي شاعر الزمان الشهير بالمتنبي، توفي سنة (٣٥٤هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (١٩٩/١٦) الأعلام (١١٥/١).

(٧) ذكره الجاحظ في كتابه الحيوان (٩٦/١)، ونسبه لابن يسير،وينظر:جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر(٢٠٣/٢)،

ما مات قوم إذا أبقوا لنا أدبًا وعلم دين ولا فاتوا ولا ذهبوا ».(١)

هـ- مما يلاحظ في تفسير الشيخ رحمه الله أنه أكثر من الاستشهاد بالقصيدة النونية المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيم الجوزية -رحمه الله- ويؤيد بها ما يذكره من أحكام ودلالات مما تدل عليه الآيات في مواضع كثيرة من تفسيره يطول المقام بذكرها.(٢)

كما أنه يستشهد في تفسيره بنونية القحطاني(٣)-رحمه الله- ولكنها مواضع يسيرة.(٤)

(١) الأنوار الساطعات (٥٠٥/١).

(٢) فمثلاً استشهد بالنونية في وصف الجنة كما في (٤٥/١)،وفي ذكر صفات الله جل جلاله كما في (١٠٤/١) ،(١٠٨/١)،(١٠٩/١)(١١٩/١) ،(٣٦٥/١)،(٣٦٩/١)، (١/ ٤٦١)،(١/ ٤٦٧،٤٦٨).

(٣) لم أقف على ترجمة له.

(٤) كما في وصف يوم القيامة (٤٦٤/١) ، وفي ذكر فوائد النجوم (٣٠٢/١).

رابعاً: اهتمامه في تفسيره بإبراز الأوجه البلاغية.

لقد حوى كتاب الله من وجوه البلاغة وأسرار البيان ما يجلي إعجازه، ويكشف ما فيه من خصائص البيان، وبراعة الأسلوب، وسهولة النظم وسلامته .

وقد أدرك الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– أهمية البلاغة القرآنية واعتنى بها عناية فائقة في تفسيره،فكانت له –رحمه الله– وقفات بلاغية واهتمامات بإبراز أسرار البيان القرآني،

فكان يقف مع الآيات القرآنية ويوضح ما فيها من أوجه بلاغية ونكات لطيفة، فمما أورده :

١– الالتفات:وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو من المحسنات البديعية، ويسمى بالشجاعة العربية لأن ذلك التغيير والنقل من أسلوب إلى آخر يجدد نشاط السامع ويوقظه. (١)

وقد أبرز الشيخ –رحمه الله– هذا النوع من الأوجه البلاغية في تفسيره ، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ،(٢) بعدما بين ما فيها من التفات وهو تحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب،

يقول الشيخ تعليقاً على هذه النكتة البلاغية :« ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا له كما تقرر في علم المعاني » أهـ.

ثم يضيف –رحمه الله– إلى هذه النكتة نكات أُخر احتوتها الآية فيقول:« والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار عن الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل: إن المقام لما كان عظيمًا لم يستقل به الواحد استقصارًا لنفسه واستصغارًا لها، فالمجيء بالنون لقصد التواضع، لا لتعظيم النفس، وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم ». (٣)

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (٧٢/١).

(٢) سورة الفاتحة، الآية (٥).

(٣) الأنوار الساطعات (١٤/١).

٢- الإظهار موضع الإضمار، وهو ما يعرف بالخروج عن مقتضى الظاهر، وذلك أن الضمير هو المستخدم في الكلام المتبادر الذي يقتضيه ظاهر الأسلوب المعتاد، لكن قد يوجد داعٍ بلاغي يستدعي الاسم الظاهر بدل استخدام الضمير كالإشعار مثلاً بكمال العناية، أو التمكين ، أو إدخال الروعة والمهابة على نفس السامع ونحو ذلك. (١)

وقد أبرز الشيخ -رحمه الله- هذا النوع من الأوجه البلاغية في تفسيره،فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ،(٢) حيث قال -رحمه الله-:« وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات بعد تعيينه بالصفات، وتعليل الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوحدانية، واستحالة الشركة، والاستيذان باستتباعها لسائر الصفات ».(٣)

٣- الحذف، وهو من علم المعاني الذي يبحث في أحوال اللفظ كالتعريف والتنكير والذكر والحذف، والإظهار والإضمار.(٤)

وقد سمى ابن جني الحذف شجاعة العربية،(٥) وقال عبد القاهر الجرجاني:« هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ».(٦)

والحذف من الأوجه البلاغية التي برزت عند الشيخ -رحمه الله- في تفسيره، وبين ما فيها من أسرار، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ ،(٧) حيث قال:« فالله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر؛

---

(١) ينظر:البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها/ عبد الرحمن الميداني (٣٧٥/١).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٢).

(٣) الأنوار الساطعات (٣١/١).

(٤) ينظر: خصائص التراكيب / أبو موسى، محمد ص٣٤

(٥) ينظر: الخصائص (٣٦٠/٢) وابن جني عثمان أبو الفتح،من أئمة اللغة والأدب، توفي سنة (٣٩٢هـ) ،ينظر:سير أعلام النبلاء (١٧/١٧)، البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة ص٣٨

(٦) دلائل الإعجاز ص١٢١ والجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي إمام العربية، أول من دوَّن علم المعاني، توفي سنة (٤٧١هـ) بجرجان،ينظر:سير أعلام النبلاء (٤٠٤/٣٥) بغية الوعاة (٣٥/٢).

(٧) سورة النساء، الآية (٥٩).

لأنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون في معصية » .(١)

ومن أمثلة الحذف أيضاً ما جاء عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا ﴾،(٢) حيث قال الشيخ-رحمه الله-:« والمراد بالسيئات الشرك والكفر والمعاصي، وفي الآية محذوف، وفي تقديره قولان:أحدهما:أن فيها إضماراً "لهم" المعنى:لهم جزاء سيئة بمثلها، والثاني:أن فيها إضماراً "منهم" المعنى: جزاء سيئة منهم بمثلها».(٣)

٤- إطلاق المسبب وإرادة السبب،وهو أسلوب من أساليب البلاغة، ووجه من الأوجه البلاغية التي أشار إليها الشيخ -رحمه الله-في تفسيره وبين ما فيها من نكات، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾،(٤)حيث قال:« وأضاف نزعه إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك؛لأنه كان بسبب وسوسته فأسند إليه، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة التي وقعت فيما مضى ».(٥)

٥- التكرار على وجه التأكيد ،وهو أسلوب من الأساليب البلاغية،ومن المحسنات البديعية، وله فوائد عديدة أعظمها التقرير،ولذلك قيل: الكلام إذا تكرر تقرر.(٦)

---

(١) الأنوار الساطعات (١/١٨٣).
(٢) سورة يونس، الآية (٢٧).
(٣) الأنوار الساطعات (١/٣٥٣).
(٤) سورة الأعراف، الآية (٢٧).
(٥) الأنوار الساطعات (١/٢٩٠).
(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٩).

والشيخ –رحمه الله–أبرز هذا في تفسيره، ووقف معه في مواضع متعددة،وبين ما فيها من الأغراض البلاغية، فمن ذلك ما جاء في تفسير فاتحة الكتاب وعند تفسير قوله تعالى:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾،(١)حيث قال:« إن في تكرير ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾،بعد الذكر في البسملة ما يدل على أن العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه ».(٢)

وجاء عند تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ ﴾،(٣) حيث قال:« ثم كرر سبحانه النداء لبني آدم تحذيرًا لهم من الشيطان، وفائدة تكرار النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صدر به ».(٤)

وهكذا نجد أن الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– قد اعتنى بالأوجه البلاغية في تفسيره عناية فائقة،فكانت له وقفات بلاغية واهتمامات بإبراز ما فيها من أسرار ونكات لطيفة.

خامساً:اهتمامه بعلم المناسبات.

المناسبات هي بيان أوجه الارتباط بين الآيات القرآنية بعضها ببعض أو الجمل من الآيات، أو بين السور القرآنية بعضها ببعض، على تعدد أنواعها. (٥)

وبيَّن الزركشي فائدة علم المناسبات فقال:«جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض،فيقوى بذلك الارتباط،ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ». (٦)

(١) سورة الفاتحة، الآية (٣).
(٢) الأنوار الساطعات (١/٢٥).
(٣) سورة الأعراف، الآية (٢٧).
(٤) الأنوار الساطعات (١/٢٩٠).
(٥) ينظر:الإتقان (٣/٣٦٩).
(٦) البرهان في علوم القرآن (١/٣٥)، والزركشي:بدر الدين محمد بن بهادر من مشاهير العلماء الأصوليين والفقهاء توفي سنة:(٧٩٤هـ)، ينظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/١٦٢)، الأعلام(٦/٦٠).

والشيخ –رحمه الله–في تفسيره قد اعتنى بعلم المناسبات عناية بالغة فكان يبرز المناسبة بين الآيات على أوجه عديدة،كالمناسبة بين الجمل،وبين الآيات، وما يتعلق بخواتيم الآيات ونحوها، وإليك بيان ذلك:

أولاً: المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة :

ويقصد به الارتباط في نظم مفردات الآية ومجيء ألفاظها متصلة ببعض ، وقد أبدع الشيخ–رحمه الله– في تفسيره في إبراز هذا الوجه في غير ما موضع ، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ،(١) حيث قال –رحمه الله– :« هذه الآية جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحًا أو ضمنًا،فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله:﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ إلى:﴿ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ ، وإلى الثاني بقوله:﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ إلى:﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إلى آخرها، ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرًا إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتبارًا بمعاشرته للخلق ومعاملته للحق جل وعلا ».(٢)

ثانياً: المناسبة بين الآيات :

وهذا الوجه قد تنوع عند الشيخ –رحمه الله– فجاء على صور مختلفة، وإليك بيان ذلك :

(١) سورة البقرة، الآية (١٧٧).

(٢) الأنوار الساطعات (١/٨٠).

أ- ربط الآية بالآية التي قبلها: ومثاله ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ،(١) حيث قال -رحمه الله-:« ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة سألوه الثواب على ذلك فقالوا:﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾،أي: ربنا أعطنا ما وعدتنا به على ألسنة رسلك من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا والظفر، والنعيم في الآخرة من الفوز برضوان الله وجنته». (٢)

ب- ربط جملة من الآيات بعضها ببعض: ومثاله ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ،(٣) حيث نجد أن الشيخ –رحمه الله- يهتم بربط تلك الآيات بعضها ببعض وإن بعدت أو كثرت،فيقول:« بعد أن ذكر تعالى أصناف الخلق، وبين أن منهم المهتدين والكافرين الذين جحدوا ما جاء به الرسول ﷺ والمنافقين المذبذبين بين ذلك دعا الله وأمرهم أمرًا عامًا لجميعهم بأمر عام،وهو عبادته وحده لا شريك له ». (٤)

ج- ربط الآية بما قبلها وإن بعد: فيلاحظ أن الشيخ -رحمه الله- يعتني بربط سياق الآية وإن بعد، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ ﴾ ،(٥) يبين- رحمه الله- وجه ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض وقد بعد اتصال بعضها ببعض، فيقول:« بعد أن شرح ﷻ قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولاً، ثم مع السامري ثانياً على نمط بديع وأسلوب قديم، بين لنبيه ﷺ أن هذا القصص عن الأمم الماضية والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة نلقيه إليك لنثبت به قلبك، وإذهاباً لحزنك، إذ به تعرف ما حدث للرسل

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٩٣-١٩٤).
(٢) الأنوار الساطعات (١/١٤٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢١).
(٤) الأنوار الساطعات (١/٢٧).
(٥) سورة طه، الآية (٩٩).

من قبلك من شدائد الأهوال، وتذكيراً للمستبصرين في دينهم، وتأكيداً للحجة على من عاند وكابر من غيرهم ». (١)

د- ربط الآية بافتتاحية السورة ومضمونها: من أوجه المناسبات التي برزت عند الشيخ -رحمه الله- أنه يربط الآية أو الآيات بصدر السورة وافتتاحيتها ومضمونها، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾،(٢) حيث أبان-رحمه الله- ارتباط الآية بافتتاحية السورة ومضمونها فقال:« تقدم الأمر بالوفاء بالعهود، ومن جملتها إقامة الصلاة، ومن شرائطها الطهارة ». (٣)

ثالثاً: المناسبة بين ختم الآية لسياقها:

وقد أبرز الشيخ -رحمه الله- هذا النوع في تفسيره وبيَّن مناسبة ختم الآية لسياقها وإظهار ما حوته الآية من أسرار، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ ،(٤) حيث أبان -رحمه الله- مناسبة ختم هذه الآية بهذه الخاتمة فقال:« ولما في عالم السموات من بديع الصنع وبديع النظام ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾،أي بيناها ووضحناها وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث آيات الله بادية ظاهرة لقوم يعلمون بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته، وخص أهل العلم؛ أنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ويطلب منهم الجواب ، وهم المنتفعون بالآيات ». (٥)

رابعاً: المناسبة بين ختم الآية لسياقها مع ربطها بنظائرها.

---

(١) الأنوار الساطعات (١/٤٠٠).
(٢) سورة المائدة، الآية (٦).
(٣) الأنوار الساطعات (١/٢٣٣).
(٤) سورة الأنعام، الآية (٩٧).
(٥) الأنوار الساطعات (١/٢٨٢).

فنجد أن من عناية الشيخ رحمه الله واهتمامه بعلم المناسبات أنه يكشف لنا مناسبة الآيات لخواتيمها ثم يوازن بينها وبين نظائرها التي اتحدت في سياقها واختلفت في خاتمتها ليكشف لنا سر اختلاف تلك الخواتيم ويظهر ما حوته من أسرار، فمن ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ،(١) حيث أوضح سر خاتمة هذه الآية ثم وازن بينها وبين قرينتها الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ،(٢) فقال:« من هدي القرآن للتي هي أقوم: الإرشاد إلى ختام الكلام بما يناسبه، فقد ختم جل وعلا وتقدس الآية الرابعة بقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ،الآية التي بعدها الآية السابعة بقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ؛ لأن المقصود أولاً التدبير التام لأمر الخلق، فيناسبه العلم والإحاطة، وأما الآية الأخيرة فالمراد تهديد المنافقين والمشركين فيناسبه العزة والغلبة ». (٣)

وهكذا نجد أن الشيخ –رحمه الله– قد أبدع في علم المناسبات وذكر له صوراً مختلفة وألواناً متنوعة، وبين أوجه الارتباط بين الآيات القرآنية بعضها ببعض، أو مفردات الآية الواحدة ، أو الآية بما قبلها وإن بعد سياقها، حتى إنه ليربط بعض الآيات بافتتاحية السورة ومضمونها، ويعتني بإبراز الأسرار في خواتيم الآيات وعلاقتها بسياقها.

سادساً: عنايته بالاستنباط.

الاستنباط في التفسير هو استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح ،ولابد أن يكون الاستنباط مبنياً على الفهم العميق لمعنى تلك الآيات، وما تنطوي عليه من الأحكام والحكم. (٤)

ومن خلال النظر في تفسير الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– تبين أنه كان حريصاً على استنباط ما دقَّ من معاني الآيات وإيضاح ما خفي من حِكَمِها وأحكامها، وعلى هذا فقد

(١) سورة الفتح، الآية (٤).
(٢) سورة الفتح، الآية (٧).
(٣) الأنوار الساطعات (٢/٢٣٨).
(٤) ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/٢٦٨)

تنوعت موضوعات الاستنباط عند الشيخ في تفسيره فمنها الاستنباطات العقدية والفقهية واللغوية وفي السيرة والرقائق ، وإليك إيضاح ذلك على النحو التالي:

١- الاستنباطات العقدية: وذلك أن الشيخ -رحمه الله- قد اعتنى بآيات العقيدة فكان يقف عندها كثيراً ويستنبط منها عدداً من المسائل العقدية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ماجاء عند تفسير سورة الفاتحة حيث استنبط منها بدلالة التضمن أنواع التوحيد الثلاثة: فقال:« هذه السورة تضمنت إثبات أنواع التوحيد الثلاثة: فتوحيد الألوهية يؤخذ من لفظ ﴿ لِلَّهِ ﴾ ،ومن قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وتوحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ،وتوحيد الأسماء والصفات يؤخذ من لفظ:﴿ الْحَمْدُ ﴾».(١)

٢- الاستنباطات الفقهية: وكما أن الشيخ -رحمه الله- اعتنى بالاستنباط من آيات العقيدة فقد اعتنى أيضاً بالاستنباط من آيات الأحكام أحكاماً ودلائل فقهية ، فقد استنبط -رحمه الله- من آية الوضوء في سورة المائدة أكثر من سبعين حكماً وفائدة فقهية، ومن آية الصيام أربعة وأربعين حكماً.

ومن الأمثلة على استنباطاته الفقهية استنباطُه من قوله تعالى:﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ ،(٢) استحبابَ التكني عما يستقذر التلفظ به. (٣)

٣- الاستنباطات اللغوية: اعتنى الشيخ رحمه الله بالمسائل اللغوية في تفسيره وكان له فيها استنباطات دقيقة، منها ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ،(٤) فقد قال:« إن الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا إليها لكرامة الله لهم وكرامتهم عليه، والتقدير حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾، (٥) وجعل ﴿ وَفُتِحَتْ

(١) الأنوار الساطعات (٢٤/١).
(٢) سورة المائدة، الآية (٦).
(٣) ينظر: الأنوار الساطعات (٢٥١/١).
(٤) سورة الزمر، الآية (٧٣).
(٥) سورة ص، الآية (٥٠).

﴿ أَبْوَٰبُهَا ﴾،جملة حالية،أي وقد فتحت أبوابها، وناسب كونها حالاً أن أبواب الأفراح تكون مفتَّحة لانتظار من يجيء إليها ». (١)

٤- الاستنباطات في السيرة النبوية:وذلك أن الشيخ -رحمه الله- اعتنى بما يتعلق بسيرة النبي ﷺ فاستنبط من الآيات المتعلقة بسيرته ﷺ استنباطات دقيقة ، منها ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ،(٢) فقد استنبط من الآية أن في وصفه ﷺ بهذا الوصف ما يقتضي المدح لنسبه ﷺ. (٣)

٥- الاستنباطات في الرقائق: اعتنى الشيخ-رحمه الله- بالرقائق فاستنبط منها استنباطات، منها ما ذكره عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾،(٤) حيث قال:« فيتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخيرات وترك الشر الذي بتركه يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه والثبات إلى الممات، وفي هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »، (٥) واستنبط استنباطاً آخر وهو:« أن في ذلك هضمًا للنفس،وحسن أدب، حيث قالوا مع الأبرار ». (٦)

(١) الأنوار الساطعات (٤٦٢/١).
(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٨).
(٣) ينظر: الأنوار الساطعات (٣٢٧/١).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٩٣).
(٥) الأنوار الساطعات (١٤٢/١).
(٦) الأنوار الساطعات (١٥١/١).

المطلب الثالث : عنايته بتفسير آيات الاعتقاد .

تقدم الكلام عن عقيدة الشيخ عبد العزيز –رحمه الله– عند الحديث عن ترجمته وأنه كان على عقيدة أهل السنة والجماعة في تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات،وفي مسائل القدر والإيمان،وسائر مسائل الاعتقاد، وكان منهجه في الاستدلال فيها الاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة،مع الإيمان بهذه النصوص دون تأويل ولا تحريف. (١)

وتقدم أيضاً أنه قد اعتمد كثيراً مع دلالة الوحيين على ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فكان كثيراً ما يقرأ في مؤلفاتهما ويستقي منهما العقيدة الصافية المبنية على الكتاب والسنة فأفاد منها علماً غزيراً، تجلى ذلك في مؤلفاته،الأسئلة والأجوبة المختصرة والمطولة على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية،وكتابه الكواشف الجلية عن معاني الواسطية . (٢)

فظهر أن الشيخ –رحمه الله– قد اعتنى غاية الاعتناء بتفسير آيات الاعتقاد،وتقرير أصول أهل السنة والجماعة والرد على من خالفهم ، وهذا يتضح من معالم أبرزها ما يلي:

١– تقرير الشيخ –رحمه الله– لأنواع التوحيد الثلاثة،حيث أوضح –رحمه الله– أن سورة الفاتحة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة فقال:« هذه السورة تضمنت إثبات أنواع التوحيد الثلاثة: فتوحيد الألوهية يؤخذ من لفظ ﴿ لِلَّهِ ﴾ ،ومن قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وتوحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ،وتوحيد الأسماء والصفات يؤخذ من لفظ:﴿ الْحَمْدُ ﴾».(٣)

أما توحيد الألوهية والعبادة الذي هو الأصل في خلق الخلق والأصل في دعوة الرسل، فقد اعتنى به غاية الاعتناء في غير ما موضع من تفسيره وبيَّن معنى كلمة التوحيد وأركانها

---

(١) ينظر:ص٩

(٢) ينظر:ص٩

(٣) الأنوار الساطعات (١/٢٤).

وشروطها فقد قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾،(١):« أي لا معبود بحق إلا هو، ولكلمة الإخلاص أركان وشروط، فأركانها اثنان، نفي وإثبات، وحد النفي من الإثبات لا إله أي نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، والإثبات إلا الله مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه، وأما شروطها فسبعة، لا تصح هذه الكلمة ولا تنفع قائلها إلا إذا استجمعت له الشروط ».(٢)

٢ – تقرير الشيخ –رحمه الله–لمسألة الإيمان باليوم الآخر،حيث بين المراد به بقوله:« هو الإيمان بكل ما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ مما يكون بعد الموت، ويدخل في ذلك التصديق بعذاب القبر ونعيمه، والبعث بعد الموت، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والحوض، والجنة، والنار، وما أعد الله لأهلهما إجمالاً وتفصيلاً ».(٣)

فمن المسائل التي قررها الشيخ –رحمه الله– في تفسيره مما يتعلق بمسألة الإيمان باليوم الآخر عذاب القبر ونعيمه الذي هو من عقيدة أهل السنة والجماعة،فنلحظ أن الشيخ يقف مع أدلة القرآن الدالة على عذاب القبر ونعيمه، فعند تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ ،(٤) يبين أن الآية دالة على عذاب القبر وذلك أن الخطاب والعذاب الموجه إلى هؤلاء المخاطبين إنما هو حال النزع عند الاحتضار، وقبيل الموت وبعده، ثم أيد ذلك بأدلة عذاب القبر ونعيمه من الكتاب والسنة.

ومن المسائل التي قررها الشيخ –رحمه الله– أيضاً في تفسيره مما يتعلق بمسألة الإيمان باليوم الآخر الإيمان بقدرة الله على المعاد وبعث الناس من قبورهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم،فعند تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩٣).
(٢) الأنوار الساطعات (٣٣٥/١).
(٣) الأنوار الساطعات (٧٢/١).
(٤) سورة الأنعام، الآية (٩٣).

﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ،(١) استخرج منها الأدلة العقلية الدالة على إمكانية البعث وقدرة الله ﷻ على بعث الناس من قبورهم بعد موتهم حيث قال:« أشار الله سبحانه وتعالى في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت:

البرهان الأول:خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ ، لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني.

البرهان الثاني:خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله تعالى:﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ ،لأنهما من أعظم المخلوقات ومن قدر على خلق الأعظم، فهو على غيره قادر من باب أولى وأحرى.

البرهان الثالث:إحياء الأرض بعد موتها، فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت المشار إليه في قوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾ ».(٢)

ومن المسائل التي قررها الشيخ –رحمه الله– أيضاً في تفسيره مما يتعلق بمسألة الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالشفاعة وأنها حق ثابت يوم القيامة، وأنها ملك لله وحده،فعند تفسير آية الكرسي من سورة البقرة عقد الشيخ فصلاً قال فيه:« بحث المقصود منه الكلام على الشفاعة بوضوح »(٣)،ثم بين فيه معنى الشفاعة وأقسامها وذكر شرطيها ، وبين موقف الناس من الشفاعة وأنهم ثلاث فرق ، ثم ساق أنواعها الستة.

ومن المسائل التي قررها الشيخ –رحمه الله– أيضاً في تفسيره مما يتعلق بمسألة الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان معدتان وأنهما باقيتان لاتفنيان،فعند تفسير قوله تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ،(٤) يبين أن الآية دالة على وجود النار،

(١) سورة البقرة، الآيتان (٢١-٢٢).
(٢) الأنوار الساطعات (١/٣٠).
(٣) الأنوار الساطعات (١/١٠٠).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٢١).

وأنها الآن مخلوقة ومعدة للكافرين،(١) وكذا عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ ،(٢) يبين أن الآية دالة على وجود الجنة، وأنها الآن مخلوقة ومعدة للمتقين. (٣)

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ،(٤) يبين أن الآية دالة على أن النار باقية لا تفنى فيقول –رحمه الله–: «هذا إخبار منه جل وعلا أنهم فيها دائمون لا يخرجون منها، وهذا قول أهل السُّنة والجماعة؛ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ ،(٥) ». (٦)

٣ – بيان الشيخ –رحمه الله– لمذاهب المخالفين والرد عليهم، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ ،(٧) يبين مذهب جمهور العلماء أن توبة القاتل عمدًا مقبولة ويسوق الأدلة الدالة على ذلك، ثم يبين الرأي الآخر وهو أن القاتل عمدًا داخل تحت المشيئة تاب أولم يتب، ثم يرد على من قال بخلوده في النار وهم الخوارج والمعتزلة، فيقول:" وبتقدير دخوله فليس بمخلد في النار خلافًا للخوارج والمعتزلة

الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ « أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال حبة أو خردلة أو ذرة من الإيمان »، (٨) ». (٩)

---

(١) الأنوار الساطعات (١/ ٣٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٢٣).
(٣) ينظر: الأنوار الساطعات (١/١٣٢).
(٤) سورة البقرة ، الآية (١٦٧).
(٥) سورة الأعراف ، الآية (٤٠).
(٦) الأنوار الساطعات (١/٦٤).
(٧) سورة الفرقان ، الآية (٦٨).
(٨) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٧٢٧).
(٩) الأنوار الساطعات (١/ ٤٢٣).

المطلب الرابع : عنايته بتفسير آيات الأحكام .

تقدم أن الشيخ –رحمه الله–كانت له عناية بالأحكام الفقهية وخاصة في الفقه الحنبلي إلا أنه لم يكن متعصِّباً للمذهب الحنبلي في آرائه الفقهية وفتاواه، وإنما كان يعتمد المذهب ما ظهر الدليل، فإذا رأى الدليل في غيره أرجح أخذ به دون تردد. (١)

ومما يدل على عناية الشيخ –رحمه الله– بالأحكام الفقهية أنه قام بتدريس الفقه إبَّان تدريسه في المعهد العلمي،وكذا ما ألفه من مؤلفات في الفقه مثل كتابه" الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية " وكتابه "إتحاف المسلمين بما تيسر من أحكام الدين،علم ودليل".

وأما تفسيره الذي بين أيدينا فلم يتعرض الشيخ –رحمه الله– فيه لآيات الأحكام إلا في مواضع قليلة ، ومع هذا فقد كان له اهتمام بارز في تفسير آيات الأحكام التي فسرها، فيأتي على الآية من آيات الأحكام فيفسرها ويستخرج ما فيها من أحكام ويطيل في عرض المسائل الفقهية ويستدل لها من الكتاب والسنة،وهو في الغالب لا يتعرض لأقوال الفقهاء، ويختم شرحه للآية باستنباط الفوائد الفقهية ويطيل النفس في سردها، ففي آية الوضوء من سورة المائدة استنبط أكثر من سبعين حكماً وفائدة .

ومن الأمثلة الدالة على عنايته بتفسير آيات الأحكام ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ ،(٢) فقد بين ما دلت عليه الآية من أحكام ثم يعرض للخلاف إن وجد وأحياناً يرجح بالدليل ، فيقول –رحمه الله– « أي: ويجب فدية على الذين يتكلفون ويشق عليهم مشقة غير محتملة وهم الشيوخ والعجائز؛ لقول ابن عباس ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً،(٣) وقيل:كان هذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير

---

(١) ينظر: ص٩

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٨٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٨٢/٥) برقم (٤٥٠٦).

معتادين للصيام، وكان فرضه حتمًا فيه مشقة عليهم درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ ، ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر، والقول الأول هو الراجح عندي، والله أعلم، روي أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكينًا فأطعمهم (١) ». (٢)

الخاتمة

(١) رواه الدار قطني في سننه (١٩٩/٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢١/٤) .
(٢) الأنوار الساطعات (١/ ٨٥).

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد هذه الرحلة الممتعة التي عشنا فيها في رحاب منهج الشيخ العالم النحرير والمفسر الكبير الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان–رحمه الله– يجدر بنا أن نورد بعضاً من نتائج هذه الرحلة الممتعة في النقاط التالية:

١– أن الشيخ –رحمه الله– من العلماء المعاصرين الذين ساروا على منهج السلف الصالح في العقيدة في اعتماد الدليل الصحيح الثابت في الكتاب والسنة مع اعتماد أقوال سلف هذه الأمة –رحمهم الله–.

٢– أن الشيخ –رحمه الله– كان من العلماء البارزين، والمشاركين في علوم متنوعة فقد حفظ القرآن الكريم، وأتقن الكثير من العلوم المتنوعة، ثم اشتغل بالتدريس والإفادة، وصنف في علوم متنوعة.

٣– أن الشيخ –رحمه الله–كان موسوعة علمية جمع بين فنون العلم المتنوعة بإتقان ورسوخ، فهو مفسر وأصولي وفقيه ولغوي، دل على ذلك كثرة مؤلفاته وتنوعها في شتى الفنون ، مما يدل على إحاطته بكثير من العلوم وسَعة ثقافته.

٤– أن الشيخ–رحمه الله– في تفسيره هذا لم يفسر القرآن الكريم كاملاً ، وإنما كان يختار آيات جامعات من القرآن –كما هو ظاهر من عنوان الكتاب [الأنوار الساطعات لآيات جامعات]، فكانت طريقته في التفسير طريقة بديعة تجعل القارئ يستمتع بالقرآءة فيه فقد رتبه بذكر عنوان الآية أو الآيات ثم ببيان غريب مفرداتها، وتارة ببيان مناسبة الآية أو الآيات لما قبلها،وتارة بذكر سبب النزول ، ثم يبين المعنى العام للآية أو الآيات، ثم يذكر ما تضمنته الآية أو الآيات من أحكام وفوائد واستنباطات، ويطيل النفس بذكرها وسردها.

٥- أن الشيخ-رحمه الله- في تفسيره هذا قد سلك منهج التفسير بالمأثور القائم على الرواية الصحيحة، مع اعتنائه الشديد بالتفسير بالدراية القائم على التدبر والعقل الصحيح، فكان منهجه -رحمه الله- الجمع بين هذا وهذا .

٦-أن الشيخ-رحمه الله- ضمَّن تفسيره كثيراً من اللطائف البلاغية والنكات البديعية والاستنباطات الرائعة التي ظهرت في هذا التفسير، وتميز بها.

وفي الختام أسأل الله جلت قدرته أن يغفر للشيخ عبد العزيز السلمان ، وأن يجزيه خير الجزاء عن كل ما قدم من خدمة جليلة للعلم وأهله وللقرآن خاصة وأهله ، على هذا التفسير المختصر المتميز ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن - عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم - نشر:الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

٢- الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩ -

٣- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل : محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت ، الطبعة : الثانية – ١٤٠٥هـ

٤- الاستيعاب في أسماء الأصحاب- يوسف بن عبدالله بن عمر ابن عبد البر القرطبي، دار الكتاب العربي – بيروت ، لبنان .

٥- أسد الغابة في معرفة الصحابة-علي بن محمد الجزري ابن الأثير - دار الكتب العلمية- لبنان، بيروت-ط١، ١٤١٥هـ.

٦- أشعار النساء : أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، لا توجد معلومات.

٧- الإصابة في تمييز الصحابة - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- تحقيق علي محمد البجاوي نشر دار الجيل - بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ.

٨- إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق د.زهير غازي زاهد، الناشر عالم الكتب، بيروت- ١٤٠٩هـ

٩- الأعلام - خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.

١٠- إعلام الموقعين عن رب العالمين - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة.

١١- الأنوار الساطعات لآيات جامعات- الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، الطبعة الرابعة ١٤١١هـ.

١٢- الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني -نشر: دار إحياء العلوم – بيروت الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨

١٣- البرهان في علوم القرآن - محمد بن بهادر الزركشي،ت: محمد أبوالفضل إبراهيم،

نشر دار المعرفة – بيروت، ١٣٩١هـ.
١٤- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها- عبد الرحمن الميداني،الطبعة الرابعة-١٩٩٠م
١٥- البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة / محمد بن يعقوب الفيروزأبادي،النشر جمعية إحياء التراث الإسلامي- الكويت — ١٤٠٧ الطبعة : الأولى، تحقيق :محمد المصري.
١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة- عبد الرحمن بن أبي بكر للسيوطي نشر: مكتبة مشكاة الإسلامية
١٧- تاريخ بغداد : أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي الناشر : دار الكتب العلمية بيروت
١٨- تفسير القرآن العظيم- إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق:سامي بن محمد السلامة نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ
١٩- تفسير القرآن العظيم – عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم ت أسعد محمد الطيب مكتبة نزار محمد الباز مكة ط١ – ١٤١٧هـ
٢٠- تهذيب التهذيب- أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ
٢١- جامع بيان العلم وفضله- يوسف بن عبد البر النمري – الناشر دار الكتب العلمية.
٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن –محمد بن جرير الطبري، ت أحمد شاكر- مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ
٢٣- الحيوان – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون نشر: دار الجيل لبنان/ بيروت ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م
٢٤- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني- أبو موسى، محمد محمد، نشر:مكتبة وهبة.
٢٥- الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار، نشر: عالم الكتب — بيروت
٢٦- الدر المصون في علوم الكتب المكنون-أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحبي- تحقيق: د. أحمد الخراط-دار القلم-دمشق-ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٧ - دلائل الإعجاز - أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني- تحقيق : د.محمد التنجي ، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م
٢٨- ديوان الأعشى – تعليق: د. محمد محمد حسين-دار النهضة العربية-بيروت، لبنان.
٢٩- ديوان امرئ القيس – المكتبة التجارية الكبرى-مصر-ط٤، ١٣٧٨هـ.

٣٠- ديوان الحطيئة - اعتنى به حمدوا طماس دار المعرفة بيروت لبنان ط ٢- ١٤٢٦هـ
٣١- دبوان زهير بن أبي سلمى – لاتوجد معلومات عن الكتاب.
٣٢- ديوان المتنبي بشرح الواحدي، لاتوجد معلومات عن الكتاب.
٣٣- زاد المسير في علم التفسير- عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي- نشر المكتب الإسلامي – بيروت- الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ
٣٤- السلسة الضعيفة - محمد ناصر الدين الألباني -الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،الطبعة الأولى.
٣٥- سنن أبي داود- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني- تحقيق- محمد محيي الدين عبد الحميد - نشر: دار الفكر .
٣٦- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد القزويني – تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي - نشر:دار الفكر – بيروت.
٣٧- سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي السلمي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، مذيل بتصحيحات الألباني.
٣٨- سنن الدارقطني - علي بن عمر بن أحمد البغدادي الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.
٣٩- سنن النسائي- أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ
٤٠- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين بن علي البيهقي- تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، نشر مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، ١٤١٤هـ.

٤١- السنن الكبرى - أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري , سيد كسروي حسن- نشر:دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ

٤٢- سير أعلام النبلاء - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ،تحقيق: شعيب الأرناؤوط- نشر: مؤسسة الرسالة.

٤٣- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق:د.مصطفى ديب البغا نشر دار ابن كثير، اليمامة - بيروت ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ

٤٤- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٤٥- طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي – نشر: دار المدني - جدة تحقيق : محمود محمد شاكر.

٤٦- طبقات المفسرين-محمد بن علي الداودي-دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان. الطبعة الأولى.

٤٧- العظمة - أبو الشيخ ابن حيان الأصبهاني الناشر : دار العاصمة - الرياض الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ تحقيق : رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

٤٨- علماء نجد خلال ثمانية قرون ، عبد الله بن عبد الرحمن البسام – دار العاصمة الرياض الطبعة الثانية- ١٤١٩هـ.

٤٩- غاية النهاية في طبقات القراء - محمد بن محمد بن الجزري- دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان-ط٣، ١٤٠٢هـ.

٥٠- فتح المنان بترجمة الشيخ عبد العزيز السلمان- تأليف ابنه: عبد الحميد بن عبد العزيز السلمان - مطبوع بذيل كتاب محاسن الدين الإسلامي للشيخ عبد العزيز السلمان، نشر مطبعة دار طيبة بالرياض،ط الخمسون ١٤٢٧هـ .

٥١- قصيدة عنوان الحكم: علي بن محمد بن الحسين البستي أبو الفتح: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤ تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة

٥٢- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية - الشيخ: عبد العزيز السلمان،رئاسة البحوث العلمية بالرياض الطبعة (١١) ١٤٠٢هـ.

٥٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، تحقيق: حسام الدين القدسي - نشر: مكتبة القدسي، القاهرة .

٥٤- المحلى في الفقه- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم- تحقيق: عبد الغفار البنداري-دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان..

٥٥- مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية - الشيخ: عبد العزيز السلمان، مطابع المدينة بالرياض، الطبعة العاشرة ١٤١٠هـ.

٥٦- مسند الإمام أحمد - أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني- تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين نشر مؤسسة الرسالة — الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ .

٥٧- مسند إسحاق بن راهويه : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي. نشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة - الطبعة الأولى ، ١٤١٢ — ١٩٩١.

٥٨- مشاهير علماء نجد، عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ - دار اليمامة، ط٢، ١٣٩٤هـ.

٥٩- مقدمة في أصول التفسير أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني- نشر:دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م .

٦٠- معاني القرآن-يحيى بن زياد الفراء-تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار- بدون معلومات.

٦٠- المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين كتاب إلكتروني ضمن المكتبة الشاملة لـ.خالد الكحل.

٦١- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني - نشر: مكتبة العلوم والحكم — الموصل الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٣م.

٦٢- معجم المفسرين- عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان،ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٣- ميزان الاعتدال للذهبي: تحقيق علي محمد البجاوي دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان

مقدمة لدراسة علوم القرآن

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد

فإن العلم بكتاب الله من أشرف العلوم وأجلِّها، وهو أفضل ما صُرفت إليه الهمم، وتعبت فيه الخواطر، وأحقُّ ما تفنى فيه الأعمار، وتشغل به الأزمان، فهو الصراط المستقيم، والذكر الحكيم، والحبل المتين؛ لأن موضوعه أساس علوم الإسلام، ومدار أحكام الأنام؛ ولأن غايته الاعتصام بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ولأجل هذا اهتم الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم بالقرآن وعلومه وتفسيره.

وما بين يديك مقدمة مختصرة في بيان علوم القرآن من حيث مفهومه ونشأته وتطوره والمؤلفات التي ألفت فيه قديماً وحديثاً.

* أولاً: تعريف علوم القرآن :

عندما نتأمل المؤلفات التي ألفت في علوم القرآن نجد أن كثيراً منها قد افتتحها مؤلفوها بالتعريف بمصطلح (علوم القرآن) ليكون مدخلاً لموضوعاتهم المتعلقة بهذا الفن.

وهذا الأمر وإن كان قد أُشبع بحثاً، إلا أنه لابد من التطرق له وبيانه في مثل هذه المواطن.

والباحثون في تعريفهم لهذا المصطلح يُعرّفونه أولاً بفك التركيب، ثم يُعرفونه مركباً بجزأيه.

و (**علوم القرآن**) مركب إضافي يتكون من كلمتين هما (علوم) و(القرآن).

و(العلوم) جمع علم – العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، ومن ذلك العَلاَمة، يُقال: علَّمتُ على الشيء علامة، ويقال أعلم الفارس، إذا كانت له علامة في الحرب، والعلامة هي السِّمة.

وعَلِمه عِلماً بالكسر بمعنى عَرَفَه، والعلم نقيض الجهل، وعلمت الشيء بمعنى عرفته وخبرته، والعلم: اليقين، وعلم يعلم إذا تيقن

فهو بذلك مصدر مرادف للفهم والمعرفة.

ينظر على سبيل المثال: العين، تهذيب اللغة، والصحاح، مقاييس اللغة، لسان العرب، القاموس المحيط، المصباح المنير ، المفردات، تاج العروس.

أما في الاصطلاح، فقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف العلم اصطلاحاً، أجمعها أنه يطلق على المسائل المضبوطة بجهة واحدة سواءً أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية. ينظر: مناهل العرفان، والمدخل لدراسة القرآن الكريم.

أما (**القرآن**) **في اللغة**: فقد اختلف العلماء في بيان كلمة (القرآن) على آراء كثيرة، حسب الاشتقاق وعدمه، وحسب كونه مهموزاً أو غير مهموز على أقوال:

أولها:ما قاله جماعة من أهل اللغة منهم "اللحياني ت١٨٩هـ" : القرآن: مصدر(قرأ يقرأ) بمعنى: تلا، على وزن فُعلان كالرُّجحان والغُفران، ولعل هذا القول هو الأحرى بالقبول. ويشهد له ورود القرآن مصدراً بمعنى القراءة في كتاب الله، قال تعالى:(**إنَّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**)، [القيامة : ١٧-١٨], أي: فاتبع قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي الخليفة عثمان:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنوان السجود به ⁂ يقطّع الليل تسبيحاً وقرآناً

أي: قراءة.

ثانيها: ما قاله جماعة آخرون منهم "الزجاج ت٣١١هـ" : بأن القرآن مشتق من (القُرء) بمعنى الجمع، يقال: قرأتُ الماء في الحوض:أي جمعته، والقرء الحيض لاجتماعه في الرحم، وقرأتُ القرآن: لفظتُ به مجموعاً.

ثم سمي به الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لجمع السور والآيات فيه، أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة.

والرأيان السابقان عند من يرى أن لفظ (القرآن) مشتق مهموز، أما القائلون بأنه غير مهموز فقد اختلفوا على أقوال:

أولها: ما قاله جماعة منهم الأشعري (ت٣٢٤هـ): بأنه مشتق من قَرنتُ الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، سمي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة: قِران.

ثانيها: ما قاله الفراء (٢٠٧هـ): بأن (القرآن) مشتق من القراين؛ لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً، فهي حينئذ قراين، ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات.

وعلى هذين القولين نونُه أصلية، بخلاف القولين السابقين فالنون فيهما ليست أصلية.

ينظر: تهذيب اللغة والصحاح ومقاييس اللغة والمفردات للراغب ولسان العرب والقاموس المحيط والبرهان في علوم القرآن ومناهل العرفان.

وهناك قول يُروى عن الشافعي (ت٢٠٤هـ) وهو أن القرآن: اسم علم غير منقول ولا مهموز وُضع أول ما وضع اسماً لكتاب الله تعالى مثل التوراة والإنجيل، ذكره الزركشي في البرهان في علوم القرآن.

أما القرآن في الاصطلاح: فللعلماء في تعريف كتاب الله صيغ متعددة، وكلها لا تخرج عن القول بأنه: كلام الله المعجز المتعبد بتلاوته، المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المنقول إلينا بالتواتر.

شرح التعريف وبيان محترزاته:

كلام الله: قيد يخرج كلام غيره عز وجل من كلام الملائكة والإنس والجن.

المعجز: الإعجاز خاصية مهمة للقرآن الكريم، وهذا القيد يخرج به الأحاديث القدسية لأنها ليست معجزة.

المتعبد بتلاوته: قيد يخرج به ما لم نُتَعبد بتلاوته كالأحاديث القدسية.

المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم : قيد يخرج غير المنزل مما لا يحصى ولا ينتهي، ودليل ذلك قوله تعالى: (**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**) فهذا دليل على أنها لا تنتهي فالبحار تنتهي وتنقضي وكلمات الله لا تنتهي ، وقوله تعالى (**ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**) ، ثم إن منه ما استأثر الله به عنده في علم الغيب كما في الحديث: " **اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ...**).

على النبي صلى الله عليه وسلم : قيد أيضاً يخرج به ما نزل على غيره من الأنبياء السابقين.

المنقول إلينا بالتواتر: خرج به ما لم يتواتر مما نسخت تلاوته أو كان مشهوراً أو منقولاً بطريق الآحاد كقراءات بعض الصحابة رضوان الله عليهم .

ينظر: علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير ودراسات في علوم القرآن الكريم: ومباحث

في علوم القرآن لمناع القطان ومباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح

ومصطلح (علوم القرآن) يطلق على المباحث الكلية التي تتصل بالقرآن الكريم من نواحٍ شتى يمكن اعتبار كل مبحث منها فناً مستقلاً متميزاً، ينظر: لمحات في علوم القرآن للصباغ.

أو هو مجموعة العلوم المتصلة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن والقراءات والمكي والمدني وغير ذلك من الأبحاث ذات الصلة بالقرآن، ينظر: مباحث القطان.

فإن قيل: هذا علوم القرآن فما الفرق بينه وبين ما يعرف بأصول التفسير؟ قيل المعنى واحد، وقيل وهو الأصح أن بينهما عموماً وخصوصاً، بحيث إن علوم القرآن مصطلح عام، وأصول التفسير مصطلح خاص، فيدخل الخاص ضمن العام، يطلق الأصول على بعض فنون علوم القرآن مما يتعلق بالتفسير، كحكم التفسير وقواعده وأقسامه ومناهج المفسرين، ولا يدخل فيه تلك المقدمات التعريفية والتاريخية التي هي من علوم القرآن.

*ثانياً: نشأة علوم القرآن

كانت البدايات الأولى لأكثر العلوم القرآنية منذ نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم. فقد عكف الصحابة -رضوان الله عليهم- على كتاب ربهم يحفظونه ويتعلمونه ويعلمونه للناس، ويسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما أشكل عليهم، ولا يتجاوزون عشر آيات منه حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.

يقول أبو عبدالرحمن السلمي (ت٧٢هـ) : حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن -كعثمان بن عفان (ت٣٥هـ)، وعبدالله بن مسعود (ت٣٢هـ)، وغيرهما- أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، ينظر:جامع البيان للطبري.

وبدأت كتابة الوحي منذ فترة مبكرة في العهد المكي، واستمرت في العهد المدني، واتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي يتلقونه من فيّ رسول الله فيخبرهم بموضع الآية من كتاب الله فيضعونها حيث أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليبقى كتاب الله محفوظاً في السطور والصدور معاً، ومكتوباً جميعه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

واستمرت العناية بالقرآن الكريم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك جمع أبي بكر (ت١٣هـ) لما تفرق من نسخ المصاحف، ثم نسخ هذه المصاحف في مصحف واحد

وحرق ما عداها في عهد عثمان (ت٣٥هـ)، واضعاً الأساس لما سمي فيما بعد بالرسم العثماني، ينظر: مناهل العرفان.

*ثالثاً: تدوين علوم القرآن

ومنذ القرن الأول كانت السمة الغالبة هي الرواية بالتلقين، وكانت أكثر العلوم القرآنية تؤخذ عن طريق المشافهة، ولم تكن هناك حاجة ماسّة لوضع تآليف في علوم القرآن في تلك الفترة، لكونهم عرباً خلصاً والرسول صلى الله عليه وسلم بينهم يسألونه عما أشكل عليهم ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام أول العهد عن كتابة شيء غير القرآن بقوله: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه مسلم . ولكون أغلبهم أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، إلى جانب عدم توافر أدوات الكتابة، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت اعتمادهم الحفظ هو الأساس .

ونتيجة لما سبق يمكننا القول بأن العناية بالعلوم التي مصدرها الرواية كعلوم القراءات، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمكي والمدني قد بدأت مبكرة في عهد الصحابة والتابعين .

وهذه هي مرحلة التدوين ، وقد مرّ علوم القرآن في تدوينه بمراحل هي على النحو التالي:

*مراحل التدوين في علوم القرآن

المرحلة الأولى : جمع علم التفسير وعلوم القرآن ضمن كتب الحديث كما فعل يزيد ابن هارون السلمي (ت١١٧هـ) ، وشعبة بن الحجاج (ت١٦٠هـ)،وكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ)، وكان جمعهم للحديث متضمناً للتفسير وعلوم القرآن.

المرحلة الثانية : أفرد التفسير بالتأليف وكان أشهر من دونه يحي بن سلاّم (ت٢٠٠هـ)، وابن ماجه (ت ٢٧٣هـ)،و ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في كتابه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وكانت مقدمة كتابه مشتملة على شيء من علوم القرآن ، وسلك مسلكه كثير من المفسرين بعده فقد كانوا إذا أرادوا الكتابة في التفسير وضعوا مقدمة لعلوم القرآن في تفاسيرهم كابن عطية والقرطبي وابن كثير والسيوطي والآلوسي وغيرهم.

المرحلة الثالثة : أفرد علوم القرآن بمؤلفات خاصة ، فبدأ العلماء منذ وقت مبكر يؤلفون في هذه العلوم على حدة ،

ففي القرن الثاني الهجري: ألف الحسن البصري (ت١١٠هـ) كتاباً في القراءة، وعطاء ابن أبي رباح (ت١١٤هـ) ألف في غريب القرآن، وقتادة السدوسي (ت١١٧هـ) ألف في الناسخ والمنسوخ.

وفي القرن الثالث الهجري: ألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) كتابه الناسخ والمنسوخ، وألف علي بن المديني (ت٢٣٤هـ) في أسباب النزول.

وفي القرن الرابع الهجري: ألف أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، وألف أبو بكر السجستاني (ت٣٣٠هـ) في غريب القرآن، وألف أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، في إعجاز القرآن.

وفي القرن الخامس الهجري: ألف الماوردي (ت ٤٥٠هـ) أمثال القرآن، وألف الواحدي (ت٤٦٨هـ) أسباب النزول.

وفي القرن السادس الهجري: ألف الكرماني (ت ٥٠٠هـ تقريبا) البرهان في متشابه القرآن، وألف الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) المفردات في غريب القرآن، وألف السهيلي (ت٥٨١هـ) في مبهمات القرآن.

وفي القرن السابع الهجري: ألف العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) مجاز القرآن ، وألف ابن أبي الإصبع في فواتح السور ، وأبو بكر الرازي (ت٦٦٠هـ) أسئلة القرآن وأجوبتها، وألف النووي (ت٦٧٦هـ) التبيان في آداب حملة القرآن .

وفي القرن الثامن الهجري: ألف ابن القيم (ت٧٥١هـ) التبيان في أقسام القرآن، وألف أبو حيان (ت ٧٤٥هـ)، في لغات القرآن، وألف ابن كثير (ت٧٤٤هـ) في فضائل القرآن.

وفي القرن التاسع الهجري: ألف ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، العجاب في بيان الأسباب، وألف الكافيجي (ت٨٧٩ هـ) التيسير في قواعد علم التفسير،

وفي القرن العاشر الهجري: ألف السيوطي (ت٩١١هـ) لباب النقول في أسباب النزول، والقسطلاني (٩٣٣هـ) لطائف الإشارات في علم القراءات، وألف أبو يحيى الأنصاري (٩٢٦هـ) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن.

وفي القرن الحادي عشر الهجري: ألف مرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ) قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن ، وألف أحمد المقرّي (ت١٠٤١هـ)، في إعراب القرآن ،

وفي القرن الثاني عشر الهجري: ألف النابلسي (ت١١٤٣هـ)، كفاية المستفيد في علم التجويد، وألف الجمزوري (ت١١٩٨هـ)، تحفة الأطفال في التجويد ، وألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٠٦هـ)، فضائل القرآن .

وفي القرن الثالث عشر الهجري: ألف الدمياطي (ت١٢٨٧هـ) رسالة في مبادي التفسير، وألف ابن حميد العامري (ت١٢٩٥هـ) في الناسخ والمنسوخ.

وفي القرن الرابع عشر الهجري: ألف عبد الرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) القواعد الحسان في تفسير القرآن، وألف الشنقيطي (ت١٣٩٣) ، منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز ، ومحمد حسين الذهبي (ت١٣٩٧هـ) التفسير والمفسرون.

وفي القرن الخامس عشر الهجري: ألف الشيخ مناع القطان (ت١٤٢٠هـ) نزول القرآن على سبعة أحرف، ود فهد الرومي اتجاهات المفسرين في القرن الرابع عشر الهجري، د.خالد السبت قواعد في علم التفسير، كما سجلت رسائل علمية في موضوعات علوم القرآن، وكتبت أبحاث ومقالات متنوعة لا تكاد تحصى.

المرحلة الرابعة: جمع هذه العلوم في مؤلف واحد، وظهور اصطلاح علوم القرآن

ظهرت مؤلفات كثيرة في علوم القرآن كفن مدون، ولا يمكن الجزم في أيها الأسبق في التأليف، ولم يستطع أحد الوصول إلى معرفة أول كتاب ألف في علوم القرآن يجمع علوماً متنوعة من علوم القرآن،

فقيل إن أول من جمع علوم القرآن في مصنف واحد هو الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ) حين ألف كتابه: "فهم القرآن"، ويعتبر هذا في بدايات القرن الثالث الهجري، وكتابه "فهم القرآن" مطبوع في دار الكندي للنشر والتوزيع، بيروت ، سنة ١٣٩٨هـ ، بتحقيق الدكتور: حسين القوّتلي ، وبعنوان :" العقل وفهم القرآن" ، وقد اشتمل على كتاب "العقل" حتى صفحة ٢٣٨ ، ثم كتاب "فهم القرآن" الذي يستغرق باقي صفحات الكتاب حتى صفحة ٥٠٦

ويعتبر هذا الكتاب من أوائل الكتب التي أشارت إلى بعض علوم القرآن على وجه الإيجاز.

وذهب الأكثرون إلى أن ظهور هذا المصطلح (علوم القرآن) كان في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري، وأن أول من جمع هذه العلوم في مؤلف واحد هو محمد بن خلف بن المرزبان (ت٣٠٩هـ) كتابه الحاوي في علوم القرآن.

وقيل إن أول من جمع هذه العلوم هو الحسن النيسابوري (ت٤٠٦هـ) في كتابه: "التنبيه على فضل علوم القرآن". ذكر ذلك الدكتور حازم حيدر، وقال: إن كتاب النيسابوري يعد من أوائل الكتب التي أبرزت مصطلح علوم القرآن من حيث العنوان والمضمون معاً. ينظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان د.حازم حيدر .

وأما ما يعتقده بعض الباحثين أن أول ما ظهر هذا الاصطلاح هو بداية القرن الخامس حين ألف علي بن إبراهيم الحوفي (ت٤٣٠هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن) فهذا غير صحيح؛ لأن اسم كتاب الحوفي (البرهان في تفسير القرآن) ثم تتابع العلماء بعد ذلك في التأليف وجمع هذه العلوم في مؤلف واحد. ثم تلا ذلك مؤلفات كثيرة منها ما ألفه أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) كتابه (المختزن في علوم القرآن) ، وألف محمد بن علي الأدفوي (ت٣٨٨هـ) كتابه:الاستغناء في علوم القرآن. وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجري.

وفي القرن السادس الهجري: ألف ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) كتابه (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن) و(المجتبى في علوم القرآن) و(المجتنى من المجتبى).

وفي القرن السابع الهجري: ألف القزويني (ت٦٢٥هـ) كتابه (الجامع الحريز الحاوي لعلوم كتاب الله العزيز) وألف أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ) كتابه (المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز).

وفي القرن الثامن الهجري: وألف ابن تيميه (ت٧٢٨هـ) كتابه (مقدمة في أصول التفسير) وهي مع كونها مختصرة إلا أنها حوت مسائل قيمة جداً واعتني بها شرحاً وتعليقاً.

ألف الزركشي (ت٧٩٤هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن) وطبع في أربعة مجلدات بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وهو من أفضل المؤلفات وأجلها في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيماً وتبويباً وأسلوباً، جمع فيه المؤلف علوم القرآن التي كانت مفرقة في مصنفات مستقلة، مثل: أسباب النزول. ومعرفة المناسبات بين الآيات، وعلم القراءات، وإعجاز القرآن، والناسخ والمنسوخ وغيرها.

حاول المصنف في هذا الكتاب أن يستوفي كل علم بمفرده باختصار، فكان يؤرخ له، ويحصي الكتب التي ألفت فيه، ويشير إلى العلماء الذين تدارسوه، ثم يذكر مسائله، ويبين أقوال العلماء فيه، وينقل آراء علماء التفسير والمحدثين والفقهاء والأصوليين وعلماء العربية وأصحاب الجدل.

وقسم كتابه إلى سبعة وأربعين نوعا، ويذكر في النوع الواحد فصولا وفوائد وتنبيهات.

فجاء الكتاب من أجمع الكتب التي صنفت في علوم القرآن وأكثرها فائدة، واعتمد عليه كل من جاء بعده، قال فيه:(واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره.) انتهى

وكان أسلوب الكتاب سهلا، واضحا، أدبيا، ويكثر فيه الاستشهاد بالآيات القرآنية، وأبيات الشعر، وينسب الأقوال إلى أصحابها.

وفي القرن التاسع الهجري ألف الجلال البُلقيني (ت٨٢٤هـ) كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم ، وضمنه خمسة وخمسين علماً من علوم القرآن ،

وفي القرن العاشر الهجري ألّف الجلال السيوطي (ت٩١١هـ) كتابه (التحبير في علوم التفسير) ذكر فيه ١٠٢ نوعاً من علوم القرآن ، ثم ألف كتابه القيم (الإتقان في علوم القرآن) ذكر فيه ما يقرب من ٨٠ ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والدمج ، ثم قال بعد سردها (ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاث مائة) ، وقد طبع الكتاب عدة مرات محققا وغير محقق، ويعد هذا الكتاب أصلا من الأصول المؤلفة في هذا العلم ، وإذا قيل: إن المفسرين عيال على تفسير الطبري، فإن علماء علوم القرآن عيال على الإتقان.

ثم فترت همة التأليف بعد ذلك بل قال بعض العلماء إن التأليف في تلك الفترة توقف أو كاد ، وظهرت مؤلفات معدودة فألف ابن عقيله المكي (ت١١٥٠هـ) كتابه (الزيادة والإحسان في علوم القرآن)، وقد ضمنه مؤلفه ما في البرهان والإتقان ، وزاد عليه أنواعاً كثيرة من علوم القرآن حتى:أوصلها إلى ١٥٤نوعاً ،.

وألف ولي الله الدهلوي (ت١١٧٦هـ) (الفوز الكبير في أصول التفسير).

<u>المؤلفات في علوم القرآن بمعناه المدون في العصر الحديث</u> :

نشط التأليف في العصر الحديث فصدرت مؤلفات كثيرة وأبحاث عديدة ليس المقام مقام حصرها ولكن نذكر أشهرها:

١- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان" : تأليف الشيخ طاهر الجزائري (ت١٣٣٥هـ)،من علماء الشام ، وهي مباحث انتخبها الجزائري انتخاب العالم المحقق المتقن ، اعتنى بنشرها الشيخ عبد الفتاح أبوغدة.

٢- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت١٣٦٧هـ)، وطبع في مجلدين وهو من أ فضل المؤلفات في هذا العلم، فهو إضافة إلى اشتماله على كثير من علوم القرآن، فقد اعتنى مؤلفه بالرد على الشبهات الواردة في كل علم قديماً أو حديثاً وهو حين يوردها يسوق حججها وبراهينها ثم يقوم بإبطالها وتفنيدها وعباراته سهلة ويغلب عليها الأسلوب الأدبي، ويؤخذ عليه أنه قرر فيه مذهب الأشاعرة.

قال الشيخ خالد السبت حفظه الله عندما قام بدراسة الكتاب في رسالته العلمية:(وكتاب "مناهل العرفان" من أهم وأشمل ما كتب في هذا الفن؛ فإن مؤلفه وإن لم يستوعب جميع أنواع هذا العلم فقد أحاط بالضروري منها في أسلوب رفيع، وترتيب بديع مع إضافات مهمة، لكن عمل البشر لا يسلم من النقص وقد أخذ على المؤلف تقريره لمذهب الأشاعرة في عامة المواضيع الَّتي لها علاقة بالاعتقاد، تأثره بالتصوف في بعض عباراتهم، وإثارته الشبه محاولاً الرد عليها. والكتاب يحتاج إلى توثيق ونسبة كثير من نقوله إلى مصادرها الأصلية، وتحرير وإعادة صياغة كثير من التعريفات الَّتي يوردها المؤلف أهـ....

٣-المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد أبو شهبه (توفي ١٤٠٣هـ) ألفه لطلبة الدراسات العليا في الجامعة الأزهرية، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته نحو خمس مائة صفحة.

٤- مباحث في علوم القرآن" للدكتور محمد صبحي الصالح، (ت١٤٠٦هـ) ألفه لطلبة كلية الآداب بجامعة دمشق ويقع في نحو ثلاثمائة صفحة.

٥- مباحث في علوم القرآن" : للشيخ مناع القطان (ت١٤٢٠هـ) ويقع في نحو ثلاثمائة صفحة وقال في مقدمته :(كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسَّر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤونة البحث في مراجع

هذا العلم ، ويجنَّبَه عناء فهم أساليبها) ، وقد أصاب وفقه الله فقد سد كتابه هذا ثغرة في حاجة طلبة العلم.

٦-لمحات في علوم القرآن": تأليف الشيخ محمد لطفي الصباغ وهي محاضرات ألقاها على طلاب جامعة الملك سعود.

٧- علوم القرآن الكريم": للدكتور عدنان زرزور وهي محاضرات ألقاها على طلابه ويقع في مجلد تبلغ صفحاته ٤٦٠ صفحة.

٨- دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي الأستاذ في كلية المعلمين. يقع في أكثر من ستمائة صفحة، تعرض لما يقرب من (٢٨) مبحثاً من مباحث علوم القرآن. تميز بتحقيق مسائله وعرض الأقوال والترجيح بينها.

٩-كتاب اتقان البرهان في علوم القران د. فضل حسن عباس رحمه الله، طبع في دار النفائس بعمان.

١٠- علوم القرآن بين البرهان والإتقان دراسة مقارنة د.حازم حيدر وهي رسالة علمية تقدم بها إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

١١-المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله بن يوسف الجديع، اعتنى به عناية كبيرة، فانتقى مباحثه العلمية، وحرر عباراته، وأجاد تقسيمه، وهو يقع في ٦٠٤ صفحات، وقد حصر حديثه في مقدمات ست أساسية في علوم القرآن، هي على النحو التالي: في نزول القرآن وفي حفظ القرآن، ونقل القرآن والنسخ في القرآن وتفسير القرآن أحكام قراءة القرآن، كما أدرج مباحث أخرى مثل الكلام على خصائص القرآن، وأسلوبه اللغوي، وأسلوب القصة فيه ، وقوانين الجدل والمناظرة ، وطريقة وأنواع الأحكام فيه ، وشبه ذلك.

١٢-المحرر في علوم القرآن د. مساعد الطيار، وعنوانه دليل على ما تضمنه الكتاب فإن المؤلف اعتنى بتحرير مسائله وحل كثير من الإشكالات الواردة في علوم القرآن.

وقد قسمه مؤلفه أربعة أقسام أساسية الأول في مدخل إلى علوم القرآن والثاني في نزول القرآن وجمعه والثالث في علوم السور والرابع في المصحف وعناية الأمة به.

١٣- هناك منظومات نظمت في علوم القرآن، من أشهرها منظومة الزمزمي في علوم القرآن لعبد العزيز الزمزمي ت(٩٧٦هـ) بمكة، وهذه المنظومة عدد أبياتها ١٥٨ بيتاً نظمها مؤلفها

الزمزمي من كتاب النُقاية، السيوطي-كما صرح بذلك قال: (أفردتها نظمًا من النُقاية)، و"النُقاية" كتاب ألفه السيوطي وجمع فيه أربعة عشر علمًا، بدأ من أصول الدين، ثمّ علوم القرآن، ثمّ علوم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم الفرائض، علم النحو، وغير ذلك ، ثمّ إن السيوطي شرحه في شرح اسمه:"إتمام الدراية بشرح النُقاية". وعلوم القرآن والتي هي خمسة وخمسون علما الواردة في متن النقاية قد استقاها السيوطي من كتاب مواقع العلوم من مواقع النجوم للبلقيني (٨٢٤هـ).

ولهذه المنظومة عدة شروح منها:

١- (نهج التيسير شرح منظومة الزمزمي في أصول التفسير) للشيخ محسن بن علي المساوي الحضرمي المتوفى سنة ١٣٥٤هـ. وهذا الشرح عليه حواشٍ متفرقة

٢- (التيسير شرح منظومة التفسير) للشيخ محمد يحيى أمان المدرس بمدرسة الفلاح.

ولبعض المعاصرين شروح مطبوعة وصوتية كفضيلة الشيخ د.عبد الكريم الخضير، والشيخ صالح العصيمي والدكتور مساعد الطيار.

٣- ولكاتب هذه الأحرف شرح على المنظومة بعنوان: الدرر البهية على المنظومة الزمزمية ، مطبوع بدار كنوز أشبيليا بحجم لطيف يصل إلى مائتي ورقة، ثم طبع الكتاب الطبعة الثانية في دار الحضارة.

وبعد هذا العرض السريع والموجز لهذه المؤلفات والكتابات التي كتبت في علوم القرآن وأود أن أنبه على أمور:

١- غلب على هذه المؤلفات التي ألفت في عصرنا الحالي سمة الانتخاب والاختصار، وقد اعتمد المؤلفون في كتابتهم على كتابي الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي، وكان السيوطي هو الأكثر اعتماداً.

٢- تفاوتت نظرة المؤلفين إلى الأنواع التي اختاروها لدراستها، فربما كان الاختيار خاضعاً لأنظمة الجامعات التي تقرر بعض الموضوعات على طلبتها مقررات دراسية، كما تفاوتت معالجتهم لتلك الأنواع، إذ غالب تلك المؤلفات في هذا العصر هي في الأصل محاضرات ألقيت على الطلبة، ثم جمعها كاتبها ونشرها كتاباً مستقلاً، سواء أدخلت عليها التعديلات التي ترتقي بها إلى مستوى إخراجها كتاباً مستقلاً، أم لم تدخل.

٣- أن تلك البحوث والكتابات كانت جادَّة في معالجتها، قوية في مضامينها، رائدة في بابها، حملت لطلبة العلم نظرات علمية فاحصة، يشهد المرء لكاتبها بعمق التفكير، وسلامة الاختيار، وقوة الدليل، فيسلم لكثير من ترجيحاتهم، وتهدأ النفس لأدلتهم وطريقة معاجلتهم.

هذه بعض المؤلفات في العصر الحديث في علوم القرآن كفن مدوَّن والمؤلفات غيرها كثيرة، أغلبها قد ألفها أصحابها لطلابهم ، فالكتابة جاءت فيها مجملة مختصرة و بأسلوب سهل والبعد عن دقائق المسائل ووعر المسالك ، وهذا المنهج يحرم الباحثين المتخصصين من نيل مرادهم والحصول على بغيتهم ، كما يحرم المؤلفين من الإبداع في القول ، ومن إعمال الذهن والتجديد في الآراء ، بل أدى بهم إلى التسليم في كثير من المسائل والقضايا ونقلها كما هي من غير تمحيص خشية من الدخول في تفاصيل تخرج به عن هدفه من التأليف.

والحق أن كثيراً من المباحث في علوم القرآن لا تزال بحاجة إلى النظر في مسائلها وإعادة الكتابة فيها ، وعدم الاكتفاء والتسليم بما قاله فلان وفلان من غير دليل ،وعلوم القرآن أوسع من أن يحيط بها أبناء جيل أو أجيال من البشر

* أهمية دراسة علوم القرآن:

١- أنه متعلق بالقرآن الكريم، وشرفه يؤخذ من شرف القرآن، فعلومه أنفس العلوم وأشرفها.

٢- أن علوم القرآن تعتبر مدخلاً لدراسة القرآن الكريم وفهمه واستنباط الأحكام والآداب منه.

٣- من درس علوم القرآن حق الدراسة وفهم هذه العلوم حق الفهم فإن هذه الشبهات لا يمكن أن تنطلي عليه بل يمكن أن يكون الإنسان شجناً في حلوق هؤلاء وسهماً مسدداً في نحور هؤلاء يرد عليهم ويذب عن كتاب الله سبحانه وتعالى، فمن تعلم علوم القرآن استطاع أن يتصدى لما يثيره أعداء الإسلام عن القرآن الكريم مثل إيراد الشبه وتشكيك المسلمين في مصادرهم وعقيدتهم.

٤- أن من لم يتعلم هذه العلوم فإنه لن يفهم القرآن حق الفهم ولن يستفيد حق الاستفادة ولن يستطيع تفسير كلام الله - جل وعلا- على الوجه الصحيح اللائق بكتاب الله جل وعلا إلا عندما يتعلم علوم القرآن الكريم.

٥- أن يعرف الإنسان حقيقة القرآن وكيف وصل إلينا؛ لأن بعض الناس يقول: هل كتب القرآن بهذه الطريقة في عهد النبي- صلى الله عليه وسلم- هل هذه الطريقة التي وصل القرآن إلينا بها هي الطريقة التي كتب عليها القرآن تماماً وأنه لم يتعرض إلى نقص أو زيادة.

٤-أننا في دراسة علوم القرآن ندرك مدى الجهود التي بذلت في حق القرآن الكريم وما بذله علماء الأمة في حفظه والعناية به من جهود عظيمة جداً لا يمكن للإنسان أن يعرفها إلا من خلال دراسته لعلوم القرآن الكريم، بل إنك تجد في المبحث الواحد من مباحث علوم القرآن الكريم عشرات الكتب المصنفة فيه انظر: مثلا في ناسخ القرآن ومنسوخه كم عدد الكتب التي صنفها العلماء؟ كما قال السيوطي ألف فيه خلائق لا يحصون.

هذا ما تيسر ذكره مختصراً في هذه العجالة والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

أسلوب الالتفات في القرآن الكريم
دراسة تفسيرية

د/ يوسف بن عبدالعزيز الشبل

قسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مُقَدِّمَة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لـه، ومن يضلل فلا هادي لـه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق،كلما تدبره المسلم وأمعن النظر فيه زاده ذلك شوقًا، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

وأهل العلم يتدبرون آياته، ويستخرجون حكمه، ويستنبطون أحكامه، ويكشفون وجوه بلاغته وصور بيانه وأساليب نظمه.

وإن من أساليب القرآن البلاغية أسلوب الالتفات، فهو أسلوب يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية، كما ينقله من أسلوب إلى أسلوب، فيكون أدخل في القلوب، وأخف على السمع، وأجلب للنشاط، وفي دلالته الدقة والقوة وجمال السبك،فهو أسلوب يهز النفوس ويؤثر في القلوب.

وقد كان الالتفات من المواضيع التي لقيت عناية فائقة ومزيد اهتمام من قبل علماء اللغة والبلاغة عموماً ، ومن المفسرين خصوصاً في مضامين تفاسيرهم ،حيث إنه أكثر الأساليب القرآنية تردداً ، وأوسعها انتشاراً ،بل إنك لتجد في الآية الواحدة أكثر من التفات،مما يدل على أهميته، وأن هذا القرآن قد بلغ الغاية في البراعة، والذروة في الفصاحة، فهو معجز غاية الإعجاز.

هذا ومع أن المفسرين كانت لهم عناية فائقة بهذا الفن عند تعرضهم لتفسير الآيات القرآنية، وما حوته من أوجه بلاغية، إلا أنها لم تكن غاية المفسرين التصنيف

في هذا الفـن، والوصول إلى حقيقـة الالتفات وجمـع طرقه ودراستها، فعمدت بعد استخارة ثم استشارة إلى الشرـوع في دراسـة هـذا الموضـوع وجمـع شـتاته، وإبـراز الشواهد القرآنية وبيان موقف المفسرين من هذا الفن البلاغي ، وأن أسهم في خدمة كتاب الله ﷻ ، وأبرز شـيئاً مـن جوانـب هـذا الموضـوع تجليـة لأسراره وهداياتـه، فاستعنت بالله فنظمت خطته في **مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة**.

أما المقدمة: ففيها أهمية البحث وسبب الكتابة فيه، وخطته، والمنهج المتبع.

وأما الفصل الأول فهو في مفهوم الالتفات وفوائده، وفيه مبحثان:

المبحث الأول:مفهوم الالتفات.

المبحث الثاني: فوائد الالتفات.

وأما الفصل الثاني فهو في الالتفات بين التكلم والغيبة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول : الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة.

المبحث الثاني:الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم.

وأما الفصل الثالث فهو في الالتفات بين الغيبة والخطاب، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب.

المبحث الثاني: الالتفات من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة.

ثم بعد ذلك **الخاتمة**، وفيها أهم نتائج البحث.

هذا وقد كان منهجي في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي :

أولاً: أورد في الفصلين الثاني والثالث في كل مبحث معنى الالتفات بين الضميرين ثم أسوق الأمثلة عليه من الآيات القرآنية مبيناً في كل مثال معنى الآية، وموضحاً وجه الدلالة من الآية،مؤيداً ذلك بكلام المفسـرين مع إبراز شيء من أسرار الالتفات البلاغية ولطائفه الدقيقة،مقتصراً في الغالب على ثلاثة أمثلة من الآيات القرآنية في كل مبحث خشية الإطالة.

كما أنني قد اقتصرت في هذه الدراسة على أربع طرق من طرق الالتفـات، ومعلـوم

أنها ستٌ من الناحية العقلية بالنظر إلى الضمائر الثلاثة التكلم والخطاب والغيبة،وذلك نظراً لأن الالتفات بين الخطاب والتكلم بصورتيه لم يرد في القرآن الكريم على الصحيح كما ذكره المحققون من أهل العلم.[1] ، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله .

ثانياً: هذه الدراسة محاولة إلى الوصول إلى حقيقة الالتفات وجمع طرقه ودراستها وإبراز الشواهد القرآنية وبيان موقف المفسرين من هذا الفن البلاغي ، إسهاماً في خدمة كتاب الله ﷻ وإبرزاً لجوانب هذا الموضوع تجلية لأسراره وهداياته، ولم أقف على من درس أسلوب الالتفات في القرآن الكريم بالصورة المذكورة – فيما أعلم – إلا ما جاء في كتاب أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل ، وقد اختلفت هذه الدراسة عنه من أوجه:

١ـ أن دراسته كانت أوسع بناء على المفهوم العام للالتفات وهو العدول من أسلوب إلى أسلوب آخر، وهو تعريف أوسع من حيث إنه يشمل الالتفات في الضمائر، و في صيغ الأفعال من الماضي إلى المضارع والعكس، و في العدد من الإفراد إلى التثنية أو إلى الجمع والعكس ، أما هذه الدراسة فكانت مقتصرة على المفهوم الخاص وهو الالتفات بين الضمائر.

٢ـ أنه في تعرضه للالتفات بين الضمائر كان مختصراً ، والأمثلة فيه قليلة ، بخلاف هذه الدراسة التي جاءت مبرزة الشواهد القرآنية ومبينة موقف المفسرين من الالتفات.

ثالثاً:عزوت الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

رابعاً:خرجت الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها.

خامساً: عرفت بالأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/ ٣١٥)، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٢٣٥).

سادساً:وثـقت أقوال أهل العلم من مصادرها.

سابعاً: وضعت في آخر البحث فهرساً للمصادر والمراجع .

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد،

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفصل الأول
مفهوم الالتفات وفوائده

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:مفهوم الالتفات

المبحث الثاني: فوائد الالتفات

المبحث الأول
مفهوم الالتفات

الالتفات لغة: مصدر التفت يلتفت،والتفت إلى الشيء صرف وجهه إليه، وأصل الالتفات اللَّي وصرف الشيء عن جهته المستقيمة، والتَّلَفُّتُ: لي العنق يمنة ويسرة [1].
فمادة (لَفَتَ) تدور في معناها اللغوي حول معنى واحد، وهو التحول والانصراف والتنقل، فهو مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله،فهو يقبل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا[2].

وجاء في التنزيل الحكيم :﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا** ﴾[3]. أي:لتصرفنا وتلوينا عما وجدنا عليه آباءنا[4]، وجاء أيضاً:﴿ **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ** ﴾[5] أي: لا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف .[6]

وجاء في السُّنة أن الالتفات صرف الوجه يمنة ويسرة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: « **هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد** »[7].

فتبين مما سبق أن الالتفات بتراكيبه اللغوية واستعمالاته المختلفة لا يكاد

---

(١) انظر:تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٥٨)،معجم مقاييس اللغة لابن فارس(٥/ ٢٥٨) المفردات للراغب الأصفهاني ص(٤٧٢) لسان العرب لابن منظور(٢/ ٨٤)

(٢) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/ ١٨١).

(٣) سورة يونس، الآية (٧٨).

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (١١/ ١٠١).

(٥) سورة الحجر، الآية(٦٥).

(٦) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٥٣٣).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠٥) برقم (٧١٥).

يخرج عن معنى الصرف واللي عن الجهة المستقيمة وأن أكثر استعمالاته في الأشياء المحسوسة وأنه مرتبط بحركة الإنسان العضوية وعدوله يمنة ويسرة.

الالتفات اصطلاحًا:

بالنظر في التعريف اللغوي للالتفات وأنه مرتبط بحركة الإنسان العضوية وعدوله في اتجاهاته يمينًا وشمالاً،إلى هذا المعنى اللغوي يتضح المعنى الاصطلاحي للالتفات بأنه أيضاً مرتبط بالتنقل في الكلام من صيغة إلى صيغة وبالتحول من أسلوب إلى أسلوب آخر .

وقبل تعريف الالتفات اصطلاحاً وبيانه أود أن أشير إلى أن هذا المصطلح كان مستعملاً عند العرب وفي صدر الإسلام، فقد روى محمد بن يحيى الصولي عن الأصمعي أنه قال له:أتعرف التفاتات جرير؟ قال:ما هي؟ فأنشده:

أتنسى إذ تودعنا سُليمى بعودِ بشامةٍ سُقيَ البشامُ

ثم قال: أما تراه مقبلاً على شعره إذ التفت إلى البشام فدعا له[1].

وهذه الرواية تدل على أن مصطلح الالتفات كان معروفاً منذ القرن الثاني الهجري، بل إن كثيراً من علماء اللغة وغريب القرآن ممن هم في عصر الأصمعي وقبله قد تعرضوا للالتفات، سواء أطلقوا عليه مصطلح الالتفات أو غيره أمثال أبي عبيدة والفراء والأخفش وغيرهم[2].

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (١/ ١١٩)، **والأصمعي**: عبد الملك بن قريب الباهلي، راوية العرب وأحد أئمة اللغة والشعر، توفي سنة (٢١٣هـ)، انظر: تاريخ بغداد للبغدادي(١٠/ ٤١٠) ، بغية الوعاة للسيوطي (٢/ ١١٢) .

(٢) **أبو عبيدة**:معمر بن المثنى عالم بالشعر والغريب والأخبار والأنساب توفي سنة(٢١٠هـ)، انظر: تاريخ بغداد(١٣/ ٢٥٢)، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٦٢)،**والفراء**: يحيى بن زياد الديلمي إمام أهل العربية ومن أعلم أهل الكوفة بالنحو مات سنة(٢٠٧هـ)،انظر:تاريخ بغداد (١٤/ ١٤٩)،بغية الوعاة

فمثلاً أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن أورد أمثلة متعددة، منها على سبيل المثال قوله: «ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾، أي: بكم»[1].

وأورد الفراء في معانيه أمثلة عديدة، منها ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ ﴾[2]، قال:« ومن قرأ: (ترونهم) ذهب إلى اليهود لأنه خاطبهم، ومن قال (يرونهم)، فعلى ذلك، كما قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾، إن شئت جعلت (يرونهم) للمسلمين دون اليهود »[3].

واستعمله من المتقدمين الأخفش في معانيه، ومما جاء في كتابه أنه قال:« وأما قوله: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾، ثم قال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾، ثم قال: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ ﴾، فلأنه خاطبهم من بعد ما حدث عنهم، وذا في الكلام والشعر كثير،»، إلى أن قال:« وفي كتاب الله ﷻ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ فأخبر بلفظ الغائب وقد كان في المخاطبة لأن ذلك يدل على المعنى »[4].

وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن الالتفات كان معروفاً في وقت مبكرٍ، وإن لم يطلق عليه هذا اللفظ، لذا تعددت مصطلحاته، فقد يعبر عنه أحياناً بلفظ الصرف، أو التحويل، أو المجاز، أو مخالفة مقتضى الظاهر، أو شجاعة العربية كما

(٢/ ٣٣٣) **والأخفش**: هوالأوسط سعيد بن مسعدة البلخي إمام النحو والعربية مات سنة(٢١٥هـ)، انظر:سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٦)، بغية الوعاة (١/ ٥٩٠).

(١) مجاز القرآن (١/ ١١) والآية(٢٢).من سورة يونس.

(٢) سورة آل عمران، الآية(١٣).

٣( ) معاني القرآن (١/ ١٩٥).

٤( ) معاني القرآن (١/ ٣٢١).

ذكره ابن الأثير، وعلل ذلك بقوله: « وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره، ويتورد مالا يتورده سواه، وكذلك الالتفات في الكلام »[1].

وبناء على الاختلاف في تسميته تعددت أقوال علماء العربية والبلاغة في حده وضبطه ، وأشهرها قولان:

القول الأول: أن الالتفات تحويل الضمير من سياق أصلي كالغيبة مثلاً إلى سياق مغاير كالتكلم أو الخطاب،وهذا التعريف هو تعريف جمهور أهل اللغة والبلاغة،أمثال الزمخشري والسكاكي والخطيب القزويني والزركشي والسيوطي[2]، فالالتفات عندهم هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب

١( ) المثل السائر(٢/ ١٨١) **وابن الأثير**: هو ضياء الدين محمد بن نصر الله، ولد بالموصل وصنف كتباً عديدة ، توفي سنة (٦٢٢هـ)، انظر:وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ١٦١)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٧٢).

٢( ) انظر: الكشاف (١/ ١٣)، مفتاح العلوم (٢/ ٢٣٥)، الإيضاح في علوم البلاغة(١/ ١٥٧)، البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤)، الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٥) **والزمخشري**: محمود بن عمر الخوارزمي، برع في اللغة والنحو والبيان، وأخذ بمذهب الاعتزال ودافع عنه بقوة، توفي سنة(٥٣٨هـ)، انظر: البداية والنهاية لابن كثير(١٢/ ٢٣٥)،طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٤ **والسكاكي**: يوسف بن أبي بكر الخوارزمي، عالم بالعربية والأدب، توفي سنة(٦٢٦هـ)انظر: معجم الأدباء (٢٠/ ٥٨)،الأعلام للزركلي (٩/ ٢٩٤)، **والخطيب القزويني**: أبوالمعالي محمد بن القاضي سعد الدين، اشتغل بالفنون وأتقن الأصول، توفي سنة (٧٣٩هـ)، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (٤/ ١٢٠)، البدر الطالع للشوكاني (٢/ ١٨٣)، **والزركشي**: محمد بن بهادر، من فقهاء الشافعية وعلماء الأصول، توفي سنة (٧٩٤هـ)، انظر: الدرر الكامنة(٤/ ١٧)، طبقات الداودي (٢/ ١٦٢)، **والسيوطي**: عبدالرحمن بن أبي بكر مؤرخ محدث مفسر، اشتغل بالتدريس والتصنيف فكثرت مصنفاته، توفي سنة(٩١١هـ)، انظر: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (١/ ٣٣٥) البدر الطالع: (١/ ٣٢٨) .

والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.[1].

القول الثاني: أن الالتفات هو العدول من أسلوب إلى أسلوب آخر مخالف للأول. وهذا التعريف أوسع من التعريف الأول حيث إنه يشمل الالتفات في الضمائر وغيرها، وهذا التعريف لطائفة من العلماء أمثال ضياء الدين بن الأثير، فقد قسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام: الأول في الضمائر، والثاني في صيغ الأفعال من الماضي إلى المضارع والعكس، والثالث في العدد من الإفراد إلى التثنية أو إلى الجمع والعكس .[2]

وقد مال إلى هذا التعريف العلوي في كتابه الطراز وعلله بقوله:« وهذا القول أحسن من القول بأن الالتفات هو العدول من غيبة إلى خطاب والعكس،لأنه يعم سائر الالتفاتات كلها »[3].

هذان قولان للعلماء في حقيقة الالتفات وبيانه، الأول منهما لجمهور علماء اللغة والبلاغة، وهو الالتفات بين الضمائر خاصة،والثاني لبعض العلماء وهو الالتفات من أسلوب إلى أسلوب،سواء بين الضمائر أو غيرها،ولكن الأول هو الأقرب وعليه الأكثر، فهو تعريف للمتقدمين من علماء البلاغة والمتأخرين، وبناء عليه فإنني سأقتصر في دراستي هذه على التعريف المختار، وستكون الدراسة في الالتفات بين الضمائر الثلاثة:(التكلم والخطاب والغيبة)، والله الموفق.

١( ) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ١٥٧).

٢( ) انظر: المثل السائر(٢/ ١٨١ــ١٩٤).

٣( ) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ص(٢٦٥) **والعلوي**: يحيى بن حمزة الحسيني، من علماء الزيدية في اليمن، توفي سنة (٧٤٥هـ)، انظر: الأعلام (٨/ ١٤٣).

المبحث الثاني
فوائد الالتفات

لا ريب أن الالتفات لـه فوائد قيمـة وأسرار بلاغيـة، فهـو يكسـب الكـلام رونقًا وجمالاً، ويكسوه بهجة وإشراقًا، كما أن فيه تطرية [1] للكلام، وصـيانة للسـمع من الضجر والملل، لأن النفوس جبلت على حب التنقلات والسآمة من الاسـتمرار على منوالٍ واحد[2].

يقول الزمخشري:« إن الكلام إذا نقـل مـن أسـلوب إلى أسـلوب كـان ذلـك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسـلوب واحـد، وقد تختص مواقعه بفوائد ».[3].

فهو إذن يجعل السامع ينصت إلى الكلام بشغف،ويقبل عليه بلهف،

فهذا بعض مـن فوائـد الالتفات،وطائفـة مـن أسراره البلاغيـة بوجـه عـام، وأمـا الالتفات في القرآن الكريم فلـه فوائد جمـة وأسرار بلاغيـة كثـيرة، وأهـداف بيانيـة موفورة، ولطائف متنوعة، تختلف من آية إلى آيـة، ومـن غـرض إلى غـرض، ومـن موضع إلى موضع بحسب المعنى والمقام، أوضحها القرآن الكريم، وأجلاهـا علـماء التفسير .

فأسرار الالتفـات في القـرآن الكـريم وفوائـده تميـزت عـن غيرهـا، تميـزت بأسلوبها الرصين، وبدقتها وقوتها، وجمال سبكها، فلها تأثيرها العميق في النفوس، وفيها الدلالة الواضحة على إعجاز القرآن،وهذا مـا سـيأتي الكشـف عنـه في ضـوء

---

(١) أي: تجديدًا.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٥).

(٣) انظر: الكشاف (١/ ١٤).

الآيات القرآنية، ولكن الأذهان تتفاوت في إدراكها والوصول إلى أغراضها، فقد تقترب منها، وقد تصل إلى بعضها، وكل ذلك مقرون بتوفيق الله ﷻ، ثم بالجهد المبذول في هذا السبيل.

وإن الناظر والمتأمل في كتاب الله العظيم وفي آياته، ليجد أن الالتفات من أكثر الظواهر البلاغية التي حواها هذا الكتاب العزيز ترديداً،وأوسعها انتشاراً، وأنه قد تعددت طرقه، واختلفت ألوانه، وتنوعت استعمالاته، وإليك بيان طرق الالتفات في ضوء الآيات القرآنية، والله المستعان وعليه التكلان:

الفصل الثاني
الالتفات بين التكلم والغيبة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة

المبحث الثاني:الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم

المبحث الأول
الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة

ومعناه:أن يكون سياق الكلام على ضمير التكلم ثم ينتقل إلى ضمير الغيبة، وهذا النوع من الالتفات هو الأكثر انتشاراً في القرآن الكريم[1].

فمن تدبر القرآن الكريم وتأمل في آياته وجد الكثير من آياته تشير إلى هذا النوع وأن كتاب الله قد حفل بذكره،وأن المفسرين كانت لهم العناية الكبيرة في إبرازه وتجليته،وما حواه من أسرار بلاغية، وإليك بعضاً من هذه الأمثلة.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[2].

المقصود بالتبديل في الآية هو النسخ، وهو أن ترفع آية ويحل محلها آية أخرى. وهذا بلا شك مبني على حكم ومصالح يعلمها الله ﷻ، فقد يشرع الشيء لمصلحة مؤقتة، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره.

ولكن المشركين لجهلهم بهذا يفترون على الله الكذب ويتقولون على القرآن الكريم بأنه افتراء من النبي، وعليه ﷺ أيضاً بأنه كذاب متقول على الله ﷻ حيث بالغوا في نسبة الافتراء عليه بلفظ إنما وبمواجهة الخطاب وباسم الفاعل الدال على الثبوت.

وهذا الأمر صادر عن جهل منهم أو مكابرة، فرد الله عليهم فريتهم بأنه أعلم بمصالح العباد بما ينزل من الأحكام،وأن أكثرهم لا يعلمون أصلاً أولا يعلمون النسخ والحكمة منه،وإسناد الحكم إلى الأكثر لأن منهم من يعلم ولكن ينكر عناداً[3]

---

(١) بلغت آيات هذا النوع ما يقرب من (١٣٦ آية).انظر:أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص١٧١

(٢) سورة النحل، الآية (١٠١).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم(٣/ ٤٠١)، روح المعاني(١٤/ ٢٣١)،تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٤١).

ونلحظ أن الالتفات في الآية قد جاء منتقلاً من أسلوب التكلم والعظمة في قولـه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قولـه: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾،أي: هو أعلم بما ينزل، وكان مقتضى السياق:ونحن أعلم بما ننزل،ولكن غير الأسلوب من التكلم إلى الغيبة، وهذا التغيير جاء لغرض وفائدة، هو إظهار الحكمة من النسخ ولأجل توبيخ الكفار، وتنبيههم على فساد رأيهم.

قال أبو السعود: « وفي الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض ». (١)

وقال الآلوسي:« وفي الالتفات إلى الغيبة مع الإسناد إلى الاسم الجليل ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض ». (٢)

ومما ورد في كتاب الله من الأمثلة لهذا النوع قول الله ﷻ: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾. (٣)

فقد افتتحت السورة بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك بأن تصيبه مشقة، وإنما أراد بذلك تذكير المؤمنين أهل الخشية بالقرآن،وفي الافتتاح بهذا الأسلوب تمهيد لما سيأتي من أمر الرسول ﷺ بتبليغه الرسالة.

وفيه إشارة إلى أن المقصود بالوحي وإنزال القرآن الكريم وتشريع الشرائع أنه طريق

---

(١) إرشاد العقل السليم(٣/ ٤٠١)،**وأبو السعود**:محمد بن محمد بن مصطفى العمادي من فقهاء الحنفية، تقلد قضاء القسطنطينية، توفي سنة(٩٨٢هـ)، انظر:البدر الطالع للشوكاني(١/ ٢٦١)، هدية العارفين للبغدادي(٢/ ٢٣٥)

(٢) روح المعاني (١٤/ ٢٣١)، **الآلوسي**:محمود بن عبدالله الحسيني،من علماء العراق، مفسر ـ محدث فقيه، توفي سنة(١٢٧٠هـ)، انظر: معجم المفسرين (٢/ ٦٦٥)، الأعلام (٧/ ١٧٦).

(٣) سورة طه، الآيات (١-٤).

موصلة إلى السعادة والفلاح والتذكرة وراحة البدن في الدارين، لا لأجل الشقاوة وإنهاك النفس،ثم عظَّم ﷻ كتابه المنزَّل بتعظيم شأن المنزِّل وهو الله،لأن تعظيمه يظهر بتعظيم خلقه ونعمه، وإنما عظم القرآن ترغيباً في تدبره والعمل به.[1]

وقد جاء الالتفات في الآيات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة حيث أسند الإنزال إلى ضمير التكلم فقال:﴿ مَآ أَنزَلۡنَا ﴾ ثم انتقل إلى ضمير الغائب فقال:﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾.

وقد لفت الزمخشري الانتباه إلى نكتة الالتفات في هذه الآيات فقال: « فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام، وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: ﴿ أَنزَلۡنَا ﴾ ففخم الإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد، فضوعفت الفخامة من طريقين » اهـ.[2]

ويضيف البقاعي فائدة من فوائد الالتفات في الآية فيقول:« وإنما التفت من التكلم إلى الغيبة ليدل على ما اقتضته النون من العظمة مقدماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوِّين المعتنى بتذكرهم وهداية أريد منهم » اهـ.[3]

وقال أبو السعود: « ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الصفات والأفعال » اهـ.[4]

---

(١) انظر:الكشاف(٣/ ٥١)، روح المعاني (١٦/ ١٤٩)، التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٤)،تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٢).

(٢) الكشاف (٣/ ٥١).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٦٧)، **والبقاعي**:إبرهيم بن عمر بن حسن،مؤرخ مفسر محدث، ولد ونشأ بالبقاع، سكن بدمشق ومات بها سنة(٨٨٥هـ)،انظر: البدر الطالع للشوكاني (١/ ١٩)، التاج المكلل لصديق خان ص٣٥٨.

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٦١٣).

ومن الآيات الواردة من هذا النوع من الالتفات ما جاء في سورة الكوثر، قال الله تعالى:﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾[1].

وفي هذه السورة الجليلة منح الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ مناقب كثيرة، وخيرًا كثيرًا وعطاء وفيرًا،منها الوعد بالعطاء الذي من جملته ما يعطيه الله ﷻ لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له الكوثر،والوعيد لكل من أبغضه وانتقصه بالقطع من كل خير،ومن كل ذكر، ثم توجيهه ﷺ إلى طريق الشكر بالمحافظة على عبادتين جليلتين هما الصلاة التي جمعت أنواع الشكر،والنحر الذي هو تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر.

وفي حذف موصوف الكوثر،وإسناد الإعطاء إليه،والتعبير بالماضي وتأكيد الجملة بإنَّ مالا يخفى من المبالغة والاعتناء بشأن الخبر .[2]

وقد جاء الالتفات في السورة من أسلوب التكلم في قوله: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾، وكان مقتضى السياق: فصلِّ لنا، وإنما غير في الأسلوب وعدل إلى ضمير الغيبة وذلك لسر بلاغي،وهو الحث على أداء الصلاة لحق الربوبية، لأن لفظ الرب يفيد الحث على الطاعة، كما فيه الإشارة إلى إخلاص العمل لله.[3]

قال الآلوسي: « وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً

---

(١) سورة الكوثر،الآيات (١-٣).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٣١/ ١٢٨)، إرشاد العقل السليم (٥/ ٥٨١)،روح المعاني (٣٠/ ٢٤٥)، تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٨٠).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٣٢/ ١٣١).

إلى ضميره ﷺ تأكيد لترغيبه ﷺ في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل »اهـ.[1]

وقال الطاهر ابن عاشور: « والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، دون "فصل لنا" لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه » اهـ. [2]

فهذه أمثلة توضح لك أهمية هذا النوع في كتاب الله وهو الالتفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة وأنه الأكثر شيوعاً والأوسع انتشاراً ، وأن الملاحظ في هذه الآيات وغيرها أن ضمير التكلم في الغالب أنه ضمير عظمة وأنه عائد على الخالق ﷻ كقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ﴾، ﴿ مَآ أَنزَلْنَا ﴾، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ وهكذا،،،

وهكذا تبين لنا أن المفسرين كانت لهم عناية فائقة واهتمام كبير في إبراز هذا النوع والوقوف على أسراره البلاغية وأهدافه البيانية التي لا تنفد ولا يمكن لأحد حصرها ، وهو سر من أسرار الإعجاز القرآني.

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٤)،**والطاهر ابن عاشور** من علماء تونس ولد ونشأ بها،ودرَّس في جامع الزيتونة، له أبحاث ودراسات كثيرة، توفي سنة (١٣٩٣هـ)،انظر: الأعلام (٦/ ١٧٤)، معجم المفسرين (٢/ ٥٤١).

المبحث الثاني الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم

ومعناه: أن يكون سياق الكلام على ضمير الغيبة ثم يتحول إلى ضمير التكلم وهذا النوع أكثر القرآن الكريم من استعماله، واعتنى المفسرون بإبرازه مما يدل على أهميته.[1]

ومن أمثلته ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٍ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا ﴾[2].

فهذه الآية يذكر فيها ﷻ ما هو من عجائب مخلوقاته الدالة على كمال قدرته وعظائم مننه ونعمه المنبئة عن سعة رحمته ﷻ، والتي يضطر إليها الخلق من بني آدم وغيرهم، وهو إنزال الغيث من السماء وإخراج النبات المختلف الأصناف والألوان والطعوم والأشكال، ثم شرع ﷻ في تفصيل ما أجمل من الإخراج وهو أصل النبات الخارج من الحبة، يخرج غضاً رطباً، فيخرج به الحبوب المتراكبة وغيرها من النباتات.

وصيغة المضارع ﴿ نُّخۡرِجُ ﴾ لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة.[3]

وقد جاء الالتفات في الآية من ضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ ﴾ ،إلى ضمير التكلم في قوله تعالى:﴿ فَأَخۡرَجۡنَا ﴾، وقوله: ﴿ نُّخۡرِجُ ﴾،ولا شك أن لهذا الالتفات وهذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غرضاً بلاغياً، وهو إظهار قدرة الله ﷻ المشعرة بعظمته وأنها لا يمكن أن تتأتى هذه الأشياء من غيره، ولإظهار كمال العناية بشأن ما أنزل لأجله، وهو إخراج النبات المختلف الأشكال والأصناف.

---

(١) بلغت آيات هذا النوع ما يقرب من (٩٧آية). انظر:أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيةص١٧١

(٢) سورة الأنعام، الآية (٩٩).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١٣/ ١٠٧)، إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٥٦)، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤٢).

قال البقاعي: « ولما كان تفريع الخلق من الماء بمكان العظمة لا يوصل إليه نبه عليه بالانتقال إلى ضمير التكلم في مظهر العظمة فقال :﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾،أي: على مالنا من العظمة التي لا يدانيها أحد » اهـ.[1]

وقال أبو السعود:« قوله:﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾،التفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماءُ لأجله،أي:فأخرجنا بعظمتنا » اهـ[2]

ويضيف الآلوسي نكتة أخرى فيقول:« إنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجه إليه حتى يخاطب واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية » اهـ.[3]

ويشير محمد رشيد رضا إلى نكتة أخرى في هذا الالتفات فيقول:« فحكمة الالتفات أن تلتفت الأذهان إلى ما يعقب ذلك من البيان فتتنبه إلى أن هذا الإخراج والصنع السنيع من فعل الحكيم الخلاق ، لا من فلتات المصادفة والاتفاق ». اهـ[4]

ومن الآيات الواردة من هذا النوع في كتاب الله ﷻ قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.[5]

وهذه الآية كسابقتها تتحدث عن آية من آيات الله ﷻ الكونية،ومن

---

(١) نظم الدرر(٧/ ٢٠٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢ / ٢٥٥).

(٣) روح المعاني (٧/ ٢٣٨).

(٤) تفسير المنار (٧ / ٦٤٤) **ومحمد رشيد رضا** من دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي،ولد ونشأ بالشام، ثم رحل إلى مصر فلازم الشيخ محمد عبده، أنشأ مجلة المنار، توفي سنة ١٣٥٤هـ.
انظر: الأعلام (١٢٦/٦)،معجم المفسرين عادل نويهض (٥٢٩/٢).

(٥) سورة الأعراف، الآية (٥٧).

عجائب مخلوقاته الدالة على كمال قدرته على تصريف الأحوال بين السماء والأرض.

وإذا تأملت هذه الآية وكيف جاء التعبير عن إرسال الرياح مبشرات وهي تتقدم نزول الغيث بصيغة الغيبة:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ فيتكون بأمر الله ﷻ سحاباً ركاماً،ثم يأتي سوقه إلى حيث يشاء وإنزال الماء وإخراج الثمرات المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال بصيغة التكلم: ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ علمت أن هناك أموراً مشاهدة محسوسة تحتاج إلى تفكر وتأمل تتجلى فيه قدرة الله ﷻ المشعرة بعظمته وأنها لا يمكن أن تتأتى من غيره.(١)

فالالتفات في الآية من ضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىَ ﴾ ،إلى ضمير التكلم في قوله تعالى: ﴿ سُقْنَٰهُ ﴾، ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾، ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾، ﴿ نُخْرِجُ ﴾، وهذا التغيير من أسلوب إلى أسلوب لا شك أن له غرضاً بلاغياً، وهو إظهار قدرة الله ﷻ المشعرة بعظمته وأنها لا يمكن أن تتأتى من غيره، ولإظهار كمال العناية بشأن ما أنزل لأجله، وهو إخراج النبات المختلف الأشكال والأصناف،

ونلحظ في هذا النوع من الالتفات وهو الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم أنه كثر وتردد في كتاب الله ﷻ ،وعند النظر في الآيات القرآنية الواردة في هذا النوع والتأمل فيها نجد أنها ترد غالباً فيما يتعلق بالآيات الكونية الدالة على قدرته ﷻ على تصريف الأحوال بين السماء والأرض،بإرساله الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر ثم ما يتبع ذلك من اخضرار الأرض وإخراج الثمرات المختلفة الأصناف والألوان والأشكال والطعوم. وإليك بعضاً من الأمثلة على ذلك :

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ

(١) انظر:فتح القدير(٢/ ٢١٤)، تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١)، التحرير التنوير(٨/ ١٨٢).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾.[3]

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾.[4]

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[5]

وقال تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ﴾[6]،

فتأمل هذه الآيات وكيف جاء فيها الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم، فالآية الأولى ابتدأت بضمير الغيبة: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، ثم انتقلت إلى ضمير التكلم: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾،والآية الثانية ابتدأت بضمير الغيبة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ﴾ ثم انتقلت إلى ضمير التكلم: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، والآية الثالثة ابتدأت بضمير الغيبة: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ

---

(١) سورة طه،الآية (٥٣).

(٢) سورة الفرقان،الآية (٤٨).

(٣) سورة النمل،الآية (٦٠).

(٤) سورة لقمان،الآية (١٠).

(٥) سورة فاطر ، الآية (٩).

(٦) سورة فاطر، الآية (٢٧).

﴾، ثم انتقلت إلى ضمير التكلم: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ﴾، والآية الرابعة ابتدأت بضمير الغيبة: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ ﴾، ثم انتقلت إلى ضمير التكلم: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا ﴾، والآية الخامسة ابتدأت بضمير الغيبة:﴿ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾، ثم انتقلت إلى ضمير التكلم:﴿ فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا ﴾، والآية السادسة ابتدأت بضمير الغيبة: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾، ثم انتقلت إلى ضمير التكلم: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ ﴾،

وهذا العدول عن لفظ الغيبة إلى التكلم لاشك أنه جاء لنكتة بلاغية هي إظهار قدرة الله ﷻ المشعرة بعظمته وأنها لا يمكن أن تتأتى من غيره، ولإظهار كمال العناية بشأن ما أنزل لأجله،وهو إخراج النباتات المختلفة والثمرات المتنوعة في أصنافها وألوانها وأشكالها و طعومها.

ويظهر هذا النوع من الالتفات جليًا في فواتح سـورة الإسراء،قال الله تعالى : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[1]،

حيث افتتحت السورة بتنزيه الله ﷻ وتقديسه عن النقائص لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، والتي من جملتها إسـراؤه ﷻ بنبيه وحبيبه محمد ﷺ من المسجد الحرام الذي هو أجل المساجد إلى المسجد الأقصى الذي هو من المساجد الفاضلة ، بارك الله فيه بكثرة الأشجار والأنهار وبأنه محل كثير من الأنبياء،فكان في هذا الإسـراء أن أرى الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ من الآيات ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاناً، وهذا يدل على عنايته ﷻ ولطفه بعبده ونبيه ﷺ .

والتعبير بقولـه: ﴿ بِعَبۡدِهِۦ ﴾، مضافًا إلى ضمير الغيبة العائد على الله ﷻ لأجل التشريف، كما أن مجيء ﴿ لَيۡلٗا ﴾ منكرًا لتقليل مدة الإسراء وأنه قطع به تلك

(١) سورة الإسراء، الآية (١).

المسافات الشاسعة،بل في جزء من الليل، وفيه فائدة أخرى وهي الإشارة إلى أن الإسراء كان ليلاً لم يشاهده أحد.[1]

وهذه الآية قد جاء الالتفات فيها متعددًا مع قصرها وتقارب معانيها،فبدأ أولاً بأسلوب الغيبة في قولـه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم في قوله:﴿ بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾،وذلك للدلالة على عظمة الله ﷻ في ملكه، ولتعظيم تلك البركات والآيات التي اختُص بها المسـجد الأقصى.[2]

ثم انتقل الالتفات من ضمير التكلم في قولـه تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ ﴾، فأراه الآيات العجيبة وأطلعه تعالى على ملكوت السموات،إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ ، وذلك لاستشعار عظمة الله ﷻ ،ولتربية المهابة في النفوس[3].

فالتركيب في الآية منساق كأنه سبيكة واحدة، لا تتفكك فيه المعاني ولا تضطرب أثناء خروجها من معنى إلى معنى، وهذا ما ليس في طوق أرباب الفصاحة والبيان[4].

قال أبو السعود:« والالتفاتُ إلى التكلم ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾، لتعظيم تلك البركات والآيات،والالتفاتُ إلى الغيبة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ،لتربية المهابة» اهـ[5]

وقال الآلوسي: « وصرف الكلام من الغيبة التي في قوله: ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٦٤٦)، لباب التفسير في معاني التنزيل للخازن (٣/ ١٠٩)،تيسير الكـريم الـرحمن (٤/ ٢٥٨)،صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ١٥١).

(٢) انظر: روح المعاني (١٥/ ١٣)، صفوة التفاسير (٢/ ١٥١).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٢٣).

(٤) انظر: الكشاف (٢/ ٦٤٨)، البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٢)، معترك الأقران (١/ ٣٨١).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣ / ٤٢٣).بتصرف.

﴿ أَسْرَىٰ ﴾، إلى صيغة المتكلم المعظم في: ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾، لتعظيم البركات والآيات لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه كما قيل إنما يفعل العظيم العظيم،وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة وهي أن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾،يدل على مسيره ﷺ خفية دون مشاهدة، وهو بالغيبة أنسب، وقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾، دل على إنزال البركات فيناسب تعظيم المنزِّل،والتعبير بضمير العظمة كفيل بذلك،وقوله:﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾، يدل على قربه واتصاله فيناسب التكلم معه،وقوله تعالى:﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾، عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه ، وأما الغيبة في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ،على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر وعليه الأكثر[1] فليطابق قوله تعالى: ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾، ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه وينطبق عليه التعليل أتم انطباق إذ المعنى قربه وخصه بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلع على أحواله عالم باستحقاقه لهذا المقام » اهـ[2]

وقال ابن عاشور: :« وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله: ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾، سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيراً في كلام البلغاء » اهـ[3]

وهذا النوع من الالتفات قد كثر وروده وانتشاره في كتاب الله ﷻ، وعند تتبع الآيات القرآنية الواردة في هذا النوع يتبين أن أغلبها في انتقاله إلى ضمير التكلم أنه يعود إلى ضمير عظمة وأنه عائد على الخالق ﷻ كقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ

---

(١) والقول الآخر أن الضمير عائد على النبي ﷺ، والجمهور على خلافه، انظر:روح المعاني (١٥/ ١٤) .

(٢) روح المعاني (١٥/ ١٣).بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١).

﴿ شَيْءٍ ﴾، ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، ونحوها.

هكذا يتبين ما للمفسرين من عناية فائقة واهتمام كبير في إبراز هذا النوع والوقوف على أسراره البلاغية وأهدافه البيانية التي لا تنفد والتي لا يمكن لأحد حصرها .

الفصل الثالث
الالتفات بين الغيبة والخطاب

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب

المبحث الثاني: الالتفات من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة

المبحث الأول

الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب

ومعناه:أن يكون سياق الكلام على ضمير الغيبة ثم يتحول إلى ضمير الخطاب، وهذا النوع أكثر القرآن الكريم من استعماله، واعتنى المفسرون بإبرازه مما يدل على أهميته.[1]

ومن أمثلته ما جاء في فاتحة الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾[2].

الحمد هو الثناء على الله ﷻ بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، وفي ضمن هذا أمر للعباد أن يحمدوه فهو المستحق للحمد الكامل من جميع الوجوه،وهو سبحانه خالق الخلق ومربيهم بنعمه، وأوليائه بالإيمان والعمل الصالح، ووصفه بالرحمة ثناء عليه لاستحقاقه ﷻ الحمد كله.

ووصفه بالملك لأنه المنفرد بالخلق والتدبير المتصرف بعباده أمراً ونهياً وثواباً وعقاباً.

وإنما أضاف الملك ليوم الدين وهو الجزاء والحساب لانقطاع جميع الأملاك في ذلك اليوم،فلما بين أن الحمد لله ﷻ المتصف بالربوبية والرحمة والملك لليوم المذكور بين بعده أنه المستحق للخضوع المطلق وللاستعانة به وحده، وإنما ذكر الاستعانة بعد العبادة لاحتياج العبد في جميع عباداته للاستعانة به ﷻ[3].

---

(١) بلغت آيات هذا النوع ما يقرب من(٤٤ آية)، انظر:أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية.ص١٧١

(٢) سورة الفاتحة، الآيات (٢-٥).

(٣) انظر:جامع البيان (١/ ٤٦)، الكشاف (١/ ١٣)،تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٤).

وقد جاء الالتفات في هذه السورة بأبدع صوره حيث بدأت الآيات بالحمد والثناء على الله بأسلوب الغيبة ثم انتقلت إلى أسلوب الخطاب في قولـه تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾، ولو أُجري الكلام من غير التفات لكان التقدير: إياه نعبد، وإنما غير في الأسلوب وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب، لسـر بلاغي هو« أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك لليوم المذكور أقبل الحامد مخبرًا بأثر ذكره الحمد المستقر لـه منه ومن غيره أنه وغيره يعبده ويخضع لـه، ولذلك أتى بالنون ﴿ **نَعْبُد** ﴾ التي تكون لـه ولغيره »[1].

ويوضح الزمخشري نكتة الالتفات في هذه الآيات فيقول:« فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت:هـذا يسـمى الالتفـات في علـم البيـان،لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب،كان ذلك أحسـن تطريـة لنشـاط السـامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد،وقد تختص مواقعه بفوائد.

ومما اختص به هذا الموضع:أنه لما ذكر الحقيـق بالحمـد، وأجـرى عليـه تلـك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيـق بالثنـاء وغايـة الخضـوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يـا من هذه صفاته نخص بالعبـادة والاسـتعانة،لا نعبـد غـيرك ولا نسـتعينه، ليكـون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به »[2].

ويبين البيضاوي السر في هذا الالتفات فيقول:« ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عـن سـائر الـذوات وتعلـق العلـم بمعلـوم معـين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكـون أدل عـلى الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن

(١) البحر المحيط (١/ ٢٤).

(٢) الكشاف(١/ ١٤).

المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً »[1].

كما يشير الشوكاني إلى شيء من الأسرار البلاغية في هذه السورة فيقول: «وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات،لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تَطريةً لنشاط السامع،وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني.

والمجيء بالنون في الفعلين:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه،وعن جنسه من العباد،وقيل: إن المقام لما كان عظيماً لم يستقلّ به الواحد،استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون لقصد التواضع، لا لتعظيم النفس.

وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية،وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب،وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم »[2].

ومن أمثلة هذا النوع التي حفل بها القرآن الكريم ما جاء في قوله ﷻ : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾[3]،

وهذه الآية جاءت في بيان مقولات أهل الشرك والرد عليها،ذلك أن المشركين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا،وهو قولهم إن الملائكة بنات الله،وهذه المقولة كمقولة بعض اليهود والنصارى،تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا،فرد الله ﷻ عليهم فريتهم ومقالتهم الشنيعة مؤكداً ذلك بالقسم المقدر أي:والله لقد جئتم بهذه المقولة

---

(١) أنوار التنزيل (١/ ٩)، **والبيضاوي**:عبد الله بن عمر بن علي، من شيراز، ومن علماء الشافعية، قاض مفسر عالم بالفقه والأصول، توفي بتبريز سنة(٦٨٥)، انظر:البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٣٢٧)،طبقات المفسرين للداودي(١/ ٢٤٨) .

(٢) فتح القدير (١/ ٢٢).**والشوكاني**: محمد بن علي بن عبد الله، من علماء اليمن، مفسر محدث أصولي فقيه، انظر: الأعلام (٧/ ١٩١)،معجم المفسرين (٢/ ٥٩٣).

(٣) سورة مريم، الآيتان (٨٨، ٨٩).

شيئاً عظيماً وأمراً منكراً .[1]

وقد جاء الالتفات في الآية من ضمير الغيبة في قوله: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾، إلى ضمير الخطاب في قوله: ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾، وذلك لتوبيخهم أشد التوبيخ على زعمهم وافترائهم؛ لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة، فلذلك نَزَّل أولئك القائلين المقالة الباطلة منزلة الحاضرين بين يديه فخاطبهم للإنكار عليهم وتوبيخهم.

يقول الزمخشري:« وفي قوله:﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾،وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة،وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرّض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا » اهـ[2].

وقال أبو حيان:« قوله: ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾، يكون التفاتاً خرج من الغيبة إلى الخطاب زيادة تسجيل عليهم بالجُرأة على الله والتعرض لسخطه،وتنبيه على عظيم ما قالوا » اهـ[3].

وقال أبوالسعود: « ردٌ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبيء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة » اهـ[4].

ومن أمثلة هذا النوع أيضًا ما جاء في فواتح سورة عبس، قال الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ ﴾[5]، وهذه الآيات نزلت في الصحابي الجليل عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه[1]،

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (٣/ ٦٠٦)، فتح القدير (٣/ ٣٥١)، تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٣٨).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٥).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢١٨)،**وأبو حيان**:محمد بن يوسف الغرناطي،نحوي عصره ولغويه ومقرئه، مات بمصر سنة(٧٤٥هـ)،انظر:طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٢٨٧)الأعلام (٧/ ١٥٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٦٠٦).

(٥) سورة عبس، الآيات (١-٤).

كان ضريراً، وقد جاء إلى النبيﷺ يسأله أن يرشده، وهو منشغل بدعوة غيره من صناديد الكفر(٢).

ومعنى:﴿ عَبَسَ ﴾ أي:قطَّب وجهه وقبضه(٣)،﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾أي:أعرض ببدنه لأجل مجيء الأعمى له، وإنماإظهر لفظ الأعمى تنبيهًا للعناية بشأنه وأنه صاحب ضرارة، كما أن فيه إشعارًا بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ .

وقوله﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي:أيُّ شيء يجعلك عالمًا بحقيقة أمره وحاله حتى تعرض عنه ؟ فلعله بسؤاله تزكو نفسه وتتطهر،أو يحصل له المزيد من الاعتبار والازدجار، ﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴾ يتعظ بما تعلمه من المواعظ فينتفع بها.(٤).

والالتفات في هذه الآيات جاء أولاً بضمير الغيبة في قولـه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾، ثم انتقل إلى الخطاب في قولـه: ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ ، والسِّرُّ في استعمال ضمير الغيبة أولاً لئلا يفاجيء نبيَّه وصفيه ﷺ بالعتاب،عطفًا ورحمة به،وإكرامًا لـه عن المواجهة بهذا الأمر،ثم هو بعد ذلك أقبل على نبيه محمد ﷺ بعد الإعراض إظهارًا للإيناس بعد الإيحاش(٥).

قال البقاعي:« ولما عرف بسياق الغيبـة مـا أريـد مـن الإجلال،وكـان طـول الإعراض موجباً للانقباض،أقبـل عليـه ﷺ فقـال: ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ أي:وأيُّ شيء يجعلك دارياً بحاله؟ وإن اجتهدت في ذلك فـإن ذوات الصـدور لا يعلمهـا إلا الله

---

(١) ممن أسلم قديمًا، وهاجر بعد وقعة بدر، كـان يـؤذن لرسـول الله ﷺ وكـان يسـتخلفه عـلى المدينـة، مـات سـنة (٢٣هـ). انظر: الاستيعاب (٢/ ٣٦٢)، الإصابة (٢/ ٥١٦).

(٢) انظر: جامع البيان (٣٠/ ٣٢).

(٣) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص(٣٣٢).

(٤) انظر: جامع البيان (٣٠/ ٣٣)،فتح القدير (٥/ ٣٨٢)، تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٧).

(٥) انظر: أنوار التنزيل (٢/ ٥٦٨)، روح المعاني (٣٠/ ٤٠).

تعالى» اهـ[1].

وقال الشوكاني:« التفت ﷻ إلى خطاب نبيه ﷺ ،لأن المشافهة أدخل في العتاب:أي أيُّ شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه » اهـ[2].

وقال ابن عاشور:« فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أولُ ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنيَّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطف من الله ﷻ برسوله ﷺ ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً، فتوجيه العتاب إليه مسنداً إلى ضمير الغائب ثم جيء بضمائر الغيبة،فذكر الأعمى يظهر المراد من القصة واتضح المراد من ضمير الغيبة، ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة الالتفات » اهـ[3].

ومما تقدم يتضح أن المفسرين كانت لهم عناية فائقة واهتمام كبير في إبراز هذا النوع والوقوف على أسراره البلاغية وأهدافه البيانية التي لا تنفد ولا يمكن لأحد حصرها.

(١) نظم الدرر(٢١/ ٢٥١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٣٨٢).

(٣) التحريروالتنوير (٣٠ / ١٠٥).

المبحث الثاني
الالتفات من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة

ومعناه: أن يجري الكلام على أسلوب الخطاب ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وقد أكثر القرآن الكريم من هذا النوع، وحفلت الآيات القرآنية بذكره.[1]

ومن أمثلة هذا النوع ما ورد في القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[2].

وقد جاءت الآية لتقرير وجوب طاعة الرسول ﷺ ،وهذه الطاعة مفروضة بأمر اللهﷻ وإذنه، كما أنها في إرشاد العصاة المذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم حتى يتوب الله عليهم، وذلك في حياته، وفيه إيماء إلى المسارعة إلى التوبة النصوح[3]،

وقد جاء الالتفات في الآية من ضمير الخطاب في قوله:﴿جَآءُوكَ﴾ أي: يا محمد،ثم إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾، وهذا الانتقال والعدول له غرض بلاغي وسر من أسرار القرآن الكريم،وهو تفخيم شأن الرسول ﷺ بذكر أعظم صفاته وهي الرسالة، حيث لم يقل واستغفرت لهم، وذلك أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه.

قال الرازي:« إنما قال:﴿ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾، لم يقل: واستغفرت لهم إجلالاً للرسول ﷺ وأنهم إذا جاءوه فقد جاءوا من خصه الله ﷻ برسالته وأكرمه

---

(١) بلغت آيات هذا النوع ما يقرب من (٤٠ آية)،انظر:أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيةص١٧١.

(٢) سورة النساء، الآية (٦٤).

(٣) انظر:تفسير المنار(٥/ ٢٣٢)،تيسير الكريم الرحمن(٢/ ٦٢)، التفسير المنير (٥/ ١٣٨).

بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه » اهـ[1].

وقال أبو حيان:« والتفت في قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾، ولم يجيء على ضمير الخطاب في:﴿جَآءُوكَ ﴾ ، تفخيماً لشأن الرسولﷺ،وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعة من وصفه الرسول من الله تعالى بمكان،وعلى أن هذا الوصف الشريف وهو إرسال الله إياه موجب لطاعته » اهـ[2].

وقال الآلوسي:« وفي التعبير بـ: ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾، دون استغفرت، تفخيم لشأن رسول اللهﷺ حيث عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته على طريق حَكَمَ الأميرُ بكذا مكان حكمت، وتعظيم لاستغفاره ﷺ حيث أسنده إلى لفظ منبيء عن علو مرتبتة» اهـ[3].

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[4].

وهو مثل ضربه الله ﷻ للكفار المعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود، بأنه

---

(١) التفسير الكبير (١٠/ ١٦٢)، والرازي: محمد بن عمر بن الحسين مفسر متكلم، ولد في الري ويقال له ابن خطيب الري،توفي ستة (٦٠٦هـ)،انظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص(١٠٠)، طبقات المفسرين للداودي(٢/ ٢١٧)

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٨٣).

(٣) روح المعاني (٥/ ٧٠).

(٤) سورة يونس، الآيتان (٢٢-٢٣).

هو الذي يمكنهم من السير والانتقال في البر مشاة وركباناً، وفي البحر على مراكبه، ثم إنها إذا جرت بهم بسبب الريح الطيبة فرحوا بما تحقق لهم من الراحة وقطع المسافة، فإذا تغيرت بهم الحال فجاءتهم ريح عاصفة شديدة قوية فاضطرب البحر وتلاطمت الأمواج وأيقنوا بهلاكهم فلم يجدوا ملجأ إلا الله ﷻ، دعوا ربهم وتعهدوا بالشكر إذا تحقق رجاؤهم، فإذا تخلصوا من هذه المشقة نسوا ما كانوا يدعون إليه، وعادوا إلى فسادهم وبغيهم.

فالآية جاءت على وجه الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر وهي تصور حالة من أحوال الكفار وهي أنهم إذا وقعوا في شدة لجأوا إلى ربهم وتعهدوا بالشكر إذا فرَّج كربتهم، فإذا تخلصوا من هذه الشدة عادوا إلى فسادهم وبغيهم[1].

وقد ابتدأت الآية بأسلوب الخطاب الصالح لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من الخطاب إلى الغيبة حتى يخلص إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين، فجاء الالتفات من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ كُنتُمْ ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾، وقوله: ﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾، وقوله ﴿ وَجَآءَهُمُ ﴾، ومقتضى الظاهر: (وجرين بكم)، (وفرحتم)، و(جاءكم)، فعدل عن الخطاب إلى الغيبة، كأنه يذكر لهم أناسًا آخرين غير المخاطبين ليتعجبوا من حالهم، والواقع أنه يعجبهم من حال أنفسهم في البغي والفساد بعد النجاة وينكر عليهم، وقد نبه إلى هذه النكتة كثير من المفسرين.[2]

قال الزمخشري: « فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت:المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار

(١) انظر:جامع البيان (١١/ ٧١)، تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٤١)، التفسير المنير (١١/ ١٤٢).

(٢) انظر: الكشاف(٢/ ٣٣٨)، البحر المحيط (٥/ ١٣٨)،نظم الدرر(٩/ ٩٨)،معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي(١/ ٣٧٩)، إرشاد العقل السليم(٢/ ٦٤٩) التحرير والتنوير(١١/ ١٣٥).

والتقبيح » اهـ[1].

وقال أبو السعود: « والالتفات إلى الغيبة للإيذان عن سوء حالهم من سوء الحال الموجب للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعي منه الإنكارَ والتقبيح » اهـ[2].

وقال ابن عاشور:« ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين،فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾، على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين ، فقد أخرج من الخبر مَن عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين » اهـ [3].

ومن أمثله هذا النوع التي حفل بها القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[4].

لما ذكر الله ﷻ طائفة من الأنبياء عليهم السلام خاطب الناسَ عمومًا، وبين أن هؤلاء الأنبياء المذكورين هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون،وبهديهم تقتدون، وأن ملتهم واحدة ودينهم واحد وهو التوحيد،توحيد الله بالعبادة وعدم الإشراك به ،

(١) الكشاف (٢/ ٢٣٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٦٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٣٥).

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان (٩٢-٩٣).

وأن ربهم وخالقهم واحد وهو المستحق للعبادة وإنما أشير باسم الإشارة هذه تنبيهاً على كمال ظهور أمرها في الصحة والسَّداد، فالواجب المحافظة على حدودها ومراعاة حقوقها وعدم الإخلال بشيء منها، وإنما جئ بالفاء في ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ لترتيب المسبب على سببه[1].

« وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه ولكن البغي والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع،ولهذا قال: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي:تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقاً وتشتتوا، كلٌ يدعي أن الحق معه،والباطل مع الفريق الآخر و﴿ كُل حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾، وقد عُلم أن المصيب منهم، من كان سالكا للدين القويم، والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء وسيظهر هذا، إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، فيُجازى كلٌ بعمله» [2].

وقد جاء الالتفات في الآية من ضمير الخطاب في قوله:﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، أي:أيها الناس هذه أمتكم وهذا دينكم والله ربكم وخالقكم،ثم انتقل إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ ولا شك أن لهذا الانتقال وهذا العدول غرضاً بلاغياً وهو أن ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويذكر قبيح فعلهم وسوء ما ارتكبوه من تفريق دين الله وفارقوا ما عليه الجماعة.

قال في الكشاف « والأصل : وتقطعتم ، إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات،كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٦٨)،تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٠).

فعلهم،ويقول لهم: ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين الله »[1].

وقال البقاعي:« ولما كان من المعلوم أنهم لم يفعلوا، أعرض إلى أسلوب الغيبة إيذاناً بالغضب،فكان التقدير في جواب من كأنه قال:ما فعلوا؟ ،لم يطيعوا أمري في الاجتماع على ما جمعتهم عليه من عبادتي التي هي سبب لجلب كل خير،ودفع كل ضير، ولا اقتدوا في ذلك بالكمّل من عبادي،فعطف عليه قوله ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ أي: مخالفة للأمر بالاجتماع » اهـ[2].

وقال أبو السعود:« وقوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ التفات إلى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعلِ أمره قطعاً موزَّعة، وينعي قبائحَ أفعالهم إلى الآخرين،كأنه قيل:ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام » اهـ[3].

ونظير هذه الآية قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ ﴾[4].

وهو أمر من الله ﷻ لرسله عليهم السلام بأكل الطيبات،وشكر له بالعمل الصالح، ويخبرهم أن كل عمل عملوه فإن الله يعلمه. ثم أخبر الرسل بأن جماعتكم واحدة ودينكم واحد وربكم واحد فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه.

فعلى كل من انتسب إلى هذه الصفوة من الخلق أن يسيروا على طريقتهم ويسلكوا منهجهم فأبى الظالمون إلا الفرقة والمخالفة في دينهم وتحزيبه فرقاً،كلٌ فرح بما عنده

---

(١) الكشاف (٣/ ١٣٤).

(٢) نظم الدرر(١٢/ ٤٧٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧٢٥).

(٤) سورة المؤمنون، الآيات (٥١-٥٣).

من العلم يزعم أن الحق معه،لكن المحق من كان على طريقة الرسل عليهم السلام، وما عداهم فإنهم على الباطل، وإنما زاد هنا ﴿ زُبُرًا ﴾ لتأكيد تفرقهم وتشنيع مرتكبهم، وقوله: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ زيادة في ذمهم وتعجيب من حالهم، فهم ليسوا بحال من يفرح.[1]

وقد جاء الالتفات في الآية من ضمير الخطاب في قوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ - أي: هذه أمتكم وهذا دينكم والله ربكم وخالقكم فاتقوه- إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ، ولا ريب أن لهذا الانتقال وهذا التغيير سراً بلاغياً وهو أنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويذكر قبيح فعلهم وسئ عملهم.

وهكذا تبين مما تقدم أن القرآن الكريم قد أكثر من هذا النوع ، وأن المفسرين كانت لهم عناية فائقة واهتمام كبير في إبراز هذا النوع والوقوف على أسراره البلاغية وأهدافه البيانية التي لا تنفد ولا يمكن حصرها.

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام أن في المثال الأول الوارد في هذا النوع قد جاء الالتفات فيه إلى اسم ظاهر وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾، أو غيره من الأمثلة مما تقدم أو مما لم يذكر ، ومن المعلوم أن الاسم الظاهر يعامل معاملة الغيبة.[2]

ومن خلال ما تقدم من صور الالتفات الأربع وأمثلته وأسراره البلاغية يتضح لنا

---

(١) انظر:ملاك التأويل للغرناطي(٢/ ٨٤٨)،تيسير الكريم الرحمن(٥/ ٣٥٦)، التحرير والتنوير (١٨/ ٧٠).

(٢) انظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص (١/ ٤٦٢).

أهمية الالتفات وقيمته البلاغية، ومدى عناية القرآن الكريم بهذا الفن واهتمام أهل التفسير به، وأنهم كانت لهم العناية الفائقة والاهتمام الكبير في إبراز هذا النوع والوقوف على أسراره البلاغية وأهدافه البيانية التي لا تنفد ولا تنحصر، وهو سر من أسرار الإعجاز القرآني العظيم.

وختاماً أود أن أشير إلى أنني إنما اقتصرت في دراستي هذه على الطرق الأربع ، نظراً لأن الالتفات بين الخطاب والتكلم بصورتيه لم يرد في القرآن الكريم على الصحيح، ولعل السبب في هذا لأن الالتفات في هاتين الصورتين مما يندر تحققه في لغة الكلام، وذلك للتباين التام بين موقفي الخطاب والتكلم لأنه لا يتصور أن يكون الشخص الواحد في آنٍ واحد مخاطباً متكلماً ، ولأن الصحيح أن من شرط تحقق الالتفات بين الضمائر اتحادها ، لعل هذا هو السر في عدم صحة ما ذكر من أمثلة لهاتين الصورتين وقلة ما ذكر في غيرهما ، وهذا هو التحقيق في هذه المسألة والله المستعان. [1]

(١)انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٥)، الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٥)، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص١٤٨ .

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيرًا أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به.

هذا وإن أسلوب الالتفات في القرآن الكريم جاء في أعلى المنازل البيانية وأرفع المراتب البلاغية،فهو أسلوب يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية،كما ينقله من أسلوب إلى أسلوب، فيكون أدخل في القلوب، وأخف على السمع،وأجلب للنشاط، وفي دلالته الدقة والقوة وجمال السبك، فهو أسلوب يهز النفوس ويؤثر في القلوب، وقد تنوعت أساليبه في كتاب الله واختلفت طرقه، وذلك لاختلاف المخاطبين واختلاف طبقاتهم ، ويمكن أن أوجز أبرز ما توصلت إليه في هذه الدراسة من نتائج في النقاط التالية:

- أن الالتفات بتراكيبه اللغوية واستعمالاته المختلفة لا يكاد يخرج عن معنى اللي والصرف عن الجهة المستقيمة وأن أكثر استعمالاته في الأشياء المحسوسة،ومنه انتقل هذا المفهوم إلى مفهوم الالتفات البلاغي وهو تحويل الضمير من سياق أصلي إلى سياق مغاير.
- أن الالتفات كان معروفاً في وقت مبكرٍ، وأن علماء اللغة والمعاني أولوه مزيد اهتمام لما له من أهمية في البلاغة العربية عموماً،والبلاغة القرآنية خصوصاً وإن لم يطلقوا عليه هذا اللفظ،لذا تعددت مصطلحاته، فقد يعبر عنه أحياناً بلفظ الصرف، أو التحويل، أو المجاز، أو مخالفة مقتضى الظاهر،أو شجاعة العربية.
- بناء على الاختلاف في تسميته اختلف علماء العربية والبلاغة في حده وضبطه على أقوال،كان أشهرُها قولين، **الأول** منهما: أن الالتفات تحويل الضمير من سياق أصلي كالغيبة مثلاً إلى سياق مغاير كالتكلم أو الخطاب. وهذا التعريف هو تعريف جمهور أهل اللغة والبلاغة، **والثاني**: أن الالتفات هو العدول عن أسلوب إلى أسلوب آخر مخالف للأول. وهذا التعريف أوسع دائرة من التعريف الأول

حيث إنه يشمل الالتفات في الضمائر وغيرها، وهو لطائفة من البلاغيين،وأن التعريف المختار هو التعريف الأول لأنه تعريف للمتقدمين من علماء البلاغة والمتأخرين.

وبناء عليه فقد قصرت دراستي هذه على التعريف المختار، وأن هذه الدراسة تناولت الالتفات بين الضمائر (التكلم والخطاب والغيبة)،

- أن الالتفات بين الضمائر يدور على ستة طرق كما هي القسمة من الناحية العقلية بالنظر إلى الضمائر الثلاثة التكلم والخطاب والغيبة،وقد حفلت به الآيات القرآنية، فهو أكثر الأساليب القرآنية تردداً، وأوسعها انتشاراً،بل إنك لتجد في الآية أكثر من التفات، مما يدل على أهميته، وأن هذا القرآن بلغ الغاية في البراعة، فهو معجز غاية الإعجاز.

وقد اقتصرت في دراستي هذه على أربع طرق،نظراً لأن الالتفات بين الخطاب والتكلم بصورتيه لم يرد في القرآن الكريم على الصحيح كما ذكره المحققون من أهل العلم ، وأما الطرق التي تناولتها الدراسة فهي على النحو التالي:

أولاً: الالتفات بين التكلم والغيبة،وقد شمل الالتفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة والعكس.

ثانياً: الالتفات بين الغيبة والخطاب، وقد شمل الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب والعكس.

وقد أظهرت هذه الدراسة مدى أهمية أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وموقف المفسرين في إبرازه وتجليته،وما حواه من أسرار بلاغية، ونكات بديعية، ولطائف خفية لا تنفد ولا تنحصر، فمن تدبر كتاب الله العظيم، وتأمل آياته وجد أنه قد حفل بذكره،وأن المفسرين كانت لهم العناية المتميزة والجهود المشكورة،وما قمت به من تجلية لمواقف المفسرين لهذا الفن ومن إبراز لهذه الأسرار قليل من كثير مما في كتاب الله ومما قام به علماء التفسير، وما ذكرت إنما هو أمثلة ونماذج، وأسرار

كتاب الله العظيم لا يمكن حصرها، وهو سرٌ من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، وختامًا أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن،عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي، ت عبدالقادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ.
٣- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية د/ حسن طبل.
٤- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، يوسف بن عبدالله بن عمر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٥- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٦- الأعلام،خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.
٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ.
٨- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب محمد بن القاضي سعد الدين القزويني، تعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، ط٥، ١٤٠٠هـ.
٩- البحر المحيط، أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ.
١٠- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
١١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٢- البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر الزركشي، ت محمد أبوالفضل إبراهيم، نشر: رئاسة البحوث العلمية - السعودية، ط٣، ١٤٠٠هـ.
١٣- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، عبد الرحمن السيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت .
١٤- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، صديق حسن خان ، لا توجد معلومات
١٥- تاريخ بغداد، أحمد بن علي البغدادي، دار الكتاب العربي لبنان ، بيروت.
١٦- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.
١٧- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا،دار الفكر، بيروت لبنان.
١٨ - التفسير الكبير ، محمد بن عمر الرازي،دار إحياء التراث، لبنان.
١٩- التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ .
٢٠- تهذيب اللغة، أبومنصور الأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت محمد زهري النجار، طبع:إدارات البحوث العلمية،الرياض،١٤٠٤هـ.
٢٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ.
٢٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكتب الحديثة بمصر.
٢٤- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الشهاب محمود بن عبدالله الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ.
٢٥- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤٠٦هـ.

٢٦- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.
٢٧- صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.
٢٨- طبقات المفسرين، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢٩- طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٠- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، تدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١، ١٤١٥هـ.
٣١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة المعارف، الرياض.
٣٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان العجيلي الشهير بالجمل، نشر: دار إحياء الكتب العلمية بمصر.
٣٣- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ت مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م
٣٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٣٥- لباب التفسير في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، الشهير بالخازن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ.
٣٦- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ.
٣٧- المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، ضياء الدين محمد بن محمد ابن

عبدالكريم بن الأثير ،ت د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة ، نشر: دار الرفاعي بالرياض ط٢، ١٤٠٣هـ.
٣٨- مجاز القرآن، أبو عبيدة، معمر بن المثنى، تعليق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٣٩- معاني القرآن، الأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي، عالم الكتب، لبنان.
٤٠ - معاني القرآن، الفراء، يحيى بن زياد، ت: أحمد نجاتي، محمد النجار.
٤١- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٤٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.
٤٣- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان
٤٤- معجم المفسرين، عادل نويهض، م نويهض الثقافية، لبنان، ١٤٠٩هـ.
٤٥- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.
٤٦- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت، عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
٤٧- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبطه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٤٨- مواهب الفتاح ، ابن يعقوب المغربي(ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
٤٩-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.
٥٠- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا

البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
٥١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

علم المبهمات

قسم القرآن وعلومه، مرحلة الماجستير

د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العام الدراسي ١٤٣١_١٤٣٢هـ

علم المبهمات

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن أشرف العلوم التي ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بها هو علم كتاب الله تعالى , وما كان متصلاً به , وإن من أجل علومه وأشرفها علم معرفة ما جاء مبهماً, مما لم يسمه الله باسمه , أولم يحدده بعدده أو زمنه أو مكانه , فبهذا العلم يُكشف الإبهام , و به يزول الغموض , ولقد اعتنى علماء سلف هذه الأمة وخلفها به وصنفوا فيه المؤلفات المتعددة , وجمعوا مادته من المصادر المعتمدة , خدمة لهذا الكتاب العزيز، وهذا الموضوع الذي بين يديك يتطلب عرض المحاور التالية:

-المؤلفات في علم المبهمات.

-أهمية دراسة علم المبهمات.

- تعريف المبهمات.

- نشأة علم المبهمات.

- فائدة علم المبهمات وأثره في التفسير.

- أقسام المبهمات.

- أسباب المبهمات.

أولاً:أهم المؤلفات في علم المبهمات :

إن أول ما وصل إلينا من المصنفات في علم المبهمات هو كتاب[التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام] لعبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي الأندلسي السهيلي (ت٥٨١هـ)، بتحقيق عبد الله محمد النقراط ، وقد أودع في كتابه مبهمات القرآن , وذكرها بشيء من الإيجاز والإجمال , ولم يتناول مبهمات جميع سور القرآن , بل أغفل مبهمات تسع وعشرين سورة .

ويبقى للسهيلي فضلُ السبق في الكتابة في هذا العلم , ولا يُعرف قبله عالم أفرده بمصنف خاص ، وقد ذكر الزركلي في الأعلام :أن للسهيلي كتاباً آخر في المبهمات اسمه: [الإيضاح والتبيين لما أُبهم من تفسير الكتاب المبين].

بعد ذلك جاء أبو عبد الله ابن عسكر محمد بن علي الغسّاني الأندلسي (ت٦٣٦هـ) وألّف كتابه:[التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام] ، وهو تذييل على كتاب السهيلي , واستدراك لما فاته من مبهمات ، وقد ذكر أن الغرض من تأليف هذا الكتاب هو إتمام الفائدة بذكر ما لم يذكره السهيلي .

وفي القرن السابع أيضاً ألّف ابن فرتون : أحمد بن يوسف السلمي (ت ٦٦٠هـ) كتابه [الاستدراك والإتمام للتعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام] . ويتضح من عنوان الكتاب أنه استدراك من المؤلف على كتاب السهيلي أيضاً . ثم جاء بدر الدين ابن جماعة : محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي (ت ٧٣٣هـ) وألف كتابين في مبهمات القرآن :

الأول : كتاب [التبيان لمبهمات القرآن]، ويذكر المحققون أنهم لم يقفوا عليه لا مخطوطاً ولا مطبوعاً، ولعله كان ضمن الكتب المفقودة.

الثاني : كتاب [غرر البيان لمبهمات القرآن] وقد أشار في مقدمته إلى كتابه الأول , وبين أنه مختصر منه , يقول في مقدمته : " وهذا كتاب اختصرت فحواه من كتاب سبق لي في معناه "

ثم جاء البَلَنسي : أبو عبد الله محمد بن علي المغربي (ت٧٨٢هـ) فصنف كتاب [صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل]

وقد جمع في كتابه بين كتابي السهيلي وابن عسكر , كما ينقل من مبهمات ابن جماعة. وممن صنف فيه أيضاً : الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) وقد سمى كتابه [الإحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام] وقد ذكر الباحثون أنه لا يزال مخطوطاً، ثم جاء السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ) فألّف كتاباً في مبهمات

القرآن سماه [مفحمات الأقران في مبهمات القرآن] لكنه لم يبين جميع الآيات المبهمة في القرآن رغم أنه ذكر في مقدمته أن كتابه يفوق الكتب السابقة، فقال: " فإن من علوم القرآن التي يجب الاعتناء بها معرفة مبهماته وقد هتف ابن العساكر بكتابه المسمى بـ [التكميل والإتمام] ،وجمع القاضي بينهما القاضي بدر الدين ابن جماعة في كتاب سماه [التبيان في مبهمات القرآن]، وهذا كتاب يفوق الكتب الثلاثة بما حوى من الفوائد والزوائد وحسن الإيجاز وعزو كل القول إلى من قاله مخرجا من كتب الحديث والتفاسير المسندة فإن ذلك أدعى لقبوله وأقع في النفس ، فإن لم أقف عليه مسندا عزوته إلى قائله من المفسرين والعلماء وقد سميته [مفحمات الأقران في مبهمات القرآن] أهـ.

وألف الشيخ بُحَرَق : محمد بن عمر الحضرمي (ت٩٣٠هـ) كتاباً اختصر فيه كتاب السهيلي :التعريف والإعلام , وسماه [تلخيص التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام] والكتاب بتحقيق د. جميل عبد الله عويضة.

كما ألّف الأدكاوي : عبد الله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوي (ت١١٨٤هـ) كتاباً في المبهمات سماه [ترويح أولي الدماثة بمنتقى الكتب الثلاثة] جمع فيه بين كتاب السهيلي وكتاب ابن عسكر وكتاب البلنسي , وانتقى من فوائد هذه الكتب الثلاثة ما رآه مناسباً , ولم يضف إليها شيئاً , والكتاب بتحقيق: مروان العطية – محسن خرابه

ومن الكتب المؤلفة في موضوع المبهمات في العصر الحديث:[مباحث في مبهمات القرآن الكريم] د. عبد الجواد خلف جمع ما كتبه جهابذة هذا العلم كالسهيلي وابن عسكر وابن جماعة و البلنسي والسيوطي , كما اعتنى بشرح المبهم لغوياً , واستنبط لكل مبهم سبب إبهامه معتمداً في ذلك على أمهات كتب التفسير بالمأثور , وهو مطبوع في ثمانية أجزاء.
ومن المؤلفات المعاصرة أيضاً: علم مبهمات الأسماء والأعلام في الكتاب والسنة : مقاربة منهجية ودراسة وصفية لحسين أجاك.
مبهمات الأماكن الوارده في القرآن الكريم دراسة وتحليل ، محمود مصطفى الشنقيطي

الأعلام المبهمة في القرآن ، وداد أحمد الحاج حامد.

ثانياً: أهمية دراسة علم المبهمات.

علم المبهمات علم شريف اعتنى به السلف كثيراً , وأكبر شاهد على ذلك اهتمام صدر هذه الأمة بالبحث عنه من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين , بل اعتبروا أن الاعتناء به هو غاية العلم والفضل والشرف , وذلك أن هذا العلم من أخص علوم القرآن بالقرآن , ولم يمنعهم عن ذلك مانع زماني أو مكاني . ومما يدل على عنايتهم بهذا العلم سؤال ابن عباس عمر بن الخطاب – رضي الله عنهم – وبحثه سنة كاملة عن اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:" مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له , حتى خرج حاجّاً فخرجت معه , فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له , فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه ؟! فقال: تلك حفصة وعائشة , قال : فقلت : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك --- الحديث " وكذلك ما جاء عن عكرمة مولى ابن عباس ، وقيل: عن ابن عباس أنه قال :" طلبت اسم الرجل الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة حتى وجدته ". فهذا دليل على شرف هذا العلم قديماً .

قال السهيلي بعد أن ذكر حديث ابن عباس:" فهذا أوضح دليل على اعتنائهم بهذا العلم ونفاسته عندهم" .

ويرى البَلَنسي (ت٧٨٢هـ) وقبله السهيلي : أنه إذا كان الأدباء يتدارسون علم ما أبهم من أسماء الشعراء , فكذلك أهل كل صناعة يعنون بأسماء أهل صناعتهم , فالقارئون لكتاب الله أولى أن يتنافسوا في معرفة ما أُبهم فيه .

من هنا يتبين حرص السلف والعلماء بهذا العلم , وحرصهم على معرفته وجمعه وإن لحقهم بذلك المشاق من سفر ونحوه , واهتمام العلماء لم يقف عند حد الجمع , بل تعدى ذلك إلى

الكتابة فيه كنوع من أنواع علوم القرآن كما فعل الزركشي في البرهان في النوع السادس ، والسيوطي في الإتقان في النوع السبعين, بل قد أفردوه –كما تقدم – بتآليف خاصة به مما يدل على حرصهم عليه .

ثالثاً:تعريف المبهمات :

المبهمات لغة جمع مبهم ، والمبهم: اسم مفعول مشتق من الإبهام وهو الخفاء , يُقال : ليل بَهِيم , لخفاء ما فيه من الرؤية , وكلام مبهم غير واضح ، وسميت البهيمة بذلك لإبهامها وعدم إفصاحها بالكلام.

وأما تعريفها اصطلاحاً :

فقد عرفها السهيلي (ت٥٨١هـ) في كتابه التعريف والإعلام بقوله " ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذكر من لم يسمه الله فيه باسمه العَلَم, من نبي أو ولي أو غيرهما , أو من آدمي أو ملك , أو بلد أو كوكب أو شجر , أو حيوان له اسم عَلَم , وقد عُرف عند نقلة الأخبار , والعلماء الأخيار " .

وزاد ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) في كتابه غرر البيبان على تعريف السهيلي : " أوعدد لم يُحدد , أو زمن لم يُبين , أو مكان لم يُعرف وغيرها ".

وعليه يكون المبهم هو : ما لم يُنص على ذكره باسمه العَلَم أو عدده أو زمانه أو مكانه.

فمثال العَلَم المبهم: قوله تعالى:{ علمه شديد القوى }،فالضمير في " علمه " المراد به جبريل عليه السلام.

ومثال العدد المبهم : قوله تعالى: { أما السفينة فكانت لمساكين} قيل:كان عددهم سبعة.
ومثال الزمن المبهم :قوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة }،المراد بهذه الليلة : هي ليلة القدر.

ومثال المكان المبهم : قوله تعالى:{ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها }، والمراد بها بلد نبي الله يونس عليه السلام نينوى.

رابعاً: نشأة علم المبهمات :

مما سبق يتبين أن علم المبهمات علم قديم, وأن الصحابة والتابعين من بعدهم هم من وضع أسس هذا العلم , حيث قاموا بجمعه والوقوف عليه والعناية به , ثم أتى من بعدهم من العلماء وانتقل أمر العناية بهذا العلم إليهم , لكنه أخذ منحى آخر وهو التأليف فيه , وإفراده بمصنفات خاصة تُعنى به.

خامساً: فائدته وأثره في التفسير:

قال السيوطي في مقدمة مفحمات الأقران في مبهمات القرآن:" ومرجع هذا العلم والعمدة فيه هو النقل المحض , ولا مجال للرأي فيه ، فلا سبيل إلى معرفة المبهم في القرآن إلا بالرجوع إلى القرآن نفسه الذي قد يبينه في موضع آخر , أو بالرجوع إلى قول النبي ﷺ , أو بما أُثر عن الصحابة , أو عن التابعين الآخذين عن الصحابة" أهـ.

فأهميته تبرز باعتباره علماً من علوم الكتاب العزيز ، ونوعاً من أنواع التفسير،بل هو أخص أنواع تفسير القرآن بالقرآن , وأخص أنواع تفسير القرآن بالسنة , وأخص أنواع تفسير القرآن بالمأثور، كما أن معرفة المبهم والوقوف عليه من وسائل التدبر الذي أمر به، وفيه شحذ للهمم،وتحفيز للعقل البشري على التفكير في هذا المبهم بواسطة القرائن الواردة في النص القرآني ، وليجعل النص متحركا غير جامد ، قابلا للتطبيق في كل زمان ومكان.

كما أن البحث فيه يعد طريقاً إلى العلم بالمسبب ،فإذا عرف السبب عرف المسبب ، فمعرفة المبهم طريق قوي في فهم معاني القرآن الكريم، كما أن معرفة المبهم قد تكون من وسائل الترجيح بين أقوال المفسرين، وأحياناً تكون سبيلاً إلى بيان فضائل ومناقب المبهمين أو بيان

مثالبهم، إلى غير ذلك من الفوائد والآثار، فإذا كان بهذه المكانة فلا غرو أن يكون محل اهتمام وعناية من أهل العلم ، ولذا اهتم به العلماء تأليفاً في وقت مبكر .

ولتتضح الصورة في معرفة الغرض من ورود المبهمات في القرآن الكريم وليكون الكلام فيه جلياً لابد من الوقوف على أقسام المبهمات وأسبابها مع بيانها بالأمثلة :

سادساً: أقسام المبهمات :

١-مبهمات يجوز البحث عنها , ومعرفة حقيقتها , واستنباط حكمة إبهامها ، وبيان أوجه الغرض منها كما تقدم.
٢-مبهمات لا يجوز البحث عنها , ويجب التوقف عندها, وعدم الخوض فيها , وهي كل مبهم جاء فيه نص من الله تعالى بالمنع من البحث فيه مما استأثره الله تعالى بعلمه.
يقول الزركشي في البرهان :" لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره في علمه,كقوله تعالى :{ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم } الأنفال (٦٠).

سابعاً: أسباب المبهمات :

أسباب المبهمات في القرآن كثيرة ، والمتتبع لمواضع الآيات التي ورد فيها الإبهام يخرج بأسباب كثيرة ومتعددة ، ويُعتبر الزركشي أول من بحث في أسباب ورود الإبهام في القرآن في كتابه البرهان , فذكر لذلك سبعة أسباب, مع التمثيل لكل سبب منها , وتبعه في ذلك السيوطي في الإتقان وفي مفحمات الأقران، ومن هذه الأسباب:

١-أن يبهم الأمر في موضعٍ استغناءً ببيانه في موضع آخر ،وهو نوع من تفسير القرآن بالقرآن ، مثال ذلك قوله تعالى:{صراط الذين أنعمت عليهم }، فالمنعم عليهم هنا مبهمون , ولكن بينهم الله تعالى في آية النساء بقوله:{فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين }.
ومثله قوله تعالى:{ويجعلون لله ما يكرهون}، أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة هذا الذي يجعلونه لله ويكرهونه؛ لأنه عبر عنه بـ {ما} الموصولة، وهي اسم مبهم، وصلة الموصول لن

تبين من وصف هذا المبهم إلا أنهم يكرهونه. ولكنه بين في مواضع أخر، أنه البنات والشركاء وجعل المال الذي خلق لغيره، قال في البنات:{ويجعلون لله البنات}، وقال في الشركاء: {وجعلوا لله شركاء...}، ونحوها من الآيات، وبين جعلهم بعض ما خلق الله من الرزق للأوثان في قوله:{ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا} وقوله: {ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم}.

وكذلك يبهم الأمر في موضعٍ استغناءً ببيانه في السنة الصحيحة، وهو نوع من تفسير القرآن بالسنة ، مثال ذلك قوله تعالى:{ غير المغضوب عليهم ولا الضالين}، بينته السنة بأنهم اليهود والنصارى. والأمثلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى.

٢-أن يبهم الأمر لاشتهاره وعدم الحاجة إلى توضيحه، مثال ذلك قوله تعالى: { وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة }،فلم يذكر تعالى اسم زوجته (حواء) لشهرة تعينها ؛ لأنه ليس له زوجة غيرها .

٣- أن يبهم لقصد الستر عليه , ليكون أبلغ في استعطافه، مثال ذلك قوله تعالى:{ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام} .

قال المفسرون: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ,وكان قد أظهر الإسلام عند النبي ﷺ وهرب , ومرّ بزرع لقوم من المسلمين وبحمر , فأحرق الزرع , وعقر الحمر , ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

٤- أن يبهم الأمر للتنبيه على عمومه , و أنه غير خاص بمن ورد فيه الإبهام ، مثال ذلك : قوله تعالى { ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله }، قيل : إنها نزلت في ضمرة بن العيص , كان من المستضعفين بمكة , وكان شيخاً كبيراً , فلما نزلت آية الهجرة خرج من مكة فمات بالتنعيم , فإبهام الاسم في هذا الموضع لإفادة عموم الأجر لكل من نوى الهجرة فمات دون أن يبلغ ما هاجر إليه .

٥- أن يبهم الأمر لقصد تعظيمه بذكر الوصف الكامل له دون اسمه ،مثال ذلك : قوله تعالى { إذ يقول لصاحبه }،وقوله { ولا يأتل أولوا الفضل منكم }،وقوله { والذي جاء بالصدق وصدق به }، وقوله { وسيجنبها الأتقى }، والمراد بهذه الآيات هو أبو بكر الصديق , وإنما أُبهم اسمه تعظيماً له .

٦-أن يبهم الأمر لقصد تحقيره بذكر الوصف الناقص له دون اسمه، مثال ذلك : قوله تعالى { إن شانئك هو الأبتر }، والمراد به كما ذكره المفسرون هو:العاص بن وائل السهمي.

٧-أن يبهم الأمر حيث لا فائدة في تعيينه , وغالب أمثلة الإبهام ناشئة من هذا السبب .

مثال ذلك : قوله تعالى { أو كالذي مرّ على قرية }،والمراد بالقرية : بيت المقدس، ومثله قوله تعالى:{وإذا قتلتم نفسا فادارأتم فيها} فاسم القتيل عاميل ، قوله تعالى:{وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر }، اسم المرأة : اشياع بنت فاقود ، وقوله تعالى:{ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق}، هما: قابيل وهابيل ، وقوله تعالى:{ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها }. هو بلعام بن باعورا. وقوله تعالى:{وإذ قال موسى لفتاه }،اسم الفتى هو: يوشع بن نون، وقوله تعالى:{فوجدا عبدا من عبادنا}،اسم العبد هو الخضر ، وقوله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله أمرا }، المؤمن عبدالله بن جحش، والمؤمنة هي أخته : زينب بنت جحش.

فهذه الأنواع المتقدمة أو غيرها طلب بيان ما فيها من الإبهام والكشف عنه من الأمور المرغب فيها وإيرادها لشحذ الهمم للبحث والنظر والتأمل، وهو من أوجه التفسير كما تقدم في بيان الحكم والفوائد في إيرادها في كتاب الله ، عدا النوع السابع والأخير وعليه أغلب الأمثلة مما أبهمه الله تعالى لعدم تعلق فائدة به، مثل: أسماء الأشخاص أو تحديد الأعداد ،أو الألوان، واسم الأماكن والقرى ، ونحو ذلك ، وهو مما يكثر وروده في قصص القرآن، مما طوى القرآن تعيينه، وتعد من ملح العلم فالبحث وراءه مما لا طائل تحته، فهذا كما قال ابن

جرير الطبري عند تفسير نوع الشجرة التي أكل منها آدم : " علمٌ إذا عُلم لم ينفع العالم به , وإن جهله جاهل لم يضره جهله به " .

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير بعد أن ذكر أقسام الاختلاف في التفسير : " وهذا القسم الثاني من المنقول , وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه , فالبحث عنه مما لا فائدة فيه , والكلام فيه من فضول الكلام , وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فقد نصب الله على الحق فيه دليلاً , فمثال ما لا يفيد و لا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف , وفي البعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة , وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها "

وقال السعدي في تفسيره قوله تعالى:{وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى }:" وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها ".

والخلاصة أن علم المبهمات من أجل العلوم وأشرفها، لأن معرفة ما جاء مبهماً, وكان له سبب من الأسباب السالف ذكرها، فبهذا العلم يُكشف الإبهام , يزول الغموض , وأكبر شاهد على ذلك عناية سلف هذه الأمة وخلفها وكثرة المصنفات فيه ولأن مرجع هذا العلم والعمدة فيه وهو ما ذكر السيوطي هو النقل المحض , ولا مجال للرأي فيه، فلا سبيل إلى معرفة المبهم في القرآن إلا بالرجوع إلى القرآن , أو بالرجوع إلى السنة , أو بما أُثر عن الصحابة , أو التابعين الآخذين عن الصحابة، وأما ما سوى ذلك مما لا أثر له في التفسير

وفهم الآيات , أو يكون البحث فيه من التكلف والعبث أو لا فائدة فيه , والكلام فيه من فضول الكلام ولم يدل الدليل الصحيح للجزم بصدقه كمعرفة الأسماء أو الأعداد أو الأماكن ونحوها مما لا طائل تحته ولا ينتفع العلم به ولا يضر الجهل به فالحق تركه وعدم التعرض له، والله أعلم .

مقدمات حول سورة الفاتحة

جمعها وكتبها

أ.د. يوسف بن عبد العزيز الشبل

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٤١هـ

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه،
وبعد، فهذه مقدمة حول التعريف بسورة الفاتحة تقرب للقارئ ما اشتملت عليه السورة من معاني وفضائل وأحكام بإيجاز، والله المعين وعليه التكلان.

أولًا: أسماؤها:

لسورة الفاتحة أسماء كثيرة ذكرها العلماء في كتبهم منهم الإمام الرازي والقرطبي والسيوطي وغيرهم، حيث تدل كثرة الأسماء على شرف المسمَّى ومكانته. وأشهر أسمائها الفاتحة، والفاتحة في اللغة: مشتقة من الفتح وهو نقيض الإغلاق، وفاتحة الشيء أوله، وفواتح السور هي أوائله. وتسمى فاتحة الكتاب وفاتحة القرآن. ولها أسماء أخرى بعضها أسماء توقيفية وبعضها اجتهادية، ومن أسمائها:

أولًا: فاتحة الكتاب: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: " هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته " رواه مسلم في صحيحه. وسميت بذلك: لأنه يفتتح بها في المصحف والتعليم، والقراءة في الصلاة.

ثانيًا: أم القرآن أو أم الكتاب: روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاج – ثلاثاً – غير تمام»، رواه مسلم في صحيحه. ويعود سبب تسميتها إلى: أن أم الشيء أصله والمقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة: الإلهيات، المعاد، النبوات، إثبات القضاء والقدر لله، وهذه السورة اشتملت على هذه الأمور الأربعة، ولهذا لقبت بأم القرآن لاشتمالها على الأمور الأربعة، فهي أصل القرآن.

ثالثًا: السبع المثاني: قال تعالى:(وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ)، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ القرآن، فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه الترمذي والنسائي وأحمد بسند صحيح.

وسبب تسميتها بالسبع لأنها سبع آيات. أما سبب تسميتها بالمثاني فهناك عدة وجوه: فقيل لأنها تُقرأ في الصلاة فتثنى في كل ركعة، وقيل لأن الله أنزلها مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة.

رابعًا: القرآن العظيم: جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ القرآن فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه الترمذي والنسائي وأحمد بسند صحيح. سميت بذلك: لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله تعالى بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم.

خامسًا: الصلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد: {الحمد لله رب العالمين}، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرحمن الرحيم}، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: {مالك يوم الدين}، قال: مجدني عبدي، فإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين}، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين}، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. سميت بالصلاة، لأنها لا تصح إلا بها كقوله صلى الله عليه وسلم:" الحج عرفة " ففيه دليل على وجوبها بعينها في الصلاة.

سادسًا: سورة الحمد: عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: " ألم يقل الله: {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} [الأنفال: ٢٤]. ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: «ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن»، قال: {الحمد لله رب العالمين} «هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»، رواه البخاري في صحيحه. وإنما سميت بالحمد؛ لافتتاحها بلفظ الحمد.

وغير ذلك من الأسماء أو الأوصاف الواردة فيها، قال السيوطي في الإتقان: (وقد وقفت لها على نيف وعشرين اسمًا وذلك يدل على شرفها، فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى).

ثانيًا: عدد آياتها:

جمهور أهل العلم من القراء والمفسرين أن آيات سورة الفاتحة سبع، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري حيث قال إنهن ثمان آيات، ونُسِب أيضًا لعمرو بن عبيد وإلى الحسين الجعفي قولهما إنهن ست آيات. واستدل الجمهور على أن السورة سبع آيات بحديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»، رواه البخاري.

أما تحديد الآيات السبع فهو ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عز وجل قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد الحمد لله رب العالمين فأقول حمدني عبدي، فإذا قال العبد الرحمن الرحيم يقول الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد ملك يوم الدين، قال الله مجدني عبدي، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل». رواه مسلم. سبب اختلاف عد الآيات هو أن أهل مكة والكوفة يعدون البسملة آية من الفاتحة، وقالوا إن قوله (صِراط الَّذِين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ هي آية تامة، وذهب إلى ذلك الشافعية. أما أهل المدينة والبصرة والشام فلم يعدوا البسملة آية من الفاتحة، وقالوا: إن قوله ﴿صراط الَّذِين أَنعمتَ عليهم﴾ آية، وقوله ﴿غير المغضوبِ عليهِم ولا الضالِّين﴾ آية، وذهب إلى ذلك الأحناف. ذكر ابن قدامة في المغني، والنووي في المجموع، وابن حزم في المحلى أن الشافعي وابن المبارك وأحمد في رواية عنه جعلوا البسملة آية مستقلة في الفاتحة، ولا تصح الصلاة دونها، ورجح هذا المذهب النووي وابن حزم. ومن أوضح حجج هذا المذهب حديث الدارقطني والبيهقي: إذا قرأتم الحمد لله، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها. وصححه بعضهم، وقيل موقوف على الصحابي.

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية ذكرها ابن قدامة في المغني إلى أن البسملة ليست آية مستقلة في الفاتحة، ومن أوضح ما احتجوا به ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأوا يقول العبد الحمد للهِ رب العَالمين، يقول اللهُ عز وجل: حمدني عبدي). وقد بدأ الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، ولم يذكر البسملة، ويضاف إلى ذلك ما استفاض من عدم جهر الرسول وخلفائه بها في الصلاة، فقد روى أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمَان، فكانوا يستفتحون بالحَمد لله رب العالمين، لاَ يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها.

فالبسملة في الفاتحة قد وقع في عدها من الفاتحة خلاف بين العلماء يرجع إلى ما حفظه وتلقاه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله وعليه وسلم يقف في قراءته غالبًا عند رؤوس الآي، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتعلمون منه، وبهذا عرفوا رؤوس الآي، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يقف أحيانًا على غير رأس الآية لبيان الجواز، فيظن بعض الصحابة ممن لم يسمعوا النبي صلى الله عليه وسلم وقف على رأس الآية سابقًا أن هذه الكلمة التي وقف عليها هي رأس الآية، هذا هو السبب، وهناك سبب آخر أشار إليه الزركشي في البرهان، وهو اختلاف العلماء في عد بسم الله الرحمن الرحيم حيث اختلفوا فيها أهي آية أم ليست آية. وهذا السبب لا يعم كل ما وقع فيه خلاف». أما الحسن البصري فقد عد البسملة آية وعد أنعمت عليهم آية فصارت بذلك ثمان آيات.

ثالثًا: زمن نزولها:

اختلف العلماء في ذكر زمن نزول سورة الفاتحة، فقال أكثر العلماء إنها نزلت بمكة، وقال بعضهم، ومنهم ومجاهد والزهري وغيرهم إنها بالمدينة، وقيل إن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر بالمدينة، وقيل: إنها نزلت مرتين: مرة بمكة حين فرضت الصلاة، ومرة بالمدينة حين حولت القبلة فصارت مكية مدنية. والأصح أنها مكية ومن أوائل ما نزل بمكة لما جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم أم القرآن فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي

السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه الترمذي والنسائي وأحمد بسند صحيح.
وسورة الحجر مكية بلا خلاف بين العلماء، كما أن الرسول قام بمكة بضع عشرة سنة فكان يصلي صلاته بفاتحة الكتاب.

رابعًا: فضلها:

جاء في فضل سورة الفاتحة أحاديث منها:

١-أنها أعظم سورة في القرآن الكريم، روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه أنه قال: «كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجب حتى صليت، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتي، فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: يا أَيها الَذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إِذا دعاكم لما يحيِيكم، ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له يا رسول الله: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

٢-أنها شفاء ورقية يُرقى بها، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: «كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفَرَنا غَيْبٌ فهل منكم راقٍ، فقام معها رجل ما كنا نأْبَنُهُ برقية، فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنًا فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو ترقي، قال: لا، ما رقيتُ إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئًا حتى نأتي ونسأل رسول الله فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: وما كان يدريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم». ومعنى "نفرنا غيب: رجالنا غائبون"، و"نأبنه برقيه، نعلم أنه يرقي".

٣-أن الصلاة لا تصح إلا بها، فسورة الفاتحة ركن من أركان الصلاة، فالصلاة لا تصح إذا لم تُقرأ الفاتحة فيها على الرأي الراجح عند جمهور العلماء، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، متفق عليه، وعن أبي هريرة عن النبي قال: «من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثاً- غير تمام»، رواه مسلم.

٤- أنها تسمى الصلاة لكون الصلاة لا تصح إلا بها، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله يقول: "قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: مجدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل".

٥- أنها نور، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: " هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته "، رواه مسلم. والنقيض الصوت.

٦-أنها أعظم ما أنزل الله على نبي من الأنبياء، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ القرآن فقال رسول الله: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وأحمد في المسند، وهو صحيح.

خامسًا: مقصد سورة الفاتحة ومحورها:

حوت معاني القرآن العظيم واشتملت على مقاصده الأساسية إجمالًا، فتناولت أصول الدين وفروعه، العقيدة، العبادة، التشريع.

الإيمان باليوم الآخر والإيمان بصفات الله الحسنى وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقة والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه وغير ذلك من المقاصد والأهداف فهي كالأم بالنسبة لباقي السور الكريمة ولهذا تسمى بأم الكتاب.

فمحور سورة الفاتحة تقرير العقيدة والعبادة ومنهج الحياة.
العقيدة في: (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين).
العبادة في: (إياك نعبد وإياك نستعين).
منهج الحياة في: (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضآلين). فكل ما يأتي في كل سور وآيات القرآن هو شرح لهذه المحاور الثلاث.
يقول ابن القيم في كتابه الفوائد: (فأوّل السُّورَة رَحْمَة وأوسطها هِدَايَة وَآخِرهَا نعْمَة وحظ العَبْد من النِّعْمَة على قدر حظّه من الْهِدَايَة وحظّه مِنْهَا على قدر حظّه من الرَّحْمَة فَعَاد الْأَمر كلّه إِلَى نعْمَته وَرَحمته وَالنعْمَة وَالرَّحْمَة من لَوَازِم ربوبيّته فَلَا يكون إِلَّا رحِيما منعما وَذَلِكَ من مُوجبَات إلهيّته فَهُوَ الْإِلَه الْحق).

سادسًا: أغراض سورة الفاتحة:

اشتملت السورة على أغراض عدة، تحدث عنها بعض المفسرين وهي:
١-حمد الله تعالى وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليّة، وتنزيهه عن جميع النقائص.
٢-إثبات البعث والجزاء.
٣-إفراده بالعبادة والاستعانة.
٤-التوجه إليه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، والتضرع إليه بتثبيتهم على الصراط المستقيم.
٥-الإخبار عن قصص الأمم السابقين.
كما اشتملت السورة على الترغيب في الأعمال الصالحة. وهي تُذكِّر بأساسيات الدين: شكر نعم الله في قوله (الحمد لله)، والإخلاص لله في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين)، والصحبة الصالحة في قوله (صراط الذين أنعمت عليهم)، وتذكر أسماء الله الحسنى وصفاته في قوله (الرحمن الرحيم)، والاستقامة في قوله (اهدنا الصراط المستقيم)، الآخرة في قوله (مالك يوم الدين)، بالإضافة لأهمية الدعاء في قوله (نعبد، نستعين).
قال البقاعي: «إن سورة الفاتحة جامعة لجميع ما في القرآن، فالآيات الثلاث الأُول شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلى، فكل ما في القرآن من ذلك فهو مفصل

من جوامعها، والآيات الثلاث الأُخر من قوله: (اهدنا) شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله، والتحيز إلى رحمته، والانقطاع دون ذلك، فكل ما في القرآن فمن تفصيل جوامع هذه، وكل ما يكون وصلة بين ما ظاهره من الخلق ومبدؤه وقيامه من الحق فمفصل من آية إياك نعبد وإياك نستعين».

وذكر ابن القيم أن السورة اشتملت على الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، كما بينت منازل السائرين، ومقامات العارفين، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها، ولذلك لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل مثلها. وقد فصل الشيخ عبد الرحمن السعدي في بيان موضوعاتها في تفسيره.

خامسًا: مسائل فقهية متعلقة بسورة الفاتحة:

المسألة الأولى: قراءة الفاتحة في الصلاة:

قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة ركن من أركانها لابد من الإتيان به، سواء أكانت صلاة فرضًا أم نفلًا، سرًا أم جهرًا، وسواء أكان المصلي إمامًا أم مأمومًا أم منفردًا، فلا تصح الصلاة بدونها مع القدرة عليها؛ لأن ذلك شرط في صحتها، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد، إلا أبا حنيفة فذهب إلى أن الصلاة تجزئ بقراءة ما تيسر من القرآن؛ آية طويلة، أو ثلاث آيات قصار، أو سورة قصيرة.

واستدل الجمهور على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة بأحاديث؛ منها:

١- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» متفق عليه. وهو عام في كل صلاة من غير استثناء.

٢- عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب» رواه ابن خزيمة وابن حبان وأبو حاتم. وهو عام أيضا.

٣- وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، يقولها ثلاثًا» رواه مسلم. وغيرها من الأدلة. وخداج ناقصة غير تامة.

وأما أبو حنيفة ومن وافقه فاستدلوا بقوله تعالى: "فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ" [المزمل: ٢٠] وبحديث المسيء في صلاته، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «ثم اقرأ ما تيسر من

القرآن» رواه البخاري ومسلم.

والجواب عن ذلك أن المراد بالقراءة في الآية هو تلاوة القرآن بعد الفاتحة بما يتيسر منه، وذلك في صلاة التهجد، كما يدل عليه أول الآية: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ" [المزمل: ٢٠]، وأما حديث المسيء في صلاته، فهو يشير أيضًا إلى القراءة بعد الفاتحة بما يتيسر من القرآن، ويوضحه ويفسره الرواية الأخرى للحديث: «ثم اقرأ بأم القرآن».

حكم من لم يحفظ الفاتحة:

إذا تبين أن قراءة الفاتحة ركن ولا تصح الصلاة بدونها، وكان المصلي لا يحسنها، ويحسن سبع آيات غيرها من القرآن كان عليه أن يقرأها، وإن كان غير عربي ولم يحفظ شيئًا من القرآن كان له أن يذكر الله تعالى قدر الفاتحة بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير. لحديث رفاعة بن رافع رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم علّم رجلًا الصلاة فقال: «إن كان معك قرآن فاقرأ، وإلا فاحمده وكبره وهلله ثم اركع» رواه أبو داود والترمذي.

المسالة الثانية: هل يلزم المأموم الذي خلف الإمام قراءة الفاتحة؟

ذهب الشافعي وأحمد إلى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، وأن صلاته لا تصح بدونها، مستدلًا بحديث عبادة بن الصامت السابق: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وذهب مالك إلى أن المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة السرية كالظهر والعصر، دون الجهرية لحديث عبادة السابق، وإن تركها في السرية فلا شيء عليه، وأما الجهرية فلا يقرأ فيها لوجوب الاستماع إلى الإمام وهو يقرأ، لقوله تعالى: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" [الأعراف: ٢٠٤].

وذهب أبو حنيفة إلى أن المأموم لا يقرأ شيئًا في الصلاة السرية، ولا في الصلاة الجهرية أخذًا من الآية السابقة، ولحديث جابر: «من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له». رواه ابن ماجه وأحمد. وقد ضعفه أهل العلم.

أما إذا أدرك المأموم الإمام حال ركوعه فقراءة الفاتحة في هذه الحال تسقط عنه.

المسألة الثالثة: هل البسملة من الفاتحة؟

من المتفق عليه أن عدد آيات الفاتحة سبع، لقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)[الحجر: ٨٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: (أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)، والحديث تقدم ذكره.

وعلى هذا هل البسملة آية من الفاتحة أو آية مستقلة جاءت للفصل بين سور القرآن عدا براءة ؟

مذهب الجمهور من الحنفية والمالكية والحنابلة أنها ليست آية من الفاتحة، واستدلوا بحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد {بسم الله الرحمن الرحيم} قال الله سبحانه: مجدني عبدي، وإذا قال: {الحمد لله رب العالمين} قال الله تبارك وتعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرحمن الرحيم} قال الله عزّ وجلّ أثنى علي عبدي، وإذا قال: {مالك يوم الدين} قال الله فوض إلي عبدي، وإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين} قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: {اهدنا الصراط المستقيم} قال الله تعالى هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل». رواه مسلم في صحيحه، ولم يذكر البسملة، ولو كانت آية منها لعدها.

واستدلوا بحديث أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: (صلَّيتُ خلفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبي بكرٍ، وعمرٍ؛ فكانوا لا يذكُرونَ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ في أوَّلِ قراءةٍ، ولا في آخِرِها). فلما لم يقرأوا البسملة جهرًا، وقرأوا ما بعدها دل على أن البسملة ليست منها.

وذهب الشافعية إلى أن البسملة آية كاملة من الفاتحة ومن كل سورة وأنه يقرأ بها سرًا في السرية، وجهرًا في الجهرية؛ واستدلوا بما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة: بسم الله الرحمن الرحيم، فعدها آية منها»، وبما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قرأتم الحمد فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها) رواه الدار قطني، ولأن الصحابة أثبتوها فيما جمعوا من القرآن في أوائل السور، وأنها مكتوبة بخط القرآن، وكل ما ليس من القرآن فإنه غير مكتوب بخط القرآن، وأجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى، والبسملة موجودة بينهما.

والذي يترجح هو الرأي الأول لقوة أدلته وصراحتها، فالبسملة آية مستقلة من كل سورة عدا براءة، وعلى القارئ أن يأتي بها وإن تركها صحت صلاته.

وعلى القول الأول وأن البسملة ليست من الفاتحة فالآية السابعة هي (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، وعلى القول الثاني الآية السابعة (صراط الذين أنعمت عليهم ....ولا الضالين)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والفاتحة سبع آيات بالاتفاق، وقد ثبت ذلك بقوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (فاتحة الكتاب هي السبع المثاني) وقد كان كثير من السلف يقول البسملة آية منها ويقرأها، وكثير من السلف لا يجعلها منها ويجعل الآية السابعة {أنعمت عليهم} كما دلَّ على ذلك حديث أبي هريرة الصحيح، وكلا القولين حق؛ فهي منها من وجه، وليست منها من وجه، والفاتحة سبع آيات من وجه تكون البسملة منها فتكون آية. ومن وجه لا تكون منها فالآية السابعة {أنعمت عليهم} لأن البسملة أنزلت تبعاً للسور) أهـ.

المسألة الرابعة: هل آمين من الفاتحة؟

معنى آمين: هي كلمة دعاء وليست من القرآن الكريم ولا من الفاتحة إجماعاً، بدليل أنها لا تكتب في المصحف، ومعناها: استجب دعاءنا يا رب.

والتأمين خلف الإمام ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إذا قال الإمام "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" فقولوا آمين، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه)، الحديث متفق عليه.

وثبت عنه أنه قال: (إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

ومعنى آمين، اللهم استجب، ويجوز المد فيها والقصر.

سادسًا: الاستعاذة معناها وأحكامها:

أمر الله عند قراءة الفاتحة أو سورة أو آية من القرآن بالاستعاذة، قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم}، [النحل: ٩٨]، والحكمة فيه أن العبد قد ينجس لسانه بالكذب والغيبة، والنميمة، فأمر الله تعالى العبد بالتعوذ ليصير لسانه طاهراً، فيقرأ بلسان طاهر، كلاماً طيبًا أنزل من رب طيب، كما أنه إذا دخل في قراءة القرآن قد يأتي إليه الشيطان فيلبس عليه قراءته فإذا تعوذ عند بدء القراءة احترز ممن تلبيس الشيطان عليه قراءته.

والاستعاذة قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومعنى أعوذ من العَوذ؛ وهو الالتجاء

والاعتصام والاستجارة، أي: ألتجئُ، وأعتصم وأستجير.
(بالله) الباء للاستعانة، أي: أستعين بالله، وقيل: للإلصاق، أي: ألتصق بجنابه سبحانه وتعالى، (الله) اسم علم دال على ذاته سبحانه وتعالى، ومعناه: المألوه، أي: المعبود.
(من) حرف لابتداء الغاية. (الشيطان) مشتق من شَطَنَ، إذا بَعُدَ، وقيل: من شَاطَ، إذا هَلَكَ واحترق. (الرجيم) على وزن فعيل، بمعنى مفعول، أي: مرجوم باللعنة، ومطرود من الرحمة.
والمعنى: ألجأ وأستجير بالله، وأستعين به من شرِّ وفساد الشيطان الملعون من الجن والإنس والمخلوقات وغيرها أنْ يغويني أو يضلني في ديني ودنياي.
وأما حكمها: فقد أجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن، ولا آية منه، وأمّا حكمها قبل قراءة القرآن سواء في الصلاة أو خارجها، فيسنُّ التعوّذ بها سرّاً في الصلاة في أول كل ركعة قبل القراءة؛ لأن القراءة تنتهي مع كل ركعة، وخارج الصلاة يتعوذ بها سرًا أو جهرًا حسب قراءته، والدليل قوله تعالى: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» [النحل:٨٩].
صيغ الاستعاذة: للاستعاذة صيغ كثيرة ولكن هناك صيغ مختارة:
١-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
٢-أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.
٣- أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفثه ونفخه.
ومعنى همزه: نوع من الجنون أو الصرع، ونفخه ما ينفخه الشيطان في الإنسان من الكِبر، ونفثه: الشعر والقصائد المذمومة التي يحث عليها. عليها.
مواضع الاستعاذة:
١-عند قراءة القرآن: لقوله تعالى: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» [النحل: ٨٩].
٢-عند تلبس الشيطان على المسلم في صلاته: فعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنّ الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وقراءتي، يلبسها عليّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك الشيطان، يقال له

خِنْزَبُ، فإذا أحسسته، فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً)، قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني. رواه مسلم.

فإذا كان الإنسان مع الجماعة فكيف يتفل عن يساره ؟ فالجواب: إن كان آخر واحد على اليسار أمكنه أن يتفل عن يساره في غير مسجد، وإلا فليتفل عن يساره في ثوبه في غترته في منديل، فإن لم يتيسر هذا كفى أن يلتفت عن يساره ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

٣- عند دخول الخلاء: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) رواه البخاري.

٤- عند الغضب: جاء في حديث الرجل الذي اشتد غضبه، أنه صلى الله عليه وسلم قال: البخاري.

٥- عند نزول منزل: قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك) رواه مسلم.

٦-عند سماع نهيق الحمير ونباح الكلاب: قال صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم نباح الكلاب، ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله فإنهن يرين مالا ترون)، رواه أبو داود.

٧-عند رؤية الإنسان رؤيا يكرهها: قال صلى الله عليه وسلم (إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره، وليتعوذ بالله من الشيطان، ويتحول عن جنبه الذي كان عليه)، رواه مسلم.

٨- عند الفزع من النوم: قال صلى الله عليه وسلم: (إذا فزع أحدكم من النوم، فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون)، رواه أبو داود والترمذي.

الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شرَّ ما أجد وأحاذر)، رواه مسلم.

سابعًا: البسملة:

البسملة هي قول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم) ، والتسمية قولك (بسم الله) فالبسملة

تشرع عند قراءة القرآن، وعند كتابة الرسائل والكتب، قال تعالى: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).[النمل٣٠]. وأما التسمية فتشرع في كل الأمور المحمودة كالدخول والركوب والذبح والنوم وغير ذلك من الأفعال المطلوبة، قال تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [هود٤١].

والبسملة آية من القرآن الكريم جاءت للفصل بين السور باتفاق العلماء، كما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل " بسم الله الرحمن الرحيم " أخرجه أبو داود. عدا سورة براءة فلا يبسمل القارئ عند افتتاحها والسر في ذلك ما جاء عن علي بن أبي طالب من أنه سئل عن ذلك، فقال: (أنها نزلت في السيف، وليس في السيف أمان، وبسم الله الرحمن الرحيم من الأمان)، وقيل: إنّه كان من شأن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قومٍ عهد ثم أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يبدؤوا فيه ببسم الله فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – والمشركين لما كان منهم من نقض عهود وخيانة بعَثَ النبي صلى الله عليه وسلم بسورة التوبة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقرأها عليهم في موسم الحج ولم يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم جرياً على عادة العرب في ذلك فيما يخص نقض العهد من ترك البسملة.

وهي جزء من آية من سورة النمل (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

وأما حكم قراءتها في الصلاة فاختلف أهل العلم في حكمها فذهب بعضهم إلى وجوب قراءتها في الفاتحة وفي كل سورة في السر والجهر.

والرأي الثاني أنها آية مستقلة نَزلت للتبرُّك والفَصْل بين السور، وقراءتها في الفاتحة مستحبة، لكنها غير واجبة وتَصِح الصلاة بدونها، وهذا المذهب يقول: لا يجهر بالبسملة، ولكنْ تُقال سرًّا. واستدلوا بحديث أنس: صلَّيْتُ خلف الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان وكانوا لا يَجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم، رواه النسائي وابن حبان بإسناد على شرط الشيخين.

ويمكن أن يقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يَجهَر بها أحيانًا وأحيانًا كان يُسِرُّ بقراءتها، فالسنة الثابتة قراءتها سرًّا، وإن جهر بها أحيانًا فلا حرج.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

النور في القرآن الكريم دراسة موضوعية

د.يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

قسم القرآن وعلومه ، كلية أصول الدين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤٢٩/٣/٧هـ ، وقبل للنشر في ١٤٢٩/٦/٣هـ)

الكلمات الافتتاحية:

ملخص الدراسة. بسم الله والحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، القصد من هذا البحث بيان حقيقة النور في لغة العرب، ثم استقصاء ورود لفظ النور في القرآن الكريم في مكيّه ومدنيه، معرفاً ومنكراً، حيث بلغ تسعة وأربعين موضعاً ، تناولته هذه الدراسة موضعاً موضعاً، تبين من خلالها أن لفظ النور في كتاب الله شمل النور الحسي الذي يساعد على الإبصار كنور الشمس والقمر، والمعنوي وهو ما يعقل بعين البصيرة كنور الهداية والطاعة، كما أنه شمل النور الدنيوي والأخروي ،

وقد اقتضت هذه الدراسة تقسيم لفظ النور حسب وروده في القرآن الكريم إلى ستة فصول اتضح من خلالها أن النور حقيقته الضياء والاستنارة، وأنه اسم من أسماء الله الحسنى ومن صفاته العليا، وأنه جاء إطلاقه على القرآن العظيم وغيره من الكتب المنزلة، وعلى النبي الكريم والدين القويم ، وأن النور في الحقيقة هو نور الإيمان والهداية والعلم والطاعة.

هذا وقد أظهرت هذه الدراسة مدى أهمية البحث بلفظ من الألفاظ المتعددة المعنى مما حواه كتاب الله، واهتمام المفسرين بذلك، كما أظهرت هذه الدراسة ما اشتمل عليه كتاب الله من أسرار بلاغية، ونكات بديعية، ولطائف خفية، فمن تدبر كتاب الله، وتأمل آياته زاده ذلك إيماناً ويقيناً وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم، وهذا سرٌ من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، والله الموفق وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر فيه زاده ذلك إيماناً ويقيناً وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

وأهل العلم يتدبرون آياته، ويستخرجون حكمه، ويستنبطون أحكامه، ويكشفون ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه ويظهرون أسراره الكامنة وكنوزه المغمورة.

والقرآن الكريم كثيرًا ما يورد ألفاظاً متفقة في لفظها مختلفة في معناها، حتى إن بعضها ليصل إلى معاني كثيرة.

ومن هذه الألفاظ لفظ النور الذي تعددت معانيه، فقد جاء في كتاب الله ﷻ في مواضع مختلفة وآيات عديدة بإطلاقات متعددة، فجاء لفظ النور على أنه اسم من أسماء الله الحسنى، وأنه صفة من صفاته العليا، ووصف ﷻ به كتبه المنزلة، بل خص بهذا الوصف القرآن الكريم، ووصف به رسوله الكريم ﷺ، وسمى شرعه القويم بذلك، ولا ريب أن هذه أمور مختلفة جاءت بلفظ واحد وهو لفظ النور، مما قد يشكل أمره على الكثير، فكان هذا الأمر دافعاً قوياً حفزني على استقصاء وجمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع، ثم الوقوف معها، وكشف ما فيها من اللبس لتجليتها وتحليلها وبيان المراد منها، وكشف ما فيها من أسرار وهدايات.

وثمة أمر آخر وهو أن هذا الموضوع بحاجة إلى دراسته دراسة تفسيرية فأحببت أن أشارك في هذا المضمار وأغوص في أعماق هذا الكتاب المعجز، فاستعنت بالله تعالى على بحث هذا الموضوع بتقصّي مواطنه التي ورد فيها لفظ النور في كتاب الله وبيان معانيه وما ذكره المفسرون تجاهه، وهو عمل جليل متعلق بكتاب الله ﷻ أقدمه خدمة لهذا الكتاب العظيم، وإسهاماً في إبراز شيء من جوانبه وتجلية لأسراره وهداياته هذا وقد جعلت البحث في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهمية البحث وسبب الكتابة فيه، وخطته والمنهج المتبع.

وأما التمهيد ففيه معنى النور في لغة العرب والمراد به اصطلاحاً.

ثم بعد ذلك المباحث الستة مرتبة على النحو التالي:

المبحث الأول: حقيقة النور الضياء والاستنارة.

المبحث الثاني: الله نور السموات والأرض.

المبحث الثالث: القرآن الكريم هو النور المبين.

المبحث الرابع: الرسول ﷺ نور يُهتدى به.

المبحث الخامس: دين الله هو النور المبين.

المبحث السادس: النور نور الإيمان والهداية والعلم والطاعة.

ثم بعد ذلك الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

هذا وقد كان منهجي في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

أولاً: أورد في كل مبحث آيات النور المتعلقة به، ثم أبين معناها ووجه الدلالة منها مع إبراز ما فيها من الأسرار البلاغية واللطائف الدقيقة مما تلفت إليه الآيات ويذكره علماء التفسير.

ثانياً: عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

ثالثاً: تخريج الأحاديث و الآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

رابعاً: تعريف الأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

خامساً: توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

سادساً: وضع فهرس للمصادر والمراجع

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله، وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

معنى النور في لغة العرب:

قال ابن فارس: « النون والواو والراء أصل صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات، ومنه النور والنار سميا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأن ذلك يكون مضطرباً سريع الحركة، وتنورت النار تبصرتها - ثم قال- والذي قلناه في قلة الثبات: امرأة نَوَارٌ أي: عفيفة تنُورُ، أي تنفر من القبيح ». اهـ (١).

وما ذكره ابن فارس يفيد أن كلمة النور تدور على معانٍ:

أولها: الإضاءة، فيقال: أضاء الشيءُ أي: أنار واستنار إذا وضُح وبان، والنور هو الذي يبين الأشياء ويُري الأبصار حقيقتها.

وفي القاموس المحيط: «النُّور: الضياء، نار وأنار واستنار ونوَّر وتنوَّر». اهـ (٢)

ثانيها: الاضطراب، وذلك أن النور والإضاءة والإنارة فيه سرعة الحركة والتحرك، ومنه قولهم: نارت الفتنة تنور، إذا وقعت وانتشرت فهي نائرة، فإذا أطفئت سكنت.

ثالثها: قلة الثبات، والنِّوار النِّفَار، ونرته وأنرته نفرته، وبقرة نوار تنفر من الفحل، وامرأة نوار، أي: عفيفة تنفر من كل قبيح وريبة. (٣)

وجاء في لسان العرب: «النُّورُ: الضياءُ، والنور ضد الظلمة، نار وأنار لازم ومتعدٍ وأنار المكانَ وضع فيه النور، والمنار العلم وما يوضع بين الشيئين من الحدود ».اهـ (٤)

وهذا الكلام مع شدة إيجازه إلا أنه يكشف عن أمور:

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣٦٨/٥)، وابن فارس: أبوالحسين أحمد بن فارس الرازي من أئمة اللغة والأدب، توفي سنة ٣٩٥هـ، انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣٥٨/١١)، بغية الوعاة (٣٢٥/١).

(٢) القاموس المحيط ص٦٢٨.

(٣) انظر: الصحاح (٨٣٨/٢)، المصباح المنير(٦٣٠/٢)، القاموس المحيط ص٦٢٨.

(٤) لسان العرب.(٢٤٠/٥)

أولها: أن النور ضد الظلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ .(٥)

وإنما ذكر الظلمات بصيغة الجمع والنور بصيغة الإفراد لتعددها واختلاف أجناسها، ولأن الحق واحد والباطل كثير. (٦)

ثانيها: أن فعل النور لازم ومتعدٍ، تقول: نار السِّراجُ فأنار المكانَ.

ثالثها: أن المنار بمعنى المعلم لظهوره وتميزه عن غيره، ففي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «لعن الله من غيَّر منار الأرض»، (٧) أي: أعلام حدودها، (٨)

ومنار الإسلام معالمه وشرائعه، ومنارة المسجد مئذنته التي يؤذن عليها، ويتميز بها عن غيره، ونَور الشجر إزهاره من الإنارة، يقال نورت الشجرة وأنارت إذا أخرجت نورها وهو زهرُها وخضرتها، وذلك لظهوره وسطوعه. (٩)

ويوضح الراغب الأصفهاني أن النور ضربان: معنوي وحسي، كما يبين أنه أيضاً ضربان دنيوي وأخروي، ومنه ما هو عام، ويؤيد ما يقوله بشواهد من القرآن الكريم فيقول: «النور الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنيرات، فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾(١٠).

ومن المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾، (١١) وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور، ومما هو عام فيهما قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ .(١٢)

ومن النور الأخروي قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾، (١٣) والمنارة مفعلة من النور أو من النار كمنارة السراج أو ما يؤذن عليه، ومنار الأرض أعلامها، والنوار النفور من الريبة وقد نارت المرأة تنور نوراً ونواراً، ونَور الشجر ونواره تشبيهاً بالنور، والنور ما يتخذ للوشم يقال نورت المرأة يدها، وتسميته بذلك لكونه مظهرًا لنور العضو» اهـ (١٤) .

---

(٥) سورة الأنعام، الآية(١).

(٦) انظر: الكشاف(٢/ ٣)، التفسير الكبير(١٢/ ١٥١).

(٧) رواه مسلم في صحيحه ٣/ ١٥٦٧ برقم(١٩٧٨).

(٨) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي١٣/ ١٤١

(٩) انظر: اللسان(٥/ ٢٤٣).

(١٠) سورة المائدة، الآية(١٥).

(١١) سورة يونس، الآية(٥).

(١٢) سورة الأنعام، الآية(١).

(١٣) سورة الحديد، الآية(١٢).

(١٤) المفردات ص٥٣٠. والراغب الأصفهاني: الحسين بن المفضل، أديب مفسر لغوي، عاش ببغداد وتوفي سنة (٥٠٢)، انظر: سير أعلام النبلاء(١٨/ ١٢٠)، معجم المفسرين (١/ ١٥٨).

وجاء في تعريف النور اصطلاحاً « أنه كيفية تدركها الباصرة أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات ».(١٥)

وعرفه بعضهم بقوله: « النور هو اسم للكيفية العارضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر الأجسام الكثيفة كالأرض».(١٦)

المبحث الأول: حقيقة النور الضياء والاستنارة

حقيقة النور الضياء والاستنارة، وهو عبارة عن الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار وهو ما تحدثه الأجسام النيرة كالشمس والقمر والنجوم والنار ونحوها مما يضيء ويشع بنوره، والآيات القرآنية في كتاب الله ﷻ تشير إلى تلك الحقيقة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾،(١٧)

الشمس جعلت ضياء، أي: ذات ضياء أو مضيئة، والضياء: النورالساطع القوي، لأنه يضيء للرائي، والقمر جعل نوراً، أي: ذا نور أو منوِّر، والنور: الشعاع المستفاد من الضوء، وقيل: الضياء ما يضئ الأشياء، والنور هو المبين لمايخفى.

وإنما خصت الشمس بالضياء، لأنها أعظم جرماً ولأن الضياء له سطوع ولمعان وحرارة وتوهج، وهو المناسب للنهار الذي فيه الحركة والعمل، بخلاف القمر فقد خص بالنور، لأن النور يشمل القوي والضعيف، ولأن نور القمر مستفاد من الشمس وهو المناسب لليل الذي فيه الهدوء والسكن،(١٨) ولذا وصف الله ﷻ الشمس بأنها سراج في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ،(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾،(٢٠)وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾،(٢١) والسراج: المصباح الزاهرُ نورُه الذي يوقد بفتيلة في الزيت فيُضيء إضاءة بليغة، ووصف الشمس بذلك من التشبيه البليغ، والغرض منه تقريب المشبَّه من إدراك السامع، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل، وكان من مقتضى هذا التشبيه شدة الإضاءة مع شدة الحرارة والتلهب،(٢٢) وقوله: ﴿وَهَّاجًا﴾، الوهاج المتلألئ المضيء، أي: سراجاً وقاداً شديد الإضاءة،(٢٣) وأما القمر فقد وصف في الآيات السابقة بالإنارة: ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أي: ينير الأرضَ ضوؤه إنارة مفيدة، يستنير به الساري ويتبدد به الظلام.

والنور ضربان: دنيوي وأخروي، والدنيوي ضربان: حسي ويكون بعين البصر، وهو ما ينتشر من الأجسام النيرة كالشمس والقمر والنجوم التي هي مصابيح السماء والنار وغيرها مما يستنار به ويستضاء مما يخلقه الله

---

(١٥) التعريفات للجرجاني ص.٢٤٦

(١٦) كشاف اصطلاحات الفنون (٤/ ٢١١).

(١٧) سورة يونس، الآية(٥).

(١٨) انظر:فتح القدير (٢/ ٤٢٥)،روح المعاني (١١/ ٦٧)،التحرير والتنوير (١١/ ٩٤).

(١٩) سورة الفرقان، الآية (٦١).

(٢٠) سورة نوح، الآية (١٦).

(٢١) سورة النبأ،الآية (١٣).

(٢٢) انظر:التحرير والتنوير(٢٤/ ٣٠).

(٢٣) انظر:المفردات للراغب ص٥٧٢

ﷻ، ومعنوي ويكون بعين البصيرة وهو ما ينتشر من الأمور الإلهية كنور الإيمان والطاعة والهدى والعلم والقرآن والحكمة.

فمن الآيات التي شملت النوعين الحسي والمعنوي ما يلي:

١) قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (٢٤). فالنور في الآية شامل للنوعين الحسي كنور النهار والشمس والقمر والنجوم ونحوها والمعنوي، ونور العلم والإيمان واليقين، والطاعة والهداية.

وقدمت الظلمات على النور لتقدم العدم على الحدوث ، وجمعت الظلمات وأفرد النور لتعددها واختلاف أجناسها، ولأن الحق واحد والباطل كثير، مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين الجملتين، السموات والأرض، والظلمات والنور. (٢٥)

٢) قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، (٢٦)

والآية تشمل النور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار السموات والأرض، والنور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب الذي اهتدى به أهل السموات والأرض، فهو سبحانه وتعالى النور وحجابه النور به استنارت السموات والأرض، وبنوره استنار العرش والكرسي والجنة والشمس والقمر والنجوم، فهو منوِّر السموات والأرض، وكتابه نور وشرعه نور والإيمان به نور، وبنوره اهتدى الحيارى الضالون إلى طريقهم،

وإنما أضيف النور إلى السموات والأرض لكمال شيوعه وغاية شموله(٢٧) وللآية وقفة أخرى في المبحث التالي يتضح من خلاله ما فيها من معاني ودلالات.

٣) قال تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾(٢٨)، الآية في سياق بيان حقيقة أو صاف المنافقين، أُجملت صفاتهم المتقدمة بضرب مثل محسوس مشاهد وهو النار في إضاءتها، لأنه أقرب في إيصال المعاني إلى الأذهان، وهو نور الإيمان الذي استوقدوه من المؤمنين ولم ينتفعوا به، فمثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً وهو في ظلمة عظيمة، استوقدها من غيره، فلما أضاءت النار ما حوله ونظر المحل الذي هو فيه وانتفع وقرت بها عينه، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره وبقي في ظلمة عظيمة ونار محرقة، فتعددت عليه الظلمات، ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة

---

(٢٤) سورة الأنعام،الآية(١).

(٢٥) انظر: الكشاف(٢/ ٣)، التفسير الكبير(١٢/ ١٥١)، إرشاد العقل السليم(٢/ ١٦١)، تيسير الكريم الرحمن ص (٢٥٠).

(٢٦) سورة النور، الآية (٣٥).

(٢٧) انظر:إرشاد العقل السليم(٤/ ١١٨)، تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٨

(٢٨) سورة البقرة، الآية (١٧).

بعد النور فكيف تكون حاله؟ فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نور الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم فانتفعوا بها في حقن دمائهم، وسلامة أموالهم، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، فأصبحوا في ظلمات ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق والمعصية، ثم نار جهنم.

ومعنى وقود النار إضرامها حتى تشع ويرتفع لهبها، وتنكيرها للتفخيم، وأما إضاءتها فهو ارتفاع شعاعها وسطوع لهبها، وإنما جمع الضمير في: ﴿ بِنُورِهِم ﴾ مع كونه عائداً إلى المفرد في: ﴿ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ مراعاة المشبه وهو المنافقون، دون المشبه به وهو المستوقد تأكيداً للغرض الأصلي وهو ذهاب نور الإيمان منهم.

واختيار لفظ النور عوضاً عن النار، للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين، فعبر بالنور لأنه المقصود من الاستيقاد، وجمع الظلمات لإفادة شدة الظلمة وتعددها. (٢٩)

فهذا النور الدنيوي بنوعيه الحسي والمعنوي، وأما النور الأخروي فقد أشارت إليه الآيات القرآنية في مواضع من كتاب الله ﷻ :

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ (٣٠).

الآيتان في بيان ما يحصل للمؤمنين والمؤمنات من الثواب، وما يحصل للمنافقين والمنافقات من الحرمان، فمما يحصل لعباد الله وأوليائه من المؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من الثواب ومما يمنُّ به ﷻ عليهم أن يبشروا بأعظم بشارة وهو فوزهم بجنات النعيم وأن يهبهم النور التام الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حينما تكور الشمس ويذهب ضوءها، ويخسف القمر ويذهب نوره، ويصير الناس في ظلمة وقد نصب الصراط على متن جهنم، هنالك يسعى المؤمنون والمؤمنات بنورهم، وهو بين أيديهم وبأيمانهم، كلٌ على قدر إيمانه.

أما المنافقون والمنافقات فإنهم إذا رأوا نور المؤمنين يمشون به وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، طلبوا من المؤمنين أن يمهلوهم لينالوا من نورهم حتى ينجوا من العذاب، فيقال لهم تهكماً بهم: ارجعوا إلى النور الذي وراءكم، أو إلى الدنيا، فيضرب بينهم بحاجز منيع، باطنه مما يلي المؤمنين فيه الرحمة والنجاة والنور، وظاهره مما يلي المنافقين فيه العذاب والهلاك والظُلمة. (٣١)

وهذا النور نور حقيقي، وإضاءة واستنارة حقيقية للمؤمنين والمؤمنات، حينما يكون الناس في ظلمة، وإضافته إليهم تقتضي أنه خاص بهم لا يشاركهم

---

(٢٩) انظر: الكشاف (١/ ٧٤)، التفسير الكبير (١/ ٧٥)، تيسير الكريم الرحمن ص٤٤ ، التحرير والتنوير (١/ ٣٠٨).

(٣٠) سورة الحديد، الآيتان (١٢-١٣).

(٣١) انظر: إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٧٦)، تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٩.

فيه غيرهم ، وهو أثر من آثار إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي هي نور معنوي، وقوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾، أي: أمامهم ومن جميع جهاتهم، وهو يفيد دنوه منهم والتصاقه بهم، وتخصيص الأيمان مع أن المراد كلا اليدين للتشريف.والتعبير بالسعي دليل على سعي صاحبه، وإلا لانفصل عنه وتركه.

وفي قوله: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾، التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المخاطب، تكريماً لهم وعناية بهم، وقوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾، فيه دلالة على إسراع المؤمنين بنورهم وأنهم قد طلبوا منهم المهلة، والاقتباس من القبس وهو الشعلة، دليل على عظم نورهم، وقوله: ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾، أسلوب تهكم وسخرية واستهزاء، مقابلة باستهزائهم بالمؤمنين في الدنيا. (٣٢)

ومما ورد في كتاب الله تعالى ما جاء في آية التحريم من تكريم الله ﷻ للمؤمنين بهذا النور العظيم في الدار الآخرة ، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، (٣٣) الخزي: الهوان والذل والخذلان، وهذا اليوم يوم إعزاز وتكريم للنبي ﷺ والذين معه، لأنَّ في نفي الخزي عنهم إثبات الكرامة والعزة لهم، ومن أعظم التكريم أن يمنحهم الله ﷻ هذا النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وهم إذا رأوا المنافقين قد أطفئ نورهم يسألون ربهم إتمام نورهم، ولأنه يتفاوت نورهم فيسألونه الإتمام، ومن حسن أدبهم مع ربهم أنهم إذا رأوا هذا التكريم لم ينسوا تقصيرهم ونقصهم فيطلبون من الله المغفرة، (٣٤) ، وتقديم ﴿ نُورُهُم ﴾ على الفعل ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ هنا، وتأخيره في آية الحديد، لأنه لما ذكر النبي ﷺ والمؤمنين معه، أراد إثبات النور لهم فجاء بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، بخلاف آية الحديد فهي بشارة لهم بنا سبها تقديم الفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد. (٣٥)

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ ﴾.(٣٦)

فمن حقق الإيمان بالله وأقرَّ بوحدانيته وآمن برسله واتَّبع ما جاءوا به من عند ربهم، وهذا يشمل الإيمان بجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة،وجمع بين هذه الأمور فأولئك هم الصديقون، الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين،ودون مرتبة الأنبياء، وإنما جمع الرسل تعريضاً بأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، والصدِّيق مبالغة في المصدق، واسم الإشارة للتنويه بشأنهم وللتنبيه على أن المشار إليهم استحقوا ذلك من أجل تلك الصفات.

وقوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، الواو إما عطف على ما قبله، أي: وهم الشهداء على الأمم يوم الجزاء، وإما

---

(٣٢) انظر: نظم الدرر (١٩/ ٢٧٤)، روح المعاني (٢٧/ ١٧٦)، التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٠) .

(٣٣) سورة التحريم، الآية (٨).

(٣٤) انظر:المفردات للراغب ص١٤٧، نظم الدرر(٢٠/ ٢٠٤)، روح المعاني (٢٨/ ١٦١).

(٣٥) انظر:ملاك التأويل (٢/ ١٠٧١).

(٣٦) سورة الحديد، الآية (١٩).

استئناف، خبر عن الشهداء في سبيل الله وما لهم من الثواب، وهو يدل على علوهم وقربهم من الله، والآية محتملة .(٣٧)

فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات، هم الموعودون بالأجر العظيم والنور التام الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يستضيئون به على قدر أعمالهم، وإضافته إليهم تكريم لهم، وفيه دلالة على أنه خاص بهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

المبحث الثاني:الله نور السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ ،(٣٨) الله نور السموات والأرض، به استنارت السموات والأرض وما فيهما، فهو سبحانه نور، وحجابه نور، وكتابه نور، وشرعه نور، وهدايته نور منه سبحانه، والنور صفة من صفاته ﷻ قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى(٣٩)، ففي الحديث: « لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن».(٤٠)

فالآية شملت النور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار السموات والأرض، والنور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب الذي اهتدى به أهل السموات والأرض، فهو سبحانه وتعالى منوِّر السموات والأرض، وإنما أضيف النور إلى السموات والأرض لكمال شيوعه وغاية شموله .(٤١)

« ثم ضرب الله ﷻ لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة وهي الكوة في الحائط غير النافذة، مَثَلُ الصدر، وفي المشكاة زجاجةٌ صافية صفاء الكوكب المضيء إضاءة الدُّر، وهي مَثَلُ القلب، وشُبِّه القلب بالزجاجة بجامع الصفاء والرقة والصلابة.

وهذه الزجاجة فيها مصباح وهو النور الذي في الفتيلة وهي حاملته، ومادة هذا النور هو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيوت حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار، فهذه مادة نور المصباح الحقيقي، كذلك مادة نور المصباح المعنوي الذي في قلب المؤمن هو من شجرة الوحي

---

(٣٧) انظر:معالم التنزيل(٤/ ٢٩٨)، التفسير الكبير (٢٩/ ٢٣٢)، تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٠ .

(٣٨) سورة النور، الآية (٣٥).

(٣٩) انظر:مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٢٠٢). .

(٤٠) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٥٣) برقم (١١٢٠)،ومسلم في صحيحه (١/ ٥٣٢)برقم(١٢٨٨).

(٤١) انظر:إرشاد العقل السليم(٤/ ١١٨)،تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٨

التي هي من أعظم الأشياء بركة وهي أوسط الأمور وأعدلها، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن ».(٤٢)

وهذا الزيت مع شدة صفائه يكاد يضيء من نفسه قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، وقلب المؤمن كذلك، يضيء بفطرته السليمة فإذا جاءه الهدى ازداد نوراً على نور، والله يهدي لنوره ويوفق لاتباع شرعه وتدبر كتابه من يشاء من عباده ممن يعلم منه قبول الحق والإذعان إليه، وإنما ضرب الله هذا المثل للناس لأجل أن يعقلوا عنه أمثاله وحكمه، فإن ضرب الأمثال سبب في توضيح الأحكام وتبيين الأشياء وتقريب المعاني للأذهان .(٤٣)

وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه ، وانتشار إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض، وإما أن يراد أن أهل السموات والأرض قد استضاءوا بنوره واهتدوا به، وفي إبهام الشجرة في قوله: ﴿ يُوقَد مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ووصفها بالبركة ثم الإبدال عنها أو بيانها تفخيم لشأنها.

وقوله: ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي: ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من حين تطلع إلى أن تغرب، وذلك أحسن لزيتها، ومن ثم خصت شجرة الزيتون لأن لب ثمرتها الزيت الذي تشتعل به المصابيح، وخص هذا الدهن لمزيد إشراقه مع قلة الدخان.(٤٤)

وإذا كان يوم القيامة وذهبت الأنوارُ الموجودة، فالشمس عند ذلك تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، وأصبح الناس في ظلمة حينها تشرق الأرضُ بنور ربها وتضيء، وذلك عندما يجيء الرحمن ﷻ فيبرز لفصل القضاء بين خلقه،

و قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، (٤٥)

وإشراقُ الأرض إضاءتها بنور الله ﷻ، يقال: أشرقت الشمس، إذا أضاءت وصفت، وأشرقت: إذا طلعت، وإشراق الأرض يكون حينما يبرز الرحمن ﷻ لفصل القضاء بين خلقه يتجلى وينزل للفصل بينهم.(٤٦)

وإنما جيء بالماضي في الأفعال: ﴿ وَأَشْرَقَتِ، وَوُضِعَ، وَجِاْىٓءَ، وَقُضِىَ ﴾، لأنه محقق الوقوع، والكتاب: صحائف العباد، وإفراده قصد به الجنس.(٤٧)

المبحث الثالث: القرآن الكريم هو النور المبين .

---

(٤٢) الوابل الصيب ص١١٦ بتصرف يسير.

(٤٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٨ ، تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٨

(٤٤) انظر: الكشاف (١/ ٢٤١)، أنوار التنزيل (٢/ ١٢٤)،روح المعاني (١٨/ ١٦٨) .

(٤٥) سورة الزمر، الآية (٦٩).

(٤٦) انظر: جامع البيان (٢٤/ ٢٢)، تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١٨)، تيسير الكريم الرحمن ص٧٢٩

(٤٧) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٦٨).

القرآن الكريم كتاب هداية للخلق جميعاً، ختم الله ﷻ به ما سبقه من الكتب وأودع فيه ما يحتاجه العباد لإصلاح حياتهم، عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً، فكان حقاً نوراً مضيئاً، أنار للناس طريقهم نحو السعادة الحقَّة، واستضاءت به الدنيا بعد الظلمات، واستنارت به العقول بعد الجهالة، قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾. (٤٨)

هذا وقد وردت الآيات القرآنية في وصف القرآن بأنه نور مبين، نور من عند الله، والله نور السموات والأرض، وقد سماه الله نوراً لأنه أشبهَ النور في إيضاح المطلوب باستقامة حجته وبلاغة كلامه، وبإرشاده إلى الخصال القويمة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾، (٤٩) فأخبر ﷻ الناس عموماً، أنه قد جاءهم الحق من ربهم وأدلتهم قد جاءتهم البراهين القاطعة التي تقيم عليهم الحجة وتوضح لهم المحجة بما بعث به نبيه محمداً ﷺ، وشرع به شرعه القويم، والنور المبين هو القرآن الكريم لوقوع نور الإيمان في قلوب أهله، ولكونه سبباً في إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلال والجهل إلى نور الإيمان والهداية والعلم واليقين، فهو نيّر بنفسه منير لغيره، كالنور الحسي. (٥٠)

وإنما غاير بين الفعلين: ﴿جَآءَكُم﴾ و ﴿ وَأَنزَلۡنَا ﴾، لبيان أن الشرع برهان قاطع إنما جاء لإقامة الحجة على الخلق، وأن القرآن أُنزل لهدايتهم وتبصيرهم، فأسنده إليه ﷻ بطريق الالتفات لكمال تشريفه، وإنزاله إليهم من غير ذكر المنزل إليه وهو الرسول ﷺ لكمال اللطف بهم والمبالغة في الإعذار.

والتنوين في: ﴿ بُرۡهَٰنٞ ﴾ للتفخيم، والتصريح بذكر لفظ الربوبية مع إضافته إلى ضمير المخاطبين ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ لإظهار اللطف بهم والإشعار بأن مجيء ذلك لتربيتهم.(٥١)

و قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾، (٥٢) والآية تعليمٌ لكيفية اتباعه ﷺ وبيانٌ لعلو رتبة متبعيه، الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل مرهوب، بعد بيان نعوته الجليلة في الآية نفسها: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾، فمن اتصف بهذه الصفات من الإيمان بالرسول ﷺ وتصديق ما جاء به، وتبجيله وتوقيره، ونصرته على

(٤٨) سورة إبراهيم،الآية (١).

(٤٩) سورة النساء، الآية (١٧٤).

(٥٠) انظر:التفسير الكبير (١١/ ١٢٠)،إرشاد العقل السليم (١/ ٨٢٦)،روح المعاني (٦/ ٤٢).

(٥١) انظر: إرشاد العقل السليم (١/ ٨٢٦)، روح المعاني (٦/ ٤٢).

(٥٢) سورة الأعراف، الآية(١٥٧).

أعدا ئه واتـ باع ما أ نزل إل يه و هو ال قرآن ال كريم ف هم الموعودون بهذا الوعد الكريم.

وفي هذه الآية سمى الله ﷻ كتابه العزيز نوراً، وسبب ذلك أن بيانه في القلوب كبيان النور، ولأنه ظاهر بنفسه مُظهر لغيره، أو لكونه مظهراً للحقائق كاشفاً عنها ، وإنما أمر باتباع النور لأنه بمعنى الاقتداء بما ورد في القرآن الكريم، شُبه حال المقتدي بهدي القرآن بحال الساري في الليل إذا رأى نورًا قد لاح له اتبعه، لعله يجد عنده نجاة وسلامة من أضرار السير، فالاتباع يكون للاقتداء، والنور يكون للقرآن، لأن الشيء الذي يكون طريقاً لبيان الحق والرشد يشبَّه بالنور. (٥٣)

وإنما قال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾، وهو قد أنزل إليه، لأنه أنزل مع نبوته وظهر بظهورها. (٥٤)

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾. (٥٥)

الفاء فصيحة تفصح عن شرط قد حذف ثقة بظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا بالله الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء وقد سمعتم ما سمعتم من شؤونه ﷻ، ورسوله ﷺ البشير النذير، وكتابه المنزل عليكم وهو القرآن الكريم، فإنه بإعجازه بيِّن بنفسه مبين لغيره، وإنما سماه الله نورًا، لأن النور ضد الظلمة، وهذا الكتاب الذي أنزله الله ﷻ وغيره مما أُنزل من الكتب، وما فيه من الأحكام والشرائع والأخبار أنوار يُهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بشأن المنزل، ولزيادة الترغيب فيه. (٥٦)

وقال في وصف القرآن الكريم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾. (٥٧) أي: مثل ما أوحينا إلى الرسل من قبلك أوحينا إليك هذا القرآن، وإنما سمي القرآن روحاً، لأن الروح يحيى به الجسد، والقرآن تحيى به القلوب والأرواح، وأيضاً تحيى به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو نعمة من الله ﷻ على رسوله ﷺ وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾، أي: ليس لك دراية به ولا علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الماضية قبل نزوله عليك، لكن جاءك هذا الكتاب الذي جعله الله نوراً يُستضاء به في ظلمات الكفر والبدع والأهواء المردية والجهالات، وتُعرف به الحقائق، ويُهتدى به إلى الصراط المستقيم،

والتنوين في: ﴿ رُوحٗا ﴾، ﴿نُورٗا ﴾ يفيد التعظيم، أي: روحاً عظيماً ونوراً عظيماً.(٥٨)

---

(٥٣) انظر:روح المعاني(٩/ ٨٢)، تيسير الكريم الرحمن ص٣٠٥، التحرير والتنوير(٩/ ١٣٨).

(٥٤) انظر: الكشاف (٢/ ١٦٦).

(٥٥) سورة التغابن، الآية(٨).

(٥٦) انظر: أنوار التنزيل(٢/ ٤٩٩)، روح المعاني(٢٨/ ١٢٣)، تيسير الكريم الرحمن ص٨٦٦ ، التحرير والتنوير(٢٨/ ٢٧٣)

(٥٧)سورة الشورى، الآية (٥٢).

(٥٨)انظر: روح المعاني (٢٥/ ٥٨)، تيسير الكريم الرحمن ص٧٦٢ التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥١).

وإذا تأملنا ما تقدم من الآيات الواردة وجدنا أن الله ﷻ قد وصف كتبه بأنها نور، نيرة بنفسها منيرة لغيرها، نور يهتدي بها المهتدون، ويأتم بها السالكون، وتعرف بها الأحكام، ويميز بها بين الحلال والحرام، والحق والباطل، وتنير في ظلمات الجهل،

فجاء في وصف كتابه التوراة المنزل على رسوله موسى عليه السلام بأنه نور، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ ﴾، (٥٩) هدى يهدي إلى الإيمان والحق ويعصم من الضلالة، ونور يستضاء به في ظلمات الجهل والحيرة والشكوك، ويزيل الشبهات ويدفع الشهوات، وتعرف به الحقائق. (٦٠)

ولما زعم اليهود وغيرهم أن الله ما أنزل على بشر من شيء وهم بذلك ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق عظمته، لأنه قدح في حكمته بأنه ترك عباده هملاً، من غير شريعة ولا رسالة، يسيرون عليها لينالوا بها السعادة والكرامة والفلاح، رد الله عليهم ملزماً لهم بفساد قولهم، وقررهم بما به يقرون، على وجه التشنيع والإنكار بقوله: ﴿ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾، (٦١) وهو التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، فيها نور العلم والإيمان والطاعة والسعادة، وفيها الهداية من الضلالة والشبهات والشكوك، والهداية إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً. (٦٢)

وكما وصف كتابه التوراة بأنه نور وهدى وصفه بأنه ضياء يضئ للناس طريقهم فيستبصرون به، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾.(٦٣)

وزاد في وصفه أيضاً بأنه فرقان لأنه يفرق به بين الحق والباطل، وضياء لغاية وضوحه فيتوصل به إلى طرق الهداية وسبل النجاة في معرفة الله ﷻ ومعرفة الشرائع، وأنه ذكر أي: تذكرة وموعظة، وذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، وشرف ومكانة لهم.(٦٤)

وقال في وصف كتابه الإنجيل المنزل على رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾. (٦٥) هدى يهدي من الضلالة إلى الصراط المستقيم، ونور لما فيه من الإيضاح وحسن بيان في العلم والطاعة والإيمان، يضئ للهداة طريقهم ويكشف عنهم المشكلات والشبهات، والتنكير في الوصفين للتفخيم. (٦٦)

بل وصف سائركتبه المنزلة والتي جاءت بها الرسل بأنها نور، نيرة بنفسها منيرة لغيرها، قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ

---

(٥٩) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٦٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٢٣٢

(٦١) سورة الأنعام، الآية (٩١).

(٦٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٠)، تيسير الكريم الرحمن ص٢٦٤

(٦٣) سورة الأنبياء (٤٨).

(٦٤) انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٨).

(٦٥) سورة المائدة، الآية(٤٦).

(٦٦) انظر: إرشاد العقل السليم(٢/ ٦٥).

فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ (٦٧).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾. (٦٨)

فرسل الله جاءوا أقوامهم بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات، والكتب المنزلة التي هي نور بها تنكشف الظلمات، وتنجلى المدلهمات.

وهاتان الآيتان جاءتا في موضعين مختلفين فاختلف أسلوبهما من حيث اقتران الباء وعدمه، فقد اقترنت الباء في آية فاطر وتجردت في آية آل عمران، لأن الثانية في سياق زعم اليهود ألا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾. (٦٩)

فقيل في التفرد ببهتانهم: قد كُذبت رسل جاء كل واحد منهم بأنواع المعجزات، فترك إعادة الباء إشارة إلى أن الرسل قد جاءوا بالأنواع الثلاثة.

وأما آية فاطر فهي في مقام تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين أتوا بالآيات، ومنهم من أتى بالزبر والمواعظ، ومنهم من جاء بالكتاب المنير و الشرائع، فذكر الباء إشارة إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل. (٧٠)

فتبين أن القرآن العظيم نور وكتاب الله المنزلة نور، يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وتنير في ظلمة الجهل، ولما ذم الله ﷻ من يجادل ويخاصم بالباطل ليدحض به الحق ويقلد أئمة الضلال بيَّن أن جدالهم في الله بعد ظهور الأدلة أمر مستغرب، ويزيده غرابة وبشاعة إذا كان لا يقوم على دليل ولا معرفة، ولا هدى مرشدٍ، ولا وحي منير يستندون عليه يظهر لهم الحق وينير القلب والعقل(٧١).

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٧٢).

فتلك حجج باطلة ومجادلة ساقطة لكونها لا تعتمد على علم ولا هدى ولا كتاب من تستنير به.

المبحث الرابع: الرسول ﷺ نور يُهتدى به

الرسول ﷺ هو السفير من الله ﷻ إلى عباده وحامل وحيه، ومهمته إبلاغ الرسالة وإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، ودعوتهم إلى الخير، قال تعالى في بيان رسالة موسى عليه السلام وهو أحد

(٦٧) سورة آل عمران، الآية(١٨٤).

(٦٨) سورة فاطر،الآية(٢٥).

(٦٩) سورة آل عمران،الآية(١٨٣).

(٧٠) انظر: التحرير والتنوير(٢٢ / ٢٩٨).

(٧١) انظر. جامع البيان(١٧/ ٩٢)، تيسير الكريم الرحمن ص٥٣٣

(٧٢) سورة الحج، الآية(٨)، سورة لقمان الآية (٢٠).

ر سل الله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ . (٧٣)

فوظيفة الر سولﷺ هدا ية الخ لق وإ نارة الطر يق لهم وإزالة الظلمات وكشف الشبهات لما معه من النور والعلم والبيان، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ . (٧٤)

هذا وقد وردت الآيات القرآنية في و صف الر سول ﷺ بأنه نور يشرق ويضيء للناس طريقهم، نور قد جاء من عند الله وسراج منير، قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾، (٧٥)

فالنور هو الرسول ﷺ أنار الله به الحق، والكتاب ا لمبين هو القرآن العظيم بيّن في نفسه مبين للحق، (٧٦) ،

قال ابن جرير الطبري في تفسيره « يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم ﴾، يا أهل التوراة والإنجيل، ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾، يعني بالنور: محمدًا الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبيِّن الحق، ومن إنارته الحق تبيينُه لليهود كثيرًا مما كانوا يخفون من الكتاب، وقوله: ﴿ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾، يقول جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أنار لكم به معالم الحق، وكتاب مبين، يعني: كتابًا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله ».اهـ (٧٧)

وتقديمُ الجار والمجرور ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ على الفاعل ﴿ نُورٞ ﴾ للمسارعة إلى بيان كون المجيء من جهته ﷻ، وللتشويق إلى الجائي، وتنوين ﴿ نُورٞ ﴾ للتفخيم. (٧٨)

وكما وصف القرآن الكريم الرسول محمداً ﷺ بالنور وصفه أيضاً بأنه سراج منير يضيء لمن استضاء بضوئه، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان، قال تعالى في وصف نبيه ﷺ: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (٧٩). داعياً يدعو الخلق إلى عبادة ربهم بأمره وقدرته، وسراج يضئ للخلق يستضيئون بالنور الذي جاء هم به من عند الله.

قال ابن سعدي: « كو نه سراجاً منيراً، وذ لك يقت ضي أن الخ لق في ظل مة عظي مة لا نور يه تدى به في ظلماتها، ولا عالم يستدل به في جهالاتها حتى جاء الله ﷻ بـ هذا ا لنبي ال كريم ﷺ، فأ ضاء الله به ت لك الظلمات، وعلم به من الجهالات، و هدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم، فأ صبح أ هل الا ستقامة قد و ضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإ مام ﷺ وعر فوا به الخير وال شر، وأ هلَ ال سعادة من أ هل الش قاوة، وا ستناروا

---

(٧٣) سورة إبراهيم، الآية(٥).

(٧٤) سورة الشورى، الآية(٥٢).

(٧٥) سورة المائدة، الآية(١٥).

(٧٦) هذا هو الرأي الصحيح في معنى الآية،وعليه جمع من المفسرين، لأن العطف يقتضي المغايرة،وقيل:النور هو القرآن، وقيل هو الإسلام، انظر: التفسير الكبير (١١/ ١٨٩)

(٧٧) جامع البيان(٦/ ١٠٤).

(٧٨) انظر:إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٧).

(٧٩) سورة الأحزاب، الآية(٤٦) .

به، لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة » اهـ.(٨٠)

ولما كان المقام مقام دعوة وإرشاد إلى الهداية واستنارة من الظلمات وُصف ﷺ بأنه سراج، والسراج المصباح الزاهر نورُه الذي يوقد بفتيلة في الزيت فيُضيء إضاءة بليغة، وهذا الوصف من التشبيه البليغ، والقصد منه تقريب المشبَّه من إدراك السامع، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل وكان من مقتضى هذا التشبيه شدة الإضاءة ولذا وصفت الشمس بالسراج كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ . (٨١)

ولما كان من السُرُج ما لا يضيء جاء التأكيد بقوله: ﴿ مُّنِيرًا ﴾ ولأن التصريح به يفيد أنه ينير على من اتبعه ليسير في أعظم ضياء، ومن تخلف عنه كان في ظلمات مدلهمة. (٨٢)

المبحث الخامس: دين الله هو النور المبين.

اختار الله ﷻ الإسلام ديناً، وفضله على جميع الأديان، وأنزل به كتابه وأرسل به رسوله ﷺ بشيراً ونذيراً لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ودين الإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو الدين الكامل الشامل لكل ما يحتاج إليه البشر في عباداتهم ومعاملاتهم وأحوالهم الصالح لكل زمان ومكان، هذا وقد وردت الآيات القرآنية في وصف هذا الدين بأنه نور، نور من عند الله، وإنما سماه الله نوراً، لأن هذا الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ مشتمل على بيان الحق من الباطل في أحكامه وأخباره، وعلى الأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، وهذه كلها نور للعباد يستنيرون بها في حياتهم ويخرجون بها من ظلمات الجهل والضلال(٨٣)، كما قال تعالى﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.(٨٤)

والقرآن الكريم يكشف عمَّا يكنّه أعداء الإسلام من اليهود والنصارى ومن شاكلهم من المشركين من الممالاة والتألب على هذا الدين، ومحاولة إطفاء هذا النور بتكذيبهم وبأقاويلهم التي لا مستند لها، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .(٨٥)

---

(٨٠) تيسير الكريم الرحمن.ص٦٦٧ وابن سعدي: عبدالرحمن ابن ناصر السعدي من علماء القصيم برع في فنون شتى وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٣٧٦هـ. انظر: مشاهير علماء نجد ص(٢٩٢)، معجم المفسرين (١/٢٧٩).

(٨١) سورة نوح، الآية (١٦).

(٨٢) انظر: روح المعاني (٢٢ / ٤٦)، التحرير والتنوير (٢٢/ ٥٤).

(٨٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٣٣٥

(٨٤) سورة الأنعام،الآية (١٢٢).

(٨٥) سورة التوبة، الآية (٣٢).

ونور الله دينه وشرعه الذي أنار به الدنيا، وانقشعت به الظلمة، وانتشر في الآفاق حتى أنارت به قلوب العباد، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الله وشرعه بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم ليطفئه ويذهب أضواءه، كمن يريد إبطال نور الشمس بنفخه فيها، وليس له ذلك، وهذا أسلوب تهكم بهم وسخرية، وشرع الله هوالنور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، لأن الله ﷻ أراد إظهاره وإتمامه بانتشاره على الأديان كلها.(٨٦)

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.(٨٧)

وفي هذه جيء باللام في: ﴿ لِيُطْفِـُٔوا ﴾، والغرض هو تأكيد معنى الإرادة ،كقولك: جئتك لإكرامك، وجيء بالجملة الاسمية: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾، لإفادة ثبات تمام النور ودوامه، فكأن هذه الآية نتيجة لما أخبر في آية التوبة بأنه يأبى إلا إتمام نوره(٨٨).

المبحث السادس:النور نور الإيمان والهداية والعلم والطاعة

المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله وصدقوا بما جاءت به الرسل وانقادت جوارحهم له هم أولياء الله ﷻ الذين تولوه فلا يبغون عنه بدلاً، واتخذوه ولياً ونصيراً، فتولاهم ﷻ وأحسن إليهم فأخرجهم من ظلمات الكفر والضلال والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والهداية والطاعة والعلم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، (٨٩) وأما غيرهم وهم الكفار فإن وليهم الشيطان وحزبه الذي كان يعدهم ويمنيهم المواعيد الكاذبة والأماني الخادعة، فلما تولوه من دون الله كان لهم ولياً فأخرجهم من نور الإيمان والهداية والطاعة والعلم إلى ظلمات الكفر والضلال والمعاصي والجهل فكان ذلك سبباً في أن مصيرهم إلى النار وجزاءهم الخلود فيها،(٩٠)

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ،(٩١)

وهذا النور العظيم نور الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته والعلم به، والهداية إلى صراطه المستقيم والطاعة والعبودية والخضوع له ﷻ، ومن يُوفق إليه فإن الله يوفقه بإرادته وتوفيقه لسلوك سُبُل النجاة والسلامة من العذاب ويوصله إلى دار السلام وهي الجنة، ويجنبه ظلمات الكفر والجهل والضلال والمعاصي(٩٢).

---

(٨٦) انظر: إرشاد العقل السليم (٢/ ٥٤٥)، تيسير الكريم الرحمن ص٣٣٥، التحرير والتنوير (١٠/ ١٧١).

(٨٧) سورة الصف، الآية (٨).

(٨٨) انظر: الكشاف(٤/ ٥٢٥) ،نظم الدرر(٢٠/ ٣٠) .

(٨٩) سورة البقرة، الآية (٢٥٧).

(٩٠) انظر: جامع البيان(٣/ ١٥)، تيسير الكريم الرحمن ص١١١

(٩١) سورة البقرة، الآية (٢٥٧).

(٩٢) انظر: معالم التنزيل (١/ ٢٤١)، تيسير الكريم الرحمن ص١١١

قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، (٩٣) والضمير في: ﴿ بِهِ ﴾ عائد على الرسول ﷺ، أو القرآن الكريم أوعليهما(٩٤)، الوارد في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾، (٩٥) فمن اهتدى بهدى الله واتبع رضاه وفقه لسلوك سُبُل النجاة والسلامة من العذاب وأوصله إلى دار السلام، وأخرجه من الظلمات إلى النور.

ولا ريب أن الرسول الكريم ﷺ وهو السراج المنير سبب لإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال والكفر والمعاصي إلى نور الإسلام والعلم والهداية، كما قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾. (٩٦)

قال ابن جرير الطبري: « أي: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصِّر به أهل الجهل والعمَى سُبُل الرشاد والهدى » اهـ.(٩٧)

يهديهم النبي ﷺ بهذا القرآن الكريم والذكر الحكيم، ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلال والمعاصي إلى نور الإيمان والهداية والطاعة، قال تعالى: ﴿ رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾. (٩٨)

وإنما خص المؤمنين بالإخراج تخصيصاً لهم واهتماماً بشأنهم وإن كان الإخراج لعموم الناس. (٩٩)

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٠٠).

وهذا من لطفه ورأفته وعنايته أيضاً بالمؤمنين أن أنزل عليهم الآيات البينات والدلائل الساطعات على عبده ونبيه وخيرته من خلقه، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال والكفر والمعاصي إلى نور الإيمان والطاعة والهداية. (١٠١)

ومن لطفه ورحمته ﷻ أنه لما أرسل رسوله موسى عليه السلام بالآيات الواضحات والمعجزات الباهرات وكان ذلك سبباً في إخراج قومه من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الطاعة والإيمان والعلم والهداية.(١٠٢)

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ ﴾

---

(٩٣) سورة المائدة، الآية (١٦).

(٩٤) انظر: فتح القدير (٢ / ٢٣)

(٩٥) سورة المائدة، الآية (١٥).

(٩٦) سورة إبراهيم، الآية (١).

(٩٧) جامع البيان(١٣/ ١٢٠).

(٩٨) سورة الطلاق، الآية (١١).

(٩٩) انظر: التحرير والتنوير(٢٨/ ٣٣٨).

(١٠٠) سورة الحديد، الآية (٩).

(١٠١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٨

(١٠٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٧٨).

.(١٠٣) فكانت رسالة موسى عليه السلام سبباً في إخراج قومه من الظلمات إلى النور.

ومن لطفه وإحسانه ﷻ أن جعل من صلاته وثنائه على عباده وأوليائه المتقين، ومن صلاة ملائكته ودعائهم لهم ما يكون سبباً في إخراجهم من ظلمات الجهل والضلال والمعاصي إلى نور الإيمان والعلم والطاعة، وهذا لا شك أنه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده الصالحين الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ووفقهم لهذا الفضل العظيم،

قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾،(١٠٤) وفعل المضارع: ﴿ يُصَلِّى ﴾ يفيد التجدد والاستمرار، كما أن إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، وهم في نور الإيمان والطاعة للاستزادة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾(١٠٥)،(١٠٦)، فمن اهتدى بهدى الله انشرح صدره للإسلام واطمئن قلبه لمعرفة ربه وانقاد لطاعته فأصبح على نور وبصيرة ويقين واهتداء بنور الإسلام، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١٠٧)، وإنما ذكر شرح الصدر باستضاءته بنور الإيمان ولم يذكر القلب الذي فيه ليدل على شدته وكثرته التي اتسعت فملأت الصدر فضلاً عن القلب، أما القسوة فقد ذكر فيها القلب ليدل على فساده، وأنه بفساده فساد البدن كله، وإسناد شرح الصدر إلى الله ﷻ دليل على أن ذلك بإرادته وتوفيقه وأنه خير، بخلاف قسوة القلب فإنها شر محض، وكان مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق وإنما وصفهم بقسوة القلوب لأن ذلك يفيد عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه مشعر بقبول شيء ولو قليلاً ،(١٠٨)

ولما نادى ﷻ المؤمنين عموماً وأمرهم بلزوم تقواه والإيمان برسوله ﷺ بين أثر ذلك وهو حصول الكفلين، وهما الأجران العظيمان، لا يعلم قدرهما إلا الله وحصول النور من العلم والهدى والطاعة الذي يمشي عباده المتقون به في ظلمات الجهل والضلال والمعاصي وزيادة على ذلك نور الآخرة عندما يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وحصول مغفرة الذنوب وتكفير السيئات،

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١٠٩)، قيل: الخطاب لأهل الكتاب نظراً لسياق الآيات، والأجران لإيمانهم بالأنبياء السابقين وبمحمد ﷺ، وقيل: الخطاب لعموم المؤمنين، وهو الظاهر لتصدير الآية بندائهم، والأجران فضل وإكرام. والتعبير بـ:

---

(١٠٣) سورة إبراهيم،الآية (٥).

(١٠٤) سورة الأحزاب، الآية (٤٣).

(١٠٥) سورة مريم، الآية (٧٦).

(١٠٦) انظر: جامع البيان (٢٢/ ١٣)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧، التحرير والتنوير(٢٢ / ٥٠).

(١٠٧) سورة الزمر، الآية (٢٢).

(١٠٨) انظر: نظم الدرر (١٦/ ٤٨٥)، روح المعاني (٢٣/ ٢٥٧)، التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٩).

(١٠٩) سورة الحديد، الآية (٢٨).

﴿ تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ تشبيهٌ لحالهم في العلم والهدى بحال قوم يمشون في طريق بليل يخشون التيه والضلال، فيعطون نوراً يستضيئون به فيبصرون فيأمنون الضلال(١١٠)، وهذا النور العظيم هو نور الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، ونور العلم به ﷻ، وبآياته، ونور الهداية إلى صراطه المستقيم، ومن منحه الله ﷻ من هذا النور فاستنار قلبه بذلك فهو الموفق لكل خير، وهذه هي السعادة الحقيقية التي يتحقق بها رضوان الله وتحصل بها النجاة والسلامة من العذاب، والوصول إلى دار السلام، وأن يسلم صاحبها من ظلمات الكفر والجهل والضلال والمعاصي، وهذا النور ليس لكل أحد، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (١١١)، فمن حرم، ولم يوفق للاهتداء لنور الطاعة والإيمان والعلم، والتنعم بنعمة الطاعة ولم يسعد بهذه السعادة فهو الميت حقيقة، الغارق في ظلمات الكفر والضلال إلا من أحياه الله بنور الإيمان والهداية والعلم والطاعة فهو يستضئ بهذا النور، ويمشي به بين الناس متبصراً في أموره مهتدياً لسبيله، عالماً بسبل النجاة سالكاً لها مبتعداً عن طرق الغي والضلال، فهل يستوي هذا بمن هو في ظلمات الجهل والضلال والمعاصي منغمساً فيها قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك؟

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١١٢)،

فأن سأل سائل: لم يسلك هؤلاء المسالك المظلمة، طرق الغي والمعاصي والضلال؟ ومن يرضى أن يبقى في هذه الظلمات؟ فالجواب هو قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، أي: أن الشيطان زين لهم أعمالهم وحسن لهم القبائح حتى صارت لهم صفة لازمة لا تنفك عنهم أبداً. (١١٣)، فلا يستوي من هو على نور من ربه ومن هو منغمس في ظلمات الضلال والردى، كما لا يستوي الأعمى والبصير، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۖ ﴾، (١١٤)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾، (١١٥)

قال ابن جرير الطبري في تفسير آية الرعد: « يقول تعالى ذكره: وهل تستوي الظلماتُ التي لا ترى فيها المحجة فتسلك، ولا يرى فيها السبيل فيُركب، والنور الذي تبصر به الأشياء، ويجلو ضوؤه الظلام؟ يقول: إن هذين -لا شك- لغير مستويين، فكذلك الكفر بالله إنما صاحبه منه في حَيرة يضرب أبدًا في غمرة لا يرجع منه إلى حقيقة، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء يعمل على علم بربه،

---

(١١٠) انظر: روح المعاني (٢٧/ ١٢٣)، تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٣، التحرير والتنوير(٢٧/ ٤٢٩).

(١١١) سورة النور،الآية (٤٠).

(١١٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٢).

(١١٣) انظر: نظم الدرر(٧/ ٢٥٢)، تيسير الكريم الرحمن ص٢٧١.

(١١٤) سورة الرعد، الآية (١٦).

(١١٥) سورة فاطر، الآية (٢٠).

ومعرفة منه بأن له مثيبًا يثيبه على إحسانه ومعاقبًا يعاقبه على إساءته ورازقًا يرزقه ونافعًا ينفعه» اهـ.(١١٦)

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيرًا أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به.

هذا وإن لفظ النور من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم وتعددت معانيه وهذا الأمر مما قد يشكل على الكثير، فكانت هذه الدراسة من جمع ونقل وبيان سبيلاً إلى كشف هذه الألفاظ المتفقة في ظاهرها والمتداخلة والمتداخلة، والوصول إلى معانيها المختلفة بشيء من النظر والتأمل والتدبر فيما ورد منها في كتاب الله ﷻ.

ويمكن أن أوجز أبرز ما توصلت إليه في هذا البحث من نتائج في النقاط التالية:

أولاً: أن النور في لغة العرب يدور على معانٍ أشهرها: الإضاءة التي تعين على الإبصار، وسرعة التحرك، والاضطراب، والنفور من الشيء، وأنه يقابل الظلمة.

ثانيا: أن لفظ النور جاء في القرآن الكريم منكراً ومعرفاً في تسعة وأربعين موضعاً، تقصتها هذه الدراسة موضعاً موضعاً.

ثالثاً: أن النور في وروده في كتاب الله ﷻ شمل النور الحسي الذي يساعد على الإبصار كنور الشمس والقمر، والمعنوي وهو ما يعقل بعين البصيرة كنور الهداية والطاعة.

رابعاً: أن النور بنوعيه الحسي والمعنوي كما أنه يكون في الدنيا كذلك يكون في الدار الآخرة، فيسعى المؤمنون بنورهم في عرصات يوم القيامة وعلى الصراط.

خامساً: اجتمع لكلمة النور في القرآن الكريم من المعاني ما يقرب من العشرة، تناولتها هذه الدراسة في ستة فصول، اتضح من خلالها أن النور حقيقته الضياء والاستنارة، وأن النور اسم من أسماء الله ﷻ الحسنى ومن صفاته العليا، وأنه وصف للقرآن العظيم وغيره من الكتب المنزلة، وهو أيضاً من صفات نبينا الكريم ﷺ وصفات ديننا القويم، وأن النور في الحقيقة هو نور الإيمان والهداية والعلم والطاعة.

سادساً: أن النور في هذه المعاني أغلبه معنوي، أي أنه بمعنى نور البصيرة مما يحمل معنى الهدى والعلم والطاعة والإيمان والسعادة وانشراح الصدر وهوالأجدر بالأهمية والتأمل.

هذا وقد أظهرت هذه الدراسة مدى أهمية البحث بلفظ من الألفاظ المتعددة المعنى مما حواه كتاب الله، واهتمام المفسرين بذلك، كما أظهرت هذه الدراسة شيئاً مما اشتمل عليه كتاب الله من أسرار بلاغية، ونكات بديعية، ولطائف خفية لا تنفد ولا تنحصر، فمن تدبر كتاب الله العظيم، وتأمل آياته زاده ذلك إيماناً ويقيناً وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم، وهذا سرٌ من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وختامًا أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١١٦) جامع البيان(١٣/ ٨٩).

فهرس المصادر والمراجع

١-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي، ت عبدالقادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٢-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ.

٣-البحر المحيط، أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٤-البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٥-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٦-التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.

٧-التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٨هـ.

٨-تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

٩-التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث، لبنان.

١٠-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ.

١١-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت، لبنان، ١٤١٢ هـ.

١٢-روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الشهاب محمود بن عبدالله الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ.

١٣-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤٠٦هـ

١٤-شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٥-الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.

١٦-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.

١٧-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت محمد فؤاد عبدالباقي نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ١٤٠٠هـ.

١٨-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة المعارف، الرياض.

١٨-القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦ هـ.

١٩-كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي التهانوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط١ ، ١٤١٨هـ.
٢٠-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٢١-لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٢-مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، اختصار: محمد ابن الموصلي، دار الفكر.
٢٣-مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ،دار اليمامة، ط٢ ١٣٩٤ هـ.
٢٤-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
٢٥-معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٢٦-معجم المفسرين، عادل نويهض، م نويهض الثقافية، لبنان، ١٤٠٩هـ.
٢٧-معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
٢٨-معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
٢٩-ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ت سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م.
٣٠-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢ ،١٤١٣هـ.
٣١-الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، لابن القيم، ت إسماعيل الأنصاري نشر، رئاسة إدارات البحوث العلمية، الرياض.

المقام في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام سيد المرسلين وإمام المتقين صاحب المقام

المحمود، والحوض المورود، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإنَّ كتاب الله كتابٌ حكيم،لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر في آياته وقلب صفحاته زاده ذلك إيماناً ويقيناً ، وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

وإنَّ من أعظم مجالات تدبره النظر في تلك الألفاظ التي ترد في القرآن الكريم دالة على معان متعددة ومدلولات معينة.

ومن الألفاظ الجديرة بالبحث والدراسة لفظ المقام الذي تكرر وروده في كتاب الله،وتعددت إطلاقاته فجاء مضافاً إلى الله تعالى، كما أنَّ للملائكة الكرام مقامات معلومة ، ولبعض الرسل والأنبياء كذلك مقامات متنوعة أعظمها مقام رسولنا الكريم ﷺ وكذلك مقامات المؤمنين أو الكافرين .

ولما كان للمقام ارتباط عظيم في دين الإسلام،كالخوف من مقام الله ﷻ ومن الوقوف بين يديه في ذلك اليوم العظيم، وكذلك ارتباطه بأجل العبادات وهي الصلاة كما في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.(١) وكذلك تكرُّرُ هذا اللفظ وتردُّده في كتاب الله تعالى مع تنوع دلالاته كان ذلك دافعاً لي أن أشارك في هذا المضمار، وأن أغوص في أعماق هذا الكتاب المعجز. فاستعنت بالله تعالى على بحث هذا الموضوع بتقصّي مواطنه التي ورد فيها لفظ المقام في كتاب الله وبيان معانيه وما ذكره المفسرون تجاهه ، وهو عمل جليل متعلق بكتاب الله ﷻ أقدمه خدمة لهذا الكتاب العظيم ، وإسهاماً في إبراز شيء من جوانبه وتجلية لأسراره وهداياته .

منهج البحث:

المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

- أُورد في كل مبحث الآية أو الآيات المتعلقة به، ثم أبين معناها ووجه الدلالة منها، وأبرز ما فيها من أسرار بلاغية وهدايات قرآنية مما يذكره أهل التفسير.

- عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

- تعريف الأعلام تعريفاً موجزاً.

- توثيـــق أقوال أهل العلم من مصادرها.

- وضع ثبت للمصادر والمراجع في نهاية البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

١- تعلقه بكتاب الله ﷻ وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

٢- أن الكتابة في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن، أو موضوع في سورة معينة مما برز مؤخراً خدمة لكتاب الله وإبرازاً لهداياتـــه وكشـــفاً لأسراره، وقد جاءت هذه الدراسة في معنى كلمة المقام وإطلاقاتها ودلالاتها لتكون دراسة تفسيرية، مجليةً ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، ومبرزةً ما حوته من أوجه بلاغية.

٣- أن لفظ المقام قد تعدد وروده في القرآن الكريم مما يدل على أهميتـــه وكثـــرة دلالاته، ولما له من أهمية وارتباط في دين الإسلام،كالخوف من مقام الله ﷻ ومن الوقوف بين يديه في ذلك اليوم العظيم، وكذلك ارتباطه بأجل العبادات وهي الصلاة كما في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.(١)وكذلك تكرر هذا لفظ المقام وتعدد متعلقاته.

لهذا الأمر ولرغبتي في خدمة كتاب الله تعالى عمدت إلى الشروع في دراسة هـــذا الموضوع وجمع شتاته، إسهاماً في إبراز الهدايات القرآنية ، فاستعنت بالله فنظمت خطته في مقدمة وتمهيد وثمانية مباحث وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع .

المقدمة وفيها: أهمية البحث وسبب الكتابة فيه،وخطته،والمنهج المتبع .

التمهيد وفيه: معنى المقام في لغة العرب .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

المبحث الأول: مقام الله سبحانه وتعالى .

المبحث الثاني: مقام الملائكة عليهم السلام .

المبحث الثالث: مقام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

المبحث الرابع: مقام نوح عليه السلام .

المبحث الخامس: مقام الخليل إبراهيم عليه السلام .

المبحث السادس: مقام سليمان عليه السلام .

المبحث السابع : مقام المتقين .

المبحث الثامن: مقام الكافرين .

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

ثبت المصادر والمراجع.

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد وفيه: معنى المقام في لغة العرب .

المَقام- بالفتح- مصدر ميمي ، من قام يقوم مقاماً، ويكون اسم مكان كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾،(١) أي: من موضع قدميه،(٢) أو زمان نحو قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾،(٣) مدة مكثي فيكم.(٤)

والمَقامة – بالفتح – الجماعة من الناس ، رجال قيام ، ونساء قيم. (٥)

وتطلق المَقامة على الخُطبة أو العِظة ونحوهما وعلى القصة القصيرة المسجوعة التي غالباً ما تشتمل على عِظة أو مُلحة كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم ويسمونها المقامات. (٦)

والمَقام: المجلس الذي يُجلس فيه،قال تعالى: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ ﴾،(٧) أي: من مجلسك الذي قعدت فيه للحكم.(٨)

وأما المُقام – بالضم- فهو مصدر أقام يقيم مُقاماً ومُقامة وهو بمعنى الإقامة كما في قوله تعالى: ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ ﴾ ،(٩) أي: قراراً وإقامة.(١٠)

وقال بعض أهل اللغة: " المُقامة بالضم المجلس يؤكل فيه ويشرب، والمَقامة بالفتح المجلس الذي يتحدث فيه" .(١١)

ويؤيد ما ذُكر في معنى المقام ويجليه بصورة أوضح الجوهري (١) في الصحاح

---

(١) سورة البقرة ،الآية (١٢٥).

(٢) ينظر: الوجيز للواحدي (١/١٣٠).

(٣) سورة يونس،الآية (٧١).

(٤) ينظر: معالم التنزيل (٤/١٤٣).

(٥) ينظر: العين (٥/٢٣٢)، تهذيب اللغة (٩٢٦٧)،المفردات (٢/٢٧٢)، لسان العرب (١/٥٦٠) مادة (قوم).

(٦) ينظر: المعجم الوسيط (٢/٧٦٨).

(٧) سورة النمل،الآية (٣٩).

(٨) ينظر:غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٤ .

(٩) سورة الفرقان،الآية (٧٦).

(١٠) ينظر:جامع البيان (١٩/٢٩٧).

(١١) الفروق اللغوية ص٥٣٧

حيث يقول: " المُقامة بالضم: الإقامة. والمَقامة بالفتح: المجلس، والجماعة من الناس. وأما المُقام والمَقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبَّه ببنات الأربعة، نحو:دحرج ،وهذا مدحرجنا.

وقوله تعالى:﴿ **لاَ مَقَامَ لَكُمْ** ﴾، (٢) أي: لا موضع لكم. وقرئ: ﴿ **لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ بالضم، (٣) أي:لا إقامة لكم. وقول لَبيد (٤) :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنَىً تَأَبَّدَ غَولُهَا فَرِجَامُهَا

يعنى: الإقامة ".(٥)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن المَقام بالفتح من الفعل الثلاثي قام ، وبالضم من الفعل الرباعي أقام ، ولكل معنى يدل عليه ، وقد جاء لفظ المقام في القرآن الكريم بالفتح وبالضم على ما يدل عليه، وهو ما سيتبين من خلال المباحث التالية:

---

(١) الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر ، كان من أعاجيب الزمان، ذكاء وفطنة وعلماً، وكان إماماً في اللغة والأدب، وخطه يضرب به المثل؛ توفي سنة (٣٩٣هـ)،ينظر: سير أعلام النبلاء (٨٠/١٧)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص٣٣٦

(٢) سورة الأحزاب،الآية (١٣).

(٣) وهي قراءة حفص عن عاصم ، والباقون بالفتح ، ينظر: السبعة ص٥٣٠ التيسير في القراءات السبع ص١١٧

(٤) ينظر: ديوانه ص١٠٧ ولَبيد بن ربيعة ، الشاعر المشهور، أدرك الإسلام، وهو صحابي جليل، كان فارساً شجاعاً سخياً، مات سنة ٤١ هـ. ينظر: الاستيعاب (٤١٤/١) الإصابة (٦٧٥/٥) ،ومعنى عفت: أي درست . المحل: مكان الحلول. ومنىً: جبل أحمر عظيم يشرف على ما حوله من الجبال وهو قريب من طخفة في بلاد كلاب. الغول: اسم موضع. الرجام: جبل مستطيل بناحية طخفة وفي أصله ماء عذب تشرب منه بنو جعفر قوم لبيد. ينظر: ديوانه بتعليق حمدو طمّاس ص١٠٧

(٥) الصحاح (٢٩٥/٦) ، مادة (قوم).

المبحث الأول: مقام الله سبحانه وتعالى .

قال الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ،(١) وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ،(٢) وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ،(٣)

هذه الآيات ورد فيها لفظ المقام مضافاً إلى المولى جل وعلا ، وكلها جاءت في سياق الخوف من الله – سبحانه وتعالى- ، والخوف من الله تعالى يعني:استشعار عظمته ومراقبته والوقوف بين يديه، وهو من أجل منازل العبودية و أنفعها ، إذ هو شعار أنبياء الله ورسله – عليهم الصلاة والسلام-، وكذلك هو شعار الصالحين من بعدهم. فالخوف باعث قوي على عبادة الله عز وجل، وسبب في البعد عن معاصيه، ورادع في الكف عن شهوات النفس، فإن النفس الأمارة بالسوء لا يردعها إلا قوة خوف من خالقها سبحانه وتعالى .

وهذه الآيات التي ورد فيها لفظ المقام مضافاً إلى الله –عز وجل- قد جاءت في سياق الخوف ، وفي كل آية أشارة إلى ثمرة الخوف من الله وأثره على الخائف .

ففي الآية الأولى الواردة في سورة الرحمن والتي جاءت في سياق ثواب المتقين الخائفين الذين تركوا ما نهى الله عنه، وفعلوا ما أمرهم به، والتي يفيضها الله جل وعلا لهم في الآخرة ورد لفظ المقام فيها مضافاً إلى الله جل جلاله فهو مقام الله سبحانه وتعالى.

و(مَقَامَ) مصدر ميمي بمعنى القيام أضيف إلى الفاعل الذي هو الله سبحانه وتعالى . أي: ولمن خاف قيامَ ربه عليه ومراقبتَه لأعماله وإحصاءَها عليه ومجازاتَه له. وهذا القيام

(١) سورة الرحمن، الآية (٤٦).

(٢) سورة النازعات، الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) سورة إبراهيم ، الآيتان (١٣-١٤).

كالقيام الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .(١) أو يكون الفاعل العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه، على أنه خاف عاقبة الذنب حينما يقوم الخلق كلهم بين يدي رب العالمين، يوم القيامة للحساب .وهذا القيام كالقيام الوارد في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .(٢) وفي إضافة المقام إلى الرب على الوجهين تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعاً عظيماً.

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين لأنه وعد من الله جل وعلا للخائفين قيام ربهم على أحوالهم واطلاعه عليهم ومراقبته لأعمالهم ومجازاته لهم ، وللخائفين ذلك الموقف الذي يقفون فيه للحساب.فالمقام مقام الله على عبده وهو مقام المراقبة ،كما أنه مقام العبد بين يدي ربه وهو مقام المحاسبة . وهذا المقام مقام مكان وزمان ، فقيامه جل وعلا عليهم بالتدبير ، ومراقبته واطلاعه عليهم في كل مكان وزمان ، وهو أيضاً مكان قيامهم بين يدي ربهم في ذلك الموقف الذي يقفون فيه للحساب في زمانٍ معلوم لهم . (٣)

فمن خاف قيام ربه عليه ومقامه بين يديه فدعاه خوفه إلى ترك ما نهى الله عنه ، وإلى فعل أمره به، فإن له جنتين من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما،(٤) إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات. (٥)

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ،(٦) فهي قريبة من الآية الأولى إلا انها جاءت بصيغة الشرط

---

(١) سورة الرعد ، الآية (٣٣).

(٢) سورة المطففين ، الآية (٦).

(٣) ينظر: الكشف البيان (١٨٩/٩) ، معالم التنزيل (٤٥١/٧)، نظم الدرر (٣٩٣/٧) ، فتح القدير (١٩٨/٥)، أضواء البيان (٥٠٦/٧).

(٤) يشهد لذلك ما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:"جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما،وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن " رواه البخاري في صحيحه (١٨٤٨/٤) سورة الرحمن برقم (٤٥٩٧) ، ومسلم في صحيحه (١٩٣/١) كتاب الإيمان،باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، برقم (١٨٠).

(٥) ينظر:تيسير الكريم الرحمن ص٨٣١

(٦) سورة النازعات، الآيتان (٤٠-٤١).

المترتب عليه الجزاء وفيها بيان دافع الخوف وهو نهيُ النفس عن الهوى.

وقد جاء ذكر المقام فيها مضافاً إلى الرب سبحانه وتعال، والمعنى: أن من خاف قيامَ ربه عليه ومراقبتَه لأعماله وإحصاءَها عليه ومجازاتَه له ، أو خاف قيامه بين يدي ربه حينما يقوم الخلق كلهم بين يدي رب العالمين فقد سلم ونجا وكانت عاقبته حسنى .

فالمقام مقام الله على عبده وهو مقام مراقبته له وعظمته وجلاله ، ومقام العبد الخائف بين يدي ربه وهو مقام المحاسبة . وهذا المقام شامل للمكان والزمان ، فقيام الرب جل وعلا بمراقبته واطلاعه على عبده في كل مكان وزمان ، وقيام العبد بين يدي ربه في ذلك الموقف في يوم قد تقرر زمانه ومكانه. (١)

فمن خاف قيام ربه عليه وعظمته وجلاله، وخاف قيامه بين يدي ربه عز وجل، فأثَّر هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها، الذي يقيدها عن طاعة الله، وزجرها عن المعاصي والمحارم التي تشتهيها، وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير، و لم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها و لم يغتر بزخارفها وزينتها فإن الجنة مكانه الذي يأوي إليه، ومستقره ومقامه، لا غيرها . (٢)

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ،(٣) فقد جاءت في بيان ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم، وأن العاقبة والنصر للرسل وأتباعهم لهم على أعدائهم، وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم. (٤)

---

(١) ينظر:الجامع لأحكام القرآن (٢٠٧/١٩)، البحر المحيط (٣١٨/٨)، السراج المنير (٣٥١/٤)، فتح القدير (٥٣٥/٥)

(٢) ينظر: الكشاف (٦٩٨/٤)، روح المعاني (٣٦/٣٠)، تيسير الكريم الرحمن ص٩١٠

(٣) سورة إبراهيم ، الآيتان (١٣-١٤).

(٤) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١٨١/٤)، أضواء البيان (٢٤٤/٢) .

و"ذلك" اسم إشارة عائد على ما تقدم ،أي: ذلك القضاء الذي قضيت لمن خاف مقام الله عز وجل ، أي: قيامه ومراقبته واطلاعه وعظمته وجلاله ، أو لمن خاف وقوفه بين يدي الله للحساب والجزاء ، والوعيد ما توعد به من عصاه وخالف أمره من أنزال المُثلات به. (١)

فالمقام الوارد في الآيات المتقدمة مقام الله جل وعز، أضيف إليه في سياق التخويف، على وجه التفخيم للمقام والتهويل العظيم، ليقع من النفوس موقعاً عظيماً، وأنه مقام عظيم القدر، وهو مقام مراقبة الله لعبده واطلاعه عليه وعظمته وجلاله في كل زمان ومكان، وهو أيضاً مقام محاسبة للعبد الخائف بين يدي ربه في ذلك الموقف الذي قد تقرر زمانه ومكانه ، والله أعلم.

(١) ينظر: التفسير الكبير (٧٩/١٩)، البحر المحيط (٤٠١/٥).

المبحث الثاني: مقام الملائكة عليهم السلام .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.(١)

الملائكة خلق من خلق الله تعالى، خلقهم ﷻ من نور، عباد مكرمون،لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملُّون ولا يتعبون ولا يتناكحون، ولا يعلم عددهم إلا الله. (٢) .

وهم خلق كرَّمهم الله فقال عنهم :﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾،(٣) ووصفهم بسرعة الاستجابة لأمره، والبعد عن معصيته أو مخالفة أمره فقال:﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٤)، ونفى عنهم وصفهم بكونهم بنات الله ﷻ، ولا أولاداً له، ولا شركاءَ معه، قال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .(٥) وقال تعالى:﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.(٦) تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علواً كبيراً .

وهذه الآيات جاءت في إبطال ما كان يعتقده المشركون في الملائكة بأنهم بنات الله كما قال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .(٧)

---

(١) سورة الصافات، الآيات (١٦٤ - ١٦٦).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٧٦/١)، فتح الباري (٣٠٦/٦) .

(٣) سورة الأنبياء، الآية (٢٦).

(٤) سورة التحريم، الآية (٦).

(٥) سورة الصافات، الآيات (١٥١-١٥٤).

(٦) سورة الأنبياء، الآية (٢٩).

(٧) سورة الصافات، الآيات (١٥١-١٥٤).

ثم نزَّه الله تعالى ملائكته الكرام مما نسب إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم وأنهم بنات الله. وأخبر ﷻ عنهم أنهم قد بلغوا الغاية في العلم والمعرفة، والعبادة والطاعة والخضوع .(١) .

وقوله:﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾،فيه حذف تقديره:وما منا أحد، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم، فحذف المبتدأ للعلم به. أو وما منا إلا من له مقام معلوم،فحذف الموصوف وهو المبتدأ وأقيمت الصفة مقامه وهو كثير. (٢)

والمقام المعلوم: مكان الملائكة في السماء يعبدون ربهم فيه لا يتجاوزونه، يوضِّح ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي ﷺ:"ما في سماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم". فذلك قول الملائكة:﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ .(٣)

وجاء أيضاً عن ابن مسعود ﷺ قال: إنَّ من السموات لسماءً ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه قائماً أو ساجداً ، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾.(٤)

فالمقام المعلوم: أن لكل ملك من الملائكة مكاناً في السماء يعبد الله تعالى فيه لا يتعداه.

قال السمرقندي: " ﴿ وَمَا مِنَّآ ﴾، معشر الملائكة ﴿ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، يعني: مصلى

---

(١) ينظر: روح المعاني (١٥٣/٢٣).

(٢) ينظر: الكشاف (٦٨/٤) ، الدر المصون (٤٨٨٦/١).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٦/٢١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢/١٢) ،وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٧) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه. وعائشة أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق، تزوجها النبي ﷺ قبل الهجرة، ودخل بها في شوال سنة اثنتين، توفيت سنة (٥٧ هـ).ينظر:سير أعلام النبلاء (١٣٥/٢)، الإصابة(١٦/٨).

(٤) رواه عبدالرزاق في تفسيره (١٥٨/٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٧/٢١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٣/١٢) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٨/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧/١)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٧) وزاد نسبته للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر . وابن مسعود:عبد الله بن غافل الهذلي ﷺ من السابقين إلى الإسلام توفي سنة(٣٢)، ينظر: الاستيعاب (٣٠٨/٢)،الإصابة (٣٦٠/٢) .

معروفاً في السماء يصلي فيه، ويعبد الله تعالى فيه ". (١)

وقال ابن كثير" أي: له موضع مخصوص في السموات لا يتجاوزه ولا يتعداه". (٢)

وقد يراد بالمقام المرتبة والمنزلة والوظيفة التي تكون للملك ، فما من ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها،فمنهم الموكل بالأرزاق ، ومنهم الموكل بالآجال ، ومنهم من يتنزل بالوحي وهكذا . (٣)

وقيل: المقام واحد مقامات العبادة المختلفة كالخوف والرجاء والمحبة والرضا.

وقيل: لكل منهم مقام معلوم في القربة والمشاهدة. (٤)

فمقام الملائكة المعلوم هو المكان من السماء الذي يتعبد الملكُ من الملائكة اللهَ تعالى فيه لا يتعداه، وذلك لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعُدات تجأرون إلى الله ".(٥)

أو يراد به المنزلة والمكانة من العبادة والتقريب والتشريف

قال ابن جزي:" والمقام المعلوم يحتمل أن يراد به المكان الذي يقومون فيه ، لأن منهم من هو في السماء الدنيا وفي الثانية وفي السموات وحيث شاء الله.ويحتمل أن يراد به

---

(١) تفسير السمرقندي (١٤٧/٣).والسمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، أبو الليث، من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين. له تصانيف نفيسة، منها " تفسير القرآن، توفي سنة (٤٧٣هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٦)، طبقات المفسرين للأدنروي ص٩١

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٣/٧).وابن كثير: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر الدمشقي،كان مفسراً محدثاً مؤرخاً،توفي سنة(٧٧٤هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي(١١١/١)، البدر الطالع للشوكاني (١٥٣/١).

(٣) ينظر: روح المعاني (١٥٣/٢٣)، صفوة التفاسير (١١١/٣) .

(٤) ينظر: معالم التنزيل (٦٤/٧)، لباب التأويل (٢٩/٤).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٣/٥)، والترمذي في سننه (٥٥٦/٤)كتاب الزهد برقم (٢٣١٢)، وابن ماجه في سننه (١٤٠٢/٢) باب الحزن والبكاء ،برقم (٩٠٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٢/٧)،باب ما كان مطالباً برؤية مشاهدة الحق مع معاشرة الناس بالنفس والكلام برقم (١٣١١٥).قال الألباني: حديث حسن دون قوله والله لوددت، فإنه مدرج.ومعنى (أطَّت)،الأطيط:صوت الأقتاب وأطيط الإبل أصواتها،والصعدات: الطرق، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١٢٩/١)،(أطط)،(٥٤/٣)، (صعد).

المترلة من العبادة والتقريب والتشريف ". (١)

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾،(٢) أي: الملائكة يكونون صفوفاً متراصين بعضهم جنب بعض في طاعة الله تعالى،من صلاة وغيرها.وكذلك يصفون أجنحتهم في السماء، ينتظرون أمر الله ﷻ .وهم المسبحون المصلون المعظمون لله المترهون الله عن كل ما لا يليق به. وفي وصفهم بهذين الوصفين رد على من زعم أنهم بنات الله ، وشركاء الله، وذلك لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له ﷻ. (٣)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ برَّأ ملائكته الكرام البررة –عليهم السلام– عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد مكرمون، لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلا له مقام معلوم وموضع في السماء يتعبد الله به ساجداً أو راكعاً ، وما من أحد منهم إلا له مقام تدبير قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وما من أحد منهم إلا له مقام ومكانة في القرب والشرف من الله ﷻ، فهم في حيز العبودية وليس لهم من الأمر شيء ، والله أعلم .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٣٥).وابن جزي: هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، من أهل غرناطة،مفسر فقيه أصولي مالكي، من تصانيفة : القوانين الفقهية والتسهيل لعلوم التنزيل، توفي سنة (٧٤١هـ)، ينظر: الديباج المذهب لابن فرحون(١/١٥٤)، نفح الطيب للتلمساني (٥/٥١٤)

(٢) سورة الصافات، الآيتان (١٦٥-١٦٦).

(٣) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٣٦)، أضواء البيان (٦ /٣٠١).

المبحث الثالث: مقام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ ،(١)

يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقام الصلاة والمداومة عليها وبقراءة القرآن وبالتهجد به من الليل، ويرتب على ذلك وعده بالمقام المحمود، لأنه هذه الصلاة وهذا القرآن والتهجد به ، وهذه الصلة الدائمة بالله هي الطريق الموصل لنيل هذه المكانة العظيمة التي يحمده فيها الخلائق كلهم.

وقوله: ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾، أصل الدلوك: الميل، والشمس تميل إذا زالت أو غربت، واشتقاقه من الدلك،لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها.(٢) وغسق الليل: شدة ظلمته .(٣)

وقوله:﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ انتصابه لكونه معطوفاً على الصلاة، أي: وأقم قرآن الفجر أي: صلاة الصبح،(٤) وسميت قرآناً، لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله، وملائكة الليل وملائكة والنهار. (٥)

وهذه الآية جمعت الصلوات الخمس المفروضة، قال ابن جزي في التسهيل: " هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة فدلوك الشمس زوالها والإشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وذلك إشارة إلى المغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح " . (٦)

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: (٧٨،٧٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٥٥/٣)، المفردات (٣٥٠/١)،الكشاف(٦٤١/٢).

(٣) ينظر: المفردات (١٥٣/٢).

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء (٧٨/٣)، التبيان في إعراب القرآن (٨٣٠/٢).

(٥) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٤٦٤

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل(١١٦/٢).

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾،المراد قيام الليل للصلاة فإنه فرض خاص بنبينا محمد ﷺ ،لتكون تلك الصلاة زيادةً في علو قدره، ورفعِ درجاته، بخلاف غيره، فإنها تكون كفارة لسيئاته.(١)

وكل هذا لكرامة نبينا محمد ﷺ على الله تعالى، أن جعل وظيفته أكثر من غيره، وليكثر ثوابه وليترتب على ذلك ما وعده به ربُّه تعالى وهو المقام الذي ذكره الله في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ . وقد وصفه الله بأنه محمود لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون، ومجيئه منكراً لأنه أفخم وأجزل .(٢)

وعسى من الله الكريم إطماع واجب الوقوع فهي للوجوب،(٣) والمقام المحمود موضع القيام، وهو المكان الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم،للحديث الصحيح:" إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً".(٤) وجاء عنه ﷺ أنه قال:" يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي ﷻ حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود ".(٥)

وجاء في السنة ما يدل على أن الله ﷻ يبعث نبيه محمداً ﷺ مقاماً محموداً وأنه يراد به الشفاعة بدليل أن المواظبة على الدعاء للنبي ﷺ بأن يبعث يوم القيامة المقام المحمود من أسباب الشفاعة، قال ﷺ : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١٠٣/٥)، تيسير الكريم الرحمن ص٤٦٤

(٢) ينظر: لباب التأويل (١٧٦/٤) ، فتح الباري (٩٥/٢).

(٣) ينظر: فتح القدير (٣٥٩/٣) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١٧٤٨/٤) كتاب التفسير، برقم (٤٤٤١).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٥٦/٣)،برقم (١٥٨٢١)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة ". (١)

وقيل: المقام المحمود أن يجلسه ﷻ على العرش يوم القيامة، روى الطبري عن مجاهد في قوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾، قال:" يجلسه معه على عرشه".(٢)

والأول هو الأرجح لصحة الروايات الواردة عن النبي ﷺ في تفسير الآية، قال الطبري في تفسيره بعدما عرض للقولين :" وأولى القولين في ذلك بالصواب ما صح به الخبر عن رسول الله. "(٣) ثم ساق الروايات الواردة عنه ﷺ.

مع احتمال الآية للقول الثاني الوارد عن مجاهد ، لما جاء عن الإمام أحمد –رحمه الله– أنه سئل عن قول مجاهد: " يجلسه معه على عرشه ". فقال:" قد تلقته العلماء بالقبول، نسلم هذا الخبر كما جاء ".(٤) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وفيها أشياء عن بعض السلف رواها بعض الناس مرفوعة، وهي كلها موضوعة، كحديث قعود الرسول على العرش . وإنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف. وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه ويتلقونه بالقبول ".(٥)

فتبين مما تقدم أن نبينا محمداً ﷺ له مقام ، وهذا المقام موصوف بأنه محمود، لأنه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢٢٢/١)، باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) ،وينظر: فتح الباري (٩٥/٢).

(٢) جامع البيان(٥٢٩/١٧) والطبري: أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، الطبري، كان رأساً في التفسير، إماماً في الفقه، علامة بالتاريخ، عارفاً بالقراءات واللغة، توفي سنة (٣١٠هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص٩٥، وطبقات المفسرين للداودي (١٠٦/٢). ومجاهد بن جبر:من التابعين،كان إماماً في التفسير، وأحد تلامذة ابن عباس ﷺ، توفي سنة (١٠٣هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤)، طبقات المفسرين للداودي(٣٠٥/٢).

(٣) جامع البيان(٥٢٩/١٧).

(٤) رواه الخلال في كتاب السنة (٢٤٧/١)، والإمام أحمد هو : أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله ، إمام أهل السنة وأحد الأئمة الأربعة، وصاحب المسند اعتنى بالحديث ، و ارتحل في طلبه، توفي سنة (٢٤١هـ).ينظر: طبقات الحنابلة (٣/١)، سير أعلام النبلاء (١٧٧/١١).

(٥) درء تعارض العقل والنقل (١٩/٣). وشيخ الإسلام هو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ثم الحنبلي أبو العباس، محدث حافظ مفسر فقيه مجتهد مشارك في جميع أنواع العلوم،له مصنفات كثيرة، توفي سنة (٧٢٨ هـ)، ينظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص١٦،البدر الطالع (٥٧/١).

ﷺ يحصل له في ذلك المقام حمد بالغ عظيم، ولأنه يحمده فيه الأولون والآخرون، وقد جاء منكراً لأنه أفخم وأجزل. والمقام هو المكان الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للنـــاس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، أو هو محل إجلاسه على العـــرش يوم القيامة الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون ، والله أعلى وأعلم .

المبحث الرابع: مقام نوح عليه السلام .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾،(١)

نوح عليه السلام هو نبي الله ﷻ ورسوله، وأحد أولي العزم من الرسل، وأول رسول يرسل لأهل الأرض، دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وحذرهم من الشرك به وعبادة غيره فكذبوه وردوا دعوته فأهلكهم الله عن آخرهم ودمرهم بالغرق أجمعين.

وقد تكررت قصته مع قومه في القرآن الكريم في مواضع بصورة أكثر تفضيلاً.أما في سورة يونس وهي ما نحن بصدد الحديث عنها فقد جاءت قصته بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا، إبراز جانب التحدي والاستعانة بالله وحده،ونجاة نبي الله ﷻ نوح عليه السلام ومن معه وهم قلة،وهلاك المكذبين، وهم كثرة. (٢)

وإنما افتتحت القصة بفعل التلاوة التي هي القراءة لأن القوم الذين بعث فيهم محمد ﷺ تغلب عليهم الأمية، " فأراد الله أن يبلغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة ". (٣)

وقوله: ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، أي:عَظُمَ وثَقُلَ عليكم. مكثي ووعظي لكم بآيات الله الكونية والشرعية. (٤)

والمقام بالفتح المكث،أي: مكثي بين أظهركم،قال الزمخشري:" قيامي ومكثي بين أظهركم مدداً طوالاً ".(١)

---

(١) سورة يونس، الآية (٧١) .

(٢) ينظر: التفسير الوسيط لسيد طنطاوي (٢١٣٨/١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٥٠/٨).

(٤) ينظر: المفردات (٢٧٧/٢) ، فتح القدير (٦٦٨/٢).

وذلك أنه مكث في دعوته قومه إلى الله ﷻ مدة طويلة،كما قال تعالى:﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .(٢)

وقال الواحدي: " ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾،أي: عظُم وشقَّ عليكم مكثي ولبثي فيكم ". (٣)

ويحتمل أن يكون معنى المقام القيامَ أي:الانتصاب على القدمين للوعظ والتذكير ؛ " لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهراً وكلامهم مسموعاً ".(٤)

ويحتمل أن يكون معنى المقام الشأن والحال،أي كبر وشق عليكم حالي وشأني، قال ابن عاشور:" والمقام مصدر ميمي مرادف للقيام.وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله. وهو استعمال من قبيل الكناية ، لأن مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته ، وفيهما مظاهر أحواله ". (٥)

وقُرئ "مُقَامِي" بضم الميم.(٦) من المُقامة بالضم، أي: كبر عليكم إقامتي ساكناً بين أظهرهم وفي بلدهم .(٧)

---

(١) الكشاف (٣٤١/٢)، والزمخشري: محمود بن عمر،المعروف بجار الله، برع في اللغة والنحو والبيان، من رؤوس المعتزلة، توفي سنة (٥٣٨هـ)، ينظر: البداية والنهاية (٢٣٥/١٢)،طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٤

(٢) سورة العنكبوت، الآية (١٤) .

(٣) الوجيز (٥٠٤/١)، والواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، صاحب التفاسير الثلاثة البسيط والوسيط والوجيز، كان عالماً بالعربية والأدب، توفي سنة (٤٦٨ هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٨)، طبقات الشافعية للسبكي (٤٠/٥).

(٤) التفسير الكبير (١١٠/١٧) .

(٥) التحرير والتنوير (١١٠/٧). وابن عاشور: محمد الطاهر ابن عاشور من علماء تونس ولد ونشأ بها،ودرَّس في جامع الزيتونة، له أبحاث ودراسات كثيرة، توفي سنة (١٣٩٣هـ)،ينظر: الأعلام (١٧٤/٦)، معجم المفسرين (٥٤١/٢).

(٦) وهي قراءة أبي مجلز وأبي رجاء وأبي الجوزاء، ينظر: البحر المحيط (١٤٥/٥)، الدر المصون (٣٢٥٢/١).

(٧) ينظر: البحر المحيط (١٤٥/٥)، الدر المصون (٣٢٥٢/١).

فمقام نوح عليه السلام هو مكثه ولبثه بين ظهراني قومه زمناً مديداً ، مع قيامه في مجالسهم للدعوة والوعظ التذكير ، أو حال نوح ووجوده الذي سئموا منه وشق عليهم رؤيته ، أو إقامته في بلدهم ، وهذا كله يصدق عليه مكان القيام وزمانه.

وقوله تعالى:﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾، تحدٍ وعدم مبالاة بهم وبمناواتهم لتوكله على الله وحده وثقته به سبحانه الذي يدفع عنه كل شر يراد به، وبما يدعو إليه.والمعنى كما قال ابن كثير : " فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن،﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ولا تنظرون، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء". (١)

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨٣).

المبحث الخامس: مقام الخليل إبراهيم عليه السلام .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ،(١)

وقال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ .(٢)

إبراهيم الخليل عليه السلام هو نبي الله ورسوله، وهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء وأحد أولي العزم من الرسل، ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم مناقبه الحميدة ومآثره الطيبة، وكرر قصته بصور شتى مع قومه، ومع أبيه، ومع أهله وأبنائه. أمره الله ببناء البيت الحرام ليكون قبلة للناس أجمعين، وليكون قصده، ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفي هاتين الآيتين إخبار من الله تعالى عن شرف البيت الحرام، وأنه جعله مآباً يثوبون إليه ومباركا وهدى للعالمين.

ففي آية البقرة بيان كيفية تكليف خليل الله إبراهيم عليه السلام بالإمامة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.(٣) حيث رتب عز وجل على تكليفه الأول تكليفاً آخر وهو التكليف ببناء البيت وتطهيره . (٤)

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ ، معناه: صيرنا البيت وهو الكعبة مثابة للناس، أي:مرجعاً للناس يرجعون إليه من كل جانب ، وهو مصدر ميمي من ثاب إذا رجع، فلا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه، لأن الأرواح تشتاق إليه وتحن ، أو موضع ثواب يثابون فيه بحجهم واعتمارهم . (٥) وأمناً أي: البيت مأمناً من

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٧) .

(٣) سورة البقرة، الآية (١٢٤) .

(٤) ينظر: التفسير الكبير (٤٢/٤) .

(٥) ينظر: جامع البيان (٢٥/٢)،المفردات (١٦٢/١)، التفسير الكبير (٤٣/٤) .

الخوف بشتى أنواعه، وإنما جعله- سبحانه وتعالى - أمناً ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن . (١)

ثم جاء ذكر مقام الخليل إبراهيم عليه السلام والأمر باتخاذه مصلى في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ، والمقام مفعل من القيام ويراد به موضع قيام الخليل إبراهيم عليه السلام "وهو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم عليه السلام حين ضعف من رفع الحجارة التي كان ولده إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وفيه أثر قدميه " .(٢)

جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : "الحجر مقام إبراهيم عليه السلام ليّنه الله فجعله رحمة، وكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل عليه السلام الحجارة ".(٣)

وقيل: مقام إبراهيم الحرم كله. (٤)

وقيل: مقام إبراهيم مقاماته في مواضع المناسك كلها، كمواطن الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر،لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها. (٥)

وقيل: مقام إبراهيم هو حجر ناولته إيّاه امرأة ابنه إسماعيل عليه السلام فاغتسل عليه وهو راكب جاءته به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه. (٦)

والمحققون من أهل العلم على الرأي الأول للأدلة الدالة على صحته، ومنها:

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٣٢٩/١) .

(٢) روح المعاني (٣٧٩/١) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٣٣/١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور(٢٩١/١) لعبد بن حميد وابن المنذر. وسعيد بن جبير الأسدي مولاهم،المقريء المفسر، من التابعين قتله الحجاج بواسط سنة (٩٥هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) غاية النهاية ص١٣٤

(٤) رواه عن ابن عباس رضي الله عنه ابن أبي حاتم في تفسير (٣٣٣/١)، ورواه عن مجاهد ابن جرير في تفسيره (٣٤/٢).

(٥) روى ابن جرير في تفسيره (٣٣/٢) عن عطاء بن أبي رباح قال:" ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ قال: لأني قد جعلته إماما، فمقامه عرفة والمزدلفة والجمار ".

(٦) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٧١/١) عن ابن عباس ، وابن عطية في تفسيره (١٩٤/١) عن الربيع بن أنس .

١- حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: " قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ". (١)

٢- حديث جابر الطويل في صفة الحج، وفيه: " ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ :﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت ".(٢)

٣- دلالة اللغة عليه، فإن المقام لغة موضع القيام، وإبراهيم عليه السلام ثبت قيامه على الحجر و لم يثبت على غيره فدل ذلك على أنه موضع قدميه .

٤- دلالة العرف عليه، فإن هذا الاسم في عرف الناس مختص بذلك الموضع ، فإن الناس في حجهم وعمرتهم في كل زمان يأتون إلى ذلك الحجر، ويصلون خلفه ركعتي الطواف مُذ علموا بسنيته. (٣)

٥- دلالة الإعجاز عليه، " فإن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حين غاصت فيه رجلاه ، وفي ذلك معجزة له ، فكان اختصاصه به أقوى من اختصاص غيره. فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى ". (٤)

قال ابن كثير : " وقد كان المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحَجَر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم-أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٥٧/١) باب ما جاء في القبلة،برقم (٣٩٣).وعمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، قتل سنة (٢٣هـ)،ينظر: الاستيعاب (٣٥٤/١)، الإصابة (٥٨٨/٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٨٨٦/٢) باب حجة النبي ﷺ ،برقم (١٤٧).وجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من أجلاء الصحابة ومن المكثرين للرواية، توفي سنة (٧٤هـ)، ينظر: الاستيعاب (٦٦/١)، الإصابة (٤٣٤/١).

(٣) ينظر: التفسير الكبير (٤٥/٤) البحر المحيط (٣٣٠/١) .

(٤) البحر المحيط (٣٣٠/١) .

مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ و لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين." . (١)

قلت: وكان تأخير الخليفة عمر ﷺ للمقام ليتمكن الطائفون بالبيت من الطواف، وليصلى المصلون خلفه دون تشويش عليهم من الطائفين.هذا في زمن عمر ﷺ فكيف بحالنا اليوم ؟

والأمر باتخاذه مصلى معناه: القصد إلى الصلاة عنده بأن يفضلوه على غيره في الصلاة، لشرفه بقيام إبراهيم فيه.ولما جاء عن النبي ﷺ أنه طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين ثم خرج إلى الصفا ". (٢)

هذا على قراء صيغة الأمر ، أما على قراءة صيغة الماضي بفتح الخاء (٣) فهو إخبار بأن الناس قد اتخذوا مقام إبراهيم عليه السلام مصلى يصلون عنده . (٤)

أما الآية الثانية وهي آية آل عمران والتي قال الله تعالى فيها: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ .(٥) فقد جاءت سياق تعظيم بيت الله المحرم وبيان شرف مترلته ،وما فيه من المناقب والمزايا ، وأن فيه علامات ظاهرات ،" وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأنبيائه ".(٦)

وأما مقام إبراهيم عليه السلام فإنه من آياته الظاهرة وبراهينه القاطعة ، وذلك من عدة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤١٧/١) بتصرف يسير .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥٨٨/٢)، باب من صلى ركعتي الطواف خلف المقام برقم (١٥٤٧)، ومسلم في صحيحه (٩٠٦/٢)،باب ما يلزم من أحرم بالحج ، برقم(١٢٣٤). كلاهما عن ابن عمر ﷺ .

(٣) وهي قراءة نافع وابن عامر، والباقون بصيغة الأمر، ينظر:السبعة ص١٧٠ ، النشر (٢٥٣/٢)، وينظر في التوجيه: حجة القراءات لابن زنجلة ص١١٣

(٤) ينظر: الكشاف (٢١٢/١)، حجة القراءات لابن زنجلة ص١١٣

(٥) سورة آل عمران، الآية (٩٧) .

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٨

أوجه منها:

١- أن المقام الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام أثناء بناء البيت، ووجه كونه آية بقاءُ أثر قدميه عليه مع أنه صخرة من الصخور الصَّمَّاء .

٢- غوص قدمي إبراهيم عليه السلام في تلك الصخرة الصماء إلى الكعبين .

٣- أن الله جل جلاله ألان بقدرته بعض هذه الصخرة دون بعض .

٤- بقاء ذلك الأثر واستمراره مع تلاشي آثار كثيرة في طيلة القرون، قال أنس بن مالك رضي الله عنه:" رأيتُ في المقام أَثَر أصابعه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم" . (١)

٥- دلالته على نبوة إبراهيم عليه السلام وأنه معجزة له، وعلى علم الله وقدرته . (٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ .آية أخرى من الآيات الظاهرة والدلائل القاطعة على علم الله وقدرته وحكمته وكمال علمه. وهي آية دالة على فضل هذا البيت وشرفه وهو كونه موضع الأمن والاستقرار، فمن التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل ،كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ .(٣) وفي ذلك إجابة لخليل الله إبراهيم عليه السلام القائل: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.(٤) ولا شك أن في أمن من دخل هذا البيت أكبر آية على تعظيمه وعلى علو مكانته عند الله؛ لأنه موضع أمن الناس واستقرارهم. (٥)

---

(١) ذكره ابن حجر في الفتح (٣٠٥/١٢) وعزاه لابن وهب في موطئه ،وذكره أيضاً ابن كثير في تفسيره(٤١٧/١) ، وأنس بن مالك بن النضر، أبوحمزة الأنصاري الخزرجي،خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من الرواية عنه،سكن البصرة ومات بهاسنة (٩٠هـ).ينظر: الاستيعاب (٤٤/١)، الإصابة (٨٤/١) .

(٢) ينظر: الكشاف (٤١٥/١)، التفسير الكبير (١٣١/٨)، التحرير والتنوير (٢٤٠/٣).

(٣) سورة العنكبوت ،الآية (٦٧).

(٤) سورة إبراهيم ، الآية (٣٥).

(٥) ينظر: التفسير الكبير (١٣٢/٨)،التفسير الوسيط لسيد طنطاوي (٦٨٠/١) .

المبحث السادس: مقام سليمان عليه السلام .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .(١)

سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلام النبي ابن النبي ، أحد رسل الله الفضلاء الكرام الذين نوّه الله تعالى بذكرهم ومدحهم في كتابه، وأثنى عليهم بصفات الثناء والتبجيل فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة.

وقد أورث الله سليمان من أبيه النبوة والملك،فانضم علم أبيه إلى علمه ، فكان متميزاً بالعلم الواسع والحكم بين العباد، وبقوة الفهم وإصابة الحق منذ صغره.

أورد الله تعالى ذكره في مواضع متعددة من كتابه مختصراً، وبسط قصته في سورة النمل كما هو معلوم .

وهاتان الآيتان اللتان بين أيدينا ذكرتا في سورة النمل في سياق قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ وما جرى لها معه ، وذلك أنها لما عرفت أن نبي الله سليمان عليه السلام ليس بملك فحسب،وأنها لا طاقة لها به عزمت على القدوم إليه ، عند ذلك طلب نبي الله سليمان عليه السلام من جنوده أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتي وقومُها منقادين طائعين مستسلمين لما أمرهم به. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.وذلك ليطلعها سليمان عليه السلام على عظيم قدرة الله جل جلاله، وعلى ما وهبه سبحانه من ملك عظيم ، ونعم جليلة ،وقوة خارقة .(٢)

فبادر أحد جنود سليمان عليه السلام وهو عفريت من الجن بطلب إحضاره إليه بقوله:﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾.

---

(١) سورة النمل ، الآيتان (٣٨،٣٩) .

(٢) ينظر:إرشاد العقل السليم (٦/٢٨٦)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٠٥ ،التفسير الوسيط (١/ ٣٢١٤) .

والعفريت: من عَفَرَ ، والياء والتاء للمبالغة ، وهو الخبث والشيطنة ، يقال: للشديد المتشيطن إذا كان معه خبث ودهاء عفريت . (١)

ومقام سليمان عليه السلام مكانه وموضعه الذي يجلس فيه للقضاء، سمي المجلس مقاماً لإقامة صاحبه فيه.

قال الفراء:" يعني: أن يقوم من مجلس القضَاء. وكان يجلس إلى نصف النهار. فقال: أريد أعجل من ذلك ". (٢)

وقيل المعنى: قبل أن تستوي من جلوسك قائما. (٣)

وقوله: ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾، أي: وإني لقوي على حمله، أمين على ما فيه، آتي به كما هو لا أنقص منه شيئاً ولا أبدله. (٤)

(١) ينظر:غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٤، اللسان (٥٨٣/٤)، مادة (عفر).

(٢) معاني القرآن (٢٦١/٣) والفراء: يحيى بن زياد الديلمي إمام أهل العربية ومن أعلم أهل الكوفة بالنحو، مات سنة(٢٠٧هـ)، ينظر:تاريخ بغداد (١٤٩/١٤)،بغية الوعاة (٣٣٣/٢)

(٣) ينظر:المحرر الوجيز (٩٠٣/٤).

(٤) ينظر:معالم التنزيل (١٦٤/٦) .

المبحث السابع : مقام المتقين .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .(١)

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ .(٢)

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .(٣)

هذه الآيات وردت في بيان ما أعده الله ﷻ لأوليائه المتقين الأبرار في الدار الآخرة من السعادة الأبدية والنعيم المقيم.ففي الموضع الأول الوارد في سورة الدخان يبشر الله فيه عباده المتقين بأن لهم مقاماً أميناً في جنات النعيم .

والمتقون: هم الذين اتقوا ربهم في الدنيا بتحقيق الإيمان والمبادرة بالأعمال الصالحة واجتناب الشرك والابتعاد عن المعاصي.(٤) وقد وعدهم الله تعالى بالفوز بنعيم الآخرة، وأعظمه ذلك المقام الأمين الذي ابتدأ الله به في هذه الآيات .

ومقام المتقين مساكنهم ومجالسهم.

قال السمرقندي: " أي: في منازل حسنة آمنين من العذاب ".(٥)

وقال ابن عاشور: "المقام: مكان القيام، ويتناول المسكن وما يتبعه " .(٦)

---

(١) سورة الدخان، الآيتان (٥١،٥٢) .

(٢) سورة الفرقان، الآيتان (٧٥،٧٦) .

(٣) سورة فاطر، الآيتان (٣٤،٣٥) .

(٤) ينظر:جامع البيان (٥٠/٢٢)، تيسير الكريم الرحمن ص٧٧٤

(٥) تفسير السمرقندي (٢٦١/٣) .

(٦) التحرير والتنوير (٣٤٠/٢٥) .

هذا على قراءة فتح الميم "مَقام" من الفعل قام، وعلى قراءة الضم "مُقام"(١) من الفعل أقام يكون المعنى الإقامة أي: إن المتقين في إقامة آمنة، فالأول المكان أمين، والثاني الإقامة آمنة ، ولا تعارض بينهما .

ثم إن الله ﷻ وصف هذا المقام بكونه أميناً، أي:الآمن من كل ما يخاف منه، "والأمن من أكبر شروط حسن المكان،لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف،فإذا كان آمناً في مترله كان مطمئن البال شاعراً بالنعيم الذي يناله".(٢)

وللمفسرين في ذلك أقوال منها:

١- أمين من الشيطان والأنصاب والأحزان. (٣)

٢- أي: أمنوا الموت أن يموتوا، وأمنوا الهرم أن يهرموا ، ولا يجوعوا ولا يعروا. (٤)

٣- أي: أمنوا الموت والعذاب . (٥)

وكلها أقوال متقاربة يصدق عليها معنى الأمن، وتدل على أن أولياء الله المتقين في الدار الآخرة عند ربهم في مكان أمين من كل المخاوف،وفي إقامة آمنة مطمئنة. ثم أبان عن هذا المقام وهذه الحالة بأنهم﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾،أي:بساتين متنوعة وحدائق ذات بهجة تجري العيون السارحة من تحتها.وإنما جمعت الجنات باعتبار جمع المتقين،وهي جنات كثيرة مختلفة، وتنكيرها للتعظيم. (٦)

ولما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ذكر إحسانه إليهم بقوله: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا

---

(١) قراءة الفتح قراءة عامة القراء، وقراءة الضم قراءة نافع ابن عامر، ينظر: السبعة في القراءات ص٥٩٣، التيسير في القراءات السبع ص١٢٧

(٢) التحرير والتنوير (٣٤٠/٢٥).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٥١/٢٢) عن قتادة.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٢٠/٧) عن الضحاك.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور(٤٢٠/٧) عن ابن جريج وعزاه لابن المنذر.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم (٧٩/٥)، التحرير والتنوير (١٥/٢٧) .

تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾.والغرفة الغُرَف العالية والمنازل الرفيعة في جنات النعيم،كما قال تعالى:﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.(١) وذلك بصبرهم على فعل الطاعات واجتناب المنكرات، وزيادة على هذا النعيم يُتلقون بالتحايا والتسليم من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض بعضاً، وهم مقيمون في نعيم دائم لا ينقطع . (٢)

وقوله:﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ،أي: الغرفة في أعالي الجنان طابت موضع قرار وموضع إقامة لأهلها المتقين، و"مُقاماً" بضم الميم من الفعل أقام، ويكون المعنى الإقامة في الغرفة والجنة نعمت وطاب أهلها المتقون .

وإذا دخل أهلها المتقون واستقروا فيها حسنت إقامتهم وطابت حالهم قالوا ما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .(٣) فهم يحمدون الله ويشكرونه ويثنون عليه لأنه أزال عنهم الخوف من المحذور، وأراحهم من هموم الدنيا والآخرة، فهو صاحب الفضل والرحمة، الغفور للذنوب، الشكور للطاعة. ثم هم يحمدوه أيضا على نعمة البقاء والاستقرار في الجنة والراحة فيقولون:﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.وأَحَلَّنَا أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار. ودار المُقامة الدار التي تدوم فيها الإقامة، فلا نبغي عنها حولاً، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال من فضل الله علينا وكرمه، لا بأعمالنا.(٤)

والمُقامة الإقامة، قال الماوردي:" أي دار الإقامة وهي الجنة.وفي الفرق بين المقامة بالضم والفتح وجهان: أحدهما: أنها بالضم دار الإقامة ، وبالفتح موضع الإقامة. الثاني

(١) سورة سبأ، الآية (٣٧) .

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٨٧

(٣) سورة فاطر، الآيتان (٣٤،٣٥) .

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٨٩ ، التفسير المنير (٢٦٨/٢٢).

: أنها بالضم المجلس الذي يجتمع فيه للحديث ".(١)

وقال ابن عاشور: " والمُقَامة: مصدر ميمي من أقام بالمكان إذا قطنه.والمراد: دار الخلود. وانتصب ﴿ دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ على المفعول الثاني لـــ.﴿ أَحَلَّنَا ﴾،أي: أسكننا ".(٢)

فدار المُقامة التي أعدها الله تعالى لعباده المتقين هي الدار التي تحسن فيها الإقامة وتدوم ، والتي يرغب في المقام فيها. فلا تعب فيها ولا يمس أهلها تعب ولا إعياء ولا همَّ ولا حزن لا في أبدانهم ولا في قلوبهم.﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، ونفي المس نفيٌ للإصابة في ابتداء أمرها، وإنما أعاد الفعل المنفي لتأكيد انتفاء المس. (٣)

ثم إن كل ما ورد في القرآن الكريم من كلمة عدن فهي بمعنى الاستقرار والإقامة،(٤) وجنات عدن الواردة في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾،(٥) هي بمعنى الإقامة أي:مساكن طيبة لأهلها المتقين في جنات الإقامة، وإنما أضاف الجنات للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، والله أعلم .

---

(١) ينظر:النكت والعيون (٤/٤٧٥). والماوردي : علي بن محمد بن حبيب ، القاضي أبو الحسن الماوردي البصري ،كان عالماً عظيم القدر ، له تصانيف حسان في فنون كثيرة، ومنها : الحاوي في الفقه ، والنكت والعيون، وكتاب أدب الدنيا والدين ، مات سنة (٤٥٠هـــ).ينظر:طبقات الشافعية للسبكي (٥/٢٦٧)،سير أعلام النبلاء (٣٥/٥١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٦٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير:(٢٢/١٦٩).

(٤) ينظر: المفردات (٢/٧٥)، (مادة عدن).

(٥)سورة الصف الآية (١٢).

المبحث الثامن: مقام الكافرين.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ ﴾ .(١)

وقال تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ ﴾ .(٢)

وقال تعالى: ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ ﴾ .(٣)

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ۝٧٣ ﴾ .(٤)

هذه الآيات وردت في بيان مقام الكافرين سواء كان ذلك فيما أعده الله تعالى لهم في الدار الآخرة، أم كان ذلك فيما حكاه الله تعالى عنهم في الحياة الدنيا .

فالموضع الأول جاء في سياق ذكر أوصاف عباد الرحمن المتقين وأنَّ منها شدة خوفهم من عذاب جهنم الشديد المخزي،وأنهم يسألون الله تعالى في حذر ووجل أن يصرف عنهم" بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منهم مما هو مقتضٍ للعذاب ".(٥)

وذكروا لذلك سببين:

أولها: أن عذابها كان لازماً دائماً غير مفارق، ملازمة الغريم لغريمه.

ثانيها:أن حالها حال سيئة، فبئست المستقر والمُقام. (٦)

والمستقر: مكان الاستقرار والقرار وهو الموضع، والمُقام بالضم الإقامة، وهي الحالة والهيئة .

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان (٦٥،٦٦) .

(٢) سورة الشعراء، الآيتان (٥٧،٥٨) .

(٣) سورة الدخان، الآيتان (٢٥،٢٦) .

(٤) سورة مريم، الآية (٧٣) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٨٦

(٦) ينظر: التفسير الكبير (٩٤/٢٤) .

قال الطبري: " يعني بالمستقر: القرار، وبالمُقام: الإقامة؛ كأن معنى الكلام: ساءت جهنم مترلاً، ومقاماً. وإذا ضُمت الميم من المُقام فهو من الإقامة، وإذا فتحت فهو من قمت، ويقال: المَقام إذا فتحت الميم أيضا هو المجلس".(١)

وقال الشربيني: "مستقراً، أي: موضع استقرار ،ومقاماً، أي: موضع إقامة ".(٢)

هذا على معنى "مُقاماً" بضم الميم وهي قراءة عامة القراء ، وهناك قراءة بفتح الميم، أي: مكان قيام ، قال ابن عطية :" وقرأ جمهور الناس مُقاماً بضم الميم من الإقامة . وقرأت فرقة مَقاماً بفتح الميم من قام يقوم،فجهنم ضد مقام كريم، والأول أفصح وأشهر ". (٣)

أما الموضع الثاني والثالث فقد جاء فيه ذكر مقام الكفار في الدنيا وهو مقام فرعون وقومه،قال الله تعالى فيهم:﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.(٤) فلقد كانوا في نعيم وترف ففسقوا وطغوا وعتوا عن أمر ربهم فأهلكهم الله بالغرق،وأخرجهم مما كانوا فيه من البساتين والجنات الملتفة والعيون المتدفقة والأنهار الجارية، والكنوز وهي الأموال الظاهرة من الذهب والفضة ، " سماها كنوزاً لأنه لم يؤد حق الله منها، وكل مال لم يعط و لم يؤد حق الله منه فهو كتر وإن كان ظاهراً ".(٥)

وأما المقام فقد قال النحاس في معانيه: " المقام في اللغة الموضع من قولك قام يقوم ، وكذلك المقامات واحدها مقامة " أهـ. (٦)

---

(١) جامع البيان (٢٩٧/١٩) .

(٢) السراج المنير (٢٢/٣)، والشربيني محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين: القاهري الشافعي الخطيب. فقيه مفسر، توفي سنة (٩٧٧ هـ) . ينظر: الكواكب السائرة (٣٩٤/١)، التفسير والمفسرون (٣١٨/١).

(٣) المحرر الوجيز (٢٦٦/٤)، وابن عطية هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم بن عطية الغرناطي ، أبو محمد ، كان عالماً بالأحكام والحديث والتفسير . ولي القضاء بمدينة المرية ، توفي سنة (٥٤٦ هـ). ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص٥٠ ، طبقات المفسرين للداودي (٢٦٥/١) .

(٤) سورة الشعراء، الآيتان (٥٧،٥٨) .

(٥) معالم التنزيل (١١٤/٦) .

(٦) معاني القرآن (٨٢/٥)، والنحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر، مفسر نحوي، كان واسع العلم غزير الرواية،توفي سنة(٣٣٨هـ).ينظر: البداية والنهاية(٢٣٦/١١)، طبقات المفسرين للداودي (٦٨/١).

والمقام الكريم الوارد في الآية:المنازلُ الحسنة التي كانوا يسكنونها ، والمجالس البهية التي كانوا يجلسون فيها، وقيل: هي مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع، وقيل: هي المنابر، وقيل: مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدة وزينة فصار مقامها أكرم متزول. والأول هو الأرجح لعمومه .(١)

وفي الآية الأخرى يقول تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.(٢) وقد جاءت بأسلوب التفجع وإظهار الأسى والحسرة على وجه الاعتبار والاتعاظ.فذكر تعالى ما خلّفوه وراءهم من عز ومجد ونعيم وثراء، وكم خبرية للتكثير، تدل على كثرة ما تركوا من النعم التي كانوا يتقلبون فيها، وذكر هنا الزروع بدلاً من الكنوز ، والزروع مادون الأشجار. (٣)

وأما المقام فقد تقدم الكلام عنه في الآية السابقة إلا ما ذُكر من أنَّ عامة القراء على فتح الميم، وهناك قراءة بالضم (٤) فيكون المعنى على هذه القراءة: وإقامة حسنة في هيئتها وقدرها ونفعها. فأفادت قراءة الضم معنىً جديداً وهو أن فرعون وقومه كانوا في منازل فارهة، ومجالس بهية، وإقامة حسنة في هيئتها وقدرها ونفعها.

ولما تشبث الكفار بشبهةٍ مفادها أنهم يقولون:" لو كنتم أنتم على الحق، ونحن على الباطل، لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل، وأعداءه المعرضين عن طاعته في العز والراحة"،(٥) قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾.(٦) فافتخروا بأنهم أحسن منازل،ومتاعاً من ضعفاء المسلمين،واعتقدوا

(١) ينظر: النكت والعيون (١١٤/٤)، معالم التنزيل (١١٤/٦)، الكشاف (٣٢١/٣).

(٢) سورة الدخان، الآيتان (٢٥،٢٦) .

(٣) ينظر:المحرر الوجيز (٦٤/٥)، التفسير المنير (٢٢٢/٢٥) .

(٤) وهي قراءة قتادة وابن هرمز ومحمد بن السميفع اليماني ونافع في رواية خارجة عنه، ينظر:المحرر الوجيز(٦٤/٥)، الدر المصون (٥١٣٠/١) .

(٥) التفسير المنير (١٥٠/١٦) .

(٦) سورة مريم، الآية (٧٣) .

أنهم أولى منهم بكل خير، ردَّ اللهُ تعالى عليهم وأبطل شبهتهم بقوله:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .(١)

وقد تلخص هذا الرد في أمرين : الأول: أن الكفار الذين قبلكم كانوا أحسن منكم حالاً، وأكثر مالاً وقد أهلكهم الله واستأصلهم. والثاني:أنه وإن أملى لهم فلا بد أن يأتيهم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة أو كلاهما، وحينئذ يعلمون أن ذلك لا ينفعهم.

والمقام في قوله:﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾، بالفتح - وهي قراءة الجمهور- من قام ،أي: مكان القيام، والمراد به مساكنهم ومنازلهم التي يسكنونها ويترلون بها .وقرأ ابن كثير المكي بالضم،(٢) من أقام بمعنى الإقامة وهي طيب العيش وحسن الحالة والشأن. (٣)

فالمقام بالفتح المكان والمترل، والضم الإقامة وحسن الحال. وكلاهما يتضمنه اللفظ على القراءتين.فالكفار ادعوا أنهم خير من المؤمنين مكاناً ومجلساً وإقامة وحسن حال وشارة وظهوراً، فأبطل الله دعواهم .

وقوله: ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾،أي: مجلساً ومجتمعاً." والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم ".(٤)

---

(١) سورة مريم، الآيتان (٧٤،٧٥) .

(٢) ينظر: السبعة في القراءات ص٤١١، التيسير في القراءات السبع ص١٠٢ وابن كثير: عبد الله بن كثير المكي الداري إمام أهل مكة في القراءة وأحد القراء السبعة ومن التابعين،توفي بمكة سنة(١٢٠هـ). ينظر:معرفة القراء الكبار (٨٧/١)، غاية النهاية ص١٩٧

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٣٨/١٨) .

(٤) أضواء البيان (٤٨٤/٣).

الخاتمـــــة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأســـأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

هذا وإن لفظ المقام من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في مواضع متعـــددة باللفظ نفسه مع تنوع إطلاقاته واختلاف معانيه وهذا الأمر يحتاج إلى تجليـــة وإيضـــاح فجاءت هذه الدراسة بجمع هذه المواضع واستقصائها ودراستها دراسة تفسيريه مع العناية بإبراز الأوجه والنكات البلاغية، ويمكن أن أوجز أبرز ما توصلت إليه في هذا البحث من نتائج في النقاط التالية:

أولاً: أن لفظ المقام ورد في القرآن بفتح الميم "مَقام" وبضمها "مُقام" فالفتح على أنه مصدر ميمي، من قام يقوم مَقاماً، اسم مكان وهو الموضع أو المجلس، أو اسم زمان وهو المدة. والضم على أنه مصدر أقام يقيم مُقاماً ومُقامة وهو بمعنى الإقامة والهيئة والحالة.

ثانيا: ورد فيها لفظ المقام في كتاب الله مضافاً إلى الله -عز وجل- وهو مصدر ميمي بمعنى القيام أضيف إلى فاعله هو الله. أي: ولمن خاف قيامَ ربه عليه ومراقبتَه لأعمالـــه، أو يكون الفاعل العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه، على أنه خاف عاقبة الذنب حينما يقوم الخلق كلهم بين يدي رب العالمين.

ثالثاً: أنَّ لملائكة الله الكرام مقاماً ورد ذكره في كتاب الله في سياق الثناء .فما من أحد إلا له مقام معلوم وموضع في السماء يتعبد الله به ساجداً أو راكعاً ، وما من أحد منهم إلا له مقام تدبير قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وما من أحد منهم إلا له مقام ومكانة في القرب والشرف من الله ﷻ .

رابعاً: ذَكَرَ القرآنُ الكريم أنَّ لبعض الأنبياء مقاماتٍ، وأعظمهم رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ صاحب المقام المحمود ، ومنهم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي جعل الله مقامه آية بينة لبيته الحرام وأمر الناس باتخاذه مصلى ، ومنها مقام نوح وهو مكثه بين قومه في دعوتـــه وصبره عليها،ومنها مقام سليمان عليه السلام وهو مجلسه الذي يقضي فيه بين الناس، ويحكـــم بحكم الله .

خامساً: عباد الرحمن المتقون، لهم مقام كريم في الدار الآخرة ،وهو ما أعده الله لهم من المجالس الطيبة، والمساكن الفارهة. وفي المقابل أعداء الله الأشقياء وما أعطوا من مقامات في الدنيا وهي المنازل الحسنة والمجالس البهية، فأخذوا بغفلتهم وأهلكوا بإعراضهم ، ثم ما أعد لهم من سوء المقام في الدار الآخرة والمنازل السيئة في جهنم.

سادساً: أظهرت هذه الدراسة الفرق بين المقام بالفتح والمقام بالضم ، وأن لكل معنى مغايراً ، ومع هذا الفرق فقد قرئت بعض آياته بالقراءتين أعني الفتح والضم لتدل على سعة دلالات القرآن واحتمال ألفاظه لأكثر من معنى .

هذا وقد أظهرت هذه الدراسة مدى أهمية البحث بجمع ألفاظ القرآن الكريم التي تطلق مع اختلاف متعلقاتها وتعددها مما حواه كتاب الله،واهتم به المفسرون ،كما أظهرت هذه الدراسة شيئاً مما اشتمل عليه كتاب الله من أسرار بلاغية، ونكات بديعية، لا تنفد ولا تنحصر، فمن تدبر كتاب الله العظيم،وتأمل آياته زاده ذلك إيماناً ويقيناً وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم، وهذا سرٌ من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وختامًا أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي ،ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢.

٢-الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان.

٤- الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٥- أضواء البيان أضواء البيان أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي — نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان الطبعة : ١٤١٥ هـ.

٦- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.

٧- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ، عمر بن علي بن موسى البزار ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ.

٨- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧.

٩- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت ،لبنان.

١٠-البحر المحيط . أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢ ،١٤٠٣.

١١-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي — ت محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر، بيروت لبنان.

١٢- تاج العروس من جواهر القاموس- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ،الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي- الناشر دار الهداية .

١٣- تاريخ بغداد ، أحمد بن علي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٤- التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري تحقيق علي محمد البجاوي - الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه .
١٥- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.
١٦- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي الغرناطي.
١٧- تفسير السمرقندي (بحر العلوم) أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، تحقيق:د.محمود مطرجي دار النشر:دار الفكر- بيروت.
١٨- تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، ت: مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٠١هـ.
١٩- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي،ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،ط١، ١٤١٧هـ.
٢٠- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ،الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ.
٢١- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
٢٢- التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ
٢٣- التفسير والمفسرون، محمد بن حسين الذهبي ، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٩٦هـ.
٢٤- التفسير الوسيط ، سيد طنطاوي _ بدون معلومات.
٢٥- تهذيب اللغة- أبو منصور الأزهري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٢٦- التيسير فى القراءات السبع - أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٤هـ. الطبعة: الثانية
٢٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ .
٢٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ

٢٩- الجامع لأحكام القرآن الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة

٣٠- حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة ، الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ.

٣١- درء تعارض العقل والنقل - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس تحقيق : محمد رشاد سالم ، الناشر : دار الكنوز الأدبية - الرياض ، ١٣٩١هـ

٣٢- الدر المصون في علوم الكتب المكنون-أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحلبي-تحقيق: د. أحمد الخراط-دار القلم-دمشق-ط١، ١٤٠٦هـ.

٣٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ، الناشر : دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣هـ

٣٤- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - لابن فرحون .

٣٥- ديوان لبيد بن ربيعة، تعليق حمدو طمّاس- الناشر:دار المعرفة بيروت لبنان.

٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- محمود الآلوسي أبو الفضل الناشر : دار إحياء التراث العربي — بيروت.

٣٧- السبعة في القراءات: أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي تحقيق : د.شوقي ضيف الناشر: دار المعارف- القاهرة الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٣٨ - السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين ، دار النشر / دار الكتب العلمية ـــ بيروت .

٣٩- السنة رواية الخلال عن الإمام أحمد: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال تحقيق: عطية الزهراني الناشر: دار الراية — الرياض. ١٤١٠هـ

٤٠- سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي السلمي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون ، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، مذيل بتصحيحات الألباني.

٤١- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد القزويني — تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي - نشر:دار الفكر — بيروت

٤٢- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين بن علي البيهقي- تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، نشر مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، ١٤١٤هـ.
٤٣-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان،ط٢، ١٤٠٦ هـ.
٤٤- شعب الإيمان- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ.
٤٥-الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية- إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور عطار-دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
٤٦-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله ابن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.
٤٧-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض، السعودية ١٤٠٠هـ.
٤٨-صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.
٤٩- طبقات الحنابلة : أبو الحسين ابن أبي يعلى ، محمد بن محمد ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، الناشر : دار المعرفة - بيروت
٥٠- طبقات الشافعية الكبرى ـــ تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي تحقيق : د. محمود محمد الطناحي د.عبد الفتاح محمد الحلو ، دار النشر : هجر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤١٣هـ الطبعة : الثانية .
٥١- طبقات المفسرين- أحمد بن محمد الأدنروي- تحقيق : سليمان بن صالح الخزيم، الناشر : مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧
٥٢-طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.
٥٣-طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
٥٤-العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الناشر : دار ومكتبة الهلال ،تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.
٥٥- غاية النهاية في طبقات القراء - محمد بن محمد بن الجزري.

٥٦-غرائب القرآن ورغائب الفرقان- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري - دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ ط الأولى.

٥٧- غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – تحقيق : أحمد صقر ، الناشر : دار الكتب العلمية ، السنة : ١٣٩٨ هـ

٥٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق وتعليق: العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب- رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها : محمد فؤاد عبد الباقي- نشر دار الفكر .

٥٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير-محمد بن علي الشوكاني.

٦٠-الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري- تحقيق حسام الدين القدسي –دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٦١-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،محمود ابن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٦٢-الكشف والبيان - أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ الطبعة : الأولى .

٦٣- الكواكب السائرة الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة - نجم الدين محمد بن بدر الدين الغزي.

٦٤-لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد الشيحي، المعروف بالخازن تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

٦٥-لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور،دار صادر،بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ

٦٦-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٤١٣هـ

٦٧-مسند الإمام أحمد - أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني- تحقيق: شعيب

الأرناؤوط وآخرين نشر مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ .
٦٨-المصنف في الأحاديث والآثار- أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي/ تحقيق: كمال يوسف الحوت - الناشر: مكتبة الرشد ، الرياض .
٦٩- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٧٠- معاني القرآن الكريم ،أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق : محمد علي الصابوني: الناشر : جامعة أم القرى - مكة المرمة الطبعة الأولى ، ١٤٠٩
٧١ - معاني القرآن - يحيى بن زياد الفراء-تحقيق: أحمد يوسف نجاتي،محمد علي النجار – بدون معلومات.
٧٢- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج،عالم الكتب، بيروت لبنان، ط١- ١٤٠٨هـ.
٧٣-المعجم الكبير- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني- الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل - الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣
٧٤-معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.
٧٥-معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٤٠٩هـ.
٧٦- المعجم الوسيط-د. إبراهيم أنيس وعلماء آخرون-بدون معلومات.
٧٧- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الذهبي الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى،١٤٠٤هـ.
٧٨- النشر في القراءات العشر-محمد بن محمد ابن الجزري-دار الكتاب العربي.
٧٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.
٨٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق : إحسان عباس الناشر : دار صادر- بيروت - لبنان ، الطبعة : ١ ، ١٩٠٠هـ
٨١ النكت والعيون في تفسير القرآن : أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن

حبيب ، الشهير بالماوردي تحقيق: السيد ابن عبد المقصود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

٨٢-النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ.

٨٣- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن .بدون معلومات.

اسم الله اللطيف
بين اقترانه بالخبير وانفراده في القرآن الكريم

إعداد

د. يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله اللطيف الخبير، الذي له الكمال والجمال والجلال في أوصافه وأسمائه وأفعاله، والصلاة والسلام على أعلم الخلق بربه،

أما بعد :

فإنَّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر فيه زاده ذلك إيماناً ويقيناً ، وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

وأهل العلم يتدبرون آياته، ويستخرجون حكمه، ويستنبطون أحكامه، ويكشفون ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه ويظهرون أسراره الكامنة وكنوزه المغمورة.

وإنَّ من أعظم مجالات تدبره آياته المتعلقة بأسمائه وصفاته ، سواء جاءت تلك الأسماء مقترنة بغيرها أو منفردة، مما ختمت بها كثير من آيات القرآن الكريم على اختلاف موضوعاتها، فهي السبيل إلى الوصول إلى تدبره والوقوف على مواطن إعجازه والكشف عن بلاغته وأسراره .

وأسماء الله الحسنى التي يختم بها كثير من آيات القرآن الكريم قد جاءت على أكمل الوجوه في تناسبها مع تعلقها الشديد وارتباطها بسياق آياتها .

وإنَّ من أسماء الله الحسنى الواردة في كتابه اسمَ اللطيف، فقد ورد في سبعة مواضع خمسةٍ منها مقروناً باسم الخبير معرفاً ومنكراً، وموضعين منها منفرداً ومنكراً .

ونظراً لأهمية هذا الموضوع، فقد رغبت في الكتابة فيه وجمع شتاته وإبراز ماحواه من أسرار ونكات لطيفة ، وحكم بلاغية .

أسباب اختيار الكتابة في هذا الموضوع:

كان لاختيار هذا الموضوع عد ة أسباب أجملها فيما يلي:

١- تعلقه بكتاب الله تعالى وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

٢- أن هذا الموضوع متعلق بمعرفة أسماء الله الحسنى الواردة في كتابه والتي ختمت بها كثير من آياته ، ولا ريب أن معرفتها وفهمها حق الفهم مما يزيد العبد معرفة بربه وحباً وتعلقاً وتقرباً إليه بدعائه وبعبادته .

٣- معرفة إعجاز القرآن الكريم، والوقوف على بلاغته وأسراره الكامنة من خلال معرفة هذا الاسم الجليل وسرِّ اقترانه بغيره ، وفي هذا تدبر وتأمل وغوص في أسرار كتاب الله الكريم.

٤- حاجة المكتبة القرآنية إلى مثل هذه الأبحاث التي تُعنى بإبراز جانب من الإعجاز البياني في ألفاظ آيات القرآن الكريم .

فلهذه الأسباب وغيرها عقدت العزم على كتابة هذا البحث سائلاً المولى تعالى التوفيق والسداد والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

خطة البحث:

هذا وقد جعلت البحث في: مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وفهارس.

فالمقدمة اشتملت على أهمية الموضوع،وأسباب اختياره،وخطة البحث،والمنهج المتبع.

المبحث الأول: تعريف اسمي اللطيف والخبير ودلالتهما.

المطلب الأول: تعريف اسم اللطيف ودلالته.

المطلب الثاني: تعريف اسم الخبير ودلالته.

المبحث الثاني: اسم اللطيف ومناسبة اقترانه باسم الخبير ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مجيء اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير معرفاً بأل.

المطلب الثاني: مجيء اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير مجرداً من أل.

المبحث الثالث: اسم اللطيف ومناسبة مجيئه منفرداً، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مجيء اسم اللطيف منفرداً متعدياً بحرف اللام .

المطلب الثاني: مجيء اسم اللطيف منفرداً متعدياً بحرف الباء .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

فهرس المراجع .

المنهج المتبع في كتابة هذا البحث:

هذا وقد كان منهجي في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

أولاً:حصر الآيات التي ورد فيها اسم اللطيف وهي سبعة مواضع من كتاب الله ثم دراستها دراسة تفسيرية،مع بيان سرِّ اقترانه باسم الخبير أو مجيئه منفرداً متعدياً بحرف اللام أو الباء ، وسواء جاء في ختام آيات القرآن الكريم أم لا، مع إبراز ما فيه من أسرار بلاغية ولطائف دقيقة مما تلفت إليه الآيات ويذكره أهل التفسير.

ثانياً:عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

ثالثاً:تخريج ما يرد من أحاديث وآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

رابعاً:تعريف بالأعلام تعريفاً موجزاً إلا ما ظهرت شهرته.

خامساً:توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

سادساً: وضع فهرس للمصادر والمراجع.

آمل أن أكون وفقت قد في الإسهام في خدمة كتاب الله ، وفي إبراز شيء من هداياته، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

المبحث الأول: تعريف اسمي اللطيف والخبير ودلالتهما.

المطلب الأول: تعريف اسم اللطيف ودلالته.

اللطيف من الفعل لَطَفَ بالفتح يَلْطَف لطفاً إذا رفق به ، وبالضم لَطُفَ يَلْطُفُ إذا صغر ودق،ويقال لطف به ولطف له، فالأول إذا رفق،والثاني إذا أوصل إليك ما تحب.(١)

قال ابن فارس(ت٣٩٥هـ) :" لطف اللام والطاء والفاء أصلٌ يدلُّ على رِفق ويدلُّ على صغَر في الشيء. فاللُّطف: الرِّفق في العَمل؛ يقال: هو لطيفٌ بعباده، أي: رؤوف رفيق، ومن الباب الإلطاف للبعير، إذا لم يَهتدِ لموضع الضِّرابِ فأُلْطِفَ له ". (٢)

فاللطف الرِّفق والبرُّ والتكرمة والتحفي، وفي حديث الإفك تقول عائشة رضي الله عنها: « ولا أرى منه اللطف الذي كنت أعرفه » (٣)، أي: الرفق والبر.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾،(٤) أي:ليترفق في شرائه ما يشتري، وفي طريقه ودخوله. (٥)

واللطف ما صغر ودق، يقال عود لطيف، أي غير جاف،وجارية لطيفة الخصر: إذا كانت ضامرة البطن .

واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي ، ولاطفه بالكلام إذا ألان له القول.(٦)

إذا علم هذا فإن اللطيف اسمٌ من أسماء الله الحسنى، قد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع معرفاً بأل ومجرداً من أل ومقترناً باسم الخبير وغير مقترن.

---

(١) ينظر: العين للخليل (٤٢٩/٧)،تهذيب اللغة للأزهري (٣٣٥/١٣)،الصحاح للجوهري (١١٢/٥) أساس البلاغة للزمخشري (٣٣٤/٢)،المفردات للراغب (٣٣٨/٢)، لسان العرب لابن منظور (٣١٦/٩)،تاج العروس (٣٦٣/٢٤)،مادة (لطف).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢٥٠/٥) ، **وابن فارس**: أبوالحسين أحمد بن فارس الرازي من أئمة اللغة والأدب (ت٣٩٥هـ)، ينظر: البداية والنهاية (٣٥٨/١١)، بغية الوعاة (٣٢٥/١).

(٣) جزء من حديث عائشة في الإفك ، وقد رواه البخاري في صحيحه (٩٤٢/٢)، برقم (٢٥١٨)، ومسلم في صحيحه (٢١٢٩/٤) برقم (٢٧٧٠).

(٤) سورة الكهف، الآية (١٩).

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٣٩/١٧).

(٦) ينظر: تهذيب اللغة (٣٣٥/١٣) اللسان (٣١٦/٩) أساس البلاغة (٣٣٤/٢) ،مادة (لطف).

وقد فسر السلف اللطيف بأنه الذي يعلم بالأشياء الدقيقة ويوصل الرحمة بالطرق الخفية.

فاللطيف من أسماء الله تعالى الحسنى، ويراد به العلمية ويدل على كمال الوصفية، وهو الذي اجتمع له العلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه، والرفق في الفعل والتنفيذ، ولطفُ الله بعبده يعني الرفق به والتوفيق والعصمة، ولطفُه له يعني:إيصال الخير إليه والإحسان إليه.(١)

فاللطف في أوصاف المولى جل شأنه يرجع إلى نوعين،أحدهما: إدراك أسرار الأمور بخبرة، والثاني: اللطف عند مواقع الإحسان،أي: أنه يوصل إليك أرَبَك في رفق،أو أنه الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية.كما قال ابن القيم(ت٧٥١هـ) في نونيته:

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة واللفظ عند مواقع الإحسان (٢)

وقال ابن سعدي(ت١٣٧٦هـ): " اللطيف: الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا ، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين ، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها ".(٣)

---

(١) ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي (١٦٥/١)،المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للغزالي ص١٠١،أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة د/محمود عبد الرازق الرضواني (٥٠/٢).

(٢) ينظر: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لابن عيسى (٢٢٨/٢)، **وابن القيم:** محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، من علماء الحنابلة وممن تتلمذ على شيخ الإسلام،توفي (٧٥١هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٩٣/٢)، كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره د.بكر أبو زيد ص٧

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٩٤٧ **وابن سعدي:** عبدالرحمن بن ناصر السعدي من علماء القصيم برع في فنون شتى وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٣٧٦هـ.ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص٢٩٢، معجم المفسرين عادل نويهض (٢٧٩/١).

المطلب الثاني: تعريف اسم الخبير ودلالته.

الخبير من خَبَر خِبْراً وخُبْراً، والخِبرةُ، والخُبْرة:العلم بالشيء، وخبرت الأمر أخبره: إذا عرفته على حقيقته،والخبرة المعرفة ببواطن الأمر،والخَبَار والخبراء:الأرض اللينة.(١)

قال ابن فارس(ت٣٩٥هـ): " الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العِلم، والثاني يدل على لينٍ ورَخاوة وغُزْرٍ، فالأول الخُبْر: العلم بالشيء، تقول: لي بفلان خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، والله تعالى الخبير،أي العالم بكل شيء، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .(٢)

والأصل الثاني: الخَبْراء، وهي الأرض اللَيِّنة ". (٣)

وعلى هذا فالخبر: العلم بالأشياء المعلومة، والخبرة: معرفة بواطن الأمور. (٤) والخبير من أسماء الله وهو العالم ببواطن الأمور وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء. (٥)

وقد ورد اسم الله الخبير في القرآن الكريم مراداً به العلمية ودالا على الوصفية وكمالها، فورد معرفاً مقترناً بثلاثة أسماء هي الحكيم والعليم واللطيف في ستة مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ،(٦) وورد منوناً مقترناً بأربعة أسماء هي: بصير وحكيم وعليم ولطيف في اثنين وأربعين موضعاً من كتاب الله، كقوله تعالى:

(١) ينظر:تهذيب اللغة (١٥٧/٧)،الصحاح (٢٠٤/٣)، المفردات ص٢٨٥ ، اللسان (٢٢٦/٤)،تاج العروس (١٢٥/١١) ، مادة (خبر)

(٢) سورة فاطر، الآية (١٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢٣٩/٢) .

(٤) ينظر: المفردات ص ٢٨٥، التعريفات للجرجاني ص١٣١

(٥) ينظر: المقصد الأسنى ص١٠٣، تيسير الكريم الرحمن ص٩٤٥

(٦) سورة الأنعام، الآية (١٨)،وكذا (٧٣، ١٠٣)، وفي سبأ (١)،وفي التحريم (٣)،في الملك (١٤).

﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴾،(١) وورد منوناً غير مقترن في عشرين موضعاً من كتاب الله ،كقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ ،(٢)

فاسم الخبير من أسماء الله الحسنى، ويعنى: العالم بما كان وبما يكون وبكنه الشيء المطلع على حقيقته.وهو أخص من اسم العليم لأن الخبير هو العليم بالظواهر والبواطن.(٣)

(١) سورة الإسراء (١٧)، وينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٩

(٢) سورة الفرقان (٥٩)، وينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص١٢٣

(٣) ينظر: شأن الدعاء للخطابي ص ٦٣ ، الفروق اللغوية للعسكري ص ٧٤

المبحث الثاني: اسم اللطيف ومناسبة اقترانه باسم الخبير .

ورد اسم اللطيف في كتاب الله مقترناً باسم الخبير، ولم يرد مقترناً بغيره من أسماء الله الحسنى، وذلك لأن اسم اللطيف يتضمن الإحاطة بالخفايا، وإدراك الخبايا، والأمور الدقيقة، وهو المسدي لعباده مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها.

فاقترانه بالخبير لأنه ﷻ بعد لطفه ورفقه في معرفة الأشياء ودقائقها خبير بها مطلع عليها عالم بكل أحوالها. فهو سبحانه وتعالى لطيف بخلقه خبير بهم .

وقد ورد اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير في خمسة مواضع منها اثنان جاء فيها معرفاً ، وثلاثة منها مجرداً من أل ، وإليك بيان ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: مجيء اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير معرفاً بأل.

ورد اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير معرفاً بأل في موضعين من كتاب الله على النحو التالي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ ،(١)

والآية وردت في سورة الأنعام وقد جاءت لإفادة عظمة الله تعالى وسعة علمه، فلعظمته وجلاله وكماله جلّ عن أن يحيط به شيء من أبصار المخلوقين.

وحقيقة الإدراك:اللحاق والوصول إلى الشيء والإحاطة به، فيكون المعنى:لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه سبحانه أبصار الخلائق وإن كانت تراه ، والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التي هي مجرد المعاينة ، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك، الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة، فلو أراد نفي الرؤية، لقال:لا تراه الأبصار،فنفيه لا يقتضى نفى الرؤية،لأن نفى الأخص لا يقتضى نفى الأعم، فنحن نرى الشمس والقمر ولكننا لا ندرك كنههما وحقيقتهما.ولكنه

(١) سورة الأنعام، الآية (١٠٣).

ﷻ يدرك الأبصار ويحيط بها ﷻ ويعلمها على ما هي عليه؛لأنه قد أحاط علمُه بالظواهر والبواطن،وسمعُه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية،وبصرُه بجميع المبصرات . (١)

فإذا كان ﷻ بهذه العظمة وهذا الجلال والكمال كان من المناسب ختمُ الآية بقوله:﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، فاللطيف لأنه يدرك الدقائق، والخبير لأنه يدرك الخفايا.

واللطيف من لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا، والخبايا، وعلى هذا المعنى جاءت تفاسير السلف،فجاء عن ابن عباسﷺ (ت٦٨هـ)في تفسير الآية أنه قال:"اللطيف بأوليائه الخبير بهم".(٢) وعن أبي العالية(ت٩٣هـ) قال:" لطيف لاستخراجها ، خبير بمكانها ".(٣) وعن مقاتل (ت١٥٠هـ) قال:" لطف علمه وقدرته حين يراهم في السموات والأرض ،الخبير بمكانهم" (٤)

وقال الطبري(ت٣١٠هـ):"وأما قوله:﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾،يقول: والله تعالى ذكره المتيسر له من إدراك الأبصار، والمتأتِّي له من الإحاطة بها رؤيةُ ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه وإحاطتها به ويتعذر عليها "الخبير"، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبرَ بعلمه كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه". (٥)

وقال الماوردي(ت٤٥٠هـ) في تفسيره:"﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما : لطيف بعباده في الإنعام عليهم ،خبير بمصالحهم.والثاني: لطيف في التدبير خبير بالحكمة ".(٦)

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٠)، تيسير الكريم الرحمن ص ٢٦٨،التحرير والتنوير (٥/١٤٠).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٣/١٧٤).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١٢/٢٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٣٤٨)، **وأبو العالية**: رفيع بن مهران، الرياحي مولاهم البصري ،أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، من التابعين ومن كبار المفسرين ،توفي (سنة ٩٣هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/٢٣١)، غاية النهاية (١/١٢٥).

(٤) تفسير مقاتل (١/٣٦٣) ، **ومقاتل**: هو بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء،. البلخى، أبو الحسن: من أعلام المفسرين، توفي (سنة ١٥٠هـ)، ينظر: وفيات الأعيان (٥/٢٥٥)،سير أعلام النبلاء (١٣/٢٣٢).

(٥) جامع البيان (١٢/٢٢)، **والطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: إمام المؤرخين وشيخ المفسرين، توفي (سنة٣١٠هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (١٤/٢٦٧)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/١٢٠).

(١) النكت والعيون (٢/١٥١)، **الماوردي**:أبو الحسن علي بن محمد حبيب، الماوردي ، ولي القضاء في بلدان

وقال ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ):"وهي صفة تنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، فيكون اختيارها للتعبير عن هذا الوصف في جانب الله تعالى هو منتهى الصراحة والرشاقة في الكلمة لأنها أقرب مادة في اللغة العربية تقرب معنى وصفه تعالى بحسب ما وضعت له اللغة من متعارف الناس، فيقرب أن تكون من المتشابه، وعليه فتكون أعم من مدلول جملة:﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ فتتنزل من الجملة التي قبلها منزلة التذييل أو منزلة الاستدلال على الجزئية بالكلية فيزيد الوصف قبله تمكناً ".(١)

وعليه فإنَّ الجملة التي ختمت بها الآية جاءت تعليلاً للحُكمَين السابقين على طريق اللفّ،(٢) أي: لا تدركه الأبصار،لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار، لأنه الخبير.

يقول البيضاوي(ت٦٨٥هـ) في تفسيره: "ويجوز أن يكون من باب اللف أي:لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ". (٣)

ويقول أبو السعود(ت٩٨٢هـ):" ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ". (٤)

الموضع الثاني: قوله تعالى:﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ ،(٥)

شتى صاحب التصانيف في التفسير والأحكام توفي (سنة٤٥٠هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٦٤/١٨)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي(٢٢٧/٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٤٢/٥). **وابن عاشور**: محمد الطاهر من علماء تونس ولد ونشأ بها،ودرَّس في جامع الزيتونة، له عدة مؤلفات ، توفي:(١٣٩٣هـ)،ينظر:الأعلام (١٧٤/٦)،معجم المفسرين (٥٤١/٢).

(٣) ومعنى اللف:أن تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يميز ما لكل منهما،ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني(٢٠٤/٢).

(٤) أنوار التنزيل (٤٣٩/٢)،**والبيضاوي**:عبد الله بن عمر بن علي، قاض مفسر عالم بالفقه والأصول ، توفي (سنة٦٨٥هـ)،ينظر: البداية والنهاية (٣٢٧/١٣)، طبقات المفسرين للداودي(٢٤٨/١)

(٥) إرشاد العقل السليم (١٧٠/٣)،**وأبو السعود**:محمد بن محمد بن مصطفى العمادي من فقهاء الحنفية، تقلد قضاء القسطنطينية، توفي سنة(٩٨٢هـ)، ينظر:البدر الطالع للشوكاني(٢٦١/١)،هدية العارفين للبغدادي (٢/ ٢٣٥)

(١) سورة الملك، الآية (١٤).

الآية وردت في سورة الملك وهي إخبار من الله ﷻ بسعة علمه وشمول لطفه،فقد قال قبلها:﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾،(١) أي:إسرارُ القول أو الجهرُ به سواء لديه،لا يخفى عليه منها خافية،لأنه عليم بذات الصدور،وبما اشتملت عليه الصدور من النيات، والمقاصد، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تُسمع وترى؟

ثم قال مستدلاً على علمه:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾، فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟!

والهمزة للاستفهام ولا للنفي ، و"من" يجوز أن يكون مفعولَ "يعلم"، والمعنى:كيف هو لا يعلمُ خلَقه ، وهو الذي لطف علمه ودق وأحاط بخفيات الأمور وجلياتها ؟ ويجوز أن يكون فاعل "يعلم"والمفعول محذوف، والتقدير: ألا يعلم الخالق سرَّكم وجهرَّكم؟

والاستفهام إنكاري، أي:كيف لا يعلم ما تُكُلِّم به مَنْ خلق الأشياء وأوجدها من العدم ؟ (٢)

"والعلم يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد، وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دالٌ على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام ، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ".(٣)

فإذا كان ﷻ بهذه العظمة وهذا الجلال والكمال كان من المناسب ختمُ الآية بهذين الاسمين: اللطيف،الخبير، فهو اللطيف الذى لطف علمه ودق، المدرك لدقائق الأمور المدبر لها برفق وحكمة ، والخبير ذو خبرة تامة بأسرار النفوس وخبايا ما توسوس به .

يقول ابن القيم(ت٧٥١هـ) بعد احتجاجه بالآية على إثبات علم الله بالجزئيات: " ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها فكيف يخفى على اللطيف الخبير ماتحويه الضمائر وتخفيه الصدور" (٤)

---

(٢) سورة الملك، الآية (١٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢٢٦/٨)، الدر المصون (٥٥٣٠/١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩).

(١) الصواعق المرسلة (٤٩٢/٢).

ويبين البقاعي(ت٨٨٥هـ) في تفسيره وجه ارتباط هذين الاسمين بالآية فيقول: " والحال أنه هو اللطيف:أي: الذي يعلم ما بثه في القلوب، لأنه يصل إلى الأشياء بأضدادها فكيف بغير ذلك؟ الخبير:أي: بالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شيء من الأشياء ؟".(١)

ويفيض السعدي(ت١٣٧٦هـ) في بيان معنى هذين الاسمين فيقول: " وهو اللطيف الخبير الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا ، والخفايا والغيوب، وهو الذي يعلم السر وأخفى ، ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة ".(٢)

فعلم مما تقدم أن ختم الآية باسمي اللطيف الخبير وجعله فاصلة لها بعد الحديث عن سعة علم خالق الخلق وإدراكه جل وعلا سرَّهم وجهرَّهم جاء متمكناً في موقعه مستقراً في مكانه يتعلق معناه بمعنى الآية بحيث لو ختمت الآية بغيره من الأسماء الحسنى لاختل المعنى وفسد النظم.

المطلب الثاني: مجيء اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير مجرداً من أل.

ورد اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير مجرداً من أل في ثلاثة مواضع من كتاب الله هي

(٢) نظم الدرر (٧٥/٨)، **والبقاعي**: إبرهيم بن عمر بن حسن،مؤرخ مفسر محدث، ولد ونشأ بالبقاع، مات (سنة٨٨٥هـ)، ينظر: البدر الطالع للشوكاني (١٩/١)، التاج المكلل لصديق خان ص٣٥٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٨٧٦

على النحو التالي:

الموضع الأول: قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ،(١)

الآية وردت في سورة الحج ، وفيها حثٌّ من الله تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته، وكماله الظاهر.وقد جاءت في سياق التذكير بنعم الله تعالى على الناس، والاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير،لأن الله هو الحق وهو المستحق للعبادة، فقد قال قبلها:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.(٢)

والخطاب فيها لكلّ من تصلح منه الرؤية،لأنّ المرئيَّ مشهور، والاستفهام إنكاري، أي: أعميتَ وغفلتَ ولم تشاهد ببصرك وبصيرتك،فنزلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتدادِ بها منزلة عدم العلم بها ، فأُنكر ذلك العدم على الناس الذين أهملوا الشكر والاعتبار .

والمنزَّلُ من السماء هو المطر فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها، ويبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج بهيج، وصار لها بذلك منظر جميل، وفى ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده.

والمخضرَّة هي التي صار لونها أخضر،أي:فتصير الأرض بسبب الماء ذات خضرة.

وإنما جاء الفعل:﴿ فَتُصْبِحُ ﴾،بصيغة المضارع لاستحضار صورة الاخضرار، الذي اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها، بخلاف صيغة الماضي التي لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضي يفيد انقطاع الشيء .(٣)

وجاء الفعل مرفوعاً ولم ينصب فى جواب الاستفهام،لأنَّ الاستفهام تقريري فهو في معنى الخبر ، والخبر لا جواب له.

---

(١) سورة الحج، الآية (٦٣).

(٢) سورة الحج، الآية (٦٢).

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٤٤ ، التحرير والتنوير (٢٢٩/١٧)، أضواء البيان (٢٩٤/٥)

وقد أوضح صاحب الكشاف ذلك غاية الإيضاح فقال:" فإن قلت: فما له رفع لم ينصب جواباً للاستفهام ؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأنّ معناه إثبات الاخضرار ، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر.وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله ".(١)

ثم تأمل كيف ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الجليلة باسمين عظيمين جليلين فقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾،لطيف،لأنه يدرك بواطن الأشياء وخفاياها وسرائرها – كما تقدم– ولأنه يسوق إلى عباده أرزاقهم بطرق لطيفة من حيث لا يشعرون، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض. وخبير،لأنه يعلم سرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور ، ولأنه خبير بأحوال عباده ومنافعهم ، فالجملة في موقع التعليل للإنزال، أي: أنزل الماء المتسبب بالاخضرار لأنه لطيف،أي:رفيق بمخلوقاته،ولأنه خبير بترتيب المسببات على أسبابها.(٢)

وبناء على ما تقدم جاءت أقوال أهل التفسير، فعن ابن عباس قال:" لطيف بأرزاق عباده،خبير بما في قلوبهم من القنوط"،(٣) وعن مقاتل قال :" لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه". (٤)

وقال الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره:"﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء وغير ذلك من ابتداع ما شاء أن يبتدعه،﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما يحدث عن ذلك النبت من الحبّ ". (٥)

---

(٢) الكشاف (١٧٠/٣).

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٩٢٧/٧)،الكشاف (١٧٠/٣)، التفسير الكبير(٥٥/٢٣)، التحرير والتنوير(٩/ ٣٨٢)

(٤) ذكره الفخر الرازي في تفسيره (٥٥/٢٣)

(٥) تفسير مقاتل (٣٨٨/٢).

(١) جامع البيان (٦٧٦/١٨)،

وقال البغوي(ت٥١٠هـ)في تفسيره:"﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾بأرزاق عباده واستخراج النبات من الأرض،﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوب العباد واستخراج النبات من الأرض، إذا تأخر المطر عنهم" . (١)

وقال السعدي(ت١٣٧٦هـ) في تفسيره:" ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات، خبير بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور".(٢)

وقال الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ) في تفسيره:" أي: لطيف بعباده، ومن لطفه بهم إنزاله المطر وإنباته لهم به أقواتهم، خبير بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض سبحانه وتعالى علوا كبيرا. "(٣) .

فختم الآية باسمي اللطيف الخبير وجعله فاصلة لها بعد الحديث عن إنزال الماء من السماء المتسبب بالاخضرار الأرض جاء متمكناً في موقعه مستقراً في مكانه يتعلق معناه بمعنى الآية بحيث لو ختمت الآية بغيره من الأسماء الحسنى لاختل المعنى وفسد النظم.

الموضع الثاني: قول الله تعالى:﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي

(٢) معالم التنزيل (٣٩٧/٥)،**والبغوي**:الحسين بن مسعود البغوي محي السنة، المعروف بابن الفراء كان إماماً حافظاً مفسراً محدثاً ، مات سنة (٥١٠هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٤١٣/٣٧)، طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي(١٧٥/٧)

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٤٤

(٤) أضواء البيان (٢٩٦/٥)، والشنقيطي: محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي، مفسر أصولي ،من أهل شنقيط، درَّس في المعاهد العلمية وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة ، توفي سنة (١٣٩٣هـ)،ينظر: الأعلام (٤٥/٦)،

صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ،(١)

وقد وردت هذه الآية في سورة لقمان ، وجاءت في سياق ذكر شيء من الآداب والوصايا التي أوصى بها لقمان ابنه ووعظه بها فناداه بنداء فيه تلطف وترقيق ، وذكَّره بالأعمال دقيقها وجليلها ليحثه على مراقبة الله، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والبعد من كل عمل قبيح، قلَّ أو كثُر، وأن تلك الأعمال حسنها وقبيحها دقيقها وجليلها في علم الله سواء .

والضمير في قوله:﴿ إِنَّهَآ ﴾ ضمير الشأن، يذكَّر ويؤنَّث حسب ما بعده، أو لما يفهم من سياق الآية ، وهو هنا عائد إلى الطاعة والمعصية والحسنة والسيئة ، والغرض منه:الاهتمام بإقبال المخاطب على ما يأتي بعده.ومثقال الشيء:ميزانه،أي: وإن كان في غاية الخفة والحقارة فإنَّ حَبَّةَ الخردل مَثَلٌ في الصِّغَر،ولأنه أقل ما يخطر غالباً بالبال.(٢)

وقوله:﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾، أي:أيُّ صخرة كانت ولو أنها أشدُّ الصخور وأقواها وأصغرها وأخفاها.ولما أخفى وضيَّقَ ،أظهر ووسع،ليكون أعظم لضياعها لحقارتها فقال: ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي:في أيِّ مكان كان منها على سعة أرجائها وتباعد أنحائها.

ولما كانت الصخرة جزءاً من الأرض وأراد قصد تعميم الأمكنة الأرضية قال: ﴿ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾. وقوله:﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾،أبلغ من قولك: « يعلمها الله » لأن فيه مع العلم بمكانه إظهار القدرة على الإتيان به، ولأن الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه. (٣)

وبعد وضوح معنى الآية فإن سألت عن السرِّ في ختمها بجملة:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، فقل:قد جاءت كالنتيجة من الدليل متمكنة في موقعها مستقرة في قرارها، ذلك أن اللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق،

(١) سورة لقمان، الآية (١٦).
(٢) ينظر: فتح القدير (٥٨٨/٣)، التحرير والتنوير (١٠٦/٢١).
(٣) ينظر: نظم الدرر (١٣/٦)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٤٨، التحرير والتنوير (١٠٦/٢١).

والخبير: من يعلم سرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور، فهو لطيف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار. (١)

وبناء على ما ذُكر جاءت أقوال أهل التفسير،فورد عن مجاهد (ت١٠٣هـ) أنه قال:" لطيف باستخراجها خبير بمكانها "،(٢) وجاء عن قتادة(ت١١٨هـ) أنه قال:" لطيف باستخراجها، خبير بمستقرّها"،(٣) وعن مقاتل (ت١٥٠هـ) قال :" لطيف باستخراجها خبير بمكانها ".(٤)

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ)في تفسيره:" المراد:أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه". (٥)

وقال البقاعي(ت٨٨٥هـ)" لطيف:أي عظيم المتّ بالوجوه الخفية الدقيقة الغامضة في بلوغه إلى أمر أراده حتى بضد الطريق الموصل فيهما يظهر للخلق، خبير:بالغ العلم بأخفى الأشياء فلا يخفى عليه شيء ، ولا يفوته أمر". (٦)

وقال الآلوسي(ت١٢٧٠هـ):" إن الله لطيف يصل علمه تعالى إلى كل خفي، خبير عالم بكنهه. وقيل: ذو لطف بعباده فيلطف بالإتيان بها بأحد الخصمين خبير عالم بخفايا الأشياء وهو كما ترى ، والجملة علة مصححة للإتيان بها " .(٧)

فختم الآية باسمي اللطيف الخبير وجعل الجملة فاصلة جاء متمكناً في موقعه مستقراً

---

(١) ينظر: روح المعاني، تيسير الكريم الرحمن ص٦٤٨، التحرير والتنوير (١٠٦/٢١).

(٢) تفسير مجاهد (٥٠٤/٢)، **ومجاهد**: هو بن جبر أبو الحجاج المكي أحد الأعلام من كبار التابعين، وأئمة المفسرين،توفي سنة(١٠٣هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٦/٨)، طبقات المفسرين الأدنروي ص١١

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١٤٢/٢٠)، وقتادة:هو بن دعامة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي مفسر حافظ ضرير أكمه، أحفظ أهل البصرة مات سنة(١١٨هـ)، ينظر:سير أعلام النبلاء (٣٢٣/٩)، طبقات المفسرين الأدنروي ص١٧

(٤) تفسير مقاتل (٢١/٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٣٨/٦)، **وابن كثير**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، عماد الدين:حافظ مؤرخ فقيه،توفي سنة (٧٧٤هـ)، ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٨٥/٣)، طبقات المفسرين للأدنروي ص٢٦٠

(٦) نظم الدرر (٢٧/٦).

(١) روح المعاني (٨٩/٢١)، والآلوسي: محمود بن عبدالله الحسيني، من علماء العراق، مفسر محدث فقيه، توفي (سنة١٢٧٠هـ)، ينظر: معجم المفسرين (٦٦٥/٢)، الأعلام (١٧٦/٧).

في مكانه يتعلق معناه بمعنى الآية، وذلك لما سبق ذكره من بيان سعة علم الله وقدرته على الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها، فبلطفه أدرك الأشياء الدقيقة وبخبرته علم بخفايا الأشياء .

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ،(١)

هذه الآية وردت في سورة الأحزاب وهي خاتمة الآداب والأوامر والنواهي التي وُجِّهت لنساء النبي ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن، ختمها الله ﷻ بالأمر بالعلم والتعلُّم بعد الأمر بالعمل.

قال السعدي(ت١٣٧٦هـ) في تفسيره: " لما أمرهن بالعمل، الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبيَّن لهنَّ طريقه ".(٢)

والأمر بالتذكُّر يصدق على الذكر الذي هو التلاوة والتعلُّم،وعلى التذكُّر الذي هو عدم الغفلة بأن يتذكرن نعمة الله سبحانه وتعالى ومنَّته عليهن أن كانت بيوتهن مهابط الوحي ومواطن التلاوة والعلم فيعرفن فضل الله ونعمته عليهن فيشكرن الله على ذلك.

وآيات الله: القرآن الكريم ، والحكمة: هي سنة النبي ﷺ المتضمنة لأقواله وأفعاله وتقريراته،وكل ما تضمنه القرآن الكريم من الحكم والأحكام والأوامر والنواهي ، ومنها معرفة أسرار الشريعة ومقاصدها. (٣)

وبناء على ما تقدم فإن ختم الآية الكريمة بجملة:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ مناسب لما قبله أتم المناسبة، بل جاءت الخاتمة متمكنة في موقعها مستقرة في مكانها،لأن اللطيف هو من يدرك بواطن الأشياء وخفاياها وسرائرها،ويسوق الأرزاق والعطايا بطرق لطيفة خفية من حيث لا يشعر أهلها، ومن لطفه جلَّ وعلا بأزواج نبيه ﷺ أنْ بَلَّغهن هذه المنزلة الرفيعة فجعلهن في بيوت العلم والتعلم تتلى فيها آيات الله والحكمة ، ولأن الخبير هو

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٣٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٣

(٤) ينظر: الكشاف (٥٤٦/٣)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٣ ، التحرير والتنوير (٢٤٩/٢١).

من يعلم سرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور ، ومن خبرته بهن أن اختارهن أزواجاً لرسوله ﷺ وأعطاهن هذا الفضل العظيم .

قال الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره :" إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا ".(١)

وقال ابن كثير(ت٧٧٤هـ):" أي:بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة،وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك ".(٢)

قال السعدي(ت١٣٧٦هـ):" فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال ".(٣)

وقال ابن عاشور(ت١٣٩٣هـ):" وجملة:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة والتعليل صالح لمحامل الأمرِ كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشقّ على المسدَى إليه.وفيما وُجِّه إلى نساء النبي ﷺ من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول ﷺ وجعلهن أهل بيوته،وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهَدِي النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث إلى ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه،ولأن الخبير ، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تاماً لا خلل ولا غفلة. ".(٤)

المبحث الثالث: اسم اللطيف ومناسبة مجيئه منفرداً.

وكما ورد اسم اللطيف في كتاب الله مقترناً باسم الخبير، ولم يرد مقترناً بغيره من أسماء الله الحسنى، فإنه قد جاء في القرآن منفرداً ، مرة متعدياً بحرف اللام ومرة متعدياً بحرف الباء، وذلك في موضعين من كتاب الله ، وإليك بيان ذلك في المطالب التالية:

---

(١) جامع البيان (٢٠/٢٦٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/٤١٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦٣
(٤) التحرير والتنوير (٢١/٢٥٠).

المطلب الأول: مجيء اسم اللطيف منفرداً متعدياً بحرف اللام .

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .(١)

الآية في سياق قصة نبي الله يوسف عليه السلام وذلك عندما أجلس أبويه على سرير ملكه بجانبه؛ إكراماً لهما، وحيَّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وتكريماً، لا عبادة وخضوعاً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وقد حُرِّم في شريعتنا؛ سداً لذريعة الشرك بالله.

وقال يوسف عليه السلام لأبيه: هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك من قبل في صغري، قد جعلها ربي صدقاً، وقد تفضل عليَّ حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية، من بعد أن أفسد الشيطان رابطة الأُخوَّة بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف التدبير لما يشاء، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله. (٢)

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ جاء في موقعه المناسب لما قبله أتم المناسبة، فاللطيف هو الرفيق بعباده الذي يوصل إليهم أَرَبَهم في لطف،وهو البَرُّ بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون،ويسوق لهم الأرزاق والعطايا بطرق لطيفة خفية من حيث لا يشعرون.

وقد جاء اسم اللطيف في قوله:﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ متعدياً بحرف اللام، وإنما عُدِّي باللام لأنه هنا بمعنى التدبير وإيصال البرّ والإحسان، وهو الموافق لحال نبي الله يوسف عليه السلام حينما جمع الله شمله مع أبويه وإخوته بعد الفرقة والشتات .

قال الزمخشري(ت٥٣٨هـ): " لطيف التدبير لأجله،رفيق ".(٣)

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٠).

(٢) ينظر:تفسير القرآن العظيم (٤١٢/٤)، تيسير الكريم الرحمن ص٤٠٥، التفسير الميسر (٢٠٠/٤).

(١) الكشاف (٤٧٦/٢)، **والزمخشري**: محمود بن عمر الخوارزمي، برع في اللغة والنحو والبيان وأخذ بمذهب الاعتزال ودافع عنه بقوة، توفي سنة(٥٣٨هـ)، ينظر: البداية والنهاية(٢٣٥/١٢)،طبقات المفسرين للسيوطي

وقال البيضاوي(ت٦٨٥هـ):" لطيف التدبير له، إذ ما من صعب إلا ويتسهل. وهو يتعدى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به ".(١)

وقال السمين الحلبي(ت٧٥٦هـ): " قوله:﴿ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾، لطف أصله أن يتعدى بالباء، وإنما تعدى باللام لتضمنه معنى مدبر، أي: أنت مدبر بلطفك لما تشاء ".(٢)

والمتأمل في هذه السورة الكريمة يدرك ما يدل عليه اسم الله "اللطيف"، فالسورة كلها لطف من الله ﷻ فألطافه سبحانه تعالى قد رافقت نبي الله يوسف عليه السلام في تنقلاته من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، حتى جمع الله شمله مع أبويه وإخوته، وحتى رفع الله درجته وأوصله إلى أعلى الغايات. (٣)

قال ابن جرير الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره: " إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودة والرِّق والإسار ".(٤)

وقال الزمخشري(ت٥٣٨هـ):" لطيف التدبير لأجله،رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ".(٥)

وقال الرازي(ت٦٠٦هـ):" والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول " .(٦)

ص١٠٤.

(٢) أنوار التنزيل (٣٠٩/٣).

(٣) الدر المصون (٣٥٣٠/١)، **والسمين**: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين: مفسر، عالم بالعربية والقراءات، توفي سنة(٧٥٦هـ)،ينظر: طبقات المفسرين للأدنروي ص٢٨٧، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٣٠٣/١.)

(٤) ينظر: فتح القدير (٨٠/٣)، تيسير الكريم الرحمن ص٤٠٧

(٥) حامع البيان (٢٧٧/١٦).

(١) الكشاف (٤٧٦/٢).

(٢) التفسير الكبير (١٧٢/١٨)، **والرازي**: محمد بن عمر بن الحسين مفسر متكلم، ولد في الري ويقال له ابن

وقال الخازن(ت٧٤١هـ) :" وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾، أي: حسن الاستخراج، تنبيهاً على ما أوصل إلى يوسف حين ألقاه إخوته في الجب.وقيل: إنَّ اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإزالة ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ".(١)

المطلب الثاني: مجيء اسم اللطيف منفرداً متعدياً بحرف الباء .

قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ .(٢)

الآية وردت في سورة الشورى، وقد افتتحت بالخبر من الله ﷻ عن لطفه وبرّه وإحسانه ورفقه بعباده ، فهو الذي يُسدي لهم البرَّ والإحسان والخير من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

وعباده ﷻ مراد به جميع العباد،برهم وفاجرهم ، لأنه جمع مضاف إلى معرفة.

خطيب الري،توفي ستة (٦٠٦هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء (٤٨٠/٤١)،طبقات المفسرين للداودي (٢١٧/٢).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل (٣١٨/٣)، **والخازن**: علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي علاء الدين المعروف بالخازن: عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية توفي سنة(٧٤١ هـ)،ينظر:طبقات المفسرين للأدنروي ص٢٦٧، شذرات الذهب لابن العماد (١٣٠/٦)

(١) سورة الشورى ، الآية (١٩).

والرزق: ما يحصل للإنسان في الدنيا ، لأن ما في الآية توطئة للآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾.(١) ولأن ما جاء في الآية التي بعدها هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم ، فما كان من رزق للمؤمنين والكفار ففي الدنيا، وما خص الله به المؤمنين من رزق ففي الآخرة.

والتقييد بقوله:﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ يفيد أن توسعة الرزق وتضييقه متعلق بمشيئته، جارٍ على وفق حكمته سبحانه.

وأما ختم الآية بقوله:﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ففيه إشارة إلى أن هذا اللطف مقرون بقهره ﷻ،وأن توسعة الرزق على من لا حيلة له،أو تضييقه على من هو في غاية القوة والقدرة متعلق بقهره، وأنه لا حول ولا قوة لأحد سواه ، لما له من القوة الكاملة والعزة الشاملة، فلا يضيق عطاؤه بشيء لأنه القوي ، ولا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء لأنه العزيز. (٢)

وقد جاء اسم اللطيف في قوله:﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ متعدياً بحرف الباء، وذلك لأن الفعل "لطف" بمعنى رَفَقَ وبرَّ ، واللطيف الرفيق بعباده البرُّ بهم .

ومما يؤكد هذا ما ورد عن السلف في معناه،فعن ابن عباس(ت٦٨هـ) رضي الله عنه قال:" لطيف بعباده: حفي بهم".(٣) وعن عكرمة مولى ابن عباس(ت١٠٥هـ) قال:" بارٌّ بهم" ،(٤) وعن مقاتل (ت١٥٠هـ) قال:" البر منهم والفاجر،لا يهلكهم جوعاً ".(٥)

وجاءت أقوال كثير من المفسرين على هذا المعنى:

---

(٢) سورة الشورى ، الآية (٢٠).

(٣) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري(٧٢/٦)، نظم الدرر (٦١٩/٦)، التحرير والتنوير(١٣٦/٢٥).

(١) ينظر: الكشف والبيان (٣٠٨/٣)، معالم التنزيل (١٨٩/٧).

(٢) ينظر: الكشف والبيان (٣٠٨/٣)، معالم التنزيل (١٨٩/٧)، **وعكرمة**:مولى ابن عباس أبو عبد الله القرشي مولاهم بربري الأصل، العلامة، الحافظ، المفسر،مات سنة (١٠٥هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء (١٦/٩)، طبقات المفسرين للأدنروي ص٢٦٧

(٣) تفسير مقاتل (١٧٦/٣).

قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ)في تفسيره:" أي: برّ بليغ البرّ بهم ، قد توصل برُّه إلى جميعهم ، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه ، وهم أحد من كلياته وجزئياته ".(١)

وقال الرازي (ت٦٠٦هـ):" أي:كثير الإحسان بهم. وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة فكان ذلك من لطف الله بعباده ".(٢)

وقال أبو السعود (ت٩٨٢هـ):" أي: برٌّ بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون ألطافه مالا يكاد يناله أيدى الأفكار والظنون ".(٣)

وقال الآلوسي (ت١٢٧٠هـ):" برٌّ بليغ بهم يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه ما لا يعلمه الأفهام، ويؤذن بذلك مادة اللطف وصيغة المبالغة فيها وتنكيرها الدال على المبالغة بحسب الكمية والكيفية ".(٤)

هذه التفاسير عن السلف تدل على معنى اللطيف وأنه البر بعباده الرفيق بهم ، وعلى تعديته بحرف الباء.

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأل الله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

(٤) الكشاف (٤/٢٢١).
(٥) التفسير الكبير (٢٧/١٣٨).
(٦) إرشاد العقل السليم (٨/٢٩).
(٧) روح المعاني (٢٥/ ٢٦).

– أنَّ اسم اللطيف من أسماء الله تعالى الحسنى، ويراد به العلمية ويدل على كمال الوصفية، وهو الذي اجتمع له العلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه، والرفق في الفعل والتنفيذ،

– أنَّ لطفَ الله بعبده يعني: الرفق به والتوفيق والعصمة، ولطفُه له يعني:إيصال الخير إليه والإحسان إليه.

–أنَّ اسم الخبير من أسماء الله الحسنى وهو العالم ببواطن الأمور، وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان،وبالعالم العلوي والسفلي،وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

– أنَّ اسم اللطيف ورد في كتاب الله مقترناً باسم الخبير، ولم يرد مقترناً بغيره من أسماء الله الحسنى، وسرُّ ذلك أنَّ اسم اللطيف يتضمن الإحاطة بالخفايا، وإدراك الخبايا، والأمور الدقيقة، وهو المسدي لعباده مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فاقترانه بالخبير لأنه ﷻ بعد لطفه ورفقه في معرفة الأشياء ودقائقها خبير بها مطلع عليها عالم بكل أحوالها. فهو سبحانه وتعالى لطيف بخلقه خبير بهم .

– ورد اسم اللطيف مقترناً باسم الخبير في خمسة مواضع من كتاب الله ، اثنان منها جاء فيها معرفاً، الأول: في سورة الأنعام،الآية(١٠٣)، والثاني: في سورة الملك،الآية (١٤) ، وثلاثة منها جاء مجرداً من أل الأول: في الحج،الآية (٦٣)، والثاني: في سورة لقمان، الآية (١٦)، والثالث: في سورة الأحزاب، الآية (٣٤).

– جاء اسم اللطيف في كتاب الله منفرداً غير مقترن باسم الخبير ولا بغيره من الأسماء الحسنى ، فجاء تارة متعدياً بحرف اللام كما في سورة يوسف،الآية (١٠٠)، وتارة متعدياً بحرف الباء، كما في سورة الشورى،الآية (١٩).

– جاءت دراسة هذا الموضوع مستقصيةً جميع المواطن التي ورد فيها اسم اللطيف، وهي سبعة، سواء كان مقترناً باسم الخبير أو منفرداً ، وسواء جاء خاتمة للآيات القرآنية أو غير ذلك ، وهي دراسة أوضحت مدى أهمية البحث باسم من أسماء الله الحسنى وتتبع مواضعه في كتاب الله ودراسته دراسة موضوعية ، وبيان اهتمام المفسرين بذلك.

– أظهرت هذه الدراسة شيئاً مما اشتمل عليه كتاب الله من الأسرار البلاغية، والنكات البديعية، واللطائف الخفية التي لا تنفد ولا تنحصر، وهي تفتح المجال لمن يتدبر كتاب الله العظيم،ويتأمل آياته ليزداد بذلك إيمانُه ويقينه ، وتترسخ في قلبه المحبة والشوق لكتابه ، وتفتح أمامه علومه ومعارفه، وهذا سرٌ من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

– وختامًا أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، فلقد بذلت قصارى جهدي في استيفاء الكلام حول هذا الموضوع ، راجعًا حول هذه الآيات وتفسيراتها إلى أشهر كتب أهل التفسير وأوثقها، موثقًا وناقلاً عن أهل العلم كلامهم، ومستنيراً بآرائهم، حتى استبان هذا الموضوع وجمع شتاته واستكمل بناؤه فلله الحمد الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم– محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت٩٨٢هـ) ، نشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت لبنان.
- أساس البلاغة – محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)– تحقيق: محمود محمد شاكر نشر مطبعة المدني – القاهرة — ١٩٩١م
- أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة د/محمود عبد الرازق الرضواني ،الطبعة الأولى

سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م
- الأسماء والصفات : أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ)تحقيق : عبد الله بن محمد الحاشدي ، الناشر: مكتبة السوادي – جدة، الطبعة الأولى.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ)، نشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ،لبنان،١٤١٥ هـ.
- الأعلام – خير الدين الزركلي(ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي(ت٦٨٥هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة تأليف:الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) دراسة وتحقيق:محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل – بيروت الطبعة الثالثة.
- البحر المحيط، أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي(٧٤٥هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢،١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية_ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء(ت٧٧٤هـ)- الناشر : مكتبة المعارف – بيروت .
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة- عبد الرحمن بن أبي بكر للسيوطي (ت٩١١هـ)نشر: مكتبة مشكاة الإسلامية .
- تاج العروس من جواهر القاموس- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من، المحققين، الناشر: دار الهداية.
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، صديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ)، لا توجد معلومات.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور(ت١٣٩٣هـ)، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.

- تفسير القرآن العظيم- إسماعيل بن عمر بن كثير(ت٧٧٤هـ)، تحقيق:سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ .
- تفسير القرآن العظيم – عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)ت أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار محمد الباز مكة ط١ – ١٤١٧هـ
- التفسير الكبير ، محمد بن عمر الرازي،دار إحياء التراث،لبنان.
- تفسير مجاهد- مجاهد بن جبر المخزومي (ت١٠٣هـ)، تحقيق : عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي : المنشورات العلمية — بيروت
- تفسير مقاتل بن سليمان- مقاتل بن سليمان البلخي(ت١٥٠هـ)- دار النشر : دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت ،الطبعة : الأولى- ١٤٢٤ هـ
- التفسير الميسر — مجموعة من العلماء بإشراف د.عبد الله بن عبد المحسن التركي : موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- التعريفات- علي بن محمد بن علي الجرجاني(ت٨١٦هـ)- تحقيق: إبراهيم الأبياري- نشر : دار الكتاب العربي- بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- تهذيب اللغة- أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم : أحمد بن إبراهيم بن عيسى (ت١٣٤٣هـ)- تحقيق : زهير الشاويش- نشر : المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦ هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي(ت١٣٧٦هـ) – تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق – نشر: مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م .
- جامع البيان في تأويل القرآن –محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)،تحقيق: أحمد شاكر- مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ.
- الدر المصون في علوم الكتب المكنون-أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحبي(ت٧٥٦هـ)-تحقيق: د. أحمد الخراط-دار القلم-دمشق-ط١، ١٤٠٦هـ.

- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الشهاب محمود بن عبدالله الآلوسي(ت١٢٧٠هـ)،دار إحياء التراث العربي،بيروت، لبنان، ط٤،١٤٠٥هـ
- سير أعلام النبلاء – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)،تحقيق: شعيب الأرناؤوط– نشر: مؤسسة الرسالة.
- شأن الدعاء شأن الدعاء حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، المعروف بالخطابي(ت٣٨٨هـ) تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق – نشر: دار الثقافة العربية الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ– ١٩٨٤ م
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي الشهير بابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)– دار النشر :: دار الكتب العلمية
- الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية– إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ) نشر: دار العلم للملايين– بيروت. الطبعة: الرابعة–١٩٩٠م.
- صحيح البخاري– محمد بن إسماعيل البخاري(ت٢٥٦هـ)، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا،نشر دار ابن كثير، اليمامة– بيروت ط ٣ ، ١٤٠٧هـ
- صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت٢٦١هـ)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار إحياء التراث العربي — بيروت .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة –محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، الشهير بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)– تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله – نشر : دار العاصمة – الرياض الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- طبقات الشافعية . لابن قاضى شهبة أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ)– تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان – دار النشر : عالم الكتب – بيروت الطبعة : الأولى— ١٤٠٧هـ .
- طبقات الشافعية الكبرى . موافق للمطبوع تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ)– تحقيق : د. محمود محمد الطناحي، د.عبد. الفتاح محمد الحلو– دار النشر : هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة : الثانية– ١٤١٣هـ.
- طبقات المفسرين أحمد بن محمد الأدنروي(ت بعد الألف من الهجرة) تحقيق :

سليمان بن صالح الخزي نشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة الطبعة الأولى ، ١٩٩٧

- طبقات المفسرين، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- طبقات المفسرين–محمد بن علي الداودي(ت٩٤٥هـ)–دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، لبنان.
- العين– الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٣هـ) – تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي ، نشر : دار ومكتبة الهلال .
- غاية النهاية في طبقات القراء – محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ)– بدون معلومات.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت٨٥٠هـ)– تحقيق : الشيخ زكريا عميران – دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ،الطبعة : الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني(ت١٢٥٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض.
- الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)،تحقيق حسام الدين القدسي —دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- ابن القيم حياته وآثاره، د.بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩هـ)، مطابع دار الهلال،السعودية،الرياض ط١ ١٤٠٠ هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل –محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- الكشف والبيان – أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت٤٢٧هـ) تحقيق : أبي محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار النشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة : الأولى١٤٢٢هـ ٢٠٠٢ م

- لباب التفسير في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، الشهير بالخازن (ت٧٤١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ
- لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ) ، الناشر : دار صادر — بيروت، الطبعة الأولى١٤١٠هـ..
- مشاهير علماء نجد، عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ(ت١٣٦٦هـ)، دار اليمامة، ط٢، ١٣٩٤هـ .
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي(ت٥١٠هـ)، ت خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.
- معجم المفسرين– عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان،ط٣، ١٤٠٩هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي (ت١٣٨٨هـ)
- معجم مقاييس اللغة– أحمد بن فارس بن زكريا، (ت٣٩٥هـ)ت، عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى– محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ) – نشر : الجفان والجابي — قبرص– الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور– برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي(ت٨٨٥هـ)– دار النشر: دار الكتب العلمية– بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م
- النكت والعيون – أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ)،تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم– الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي(ت١٣٣٩هـ)، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره– مكي بن أبي طالب

حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي (ت٤٣٧هـ)– تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي – نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة –كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان(ت٦٨١هـ)– تحقيق : إحسان عباس – نشر : دار صادر – بيروت.

الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة

في ضوء سورة النور

أ.د. يوسف بن عبدالعزيز الشبل
قسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مُقَدِّمَة

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن أشرف عمل يقوم به المرء ما كان في خدمة كتاب الله القرآنِ الكريم ، تعلُّماً وتعليماً ، وتدبراً وفهماً ، وبحثاً في علومه ، واستنباطاً لأحكامه واستخراجاً لحكمه وأسراره ، فهو بحر لا يدرك غوره ، ولا تنفد درره ، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه.

وكلما تدبره المسلم وأمعن النظر فيه زاده ذلك إيماناً ويقيناً ، وسمواً في أدبه وأخلاقه ، وشوقًا ومحبة في قلبه ، وفتح عليه من المعارف العلوم ، والحكم والأحكام الشيء العظيم ، ولا عجب ، فهو منار الهداية والإصلاح ، ومعين الآداب والأخلاق.

ولقد اختصت سورة النور من بين سوره بمزيد من الآداب والأخلاق فرقت بالمسلم إلى كل فضيلة ، وصانته من كل فاحشة ورذيلة .

ولما حرم الله ﷻ الزنا في قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) حرم كل وسيلة تفضي إليه ، وأوصد كل منفذ يؤدي إليه .

وقد عنيت سورة النور ـــ وهي سورة الآداب الاجتماعية ـــ بحفظ الجماعة المسلمة من نشوء أي رذيلة ، وصونها من كل الفساد والانحلال ، بل أرشدت إلى الوسائل التي تقي كلَّ مسلم ومسلمة من الوقوع في فاحشة الزنا.

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (32).

ولأهمية هذا الأمر وخطورته في إغراق الأمة الإسلامية في شهواتها وانحلال أخلاقها، كان لزاماً عليَّ أن أسهم في دفع هذا الشر وصون الأمة من هذه المخاطر ببيان ما أمر الله به من الحياء والعفاف، وما حذَّر من كل وسيلة تفضي إلى الفاحشة ، فتوجهتُ مستعيناً بالله ﷻ ببحث هذا الموضوع وتتبع ما ورد في سورة النور من الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة فاستخرجت منها خمس عشرة وسيلة، ذكرت في النصف الأول من السورة .(١)

أسباب اختيار الموضوع:

1- تعلقه بكتاب الله ﷻ وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

2- أن الكتابة في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن، أو من خلال موضوع في سورة معينة مما برز مؤخراً خدمة لكتاب الله وإبرازاً لهداياته وكشفاً لأسراره، وقد جاءت هذه الدراسة في بيان الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة في ضوء سورة النور.

3- أن سورة النور تناولت جوانب مهمة في حياة المسلم حيث اشتملت على تعاليم وآداب تدعو إلى العفاف والطهر والحياء ، وعلى ضمانات وتدابير تقي المسلم من كل رذيلة وفساد وانحلال ، ولا جرم أننا بأمس الحاجة إلى معرفتها ودراستها والاستنارة بهداياتها وتوجيهاتها.

4- أن فاحشة الزنا من أعظم الفواحش وأقبحها وأشدها خطراً وضرراً على الأمة

(١) أشار فضيلة الشيخ د. بكر أبو زيد رحمه الله في كتابه حراسة الفضيلة ص94 إلى هذه الوسائل إجمالاً .

الإسلامية ، ولما حرم الله الزنا حرم كل وسيلة تفضي إليه ، فجاءت هذه الدراسة مستقصية مواطن كل وسيلة توقع في فاحشة الزنا ، راصدة ما أورده الله تعالى في هذه السورة الجليلة، ثم دراستها دراسة تفسيرية ، وتجلية ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، وإبراز ما حوته من أوجه بلاغية وأسرار بديعية.

هذا وقد نالت سورة النور اهتماماً كبيراً من قبل أهل التفسير قديماً وحديثاً ، فعنوا بتفسيرها وتجلية ما فيها من أحكام وآداب وتوجيهات وهدايات ، دراسة عامة ضمن تفاسيرهم ، ودراسة خاصة ، مما يصعب حصرها وتعدادها في هذا المقام.

إلا أن هذه الدراسة قد جاءت لإبراز جانب من جوانبها لم يسبق البحث فيه فيما أعلم مع كون الحاجة إليه ماسة.

لهذا الأمر ولرغبتي في خدمة كتاب الله تعالى عمدت بعد استخارة ثم استشارة إلى الشروع في دراسة هذا الموضوع وجمع شتاته، إسهاماً في إبراز الهدايات القرآنية في مجال الأخلاق والفضائل ، فاستعنت بالله فنظمت خطته في مقدمة وتمهيد وخمسة عشر مبحثاً (شملت خمس عشرة وسيلة)، وخاتمة.

المقدمة:وفيها أهمية البحث وسبب الكتابة فيه، والدراسات السابقة، وخطته، والمنهج المتبع.

التمهيد: وفيه تعريف مجمل بالسورة .

الوسيلة الأولى: تطهير الزناة والزواني بعقوبة حد الزنا.

الوسيلة الثانية : التطهر باجتناب نكاح الزواني وإنكاح الزناة.

الوسيلة الثالثة : تطهير الألسنة عن رمي المؤمنين بفاحشة الزنا.

الوسيلة الرابعة : تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا من غير بينة.

الوسيلة الخامسة : تطهير النفوس عن ظن السوء بالمؤمنين بفعل الفاحشة.

الوسيلة السادسة : تطهير الإرادة عن محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

الوسيلة السابعة : تطهير النفوس من الوساوس والخطرات التي توقع في الفاحشة.

الوسيلة الثامنة: مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت.

الوسيلة التاسعة : وجوب غض البصر عن النظر المحرم.

الوسيلة العاشرة : وجوب حفظ الفرج عن المحرم.

الوسيلة الحادية عشرة: تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب.

الوسيلة الثانية عشرة: منع ما يحرك الرجل ويثيره.

الوسيلة الثالثة عشرة: الحض على النكاح .

الوسيلة الرابعة عشرة: الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد النكاح.

الوسيلة الخامسة عشرة: النهي عن البغاء.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

هذا وقد كان منهجي في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي :

أولاً: أورد في كل مبحث الآية أو الآيات الدالة على الوسيلة الواقية من الوقوع في الفاحشة، موضحاً وجه الدلالة من الآية،مؤيداً ذلك بكلام المفسـرين مع إبراز ما فيها من أسرار بلاغية ونكات بديعية.

ثانياً: عزوت الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

ثالثاً:خرجت الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها.

رابعاً: عرفت بالأعلام غير المشهورين تعريفاً مختصراً يفي بالمقصود.
خامساً: وثـــقت أقوال أهل العلم من مصادرها.
سادساً: وضعت في آخر البحث فهرساً للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.
آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: وفيه تعريف مجمل بالسورة .

أولاً:اسم السورة وعدد آياتها:

1-اسم السورة: تسمى هذه السـورة بسـورة النور ، وقد وردت هذه التسمية في أحاديث وآثار منها:

2- عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور».(١)

3- عن المسور بن مخرمة ﷺ أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول:(تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء،وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور،فإن فيهن الفرائض). (٢)

وهذه التسمية هي المثبتة في المصاحف وكتب التفسير ،ولا يعرف لها اسم آخر، ووجه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (632/10) ونسبه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر و البيهقي ، وهو مرسل ، ومجاهد بن جبر:من التابعين،كان إماماً في التفسير، وأحد تلامذة ابن عباس ﷺ ، توفي سنة(103هـ) ،انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (449/4)، طبقات المفسرين للداودي(305/2).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (395/3)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي، والمسور بن مخرمة بن نوفل القرشى، أدرك النبي ﷺوهو صغير وسمع منه ، مات سنة (64هـ) ،انظر: الاستيعاب لابن عبد البر(396/3)، الإصابة لابن حجر(399/3).

تسميتها بذلك لتضمُّنها الآية المشرقة آية النور، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (١) ، ولما اشتملت عليه من الأحكام والآداب والفضائل التي تدعو إلى العفاف والستر وحفظ الأعراض التي تنير للمؤمن قلبه وحياته.

-عدد آياتها:

اختلف أهل العدِّ في عدد آيات سورة النور، ففي عدِّ أهل مكة والمدينة اثنتان وستون، وفي عدِّ البقية أربع وستون، والمختلف فيها آيتان هما: قوله تعالى: ﴿ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .(٣) ، (٤) .

ثانياً:نوع السورة ومناسبتها لما قبلها:

نوع السورة: سورة النور مدنية، حكى الإجماعَ على ذلك القرطبي في تفسيره. (٥)

ومن تأمل آياتها جزم بأن السورة مدنية ، لما فيها من خصائص السور المدنية فقد جاء فيها:

أولاً: ذكر بعض الحدود الشرعية كحد الزنى وحد القذف وأحكام اللعان، وإنما

---

(١) وهي الآية (35).

(٢) وهي الآية (36).

(٣) وهي الآية (43).

(٤) انظر:البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني ص193بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (334/1).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (106/12)، والقرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري من كبار المفسرين من أهل قرطبة نزل مصر واستقر بها، وتوفي بها سنة(671هـ)، انظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص(79)، طبقات المفسرين للداودي (69/2.

شرعت هذه بعد الهجرة وقيام الدولة الإسلامية.

ثانيا: حادثة الإفك ، وهي الحادثة التي أُفك بها على الصديقة عائشة رضي الله عنها، وقد وقعت في غزوة بني المصطلق سنة ست من الهجرة (١) .

ثالثاً: ذكر بعض الأحكام الشرعية مثل آيات الاستئذان والحجاب والنكاح والاستعفاف.

رابعاً: ذكر شيء من أحوال المنافقين ، و لم يظهر النفاق إلا بعد الهجرة.

مناسبتها لما قبلها:

يتبين ارتباط هذه السورة بما قبلها وهي سورة المؤمنون من أوجه متعددة ، أشهرها :

أولاً: أن الله ﷻ لما مدح المؤمنين وأثنى عليهم في أول سورة المؤمنون بقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ (٢)

وفي سورة النور جاء التأكيد على حفظ الفروج ، والأمر باتباع الوسائل الواقية من الوقوع في فاحشة الزنا.

ثانياً: لما ذكر الله ﷻ في آخر سورة المؤمنون المبدأ العام في مسألة الخلق ، وهو أنه لم يخلقنا عبثاً ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (161/4) .

(٢) الآيتان (5،6)

.(١) بل شرع لنا ما نســـتضيء به في حياتنا مما فرضه علينا من الأحكام والآداب، جاء في أول سورة النور: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.(٢)،(٣).

ثالثاً:مقصد السورة وأبرز موضوعاتها:

مقصد السورة:

مقصد السورة شرع الله هو نور المجتمع المسلم، وقد ظهر ذلك من اسمها النور، الذي يتمثل في الأخلاق والآداب والستر والعفاف، بوضوحها وشفافيتها ، والسورة – كما تقدم – مدنية تهتم بالآداب الاجتماعية عامة وآداب البيوت خاصة وقد وجهت المسلمين إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة بما فيها من توجيهات وآداب ، تحفظ المسلم ومجتمعه ،وتصون حرمته ، وتحافظ عليه من عوامل الانهيار الخُلُقي.(٤)

أبرز موضوعاتها:

اشتملت هذه السورة على موضوعات عديدة وأحكام مهمة، أغلبها يتعلق بالأسرة من أجل بنائها على دعائم راسخة ، والحفاظ عليها من المخاطر ، ففيها آداب سامية،وحكم عالية،وتوجيهات رشيدة،

---

(١) الآية (115) .

(٢) الآية (1) .

(٣) انظر:نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (200/12)، تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص 104

(٤) انظر:نظم الدرر (200/13)، روائع البيان للصابوني (5/2)

وأبرز ما اشتملت عليه السورة من موضوعات ما يلي:

أولاً: بدأت السورة ببيان حد الزنا، والقذف،وحكم اللعان عند اتهام أحد الزوجين الآخر بالفاحشة، وهذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع المسلم من الفساد والانحلال الخلقي.

ثانياً: الشروع في حادثة الإفك المبنية على سوء الظن والتسرع باتهام البريئين مما أرجفه أهل النفاق، وذلك لأجل تبرئة الصديقة بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما زوج خير البرية وأزكاها ﷺ، ومحاربة شيوع الفاحشة والزجر عن حب الإشاعات المغرضة.

ثالثاً: تحدثت السورة – بعد ذلك – عن طائفة من الآداب الاجتماعية في الحياة الخاصة والعامة ، بدءاً بالاستئذان وأحكامه عند دخول البيوت ،لأنها مظنة الخلوة ، ثم بوجوب غض الأبصار وحفظ الفروج عمَّا حرم الله، لأنه من بواعث الوقوع في الفاحشة، ثم بالستر وإخفاء الزينة عن الأجانب ، وهو نهي عن الاختلاط ، ثم الأمر بالنكاح الذي هو الطريق الصحيح لتحقيق العفة ، أو الاستعفاف لمن لم يقدر على ذلك ،ثم تحريم البغاء والقضاء على بؤرة الفساد، وكل ذلك من أجل الحفاظ على العفة والحياء ، والسلامة من الفتنة والفساد.

رابعاً: تميزت السورة بأن آياتها نور وهدى، وأنها واضحة الدلائل، بينة الأحكام، مستقاة من نور الله الذي أضاءت له السموات والأرض ، فاستضاء أهلها بنوره واهتدوا بهداه ، وأن مواطن هذا النور والهدى هي بيوت الله ، وأن من حرم هذا النور فهو الذي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال .

خامساً: لفتُ الناس إلى النظر في أدلة وجود الله ﷻ ووحدانية في السموات والأرض من تقليب الليل والنهار، وإنزال المطر وتسبيح من في السموات والأرض من طيور، وخلق الدواب المختلفة.

سادساً: أشارت السورة إلى مواقف المنافقين والمؤمنين الصادقين من حكم الله ورسوله، وأثر ذلك على الفريقين .

سابعاً: عود السورة إلى شيء من الآداب الاجتماعية ، كالاستئذان في أوقات معينه، ووضع الحجاب عن القواعد من النساء، ودخول البيوت والأكل منها من غير حرج ، و تعظيم النبي ﷺ وتبجيله،والأدب في مخاطبته والاستئذان عند الانصراف منه وعدم مخالفة أمره. (١)

(١) انظر:التحرير والتنوير لابن عاشور (140/18) ، التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي (119/18).

الوسيلة الأولى: تطهير الزناة والزواني بعقوبة حد الزنا

قال تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

يعتبر الزنا في شريعة الله ﷻ من أشنع الجرائم وأخبثها ، فهو لوثة أخلاقية وجريمة اجتماعية وهدر للكرامة وتعريض النسل للخطر والضياع، ولذلك جعل الله عقوبته صارمة، وحدَّه أليماً ، فمن وقع فيه من الرجال أو النساء حُدَّ مائة جلدة، إن كان حراً بالغاً عاقلاً بكراً غير محصن ، فإن كان محصناً بالزواج رُجم ، كما ثبت ذلك بالسنة المتوترة. (٢)

والجَلد: الضرب على الجِلد بالسوط ونحوه ، ثم أطلق على الضرب مطلقاً. (٣)

وتأمل ما في الآية من أسرار بلاغية، فقد جيء بجملة:﴿ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾، لبيان أنهما مشتركان في الجريمة، ولئلا يفهم أن الحدَّ يقع بينهما ، وإنما لم يكتف بذكر الزاني ، بل ذكر معه الزانية وذلك لئلا يظن ظانٌّ أنَّ الحد عليه دون المرأة لأنه الواطئ ، فدفع هذا الظن ، ولأنه أبلغ في التنفير والزجر.

---

(١) سورة النور،الآية (2) .

(٢) ونصها:«والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»،وهي آية من كتاب الله نسخ لفظها وبقي حكمها، وهي ثابتة في الصحيحين،صحيح البخاري (32/8) برقم (6830)، وصحيح مسلم (1317/3) برقم (1691).

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور(3 /125)،القاموس المحيط للفيروزآبادي ص349 مادة (جلد).

فإن قيل لم قدمت الزانية على الزاني ؟ فالجواب: لأن الزنا من المرأة أقبح،ولأنها هي الباعثة ولولا تمكينها لم يُزنَ بها. (١)

ثم حث الله تعالى أولي الأمر من المسلمين على تنفيذ هذا الحدّ في الزناة والزواني جلداً أو رجماً ، وأن يكونوا جادين في تنفيذ العقوبة، حازمين فيها غير متساهلين في إقامة حد الله الذي شرعه ، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدود الله .

ودين الله شرعه وحكمه ،والتصريح به لإفادة أن الرأفة المذكورة رأفة غير محمودة لأنها تعطل أحكامه. (٢)

ثم قُيِّد هذا بالشرط الذي يفيد التهييج والإلهاب وتحريك حميتهم للجد في الطاعة وإجراء حكم الله في المجرمين، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾، وذكر اليوم الآخر للتخويف بما فيه من العقاب في مقابلة الرأفة . (٣)

وإنما أمر بحضور جماعة من المؤمنين عند إقامة الحد عليهما، تشهيراً بهما وزيادةً في التنكيل،فإن الشهير قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب ، فيكون ذلك رادعاً لهما عن العودة إلى الجريمة،ولتحصل العبرة والموعظة لغيرهما فلا يجترئون على ارتكاب الجرائم. (٤) . فتحصل مما تقدم ما يلي:

---

(١) انظر:الجامع لأحكام القرآن (107/12)

(٢) انظر:الكشاف للزمخشري (209/3)، التحرير والتنوير (150/18).

(٣) انظر:الكشاف (209/3) روح المعاني للآوسي (83/18) .

(٤) انظر:التفسير الكبير للرازي (149/23)،التحرير والتنوير (151/18).

1- أن من الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة تطهيرَ الزواني والزناة بإقامة الحد عليهما جلداً أو رجماً ، لأنه بتطهيرهم يطهر المجتمع المسلم من هذه الجريمة.

2- كان هذا الحد صارماً وبالغ القسوة ليرتدع كل من وقع في هذه الفاحشة، أو أراد الإقدام عليها ، إذ هو كفيل بقطع دابر هذه الجريمة وتطهير المجتمع المسلم منها.

3- تنفيذ العقوبة في الزناة جلداً أو رجماً ينبغي أن يقع بحزم من غير تساهل ، وأن يحضره جمع من المؤمنين ردعاً لمرتكبي الفاحشة، وقطعاً لدابرها من نفوس ضعاف الإيمان ، وإنما كان إقامة الحد بهذه الصورة المذكورة لما لها من أضرار بالغة على الفرد والجماعة . (١)

(١) انظر:كتاب من أخلاق القرآن وبلاغته في سورة النور د/ فتحي فريد ص12

الوسيلة الثانية: التطهر باجتناب نكاح الزواني وإنكاح الزناة.

قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

تعدُّ هذه الآية من الآيات المعضلة عند كثير من المفسرين:

قال أبو بكر بن العربي: « هذه الآية من مشكلات القرآن ... ولهذا أخذ العلماء فيها مآخذ متباينة »اهـــ .(٢)

وقال الشنقيطي: « هذه الآية من أصعب الآيات تحقيقاً ... »اهـــ.(٣)

وإشكالها يكمن في وجهين:

أولهما: أنها جاءت بصيغة الخبر، قال ابن العربي :« ذلك أن الله أخبر أن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، ونحن نرى أن الزاني ينكح العفيفة،ونرى الزانية ينكحها العفيف،فكيف يوجد خلاف ما أخبر الله به عنه ؟

---

(١) سورة النور،الآية (2) .

(٢) أحكام القرآن (1329/3)، وابن العربي:أبو بكر محمد بن عبد الله الأندلسي من فقهاء المالكية ومن علماء الأندلس، توفي سنة (543هـــ)، انظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص90، طبقات المفسرين للداودي (167/2).

(٣) أضواء البيان (81/6)، والشنقيطي:محمد الأمين بن محمد المختار، من علماء شنقيط، قدم السعودية للحج ثم استقر بها ، توفي سنة(1393هـــ)،انظر:مشاهير علماء نجد لعبد الرحمن آل الشيخ ص517،معجم المفسرين لعادل نويهض (496/2) .

» اهـــ. (١)

والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: « أن اللفظ وإن كان عاماً لكن المراد منه الأعم الأغلب ، وذلك لأن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، وكذا الفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، فهذا على الأعم الأغلب كما يقال لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا ههنا ». (٢)

الوجه الثاني: أن الآية ظاهرها الخبر ومفادها النهي، فإن النهي بصيغة الخبر أبلغ وآكد، فقولهم: يرحمك ، أبلغ من ليرحمك.(٣)

ثانيهما: ظاهر الآية أنه يجوز للمشرك أن يتزوج الزانية المسلمة، وللزاني المسلم أن يتزوج المشركة، وهو بعيد جداً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ ﴾ . (٤)

والجواب عنه:

---

(١) أحكام القرآن (1329/3) ، بتصرف يسير.

(٢) التفسير الكبير (150/23) .

(٣) انظر: الكشاف (3 /213) .

(٤) سورة البقرة، الآية (221) .

أن هذا كان في أول الأمر ثم إنه حرم بعد ذلك أن يتزوج المشرك بالزانية المسلمة،والزاني المسلم بالمشركة.

قال ابن القيم: « تحريم المسلمات على المشركين إنما نزل بعد صلح الحديبية لا قبل ذلك ». (١)

وقال الآلوسي: « إن نكاح الكافر للمسلمة كان حلالاً قبل الهجرة وبعدها إلى سنة الست وفيها بعد الحديبية نزلت آية التحريم » . (٢)

وآية التحريم هي قوله تعالى:﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ، (٣) وقوله تعالى:﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ .(٤)

وبعدُ ، فإن أقوال المفسرين قد تعددت في مفهوم الآية إلا أن أظهرها أن يقال:إن هذه الآية فيها التنفير من الزنا، وبيان رذيلته، وأنه يدنس عرض صاحبه وعرض من قارنه، وأن من اتصف بالزنا و لم يتب منه رجلاً كان أو امرأة، لا يقدم على نكاحه والتزوج به إلا من كان مثله زانيًا ممارسًا للزنا أو مشركًا لا يراعي أحكام الله وحدوده، وذلك

---

(١) زاد المعاد (124/5)، وابن القيم:محمد بن أبي بكر الدمشقي، من كبار فقهاء الحنابلة،وأبرز تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، له مؤلفات عديدة،توفي سنة (691هـ)،انظر:الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (245/2)، طبقات المفسرين للداودي (93/2).

(٢) روح المعاني (87/18) والآلوسي:محمود بن عبد الله الحسيني، من علماء العراق مفسر محدث،توفي سنة (1270هـ)،انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (352/1) ، الأعلام للزركلي (176/7).

(٣) سورة الممتحنة ، الآية (10) .

(٤) الآية السابقة .

لأن الفاسق الزاني لا يرغب في نكاح الصالحات العفيفات، وإنما يرغب فيمن مثله، وكذلك الفاسقة. والآية وإن كان ظاهرها الخبر إلا أن مفادها النهي والتحريم. (١)

فإن قيل: لم قدمت الزانية في الآية السابقة، وقدم الزاني عليها هنا ؟

فقد أجاب الزمخشري بقوله: « سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تطمع الرجل و لم تومض له و لم تمكنه لم يطمع و لم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بديء بذكرها، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخاطب، ومنه يبدأ الطلب » اهـــ. (٢)

وتأمل كيف كانت هذه الآية سبباً واقياً من الوقوع في الفاحشة ؟

وذلك لأنها تطهِّر المجتمع المسلم من هذه الجريمة المنكرة باجتناب الزناة إن لم يتوبوا، وتحريم الزواج منهم، وعزلهم وإبعادهم فلا يجوز أن يرتبط المؤمن العفيف مع الفاسقة الخبيثة ، ولا المؤمنة العفيفة بالفاسق .

فتبين أن هذه الآية أشد عقوبة من سابقتها لأن الأولى في العذاب الحسي على الجسد،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (112/12)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (92/4)، تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ص561.

(٢) الكشاف(3 /212)، والزمخشري:محمود بن عمر، برع في اللغة والنحو والبيان، من كبار المعتزلة ، توفي سنة (538هـــ)، انظر: البداية والنهاية لابن كثير(235/12)،طبقات المفسرين للسيوطي ص104

وهذه في العذاب النفسي الذي يشعر صاحبه بأن المجتمع الذي يعيشه حكم عليه بالعزلة والإبعاد، وتطهير المجتمع المسلم العفيف منهم. (١)

(١) انظر: كتاب سورة النور ومشكلاتنا الاجتماعية،ممدوح محمد ص34

الوسيلة الثالثة: تطهير الألسنة عن رمي المؤمنين بفاحشة الزنا.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾. (١)

جاءت هذه الآية بعد بيان حد الزنا والتنفير منه ومن أهله، وذلك أن الله ﷻ لما عظَّم أمر الزاني بوجوب إقامة الحد عليه، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته عظَّم الإقدام على الأعراض بالرمي بفاحشة الزنا، أي: بعد بيان عقوبة من فعله يأتي حكم عقوبة من تكلم به لقطع دابر هذه الفاحشة من كل وجه. (٢)

وهذه الآية تعتبر حصناً منيعاً من الخوض في أعراض المؤمنين وإشاعة الفساد لمجرد الشك، وهي الضمان الواقي من الوقوع في الفاحشة ، وأن التساهل في هذا الأمر يؤدي إلى نشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة ومن ثَمَّ الوقوع فيها.

وترك الألسن تلقي التهم على الأعفَّاء والعفيفات بدون دليل قاطع يعطي الفرصة لكل نفس مريضة أن تقذف كل بريء أو بريئة بهذه الجريمة .

وصيانة للأعراض وحماية لأصحابها شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعل حدَّها ثمانين جلدة ،وزاد عليه بأن أسقط شهادة صاحبها، ووصمه بالفسق.

والرمي حقيقته: قذف شيء من اليد ، وشاع استعماله في نسبة فعل أو وصف إلى

---

(١) سورة النور،الآيتان (4ـــ5).

(٢) انظر:نظم الدرر (213/13) .

شخص، ويستعمل في المقال كناية عن الشتم كالقذف.(١)

وإنما استعمل لفظ ﴿ يَرْمُونَ ﴾، في القذف لأن الأذى باللسان كالأذى بالجوارح ، وطعن اللسان كوخز السنان.(٢)

والمراد بالرمي هنا هو القذف بالزنا بدليل ذكر المحصنات عقيب الزواني، ولاشتراط أربعة شهداء ،لأن القذف بغير الزنا لا يشترط فيه أربعة. (٣)

والمحصنات هن النساء الحرائر العفائف ، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع ، والعارُ فيهن أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء الأمة.(٤)

واشترط الإتيان بأربعة شهداء تشديداً على القاذف ورحمة بالعباد وستراً لهم ، وأن يكون الشهداء رجالاً عدولاً يشهدون بذلك صريحاً ،دل على ذلك مجيء التاء في العدد، ولقوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾. (٥)

والمعنى: أن الذين يقذفون الأعفاء أو العفيفات بالزنا ثم لم يأتوا بأربعة شهداء عدول من الرجال يشهدون لهم بصحة دعواهم فقد وجبت عليهم العقوبات التالية :

---

(١) انظر: نظم الدرر (213/13) ، تيسير الكريم الرحمن ص 561

(٢) انظر:مجمع الأمثال للميداني(542/1)، برقم (2285) ،وانظر:صفوة التفاسير (330/2).

(٣) انظر:الكشاف (213/3) .

(٤) انظر:الجامع لأحكام القرآن (115/12) .

(٥) سورة الطلاق،الآية (2).

العقوبة الأولى:العقوبة الجسدية: وهي جلدهم ثمانين جلدة ، والجلد الضرب بالسوط ونحوه كما تقدم ، والعقوبة بالضرب لإيلام القاذف في جسده فيرتدع ويطهِّر لسانَه من الخوض في أعراض المؤمنين ، ويعتبر غيرُه به.

العقوبة الثانية:العقوبة الأخلاقية : وهي أن تردَّ شهادته وتسقط عدالته ولا يقبل قوله ، وفي هذا احتقار له من جماعة المسلمين ، بأن يمشي القاذف بينهم متهماً لا يوثق له بكلام .

العقوبة الثالثة: العقوبة الدينية: وهي وصفه بالفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله ﷻ وعن صراطه المستقيم.

واسم الإشارة للإيذان ببعد مترلتهم في الشر والفساد،للإعلان بفسقهم ليتميزوا بهذه الصفة الذميمة. (١)

والحصر في قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ للمبالغة في شناعة فسقهم حتى كأن ما عداه من الفسوق لا يعد فسقاً.(٢)

فهذه عقوبات ثلاث لكل من رمى محصناً أو محصنة بفاحشة الزنا واتهم الأبرياء وأشاع الفاحشة فيهم ، فمن تاب من هذا العمل السيء وأناب وغيَّر سيرته وأصلح حاله ورجع عن خطئه فإن الله يقبل توبته ، بلى يكذب القاذف نفسه، ويقرَّ أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (93/4) ، في ظلال القرآن لسيد قطب (2491/4).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (159/18).

شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله وبدل إساءته إحسانا، زال عنه الفسق وقبلت شهادته وتاب الله عليه، فهو الغفور يغفر الذنوب جميعاً ، والرحيم يفتح لهم باب التوبة ويرحمهم بها . (١)

فدلت هذه الآية على خطورة الخوض في أعراض المؤمنين وإشاعة الفساد لمجرد الشك، وهي تعتبر ضماناً واقياً من الوقوع في الفاحشة ،لأن إقامة حد القذف الذي هو جلد القاذف ثمانين جلدة وسقوط شهادته ووصمه بالفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله ﷻ هو الوسيلة لتطهير الألسنة من الخوض في أعراض المؤمنين، وأن التساهل في هذا الأمر يؤدي إلى نشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين .

وإذا تركت الألسن تلقي التهم على الأعفاء والعفيفات بدون دليل قاطع فإن ذلك يعطي الفرصة لكل نفس مريضة أن تقذف كل بريء و بريئة بهذه الجريمة .

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (8/4) ، تيسير الكريم الرحمن ص561

الوسيلة الرابعة: تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا من غير بينة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾ .(١)

ما تقدم من حكم القذف عام يتناول الزوج وغيره، وهذه الآية في حكم قذف خاص، وهو قذف الزوج زوجته،وهو ما يسمى باللعان، فإذا قذف الزوج زوجته وجب عليه البينة أو حُدَّ حد القذف ثمانين جلدة أو يلاعن ، فكان واجباً على الزوج أن يحفظ لسانه ويطهره من التساهل في إلقاء التهمة على الزوجة والخوض في عرضها بدون دليل قاطع ، فإنه إذا حدث هذا شاعت الفحشاء وظهر المنكر، وترك المجال لكل زوج أن يلقي التهمة على زوجته وهي بريئة منها ، ولكل زوج أن يشك في زوجته فكان ذلك سبباً في تفكك الأسر وانهيار البيوت .

لكن رحمة الله وفضله وإحسانه ورأفته بعباده جعلت لذلك مخرجاً وفرجاً وتخفيفاً وستراً على عباده، لأن هذا عار يلحق الرجل ، ومن الصعب أن يأتي بأربعة شهداء وفيه إحراج له، ويعذر بالغَيرة على أهله ، ولأنه لا يقذف امرأته إلا وهو صادق لما في ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه ، لهذه الحِكَم الجليلة وغيرها شُرع حُكم اللعان ليكون مخرجاً وستراً من المولى على عباده زلاتهم ، وفرصة ليفسح أمامهم المجال

(١) سورة النور،الآيات (6-10).

للتوبة والإنابة، فكان في هذا التشريع الإلهي أسمى ما يتصوره المرء من العدالة والحماية وصيانة الأعراض. (١)

فكان هذا مخرجاً للزوج من إقامة الحد عليه إن باح به ، أو يكظم غيظه على مضض، أو يعاشر من رأى منها مالا يرضاه رجل لبيب لأهله ، وفي هذا كله حرج ، وهو مخرج للزوجة من أن تتهم من زوج لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة.

واللعان:أن يقذف الرجل امرأته بالزنا ولا شهود يشهدون له بصحة دعواه فوجب عليه أن يشهد أربعة أيمان بالله إنه لمن الصادقين ، وسميت شهادات لأنها تقوم مقام الشهداء الأربعة ليدفع عنه حد القذف فيقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به ، وعليه أيضاً أن يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذباً فيما رماها به من الزنا، فإذا تم لعانُه سقط حدُّ القذف عنه.

وأما المرأة المقذوفة إذا لم تقر بالذنب وأرادت أن تدرأ حد الزنا عنها وهو الرجم فعليها أن تحلف أربعة أيمان بأنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا تقوم مقام الشهداء الأربعة في براءتها من التهمة ، و تزيد في الخامسة مع شهاداتها الأربع أن تدعو على نفسها بالغضب عليها إن كان زوجها صادقاً فيما يقول، فإذا وقع هذا فُرِّقَ بينهما فرقة أبدية. (٢)

---

(١) انظر: روائع البيان (98/2)، التفسير المنير (156/18).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص562 ، التفسير المنير(156/18).

وتأمل دقة اختيار اللفظ القرآني حيث جُعلت اللعنة في جانب الزوج والغضب في جانب الزوجة لأن الغالب أن الزوج لا يتجشم فضيحة أهله ورميهم بالزنا إلا وهو صادق، ولأن المرأة هي مادة الفجور ومنبعه، وللتغليظ عليها،ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب. (١)

وتأمل كيف حذف جواب لولا في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، وذلك لتهويل الأمر حتى يذهب الذهن في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل، ورُبَّ مسكوت عنه أبلغ من منطوق به، وتقديره: ولولا فضل الله ورحمته لنال الكاذب منهما عذاب عظيم.(٢)

وفي ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، إشارة إلى الحكمة من مشروعية اللعان، وهي أنه جعل مخرجاً وستراً من المولى على عباده زلاتهم ، ودرءاً من العذاب ، وفرصة ليفسح أمامهم المجال للتوبة والإنابة ، ولولا ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، ولو اكتفي بشهادته لوجب عليها حد الزنا ، فكان من الحكمة أن شرع هذا الحكم ، فما أوسع رحمته وما أجل حكمته.(٣)

فتبين مما تقدم أن هذه الآيات دلت على أنه يجب على الزوج تطهير لسانه عن رمي زوجته بالزنا من غير بينة وعلى خطورة هذا الأمر وأنه سبب في نشر الرذيلة وإشاعة

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (95/4)، فتح القدير (10/4).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (33/4) ، الكشاف (217/3)، روائع البيان (82/1).

(٣) انظر: نظم الدرر (220/13) ، روائع البيان (82/1).

الفاحشة في وسط الجماعة المسلمة .

وما التشديد في حضور الشهداء الأربعة وفي الأيمان الأربعة للزوجين وإقامة التلاعن والشهادة على نفسه باللعنة وهي طرد وإبعاد من رحمة الله ، وعلى نفسها بالغضب وهو سخط وانتقام من الله ثم الفرقة الأبدية بينهما إلا وقاية للمجتمع من كثرة القذف واسترخاص أعراض المسلمين وقطع الألسنة الخبيثة .

الوسيلة الخامسة: تطهير النفوس عن ظن السوء بالمؤمنين بفعل الفاحشة.

قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾. (١)

هذه الآية جاءت في سياق الآيات التي تحكي واقعة الإفك المبنية على سوء الظن والتسرع باتهام البريئين مما أرجفه أهل النفاق.

وقد قررت الآيات إفكَ هذه الواقعة ، وبراءةَ الصديقة عائشة رضي الله عنها زوج خير البرية وأزكاها ﷺ ، وطهارةَ بيت النبوة ، وكذبَ القاذفين ، وتعرضهم للعذاب الأليم.

وقد سيقت هذه الآية بأسلوب العتاب من الله ﷻ للمؤمنين والمؤمنات الذين ارتجفت أفئدتهم عند سماع خبر الإفك و لم يسارعوا من أول الأمر بتكذيبه وإبطاله ، وكان الأجدر بهم أن يستفتوا أنفسهم وأن يسبق إلى خواطرهم الظن الحسن وألا يسارعوا إلى تهمة من عرفوا بالطهارة والعفاف ، وأن الظن السيء في المؤمنين واتهام البريئين سبب في إشاعة الفساد ونشر الرذيلة وشيوع الفاحشة .(٢)

و﴿ لَّوْلَآ ﴾ معناها هلاَّ ،وهي حرف تحضيض ، فإنْ وليها الفعلُ الماضي أفادت اللوم

---

(١) سورة النور،الآية (12).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير(77/18).

والتوبيخ(١) ، وهو هنا ﴿ ظَنَّ ﴾، و﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ ظرف بمعنى وقت وهو متعلق بفعل الظن فقدم عليه ، وذلك لقصد المبادرة إلى حسن الظن بمجرد السماع .

وتأمل كيف التفت عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، وعن المضمر إلى الظاهر، وذلك لمزيد المبالغة في التوبيخ والتشنيع، فمقتضى الظاهر أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيراً.

كما أن التصريح بلفظ الإيمان يدل على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي إحسان الظن والكف عن إساءته بإخوانه المؤمنين ، وكل هذه الإشارات والإيحاءات قصد منها التحذير من الوقوع في هذا المترلق الخطير ، ومن ثم نشر الفاحشة بين المؤمنين.(٢)

والمراد بأنفسهم وجهان:

الأول: أنه على حقيقته ومعناه: هلا إذ سمع المؤمرون والمؤمنات هذه الفرية أن يقيسوا هذا الأمر على أنفسهم فإذا كان ذلك يبعد عليهم ولا يليق بهم حكموا بأنه في حق من هو خير منهم أبعد ، فإذا تقرر هذا فأن لا يليق بأم المؤمنين الصديقة رضي الله عنها من باب أولى.

الثاني: بأنفسهم،أي: بإخوانهم وأهل دينهم،لأن المؤمنين كالجسد الواحد ،(٣)كقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، (٤) وقوله: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ . (١)

---

(١) انظر:التفسير الكبير (177/23) ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (274/1).

(٢) انظر:الكشاف (218/3) التفسير الكبير، (23 /177) ، إرشاد العقل السليم (98/4).

(٣) انظر: النكت والعيون للما وردي (80/4) ، التفسير الكبير (177/23).

(٤) سورة النساء،الآية (29).

ثم إنه لم يُكتف بإنكار المنكر بالقلب، بل لابد أن يكون لهم موقف للإنكار باللسان ، فانتقل من لسان الحال إلى لسان المقال ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾، والإفك: قلب الحقيقة وهو أسوأ الكذب وأقبحه(٢) ، ووصفه بالمبين لكونه بلغ الغاية في البيان والوضوح كأنه لقوة بيانه قد صار يبين غيره (٣).

وخلاصة القول أن الآية أرشدت المؤمنين إلى تطهير النفوس من ظن السوء بإخوانهم بفعل الفاحشة وأن الواجب إحسان الظن بهم ودرء كل تهمة تسيء إليهم أو القدح في أعراضهم ، وحذرت من خطورة الظن السيء في أعراض المؤمنين واتهام البريئين الذين عرفوا بالطهارة من الفساد ،وأن التساهل في هذا الأمر أو إلقاء التُّهم على الأعفاء دون يقين ، وترك الخواطر تظن الظنون السيئة بدون دليل قاطع ، كل ذلك يؤدي إلى نشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، لمجرد شكوك وظنون ، وأن الأخذ بهذا التوجيه الرباني يعتبر ضماناً واقياً من الوقوع في الفاحشة .

---

(١) سورة الحجرات،الآية (11).

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص15

(٣) انظر: التحرير والتنوير (175/18) .

الوسيلة السادسة: تطهير الإرادة عن محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .(١)

هذه الآية من أعظم الوسائل في تطهير المجتمع المسلم من الفواحش والمنكرات، لأنها تحذر من إشاعة الفاحشة في صفوف المسلمين، ونشر أخبارها بين الناس،وتتوعد محبيها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، ذلك أن شيوع الفاحشة بين أوساط المؤمنين يجرئ الناس على الإقدام عليها ويجعلهم يستسهلون الوقوع فيها .

والفاحشة هي الزنا ودواعيه وكل ما فحش من قول أو فعل. (٢)

والآية تدل على أن مجرد حب الفاحشة كافٍ في إلحاق العذاب،فكيف بمن يريدون إشاعتها أو يباشرونها ؟

فإن قيل:كيف يؤاخذ على مجرد حب إشاعتها مع أنه لو همَّ بها و لم يفعلها لم تكتب سيئة ؟ فالجواب عن ذلك أن يقال: إن محبتها تعني توطين النفس عليها والتهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه ، ولذا جيء بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار ، فهو مرض

---

(١) سورة النور، الآية (19).

(٢) انظر: المفردات ص 387 ، اللسان (325/6).

قلبي وخُلُق مستقر ومستمر في تلك النفوس. (١)

ولإشاعة الفاحشة طرق كثيرة وأساليب متعددة منها :

1) وسائل الإعلام المرئية والمسموعة و المقروءة ، حيث استُغل الكثير منها في بث ما يثير الغرائز ويشيع الفاحشة ويجر إلى الوقوع في جريمة الزنا.

2) وسائل الاتصال مثل هواتف الجوال التي تستغل غالباً في نقل ما يثير الغرائز وينشر الفحشاء ، سواء كان عبر المكالمات الهاتفية أو الرسائل المرئية والمقروءة .

3) المجالس والنوادي ودور اللهو التي يعقد فيها الطرب والرقص والمسرحيات التي تنشر فيها القصص والروايات والأشعار، ويحصل فيها كشف للعورات واختلاط النساء بالرجال مما يكون سبباً في استشراء الفساد وإفساد الفطرة وشيوع الرذيلة .

4) ترك الألسنة تخوض في أعراض الناس واتهام المصلحين بالاتهامات الكاذبة وتجريح سمعتهم ووصم أخلاقهم، وذلك إما حسداً أو بغضاً للمؤمنين أو محبة في وقوعها فيهم.

فهذه بعض طرق إشاعة الفاحشة وأساليبها ، وهي جرائم بحق المؤمنين ، فكان لابد أن يتعرض مرتكبوها لعقوبات رادعة في الدنيا قبل عقوبة الآخرة ، فكان الواجب استغلال هذه الوسائل في نشر الفضيلة والعفاف والدعوة إليه ، والتحذير من استعمالها في نشر الفساد وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا . (٢)

---

(١) انظر:الواضح في التفسير لمحمود حجازي (55/18) ،سورة النور دراسة وتحليل للسامرائي ص240

(٢) انظر: تفسير سورة النور لأبي يعلى المودودي ص136

وختم الآية بقوله:﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ لبيان ما في محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا من المفاسد العظيمة والأضرار الخطيرة في إفساد المجتمع ، ولذا وعظ الله تعالى المؤمنين وحذر من خطورتها ، ورتب على مرتكبيها هذه العقوبة الشديدة. (١)

(١) انظر:التحرير والتنوير (185/18) .

الوسيلة السابعة: تطهير النفوس من الوساوس والخطرات التي توقع في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾. (١)

هذا توجيه من المولى ﷻ وتحذير وإثارة انتباه لعباده المؤمنين حتى يتبينوا في أقوالهم وأفعالهم، حذر فيه المولى ﷻ عباده من الشيطان ووسوسته وخطراته التي توقع في الفاحشة بعد التحذير من ظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة ، لأن الشيطان سبب كل فاحشة ومنكر. (٢)

والمراد بالشيطان إبليس وجنوده من الجن والإنس ، واتِّباع خطواته اقتفاء أثره والسير في ركابه لينقله من معصية إلى أخرى ، مأخوذ من نقل القدم بالخطو من مكان إلى مكان .

والتعبير بالخطوات يفيد أن الشيطان يستدرج النفوس الضعيفة وراءه خطوة خطوة ويزين لها الوقوع في الفواحش. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾.وضع الظاهر موضع المضمر، حيث لم

---

(١) سورة النور،الآية(21) .

(٢) انظر: التحرير والتنوير (186/18) .

(٣) انظر: جامع البيان (46/2) .

يقل: ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته وذلك لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير،وقوله:﴿ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾،تعليل لجزاء الشرط ،كأنه قيل: فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه المستمر أن يأمر بهما ، فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.(١)

والفحشاء: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، والمنكر ما تنكره العقول ولا تعرفه، وهذا يشمل جميع الذنوب والمعاصي التي هي خطوات الشيطان.(٢) ولقد أنعم الله ﷻ علينا إذ حذرنا من اتباع خطوات الشيطان لأن في ذلك صيانة لنا من أدناس الفواحش والمنكرات ، ولو لم يتداركنا الله بفضله ويلهمنا التمييز بين الحسن والقبيح، والخير والشر ، والقدرة على تطهير النفس وتزكيتها لما سلم أحد من كيد الشيطان ومصائده ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ .

لولا فضله ﷻ ورحمته بأن هدانا إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة لم سلم أحد من الناس من الشيطان (لأنه يسعى، هو وجنده، في الدعوة إلى كل فاحشة وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (103/4)، تيسير الكريم الرحمن ص563

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص563

غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى). (١)

وقوله:﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. تذييل يفيد الوعد والوعيد، أي: سميع لكل قول في الفحشاء والمنكر ، عليم بكل من يقترفها ويصر عليها ، وهو أيضاً سميع لمن ينكر ذلك ويطلب التطهر والتوبة مما تدعو إليه النفس من الوساوس والخطرات التي توقع في الفاحشة، عليم بحاله وبما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كل فريق بما قدم.(٢)

فدلت الآية على أن الشيطان سبب كل معصية ومنكر وأن كل فاحشة تقع سببها خطرات الشيطان ووساوسه ، ومتى انساق المؤمن وراء الشيطان سهل عليه الوقوع في كل فاحشة ، وأن الواجب على كل مؤمن أن ينفر منها ويأخذ حذره ويزكي نفســـه ويطهرها من ذلك .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص563

(٢) انظر:التحرير والتنوير (188/18) ، التفسير المنير (184/18).

الوسيلة الثامنة: مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾. (١)

هذا أدب من آداب الله الجليلة التي يؤدب به أولياءه المؤمنين عند إرادة دخول البيوت، ويرشدهم إلى التحلي بتلك الفضيلة وهي مشروعية الاستئذان عند دخول البيوت .

وذلك لما فيه من آثار حميدة ، ولما يترتب على الإخلال به من مفاسد سيئة .

فالاستئذان من أعظم الأسباب الواقية من الفاحشة ، لأن طريقها هو النظر والخلوة والاطلاع على العورات ، وكلُّها مظنة الوقوع في الفاحشة ، وفي الحديث: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر) .(٢)

(فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده ، ولأن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر) .(٣)

---

(١) سورة النور،الآيات (27-29).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (5772) باب الاستئذان من أجل البصر.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص565

ومتى تأدب الداخل بهذا الأدب فقد دفع عن نفسه الريبة والتهمة بالشر وسلم من الوقوع في الفاحشة ، كما أن فيه مراعاة لأحوال الناس ، وحفظاً لأواصر الود والمحبة ، وإبقاء على حسن العشرة ،وسلامة للجماعة المسلمة من شر خطير، وفيه أنه يجعل الزائر محترماً مكرماً مستأنساً به . (١)

والآيات ترشد إلى الطريقة الحكيمة التي يجب أن يتبعها من أراد الدخول إلى البيوت وهي الاستئذان والسلام على أهلها لإيناسهم وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول . والاستئناس مشتق إما من الأنس وهو خلاف الوحشة لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، وإما من الاستئناس الذي هو الاستعلام ، من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا ؟ (٢)

فالاستئناس استئذان بدقة ولطف وترتيب ، فكأن الآية تحض على عدم دخول البيوت إلا إذا علم من أهلها أنهم سيُسرُّون بالداخل وهو سيسرُّ بهم فتزول الوحشة عن الطرفين،وهذا من بلاغة القرآن العظيمة حينما استعمل ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ بدلاً من تستأذنوا ،لأن الأول أعم وأشمل، وهذا لا يخفى بأدنى تأمل، هذا هو الأدب الأول .

---

(١) انظر: روائع البيان (128/2) ، التفسير المنير (200/18).

(٢) انظر: الكشاف (225/3) .

أما الأدب الثاني فهو السلام لقوله: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَآ﴾، بأن يسلم الداخل على أهل الدار ، وقد وردت أحاديث في كيفية ذلك، ظاهرها تقديم السلام على الاستئذان منها: قوله ﷺ :(السلام قبل الكلام).(١) ،وقوله ﷺ للرجل الذي دخل و لم يستأذن و لم يسلم : (ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل ؟). (٢)

وقد يفهم من هذه الأحاديث أنها تتعارض مع الآية ، والحقُّ أنها لا تتعارض ، بل هي بيان لها ، فخير ما يفسر به القرآن سنة النبي ﷺ ،وبيان ذلك أن من أراد الدخول فإنه يستأنس أهل الدار ويستكشف حالهم ويعلمهم ويؤنسهم، وقد يحصل بالقول كالتسبيح والتحميد والتنحنح ، أو بالفعل كقرع الباب أو الجرس ونحوه، فإذا علموا به واستأنسوا به وزالت الوحشة من الطرفين سلَّم ثم استأذن بالدخول، وبهذا تتفق الأدلة ويزول الإشكال .

وقيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، أو إن الواو لا توجب الترتيب ، فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقديمه عليه في العمل.(٣)

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه،ص612 باب ما جاء في السلام قبل الكلام ، برقم(2699)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (2/ 346)، برقم (2854).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه ص614 باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته، برقم(2710)،وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (348/2)، برقم (2865).

(٣) انظر: التفسير الكبير (196/23)، روح المعاني (134/18) .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ بيان للعلة بالأمر بالاستئذان والسلام، أي: أنهما خير وأفضل للطرفين المستأذن وأهل البيت، من الدخول بغتة ومن تحية أهل الجاهلية ، ولأنه يدفع خطر الريبة والقصد السيء ويحمي المؤمن من الوقوع في الفاحشة فربما وقعت عينه على عورة تكون سبباً في تعريض النفس للفتنة ، فكان الاستئذان عند الدخول خير سبيل للوقاية من الفاحشة، وهذا التوجيه من المولىﷻ والإرشاد شُرع تذكرة وموعظة دائمة للمؤمنين ليعملوا بموجبه.(١)

لكن ربما تكون الدار خالية ، أو يكون فيها أهلها و لم يردُّوا على المستأذن لسبب ما فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحداً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾، وهو إشارة لطيفة إلى عدم الإذن ، وردٌ غير صريح ، وهذا اعتذار ضمني ، وقد يكون الاعتذار صريحاً ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾، وهو تصريح بعدم الإذن، أي: إن لم يأذن لكم أهلها بالدخول فعليكم الرجوع دون غضاضة أو اتهام لأهل الدار بالإساءة إليكم أو النُّفرة منكم .

ولما كان ذلك قد يوقع في النفس شيئاً أو يجلب الكراهة في قلوب الناس بين أن الرجوع أزكى ، أي: أطهر وأفضل من التدنس بالمشاحَّة على الدخول ، لما في ذلك من سلامة الصدر والبعد من الريبة والفرار من الدناءة ، وهو أطهر للسيئات وأنمى

(١) انظر: فتح القدير (20/4) ، التفسير المنير (203/18).

للحسنات.(١)

وعليه فالآية تنهى عن الدخول في حالتين: حالة الاعتذار الضمني ، وحالة الاعتذار الصريح ، فلا يحل لأحد أن يدخل بيت غيره دون إذن صاحبه ، لأن للبيوت حرمة ،ولأن الاستئذان إنما شرع لئلا يُطلع على العورات ، ولئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأن ذلك تصرف في ملك الآخرين دون رضاهم.(٢)

وقوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ،بيان لسعة علمه فإنه يعلم ما يدور في النفوس، ويعلم ما فيه المصلحة ، كما أن فيه وعداً لمن امتثل أمره ، ووعيداً لمن خالف أمره فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه.(٣)

كل ما تقدم في البيوت المسكونة ، أما البيوت غير المسكونة فقد قال الله تعالى فيها:﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ ﴾ .

رفع الحرج في الآية يدل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، محرم ، والبيوت غير المسكونة كبيوت الكراء والأماكن العامة والمتاجر ونحوها، إذا كان فيها مصلحة وانتفاع بها للاتقاء من الحر والبرد وإيواء الأمتعة ،لأن علة الاستئذان منتفية

---

(١) انظر:إرشاد العقل السليم (108/4)، تفسير سورة النور للمودودي ص148

(٢) انظر: الكشاف (228/3) ، روائع البيان (131/2).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص 565

وهي عدم السكنى في هذه البيوت ، ولأنها أماكن مشاعة بين الناس ، ففيها تيسير عليهم ودفع للمشقة ،(١)

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾، أي: من الأقوال والأفعال، يفيد إحاطته ﷻ بكل شيء ، وفائدة هذا الأسلوب استثارة قلوب المؤمنين إلى طاعته لتسارع إلى امتثال أمره ،كما أن فيها وعيداً شديداً لأهل الريبة والنوايا الخبيثة ممن يحبون التطلع على العورات . (٢)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ إنما أوجب الاستئذان عند دخول البيوت لما يترتب عليه من آثار حميدة من صفاء النفس وسلامة القلب ونقاء السريرة والبعد عن مظان التُّهم ، ولما يترتب على الإخلال به من مفاسد سيئة من النظر المحرم والخلوة والاطلاع على العورات ، ومتى حافظ عليه المسلم والتزم به كان ذلك سبباً في صيانة المجتمعات من هذه المفاسد الخطيرة ، لأن الاستئذان من أعظم الوسائل الواقية من الفاحشة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص565

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم (109/4) ، تفسير سورة النور د.إسماعيل سالم ص112

الوسيلة التاسعة: وجوب غض البصر عن النظر المحرم.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ . (١)

الغضُّ الخفض والنقص، وغض البصر إطباق الجفن على الجفن بحيث تمنع الرؤية ، والمراد به هنا كف النظر عما حرم الله ﷻ كالنظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيات والمردان ونظر المرأة إلى الرجل بشهوة والصور والمناظر المحرمة ونحوها . (٢)

وإنما جيء بالأمر بغض البصر بعد حكم الاستئذان لأن الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات ، وليؤدب ﷻ عباده المؤمنين بما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو ألاَّ يكون الداخل إلى البيت محدقاً بصره متطلعاً إلى ما لا يحل ، فجاء الأمر في الآية عاماً للمستأذن والمستأذن عليه ، وللمؤمنين والمؤمنات في جميع الأحوال ، لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور ، وهو أقوى طريق يوصل إلى القلب ، والاحتراس منه أصعب .(٣)

---

(١) سورة النور،الآيات (30-31).

(٢) انظر: المفردات ص374 ، فتح القدير (22/4) ،تيسير الكريم الرحمن ص 566

(٣) انظر:الكشاف (3 /230) ، التحرير والتنوير (203/18) .

وسبب الأمر بغض البصر لأنه ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة ، ومفتاح الوقوع في المنكرات، وشغل القلب بالهواجس ، وتحريك النفس بالوساوس ، ومنشأ الفساد والفجور.

وتخصيص المؤمنين بالذكر لأنهم الممتثلون المنتفعون بذلك ، ولتذكيرهم بالإيمان الذي معهم فيمنعهم من وقوع ما يخل به(١)

والفعل:﴿ يَغُضُّواْ ﴾مجزوم لكونه وقع جواباً لـــ.﴿قُل ﴾لتضمنه معنى الشرط،كأنه قيل: إن تقل لهم غضوا يغضوا .(٢)

وجيء بمن التبعيضية في قوله: ﴿ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾لصعوبة التحرز من النظر ولكونه يجوز في بعض الحالات كنظر الخاطب والشاهد والطبيب والنظر إلى المحارم ونحوه ،(٣)

وفي الكشاف: (وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلاّ ما استثنى منه ، وحظر الجماع إلاّ ما استثنى منه) اهـــ. (٤)

أي: أن الأصل في الفروج الحظر ، وفي النظر الإباحة.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص566 ، التفسير المنير (222/18)

(٢) انظر:المحرر الوجيز (177/4)، إعراب القرآن الكريم وبيانه محي الدين درويش (268/5) .

(٣) انظر:تيسير الكريم الرحمن ص566

(٤) الكشاف (229/3) .

ثم بيَّن ﷻ الحكمة من الأمر بغض البصر فقال: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾،أي: أطهر للقلوب ، وأنمى للأعمال ، (فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئا لله، عوضه الله خيراً منه، ومن غض بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته)، (١)

وقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ،أي: بأفعالهم وأحوالهم وكيف يحيلون أبصارهم، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم ، والخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها ، وإنما ختمت الآية بذلك ليعلم المؤمن بذلك فيكون على تقوى وحذر في كل ما يأتي ويذر ،كما أنه وعيد لمن يخالف أمر الله فيرتكب المحرمات. (٢)

وتخصيص النساء بخطاب مع أنهن داخلات في خطاب المؤمنين على طريق التأكيد للأمر، ولئلا يظن أنه خاص بالرجال لأنهم أكثر ارتكاباً لضده ، وليرتب عليه نهي النساء عن أشياء عرف منهن التساهل فيها من إبداء الزينة ونحوها . (٣)

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص566

(٢) انظر: الكشاف (229/3)، روائع البيان (144/2).

(٣) انظر:الجامع لأحكام القرآن (125/12) التحرير والتنوير (205/18) .

الوسيلة العاشرة: وجوب حفظ الفروج عن المحرم.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ . (١)

حفظ الفروج صيانتها من الفاحشة ودواعيها كالزنا واللواط والمساحقة ، وحفظها من الإبداء للناس والانكشاف لهم ، والمراد بذلك العفة ولوازمها ، وإنما استعمل لفظ الحفظ هنا لأن الأمر يحتاج إلى تفقد وتعهد ورعاية (ذلك أن العبد إذا حفظ فرجه عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ ، كذلك الفرج إن لم يجتهد العبد في حفظه أوقعه في بلايا ومحن).(٢)

وقد أمر الله بحفظ الفروج تزكية للنفوس وتطهيراً للجماعة المسلمة من أدران الفاحشة والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي وتجنباً للنفوس من أسباب الإغراء والغواية .

وإنما أعيد الأمر بغض البصر وحفظ الفرج مخاطباً به النساء مع كونهن داخلات في خطاب المؤمنين للتأكيد على هذا الأمر، وليرتب عليه نهي النساء عن أشياء عرف

---

(١) سورة النور،الآيات (30-31).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص566

منهن التساهل فيها من إبداء الزينة ونحوها . (١)

وقد جاء الأمر بحفظ الفرج مطلقاً بخلاف غض البصر فقد دخلت عليه من التبعيضية، وذلك لأن الفرج لا يباح في حالة من الأحوال، وأما النظر فإنه يباح في بعض الأحوال لحاجة كما تقدم .

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ أمر بحفظ الفروج عن الحرام ومقدماته لأن حفظه والمحافظة عليه من أقوى أسباب السلامة من الوقوع في الفاحشة والبعد عن الفساد والانحلال والفجور وأن التساهل فيه ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة ، وسبب الفساد والفجور، ومتى حافظ المسلم عليه والتزم به كان ذلك سبباً واقياً في صيانة المجتمعات المسلمة من هذه الوباء الخطير.

(١) انظر:الجامع لأحكام القرآن (125/12) التحرير والتنوير (205/18) .

الوسيلة الحادية عشرة:تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ .(١)

هذا الأمر خص به النساء دون الرجال بعد أن كرر عليهن الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، وهو النهي عن إبداء المرأة زينتها للرجال الأجانب.

والمراد بالزينة: الزينة الخَلْقية والزينة المكتسبة ، فالخلقية معظم جسد المرأة وخاصة الوجه واليدين والساقين والشعر والنحر والصدر، والمكتسبة ما تتزين به المرأة عادة من الثياب والحلي والكحل والخضاب ونحوه.(٢)

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ،أي: مما لا يمكن إخفاؤه كالرداء ، أو ظهر من غير قصد منهنَّ ، كأن ينكشف الثوب قليلاً بفعل الرياح .

قال ابن كثير في تفسير الآية:(أي:لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه ، وقال ابن مسعود ﷺ :كالرداء والثياب، يعني: على ما كان يتعاناه نساء العرب، من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛

---

(١) سورة النور،الآية (31).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (1368/3) .

لأن هذا لا يمكن إخفاؤه) اهـــ. (١)

هذا هو الصحيح من قولي أهل التفسير في المراد بالمستثنى من الآية(٢)، لأنه لا يكون معنى ظهر ما يظهره الإنسان ففرق بين أن يظهر الشيء بنفسه وأن يظهره الإنسان بقصده ، ولأن الآية تنهى عن إبداء الزينة التي هي سبب الفتنة والوقوع في الفاحشة فكيف يُرخص في إظهار أصل الزينة والجمال وهو الوجه والكفان ونحوهما، ورؤيتهما من أعظم أسباب الفتنة، فالتوسع في إظهار هذه الرخصة إلى حد إظهارها عمداً مخالف لأدلة الشرع ومقاصده.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ (٣)، فأوجب ﷻ الحجاب وأمر به وبين العلة وهي أنه أطهر للقلب وأبعد عن الريبة وأسلم من الشر.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (45/6)،وابن كثير:إسماعيل بن عمر الدمشقي،كان مفسراً محدثاً مؤرخاً،توفي سنة(447هـــ)،انظر:طبقات المفسرين للداودي(111/1)، البدر الطالع للشوكاني(153/1)، وابن مسعود:عبد الله بن غافل الهذلي ﷺ من السابقين إلى الإسلام توفي سنة(32)، انظر: الاستيعاب (308/2)،الإصابة (360/2) .

(٢) الرأي الثاني أن المراد به الوجه والكفان وهو مروي عن ابن عباس وأصحابه ،انظر: جامع البيان (92/18)، معالم التنزيل (3 /133)، الجامع لأحكام القرآن (152/12).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (53).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ .(١)

وهو أمر عام لنساء المؤمنين بالحجاب والستر مع بيان الحكمة لذلك، وهو وجود أذية، إن لم يحتجبن، لأنه ربما ظن أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن. (٢)

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى كيفية إخفاء مواضع الزينة فأمر بضرب الخُمُر على الجيوب فقال:﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾، وهو أن يسدلن جلابيبهن وأرديتهن على رؤوسهن ووجوههن وصدورهن ، والجُيُوب جمع جيب بفتح الجيم وهو طوق القميص مما يلي الرقبة .

وأصل الضرب تمكين الوضع، أي: ليشددن وضع الخمر على الجيوب بحيث لا يظهر من الجسد شيء كضرب الخيمة في المكان ، وهذا يفيد كمال الاستتار والاحتجاب.

والباء في قوله:﴿ بِخُمُرِهِنَّ ﴾،للإلصاق، مبالغة في إحكام وضع الخمر على الجيوب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل الضرب. (٣)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (59).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص 671 ، تفسير سورة النور للمودودي ص 159

(٣) انظر: البحر المحيط (448/6)، إرشاد العقل السليم (110/4)، التحرير والتنوير (208/18) .

وإذا كانت المرأة المسلمة مأمورة أن تضرب بخمارها على جيبها لستر نحرها وصدرها فإنها مأمورة بستر وجهها من باب أولى ،لأنه أصل الزينة والجمال.

ثم كرر النهي عن إبداء الزينة زيادة في التقرير والتأكيد على أهمية التستر والاحتجاب عن الرجال الأجانب، وليرتب عليه من يحل لهم الإبداء ، فاستثنى من ذلك اثنتي عشرة صورة يجوز أن تبدي المرأة زينتها لهم ، وذلك لانتفاء العلة وهي خشية الفتنة ، ولأن الشهوة في هؤلاء لا تتحرك عند رؤيتهم ، ولرفع الحرج عن المرأة في إخفاء زينتها ، وعن هؤلاء لكثرة الدخول والمخالطة .(١)

وقد بدأت الآية بالأزواج،لأنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنها، وسمي الزوج بعلاً لأنه سائس المرأة والقائم عليها. (٢)

ثم ثنَّت بالمحارم مرتبين بحسب ما في نفوس البشر، بدءاً بالآباء وإن علوا من جهة الأب أو الأم ، ثم آباء الأزواج وإن علوا من جهة الأب أو الأم ، ثم الأبناء وإن نزلوا وأبناء الأزواج وإن نزلوا ، ثم الإخوة سواءً كانوا أشقاء أو لأب أو لأم ،لإطلاق الآية ، وكذا بنوهم وإن نزلوا وبنوا الأخوات من أي جهة ، وإن نزلوا ، هؤلاء كلهم من المحارم.

(وإنما استعمل "بني" دون أبناء لأنه أوفق بالعموم وأكثر استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخص مع عدم اتحاد صنف قرابتهم فيما بينهم ، فكثيراً ما تسمع بني آدم وبني

---

(١) انظر:الكشاف (231/3)، التحرير والتنوير(208/18) .

(٢) انظر:المفردات ص52

تميم ، وقلما تسمع أبناء آدم وأبناء تميم).(١)

و لم تذكر الآية الأعمام والأخوال لأنهم بمنزلة الآباء ، وقد سُمِّي العم أباً كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) وإسماعيل كان عماً ليعقوب عليهما السلام .

وأما بقية من استثنوا في الآية فهم النساء والمماليك والتابعون غير أولي الإربة والأطفال ، فللمرأة أن تبرز لهؤلاء بزينتها أمامهم،لكن ما وجه الإضافة في قوله:﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ ؟ والجواب عليه: أن المراد بذلك النساء المختصات بالصحبة والخدمة والتعارف والثقة والأمانة سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات ، أما الأجنبية التي لا يعرف عنها شيء أو عرفت بالفسق ولا حياء عندها فهذه ينبغي ألا تظهر المرأة أمامها المسلمة بكامل زينتها .(٣) وأما المماليك فللمرأة أن تبرز لمن تملكه ملك يمين ذكراً كان أو أنثى وذلك لكثرة الخلطة والدخول في قضاء الحوائج وفي هذا رفع للحرج والمشقة. (٤)

وأما التابعون غير أولي الإربة من الرجال فللمرأة أن تبرز لهم ، لكن بشرطين :

---

(١) روح المعاني (142/18) .

(٢) سورة البقرة، الآية (133) .

(٣) وأكثر المفسرين على أن الإضافة تقتضي تخصيص المؤمنات دون غيرهم ، انظر: الكشاف (231/3) ، تفسير القرآن العظيم (47/6)، تفسير سورة النور للمودودي ص166

(٤) وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهم الإماء خاصة ، انظر: جامع البيان (95/18) ،الجامع لأحكام القرآن (155/12)، تفسير القرآن العظيم (48/6).

الأول:التبعية بأن يكون تابعاً كالخادم والأجير ، والثاني: ألا تكون لديه إربة وهي الرغبة في النساء كالعنين والمعتوه والشيخ الكبير ونحوه ، ولا يدخل في هذا الخدم والسائقون ممن فيهم شهوة أو ميل للنساء وإن كانوا من التابعين.(١)

وأما الأطفال الذين لا تثيرهم مفاتن المرأة ولا زينتها، ولا وجدت فيهم الشهوة بعدُ فللمرأة أن تبدي زينتها أمامهم ، فإن كان مميزاً عارفاً ما للنساء وجب على المرأة أن تستتر منه ، لأنه يظهر على عورات النساء. (٢)

وأخيراً نلحظ أن هؤلاء المستثنين في جواز إبداء المرأة زينتها لهم قد جاءوا على مراتب حسب الأولوية فأولهم: الزوج فلها أن تبرز بكامل زينتها، بل يحل له منها كل شيء ، والثاني: المحارم وهم الآباء وآباء الزوج والأعمام والأخوال والأبناء وأبناء الزوج والإخوة وأبناؤهم وأبناء الأخوات ، ولهم أن ينظروا إلى ما يظهر عادة كالوجه واليدين وا لشعر والنحر والساعدين والساقين ، ويدخل في ذلك نساء المرأة المختصات بها الثقات دون غيرهن ، والثالث: المماليك والتابعون غير أولي الإربة ، فلا بأس بكشف الوجه واليدين أمامهم ، والله أعلم . (٣)

---

(١) انظر:تيسير الكريم الرحمن ص 566 ،التحرير والتنوير (211/18)، تفسير سورة النور للمودودي ص169.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص 566

(٣) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (80/18).بهامش جامع البيان.

ومن خلال هذا التفصيل التشريعي تبين لنا مدى حرص الشريعة الإسلامية على سد الطرق المفضية إلى الفاحشة من النظر المحرم أو الخلوة المحرمة ، وأنَّ على المرأة أن تحفظ نفسها من أن تقع أو توقع غيرها في الفاحشة وذلك بأن لا تبدي زينتها للأجانب فتخرج سافرة كاشفة عن محاسنها لتأجج الشهوة وتثير الفتنة في كل إنسان حتى ينقلب المجتمع ناراً مصطلية متأججاً بالفجور والدعارة .

فلذلك كان من أقوى الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة هو ارتداء الخمار الذي أمر به ﷻ وأن تضرب به على رأسها وجهها ساترة لمحاسنها فإن ذلك من أقوى أسباب السلامة من الوقوع في الفاحشة والبعد عن الفساد والانحلال والفجور وهو أطهر للقلب وأبعد عن الريبة وأسلم من الشر ،

ومتى حافظت المؤمنة علي حجابها والتزمت به كان ذلك سبباً واقياً في صيانة المجتمعات المسلمة من المفاسد والفتن .

الوسيلة الثانية عشرة:منع ما يحرك الرجل ويثيره.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ ،(١)

لما نهى الله ﷻ المؤمنات عن إبداء الزينة وأمر بضرب الخُمُر على الجيوب وألا يبرزن أمام الأجانب بزينتهن نهاهن عن إبداء ما تحت الخُمُر مما يحرك أعصاب الرجال ويهيج شهواتهم ويلفت الأنظار عن طريق السمع أو الخيال ، ويجعل من يسمع ذلك يسيء الظن بأنها من أهل الفسوق والفساد ، وهذا كله يدعو إلى الفتنة والإغراء ، وهو وسيلة إلى الوقوع في الفاحشة.

فالآية تنهى عن كل ما من شأنه أن يثير المشاعر والغرائز، ويأجج الفتن ويحرك الشهوات ، وهو يعتبر نوعاً من التبرج وإبداء الزينة ، مثل الضرب بالأرجل المشتملة على الخلاخل، وتحريك الأيدي بالأساور، والقرع بالحذاء لإحداث خشخشة، ولذلك قال بعض أهل العلم: سماع صوت ذي الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها. (٢)

ويدخل في هذا الأمر الخضوع بالقول،والتكسُّر والتميع بالصوت، والضحك الناعم ، لأنه إذا منعت من أن تضرب برجلها على الأرض حتى لا يسمع صوت الحلي ونحوه فتتحرك الشهوة في قلوب بعض الرجال فإن المنع عن الخضوع بالقول والتميُّع في الكلام أشد وأبلغ وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

---

(١) سورة النور،الآية (31).

(٢) انظر:معاني القرآن وإعرابه للزجاج (40/4)

مَّعْرُوفًا ﴾ .(١)

ومن هذا النوع التطيب ووضع الروائح النفاذة مما يثير الحواس، ففي الحديث:(والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا ، يعني زانية)،(٢) وأيضاً مما يلحق بهذا التثني والتمايل في المشية للفت الأنظار، وارتداء العباءات المزركشة أو الرقيقة والضيقة فتظهر مفاتن المرأة وتجسد أعضاء جسمها ملم يبهر العيون ويلفت الأنظار ويوقع في الفتنة والفساد. (٣)

وقد أخذ أهل العلم من هذه الآية قاعدة من قواعد الشريعة وهي قاعدة سد الذرائع، قال ابن سعدي: (ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه) اهـــ.(٤)

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (32) .

(٢) رواه أبو داود في سننه (79/3)، برقم (4173)،والترمذي في جامعه ص629 برقم(2786)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه (153/7)، برقم (5126)، عن أبي موسى الأشعري ﷺ ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (363/2)، برقم(2237).

(٣) انظر:التحرير والتنوير(213/18)، كتاب من أخلاق القرآن وبلاغته في سورة النور ص73

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص566 وابن سعدي:عبدالرحمن بن ناصر السعدي من علماء القصيم، برع في فنون شتى،وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة (1376هـــ)،انظر:مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص(292)، معجم المفسرين عادل نويهض (279/1).

واللام في قوله:﴿ لِيُعْلَمَ ﴾ ،لام العاقبة أو الصيرورة ، فيعلم أنها منهية عن الضرب بالأرجل أمام الرجال الأجانب مطلقاً، سواء قصدت إعلامهم وإثارة الفتنة عندهم أم لم تقصد ، فإن عاقبة الضرب أن يعلم ما يخفين من الزينة فتقع الفتنة. (١)

فعلم مما تقدم أن الآية تنهى عن كل ما من شأنه أن يثير المشاعر والغرائز، ويأجج الفتن ويحرك الشهوات، ويجعل من يسمع ذلك يسيء الظن بأن صاحب ذلك من أهل الفسوق والفساد ، وهذا كله يدعو إلى الفتنة والإغراء ، وهو ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة،ومتى امتثلت المرأة المؤمنة ما أمر الله واجتنبت كل ما يثير الفتنة ويحرك الغرائز كالضرب بالأرجل أو الخضوع بالقول أو التعطر ، أو لبس ما يلفت الأنظار كان ذلك سبباً واقياً في صيانة المجتمعات المسلمة من المفاسد والفتن .

(١) انظر:التفسير المنير(221/18).

الوسيلة الثالثة عشرة:الحض على النكاح.

قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ،(١)

ما تقدم من أوامر ونواهٍ في غض البصر وحفظ الفرج وإخفاء الزينة وغير ذلك كانت وسائل واقية من الوقوع في الفاحشة أو الاقتراب منها، وفي هذه الآية أعظم سبيل للوقاية من الوقوع في الزنا ودواعيه وهو النكاح، فهو السبيل لتحقيق الإحصان، والعصمة من الفاحشة ودواعيها، والبعد عن الآثام، والوسيلة السليمة لقضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا،وهو خير سبيل لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة ، فلا كبت لهذا الميل الفطري ، ولا إباحية ، وإنما وسطية واعتدال ، فأمر الله ﷻ بالنكاح في هذه الآية ورغب فيه وبين آثاره الحميدة .(٢)

وقوله: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ﴾ ،أمر للأولياء والسادة بتزويج من لا زوج له من الرجال والنساء وبالتعاون معهم وتسهيل أمره وإزالة العقبات أمامهم ، لأنه سبيل الإحصان والعفة.

والأمر يختلف وجوباً واستحباباً وإباحة حسب حالة المرء، فإن أمن على نفسه الوقوع في الزنا كان مباحاً أو مستحباً ، وإن خاف على نفسه العنت كان واجباً حفاظاً على دينه سلامة من الوقوع في الحرام. (٣)

---

(١) سورة النور،الآية (32).

(٢) انظر: البحر المحيط (450/6)، نظم الدرر (265/13).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (1377/3).

والأيامى جمع أيم ، وهو كل من لا زوج له من الرجال والنساء، سواء تزوج ثم فارق أو لم يتزوج، والصالحون من العباد، العبيد والإماء، بأن يكون صالحاً في دينه وخلقه، وصالحاً للزواج قادراً على تحمل أعبائه.(١)

والتقييد بهذا الوصف إشارة إلى قيمة التقوى والصلاح (واعتباره في الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة من بذل المال والمنافع ، بل ربما يحصل له ضرر منه بتزويجه فحقه أن يستبقيه عنده). (٢)

وبعد ما حث ﷻ على النكاح وعد الراغبين فيه بالغنى، وأوضح أنه لا ينبغي أن يكون الفقر عائقاً عن الإقدام على الزواج فقال: ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

فمن سلك طريق الزواج وقصد إعفاف نفسه فإن الله تكفل له أن يكفيه مؤنته ويوسع عليه وييسر له أسباب الرزق ، ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي: واسع كثير الخير والعطاء ، عليم بمن يستحق الغنى.(٣)

وإنما حض ﷻ على النكاح ورغب فيه وأمر كل فردٍ حراً كان أو عبداً ، ذكراً كان أو أنثى ليتطهر المجتمع من كل رذيلة ويسلم من شيوع الفاحشة ويقضى على الفساد والانحلال والفجور، وليكون الزواج هو السبيل الذي يقع فيه الاستغناء بالحلال عن

---

(١) انظر: المفردات ص 30 ، وانظر: تيسير الكريم الرحمن ص567

(٢) روح المعاني (148/18) .

(٣) انظر: فتح القدير (27/4)، تيسير الكريم الرحمن ص567

الحرام ، وبه يحصل العفاف والحَصَان ويكف البصر عن التطلع إلى الحرام ،وتحصل المودة والرحمة التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . (١)

(١) سورة الروم ، الآية (21).

الوسيلة الرابعة عشرة:الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد النكاح.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.(١)

بعد الأمر بالنكاح والترغيب فيه وحث الراغبين فيه من الرجال والنساء بالتعاون معهم وتسهيل أمرهم وإزالة العقبات أمامهم ، هنا يوضع العلاج لحال العاجز ين عن وسائل الزواج ، وهو الاستعفاف حتى تتهيأ لهم أسبابه.(٢)

والاستعفاف طلب العفة، وهي الصبر والتراهة عن الشيء وضبط النفس وكفِّها عن الوقوع في الفاحشة ، وإنما دخلت اللام والسين على الفعل ليفيد أنه ينبغي الاجتهاد في تحصيل العفة وبذل الوسع في الحصول عليها. (٣)

وللاستعفاف أسباب، أهمها :

1) الأخذ بوصية المصطفى ﷺ :(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، (٤)

2) حفظ النفس بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مقارفة المعصية وذلك بغض البصر وحفظ الفرج والمحافظة على ذلك والمداومة عليه.

3) صرف دواعي القلب بالأفكار التي تخطر بإيقاع الفاحشة فيه ، وإشغاله بالتفكر في

---

(١) سورة النور،الآية (33).

(٢) انظر: نظم الدرر (267/13) ، إرشاد العقل السليم (112/4).

(٣) انظر: لسان العرب(253/9) ، التحرير والتنوير (218/18) .

(٤) رواه البخاري (280/2) ، برقم(1905)، ومسلم (1018/2) ،برقم (1400).

آيات الله والنظر في الكون ، وإشغال الفراغ بالطاعات المتنوعة.

4) البعد عن كل ما يثير كوامن الشهوة كالنظر المحرم والسماع والاختلاط المحرم.

5) البعد أو التقليل من الأطعمة والأشربة التي تقوي الشهوة .(١)

وقوله:﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي:لا يقدرون على الزواج ، وذلك إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك.

وقوله:﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وعد كريم من المولى ﷻ بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف منه لهم في استعفافهم ، وربط على قلوبهم ، وإشعار بأن فضله تعالى أولى بالأعفَّاء وأقرب من الصلحاء. (٢)

فعلى من كانت هذه حاله أن يستعفف وأن يضبط نفسه من الوقوع في الفاحشة وأن يراقب الله ﷻ في أحواله ويحمل نفسه الأمارة بالسوء ويعزفها من الطموح إلى كل شهوة فلا يكون أسيراً لشهوات نفسه ولذَّاتها، بل ينتظر الفرج إلى أن يرزقه الله ﷻ .

---

(١) انظر: الكشاف (238/3)، كتاب سورة النور دراسة وتحليل ، السامرائي ص359

(٢) انظر:أحكام القرآن لابن العربي (3 /1331)، إرشاد العقل السليم (113/4)، تيسير الكريم الرحمن ص 567

الوسيلة الخامسة عشرة:النهي عن البغاء.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. (١)

لما أمر الله ﷻ بالنكاح وحض عليه ورغب فيه ، بل أمر كلَّ فردٍ من المؤمنين حراً كان أو عبداً ، ذكراً كان أو أنثى ، وذلك ليتطهر المجتمع من كل رذيلة ويسلم من شيوع الفاحشة ويقضى على الفساد والانحلال والفجور، وليكون الزواج هو السبيل الطاهر الذي يقع فيه الاستغناء بالحلال عن الحرام ، جاء النهي في هذه الآية عن البغاء لسد جميع السبل المفضية إلى الوقوع في الفاحشة، واجتثاثها من المجتمع المسلم، وذلك أن وجود البغاء وانتشار دور الدعارة والفساد يدفع الكثيرين لممارسة الزنا وانتشار الفاحشة والعزوف عن الزواج الطاهر وتحقق العفاف المأمور به في أول الآية. (٢)

والبغاء هو زنا المرأة بأجرة مشتق من البغي بمعنى الطلب ، وسمي بذلك ليفرق بينه وبين الزنا الذي يكون بسبب علاقة الشهوة ونحوها .(٣)

وقد جاءت الآية بأسلوب التنديد والتهديد لمن يكره أمة على الزنا ويمهِّد لها ارتكاب هذه الجريمة، إذ الأصل أن يحصنها سيدها ويمنعها من الفجور، لا أن يدعوها إلى عمل

---

(١) سورة النور،الآية (32).

(٢) انظر: التفسير الكبير(220/23)، فتح القدير(29/4).

(٣) انظر: لسان العرب (77/14)، سورة النور دراسة وتحليل، السامرائي ص369

الفاحشة وهي تأبى ذلك وتريد العفاف والطهارة ، فهذا منتهى الخـــسَّة والدناءة.(١) ووصف الإماء بالفتيات،إما لتكريمهن في مقابلة طلب العفة والطهارة، وإما لأن صدوره من الفتيات هو المتوقع دون العجائز.(٢)

وفائدة مجيء الشرط في قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ زيادة التشنيع والتقبيح على السيد في ارتكاب هذه الجريمة وهي إلجاء أمته المتعففة على الفجور، ولذا قيل: إن الشرط خرج مخرج الغالب ،أي أن إرادة التحصُّن هو الغالب عليهن، ولا يفهم منه عدم النهي عن الإكراه على البغاء إذا انتفت إرادتهن التحصُّن .

وفائدة مجيء المصدر بصيغة التفعُّل وذكر الإرادة بيان أن ذلك لا يكون إلا عن عفة بالغة، ومما يزيد ذلك الفعل شناعة وقبحاً ذكر علة التزام هذا العار في قوله:﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ ﴾ ،أي: تطلبوا طلباً حثيثاً ، وبغية قوية بإكراههن على فعل الفاحشة والكسب الخبيث. ووصف الكسب بأنه﴿ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى حقارته ، فإن العرض متحقق فيه الزوال . (٣)

وقوله: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يفيد أنه حكم متعلق بالمستقبل،لأنه مضارع في حيِّز الشرط، كما أن الجملة تفيد عذر المكرهات على البغاء والعفو عن إكراههن،كما أنها تفيد تعريض الذين يُكرِهون الإماء على البغاء بالوعيد.

---

(١) انظر:إرشاد العقل السليم (115/4)، روائع البيان (183/2).

(٢) انظر:البحر المحيط (452/6)، نظم الدرر (269/13).

(٣) انظر:نظم الدرر (269/13)، التحرير والتنوير (227/18)، روائع البيان (183/2).

(١). وفي تحريم البغاء يتضح لنا منهج القرآن الكريم في تطهير المجتمع المسلم من كل رذيلة، والمحافظة عليه من شيوع الفاحشة ، وإغلاق السبل النتنة للتصريف الجنسي واجتثاثها من المجتمع المسلم ، والقضاء على الفساد والانحلال والفجور بكل صوره ، وأن الطريق السليم الطاهر هو الزواج ففيه يقع الاستغناء بالحلال عن الحرام ، أو الاستعفاف وضبط نفسه ومراقبة الله ﷻ في سائر أحواله وانتظار الفرج من الله والاستغناء بفضله ﷻ .

(١) انظر:نظم الدرر (269/13)، التحرير والتنوير (227/18) .

الخاتمـــــة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

ـــ سورة النور سورة الآداب الاجتماعية والأخلاق والفضائل وقد عنيت بحفظ المؤمنين من نشوء أي رذيلة ، وصونها من كل فساد وانحلال ، وقد تناولت هذه الدراسة تعريفاً بهذه السورة من حيث اسمها وارتباطه بموضوعاتها حيث إنها تنير قلب المؤمن وطريقه في حياته ، وتعصمه من الوقوع في الرذيلة ، وإبراز مقصدها ،وبيان أوجه ارتباطها بما قبلها مما يعين على تدبر معانيها والوقوف على هداياتها.

ـــ أرشدت السورة إلى الأسباب التي تقي المؤمنين من الوقوع في فاحشة الزنا ، وقد تناولت هذه الدراسة الوسائل الواقية من الوقوع في الفاحشة والتي بلغت خمس عشرة وسيلة ، مرتبة حسب ورودها في السورة، وهي على النحو التالي:

ـــ إقامة عقوبة الحد على الزناة والزواني فإنه سبب واقٍ من الوقوع في الفاحشة ، لأن تطهيرهم من ذلك طهارة للمجتمعات المسلمة من هذه الجريمة.

ـــ اجتناب نكاح الزواني وإنكاح الزناة ، وتحريم الزواج منهم، سبب في القضاء على الفاحشة،وفيه إ شعار هم بأن المجتمع الذي يعيشونه حكم عليه بالعزلة والإبعاد.

ـــ إقامة عقوبة القذف تطهير للألسنة من الخوض في أعراض المؤمنين، كما أنه يعد

حصناً منيعاً من الخوض في أعراض المؤمنين وإشاعة الفساد بينهم، فيحذر المؤمنون عامة والأزواج خاصة من رمي زوجتاهم بالزنا من غير بينة ، وأنه متى حصل التساهل في هذا الأمر كان ذلك سبباً في نشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة.

ـــ انتشار الشكوك والظنون السيئة والخواطر الفاسدة بين المؤمنين سبب في نشر الرذيلة فالواجب تطهير النفوس من ذلك.

ـــ كما أن إشاعة الفاحشة في صفوف المسلمين،ونشر أخبارها بين الناس من أعظم الوسائل التي توقع في الفاحشة،فالواجب تطهير المجتمع المسلم من شيوع تلك الفاحشة

ـــ الشيطان سبب كل معصية ومنكر وأن كل فاحشة تقع سببها خطرات الشيطان فعلى كل مؤمن أن ينفر منها ويأخذ حذره ، ويزكي نفســـه ويطهرها من ذلك.

ـــ الاستئذان عند دخول البيوت من أعظم الوسائل الواقية من الفاحشة.ففيه صفاء النفس وسلامة القلب ونقاء السريرة والبعد عن مظان التُّهم،والإخلال به يفضي إلى مفاسد ســـيئة من النظر المحرم والخلوة والاطلاع على العورات .

ـــ النظر بريد الزنا ورائد الفجور ، وهو أقوى طريق يوصل إلى القلب ، فأمر بغضه لأنه ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة ،والمحافظة عليه طهارة للقلوب ، وزكاء للأعمال .

ـــ أن حفظ الفروج من الفاحشة ودواعيها تزكية للنفوس وتطهير للجماعة المسلمة من أدران الفاحشة والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي.

ـــ التزام المؤمنة حجابها وضربها به على رأسها وجهها ساترة لجميع محاسنها من

أقوى أسباب السلامة من الوقوع في الفاحشة والبعد عن الفساد والانحلال والفجور.

ـــ ابتعاد المرأة المؤمنة عن كل ما من شأنه أن يثير المشاعر، ويحرك الشهوات كالضرب بالأرجل، وتحريك الأيدي ،والخضوع بالقول والتميع بالصوت والتطيب والتمايل في المشية ونحوه.

ـــ النكاح هو السبيل الأعظم لتحقيق الإحصان ، والعصمة من الفاحشة ودواعيها، والبعد عن الآثام ، والوسيلة السليمة لقضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا.

ـــ على كل من لا يقدر على النكاح الاستعفاف ضبط النفس من ا لوقوع في الفاحشة ومراقبة الله ﷻ وحمل النفس عن الطموح إلى كل شهوة.

ـــ تحريم البغاء سد لجميع السبل المفضية إلى الوقوع في الفاحشة ، واجتثاثها من المجتمع المسلم ،والقضاء على الفساد والانحلال والفجور بكل صوره.

هذا وإن فاحشة الزنا من أعظم الفواحش وأقبحها وأشدها خطراً وضرراً على الأمة الإسلامية ، فالواجب الابتعاد عنها والحذر من كل وسيلة تفضي إليها، فجاءت هذه الدراسة مستقصية مواطن كل وسيلة توقع في فاحشة الزنا ، راصدة ما أورده الله تعالى في هذه السورة الجليلة، ومن ثم دراستها دراسة تفسيرية ، وتجلية ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، وإبراز ما حوته من أوجه بلاغية وأسرار بديعية .

وختامًا أحمد الله جل جلاله على ما يسَّـــر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

1-أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي، ت: محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت لبنان،1408 هـ.

2-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود بن محمد العمادي،ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ.

3- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان .

4-الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان.

5-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبع: إدارات البحوث العلمية ، الرياض ، السعودية ،1403هـ

6- إعراب القرآن وبيانه، محي الدين درويش،دار ابن كثير للنشر والتوزيع، دمشق ،ط6،1419هـ

7- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط7، 1986م.

8- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1403هـ

9- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3،1407هـ

10- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
11-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ت: محمد علي النجار ، المكتبة العلمية . بيروت ، لبنان.
12- البيان في عد آي القرآن ، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ت: غانم قدوري الحمد ، مركز المخطوطات والتراث، الكويت ،ط1 ،1414هـ
13-التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، 1984م.
14- تفسير سورة النور ، أبو الأعلى المودودي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة
15-تفسير سورة النور،د. إسماعيل سالم ، دار الصحوة، مصر، ط1، 1407هـ
16 -تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد النيسابوري مطبوع بهامش جامع البيان لابن جرير الطبري.
17-تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض السعودية ، ط1، 1418هـ
18- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
19- التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ.
20-التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، دار الجيل، ط6، 1389هـ.
21-التفسير والمفسرون، محمد بن حسين الذهبي ، مطبعة السعادة، ط2، 1396هـ.

22- تناسق الدرر في تناسب السور ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،ت:عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1، 1406هـ.

23- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط2 1424هـ.

24- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، 1412هـ

25-الجامع الصحيح، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، إشراف: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية ط1، 1420هـ.

26- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، ط1، 1408هـ

27-حراسة الفضيلة،د.بكر بن عبد الله أبو زيد ،دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة،ط 6 ،1421هـ.

28-الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبد الله التركي، مركز هجر - القاهرة، ط1، 1424هـ.

29-الذيل على طبقات الحنابلة، لأبي الفرج ابن رجب، مكتبة السنة المحمدية بمصر.

30-روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني ، مكتبة الغزالي ،سوريا، ط2 ،1397هـ

31- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الشهاب محمود بن عبدالله

الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1405هـ

32 -زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن القيم الجوزية ،ت: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط1406،13هـ.

33- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، دار البشائر الإسلامية - بيروت لبنان، ط1406،2هـ.

34- سورة النور،دراسة وتحليل ،إسماعيل بن إبراهيم السامرائي ، دار عمار للنشر والتوزيع عمان،الأردن، ط1، 1423هـ

35- سورة النور ومشكلاتنا الاجتماعية، ممدوح حسن محمد، دار الأمين،ط1، 1413هـ

36-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1406 هـ.

37- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز، دار الفكر 1414هـ.

38- صحيح سنن الترمذي ،، محمد ناصر الدين الألباني،مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط1، 1409هـ

39- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر:الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء - الرياض، السعودية 1400هـ

40- صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5

41- طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، دار الكتب العلمية.

،بيروت لبنان.
42-طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
43-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة المعارف، الرياض.
44- في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، ط12، 1406هـ
45-القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ.
46- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل محمود ابن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407هـ.
47- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1 1410هـ.
48- مجمع الأمثال،أحمد محمد الميداني،ت محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الجيل بيروت لبنان،1416هـ
49-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي،ت:عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1413هـ
50-المستدرك على الصحيحين ، الحافظ أبو عبد الله الحاكم، دار المعرفة، بيروت لبنان. 51-مشاهير علماء نجد،عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ،دار اليمامة، ط2، 1394هـ.
52-معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار

المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 1407هـ.
53-معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج،عالم الكتب، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ
54-معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان
55-معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط3، 1409هـ.
56-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري، ت، محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان، 1407هـ
57- من أخلاق القرآن وبلاغته في سورة النور ، د. فتحي فريد ، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1405هـ
58-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1413هـ
59-النكت والعيون ، علي بن محمد الماوردي، مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت لبنان.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	(2)
التمهيد	(7)
الوسيلة الأولى: تطهير الزناة والزواني بعقوبة حد الزنا	(13)
الوسيلة الثانية : التطهر باجتناب نكاح الزواني وإنكاح الزناة	(16)
الوسيلة الثالثة : تطهير الألسنة عن رمي المؤمنين بفاحشة الزنى	(21)
الوسيلة الرابعة : تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا من غير بينة	(25)
الوسيلة الخامسة : تطهير النفوس عن ظن السوء بالمؤمنين بفعل الفاحشة	(29)
الوسيلة السادسة : تطهير الإرادة عن محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين	(32)
الوسيلة السابعة : تطهير النفوس من الوساوس والخطرات التي توقع في الفاحشة	(35)
الوسيلة الثامنة: مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت	(38)
الوسيلة التاسعة : وجوب غض البصر عن النظر المحرم	(44)
الوسيلة العاشرة : وجوب حفظ الفرج عن المحرم	(47)
الوسيلة الحادية عشرة: تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب	(49)
الوسيلة الثانية عشرة: منع ما يحرك الرجل ويثيره	(56)
الوسيلة الثالثة عشرة: الحض على النكاح	(59)

الوسيلة الرابعة عشرة: الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد النكاح (62)

الوسيلة الخامسة عشرة: النهي عن البغاء. (64)

الخاتمة (67)

فهرس المصادر والمراجع (70)

فهرس الموضوعات (76)

الأحرف السبعة

د. يوسف الشبل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرورأنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً،

أما بعد ، فإن الله ﷻ أنزل القرآن الكريم على نبيِّه محمد ﷺ وبين أنه يهدي للتي هي أقوم وأنه أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليكون منهجاً لهم في حياتهم ، وهو الطريق الحق الذي من تمسك به وسار على نهجه سعد في الدنيا والآخرة .

وإن المتأمل في كتاب الله ليرى ذلك واضحاً ، قال الله تعالى :(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (الإسراء [٩])، أي : أعدل الخصال في العقيدة والعمل والخُلُق .

وقد بين الله ثمرة الهداية بالقرآن والعمل به وأن جزاءه أنه لا يضل في الدنيا ، بل هو على نور وهدى ، وفي الآخرة له السعادة الأبدية ، قال تعالى :(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) ، (طه[١٢٣،١٢٤])

وفي المقابل من يعرض عن ذكر الله وعن هداه فإنه يصيبه في الدنيا الهمُّ والغمُّ والأحزانُ ، وفي القبر يضيق عليه ، وأما في الآخرة فإنه يحشر أعمى لا يبصر، على وجه الذلة والمهانة وذلك بسبب إعراضه عن الله وعن شرعه ، فلما عمى في الدنيا عن الحق كان في الآخرة أعمى ، والجزاء من جنس العمل .

وهذا الكتاب العزيز قد تكفل الله بحفظه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ،(الحجر[٩])، وكذلك بيَّن دلائله وأحكامه، قال تعالى : (ثم إنَّ علينا بيانه)، (القيامة [١٩]) ، وقد بين أهل العلم أن الله أنزل القرآن الكريم ليتلى على الألسن ، ويحفظ في الصدور،وليدبَّر المؤمنُ آياته ،ويعمل بأحكامه ، ويستخرج علومه ومعارفه ، ويقف على حكمه وأسراره .

ومما لا ريب فيه أن علماء الأمة كانت لهم عناية كبيرة بهذا الكتاب العظيم ، فقد بذلوا جهوداً مشكورة في خدمته ، تلاوةً وتدبراً وتفسيراً واستنباطاً ، فألفوا فيه المؤلفات الكثيرة المتنوعة.

كما لا يخفى أن لهم أيضاً عناية فائقة في بيان علومه واستنباطها، فعلوم القرآن بحر زخار لايمكن لأحد الإحاطة به مهما اتسع جهده وطال عمره .

وإن من أهم علومه المتعلقة به ذات الصلة الوثيقة به علم الأحرف السبعة وعلم القراءات.

أولا : الأحرف السبعة

أهميته:

الأحرف السبعة من الموضوعات الشائكة الصعبة والتي تحتاج إلى دقة وهي من المسائل التي اختلفت فيها الأقوال ، فأحاديثه صحيحة متواترة وطرقه متعددة إلا أن الاختلاف يظل في فهم النصوص ومقصودها، وهذا الفهم وقع الخلاف فيه على أقوال عديدة حتى أوصلها ابن حبان إلى (٣٥) قولا ،وذكر السيوطي في كتابه الإتقان أن فيها (٤٠) قولاً ، ولكن أكثر هذه الأقوال متداخلة ، وبعض أهل العلم توقف في فهم هذه النصوص ، ولا يزال الخلاف قائماً بين العلماء قديماً وحديثاً ، وممن أوضح أهميته ودقته ووعورة مسلكه إمام القراء العلامة ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) حيث قال: (ما زلت استشكل هذا الحديث وأفكر فيه وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله) أهـ. وممن أبان خطورة هذا المبحث وصعوبته الشيخ عبد العزيز بن عبد الفتاح القاريء في كتابه (حديث الأحرف السبعة) حيث قال :(مكثت عشر سنين وأنا أجمع في طرقه وأنظر في رواياته وأتتبع أقوال العلماء فيه ... ووجدت فيه مشقة وفي مسالكه وعورة ... حتى ضاق صدري مرة فلجأت إلى الله ثم إلى شيخي محمد الأمين الشنقيطي فقال: الذي ترجح لدي أني لا أعرف معناه) أهـ. هذا على سعة علمه رحمه الله .

أشهرالمؤلفات في الأحرف السبعة:

١/ الأحرف السبعة للقرآن لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ). حققه عبد المهيمن الطحان .

٢/ الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ، د. حسن ضياء الدين عتر (ت١٤٠٠هـ) .

وهو من أفضل وأجل ما كتب في الأحرف السبعة ، تكلم فيه عن الأحرف ثم القراءات ، كما تعرض فيه للهجات العرب وقبائلهم وأفصح لغاتهم ، وذكر الأقوال في الأحرف وناقشها ،كما أورد بعض الشبه وقام بتفنيدها وردها .

٣/ الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن، للشيخ محمد بخيت المطيعي (ت١٣٥٤هـ)

٤/ نزول القرآن على سبعة أحرف ، للشيخ مناع القطان (ت١٤٢٠هـ) .
تكلم فيه عن لهجات العرب ولغاتهم ، ثم أورد الأحاديث في نزول القرآن على سبعة أحرف ثم ساق ستة أقوال ثم اختار ما يراه راجحا، وناقش الأقـوال الأخرى ، ثم ذكر شبهات المستشرقين ورد عليها ، ثم الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف .

٥/ الأحرف السبعة وارتباطها بالقراءات، د٠ فتحي الطيب خماسي .

٦/ حديث الأحرف السبعة د٠ عبدالعزيز بن عبد الفتاح القاريء .

هذه الكتب الستة أشهر الكتب الخاصة في الأحرف السبعة .

وهناك مؤلفات أخرى تعرضت للأحرف السبعة ضمن كتب علوم القرآن ومن أبرزها :

١/ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ)
وقد ضمنه علوماً تتعلق بالقرآن ، كان من أبرزها القراءات والأحرف السبعة .

٢/ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت٩١١هـ) وقد ذكر فيه ما يقرب من (١٠٢) علماً من علوم القرآن ، منها ما يتعلق بالأحرف السبعة

٣/ مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) ، تحدث عن الأحرف السبعة وبسط القول فيها .

٤/ المدخل لدراسة القرآن الكريم د٠محمد أبو شهبة، تكلم فيه عن الأحرف السبعة والخلاف فيها ، ثم الترجيح بين الأقوال.

٥/ مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ، وهو كتاب مشهور ، ضمنه مؤلفه أنواعاً عديدة من علوم القرآن ، منها الأحرف السبعة .

٦/ مباحث في علوم القرآن د٠ صبحي الصالح ، وقد تكلم فيه عن الأحرف السبعة .

كما أن بعض المفسرين ضمَّن مقدمة تفسـيره الحديث عن الأحرف السبعة ، منهم :

١/ ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسيره : جامع البيان في تأويل آي القرآن .

٢/ ابن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ) في تفسيره : المحررالوجيزفي تفسيرالكتاب العزيز.

٣/ القرطبي (ت٦٧١هـ) في الجامع لأحكام القرآن .

٤ / القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) في تفسيره: محاسن التأويل . إلى غير ذلك من المؤلفات .

مقدمة في نشأة اللهجات العربية :

تعريف اللهجة:

يقال هذه لهجات عربية ، وأحيانا يقال : لغات عربية كلاهما بمعنى واحد ، فاللهجة تسمى لغة وتسمى أيضاً لساناً ، واللهجة أو اللغة أو اللسان تعني : مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة ، فكان كل قبيلة من قبائل العرب لها لهجة خاصة تختلف عن غيرها .

فالقرآن ذكر ذلك ، ففي المائدة (٥٤) ، (يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه)، وفي البقرة (٢١٧) ، (ومن يرتدد منكم) ، يرتدَّ مدغم ، ويرتدد غير مدغم ، فالأولى لغة تميم والثانية لغة قريش ، ومثلاً لغة هذيل تبدل الحاء عيناً ، فتقول في (حتى حين) ،(عتى حين) وبعض القبائل القحـــطانيه يبدلون العين نوناً، يقولون في(أعطني) ، (أنطني) ، وبعض قبائل العرب تنطق تاء الفعل مكسورة فتقول : (تِكتب) ، وقد قريء بها (تِعلمون) ، ومن الأمثلة (هلم) بمعنى (أقبل) ، فـــلغة قريش تلزمها حالة واحدة في الإفراد والتثنية والجمع، تقول :هلـــم يا رجال ، ويا رجلان ، ويا رجل ، وأما قبيلة تميم فتجريها مجرى الأفعال فتقول هلموا يا رجال ، وهلما يا رجلان .... ، و(أل) التعريف تبدل عند بعض قبائل العرب بـــ (أم) يقولون في الصيام : أم صيام .

سبب نشـــوء تلك اللهجات:

الجزيرة العربية كانت واسعة جدا والقبائل فيها كثيرة وكان لكل قبيلة منازلها وكيانها المستقل الذي يعزلها عن غيرها من عادات وتقاليد تنمو وتتطور فأدى هذا إلى نشأة اللهجات العربية التي تتميز كل منها بصبغات خاصة .

لم نزل القرآن على لغة قريش خاصة ؟

بمرور الزمن صارت مكة وما حولها ملتقى القبائل العربية حيث إنهم يفدون إليها للحج كما يفدون إليها للتجارة ، وتُلقى في تجارتهم القصائد والملاحم الشعرية والخطب والنثر، وكانت عندهم أسواق مشهورة يجتمع فيها العرب ، كســـوق عكاظ والمجنة وذوالمجاز، ولكلٍ وقتٌ محدد ، وكلها قريبة من مكة فيجتمع فيها فصحاء العرب ويلقون فيها القصائد والخطب ، وكانوايحكِّمون فيما بينهم من أهل مكة من قريش ، لأنهم يعرفون أن أهلها أفصح العرب ، وقد حضر النبي ﷺ شيئاً منها وكان يطوف فيقول: (من يحميني حتى أبلغ رسالة ربي) ، ويقول:(ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفـــلحوا) ، وكان يطوف رجل خلفه فيقول: لا تصدقوه إنه كذاب ، وكان ذلك الرجل هو عمه أبا لهب ، وكانت الخنساء تطوف هذه الأسواق وتلقي قصيدها في رثاء أخيها صخر، وكانوا يحرصون أن يأتوا بلفظ يجمع بين اللغات كلها ويحكِّمون قريشاً ،أيُّ القصائد أقوى وأحسن ؟

هل القرآن الكريم فيه كلمات غير عربية ؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال ، وإليك أشهرها :

الأقوال :

القول الأول : أن القرآن فيه كلمات غير عربية ، ولكنها قـــليلة ، لذا لا يقـــال إنه غير عربي ، لأن النادر لا حكم له .

القول الثاني : أن القرآن كله عربي ، وليس فيه شيء غير عربي .

القول الثالث : أن القرآن فيه كلمات أصلها غير عربي لكنها عربت بعد ذلك فأصبحت عربية.

الأدلة :

أدلةالقول الأول : ما روي عن بعض الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات أنها غير عربية ، نحو: (غير ناظرين إناه) قالوا : نضجه بالمغربية ، (الطور) هو الجبل بالسريانية ، (الرقيم) اللوح بالرومية ، (السندس) الرقيق من الستر والقماش بالهندية ، (الإستبرق) الغليظ من الديباج بالفارسية ، (كفلين من رحمته) ، ضعـــفين بالحبشية ،(ناشئة الليل) قيام الليل بالحبشية ، (يصهر به ما في بطونهم) ينضج عند أهل المغرب ،(حصب جهنم) أي حطب بالزنجية ، (هيت لك) هلم لك بالقبطية ، إلى غير ذلك ، وقد نسب هذا القول إلى ابن عباس ﷺ وعدد من الصحابة والتابعين كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم .

ســـؤال : ما موقف أصحاب هذا الرأي من الآيات التي صرحت بأن القرآن عربي نحو قـــوله : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) (يوسف [٢]) ، وغيره ؟

جواب: أن الكلمات اليسيرة لا تخرج القرآن عن كونه عربياً ، فالشاعر العربي يلقي القصيدة الطويلة من الأبيات بالعربية ويتخللها كلمات غير عربية ، فلا يقال إنها غير عربية ، فالنظر في الشيء إلى العموم ، والنادر لا حكم له.

أدلة القول الثاني : هي الآيات التي صرحت بأن القرآن عربي فصيح ، كـــقوله تعالى : (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) (يوسف [٢]) ، وقوله تعالى: (بلسان عربي مبين) (الشعراء [١٩٥]) ، وقوله تعالى : (لسانًا عربيًا غير ذي عوج) (الزمر [٢٨])

وقالوا : القرآن الكريم فيه شيء غير عربي لـــتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لكونه مشتملاً على كلمات غير عربية لا يعرفونها .

سؤال : ما موقف أصحاب هذا الرأي من أدلة الرأي الأول ؟

جواب : أن ما ذكره أصحاب القول الأول من أن فيه كلمات غير عربية هذا لا يعني أنه غير عربي ، لأنهم قالوا : هي بلسان كذا ، و لم ينفوا عنها العربية ، فهم لم يقولوا مثلاً : (الناشئة) ليست عربية وإنما قالوا : هي بلسان الحبشة (القيام) ، أي هي في العربية وبغير العربية ، فيكون أصلها بالعربية وتستعمل باللغة الأخرى .

أدلةالقول الثالث : هي الآيات الدالة على أنه عربي ، وأما ما ذُكر من ألفاظ أنها غير عربية فإنها قد عربت حتى صارت عربية ، وهذا القول اختاره ابن عطية صاحب المحرر الوجيز، ورجحه الشيخ مناع القطان وبعض المعاصرين ، وهو الراجح ، وذلك لأن أهل مكةً باختلاطهم بقبائل العرب وغيرها أخذوا هذه الكلمات ، فاستجمعت لغة قريش جميع لغات العرب (ألسنتهم ولهجاتهم) ، لذا كان النبي ﷺ يتكلم مع كلٍ بلهجته ولسانه.

الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف :

وردت أحاديث كثيرة وصلت إلى درجة التواتر ورواتها من الصحابة كثيرون جداً حتى ذكر بعض أهل العلم أن عدد الرواة من الصحابة ما يقرب من (٢٠) صحابياً ، فأحاديثه متفق على صحتها، وقد وصلت درجة العلم اليقيني الذي لا يُشك فيه ، ولا يُتردد في قبوله .

وإليك طائفة من هذه الأحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم ﷺ يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعت لقرآءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره١ في الصلاة فتصبرت حتى سلم ، فلببته٢ بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت٣ فإن رسول الله أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله أرسله٤ ، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي كنت سمعته يقرأ ، فقال رسول الله :هكذا أنزلت ـــ يعني السورة ـــ ثم قال : اقرأ يا عمر فقرأت القراءة التي كان أقرأني ، فقال رسول الله : هكذا أنزلت ، ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه)

الحديث الثاني :أخرج مسلم في صحيحه وغيره عن أبي بن كعب ﷺ أن النبيﷺ كان عند أضاة ٥ بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تَقْرَأ أمَتُكَ القرآن على حرف فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة

---

(١) أساوره : أقفز عليه وأواثبه .
(٢) لببته : أمسكته
(٣) كذبت : أخطأت بلغة قريش .
(٤) أرسله : أطلقه .
(٥) الأضاة : الغدير .

أحرف فقال:أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرؤا عليه فقد أصابوا) .

الحديث الثالث أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال:(أقرأني جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فزادني فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف) .

هذه الأحاديث وغيرها كثير تدل صراحة على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، كما أن هناك أحاديث أخرى صريحة صحيحة تدل على أنه أنزل على ثلاثة أحرف ، تركنا ذكرها خشية الإطالة ، وقد جمع بينها بعض أهل العلم بأن القرآن أنزل على ثلاثة أحرف ثم بعد ذلك زيد إلى أن بلغ سبعة أحرف .

معنى الحرف :

(ح- ر- ف) ذكر تعريف الحرف ابن فارس وابن منظور والفيروز آبادي والراغب الأصفهاني في معاجمهم اللغوية ، وأنقل تعريف الفيروزآبادي في القاموس المحيط حيث قال: (الحرف من كل شيء طرفه ، وواحد حروف التهجي ـــ ثم قال ـــ [ومن الناس من يعبد الله على حرف] قال على وجه واحد وهو أن يعبده في السراء لا في الضراء أوعلى الشك لا على الطمأنينة) أهـــ إطلاقات الحرف في اللغة:

يطلق الحرف في اللغة على :

١/ الجهة، قال تعالى:(ومن الناس من يعبد الله على حرف) ، (الحج [١١]) ،أي:على جهة.

٢/ العدول ، يقال انحرف في سلوكه، إذا عدل ومال وزاغ ، ومنه قوله تعالى :(يحرفون الكلم عن مواضعه) (النساء [٤٦]) .

٣/ وحرف الشيء حده ونهايته وطرفه .

٤ / التقدير، ومنه الحرفة لأنها تقدر لصاحبها كسبه ومعيشته .

٥ / الحرف واحد الحروف الهجائية المعروفة .

المراد بالأحرف السبعة الواردة في هذه الأحاديث :

اختلفت آراء أهل العلم في المراد بالأحرف السبعة على مذاهب كثيرة جداً ، فقد ذكرابن حبان صاحب الصحيح أن العلماء اختلفوا فيها على (٣٥) قولاً ، وذكر السيوطي في الإتقان أنهم اختلفوا في معناها على نحو (٤٠) قولاً ، ثم ذكر منها أقوالاً كثيرة ، كل هذا يدل على أن المسألة فيها خلاف قوي جداً.

سبب اهتمام العلماء بهذا الموضوع :

١/ أن موضوع الأحرف السبعة موضوع وثيق الصلة بالقرآن الكريم .

٢/ أن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف مع كثرتها جاءت مجملة لا تكشف عن حقيقة المراد بهذه الأحرف.

٣/ تخاصم الصحابة في هذا الأمر وتحاكمهم إلى الرسول ﷺ .

٤ / تقرير النبي ﷺ لكل واحد من الصحابة رضي الله عنهم وتصويبه لهم .

٥/ أن الأحاديث لم تأت أمثلتها متفقاً عليها عند الصحابة ، فمثلاً ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (إني سمعت القرأة فوجدتهم متقاربين ، فاقرأوا كما علمتم إنما هو كقول أحدهم : هلم وتعال) ، والنبي ﷺ يقول لعمر رضي الله عنه (إن القرآن كله صواب مالم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة) ، فاختلافهم في هذه الأمثلة ، واختلافهم في تفسير الأحرف السبعة كان سبباً في الاهتمام العلماء بهذا الموضوع .

أشهر الأقوال في المراد بنزول القرآن على سبعة أحرف :

وردت أقوال كثيرة في المراد بالأحرف السبعة ، ونظراً لكثرتها وتشعبها وتداخل بعضها ببعض فسنورد أشهرها ، وهي ستة أقوال ، اقتصر عليها أكثر من تكلم عن الأحرف السبعة ، والله الموفق وهو المستعان وعليه التـــكلان : ـــ

القول الأول : أن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد [الألفاظ متعددة والمعنى واحد] كقولك :(هلم – أقبل – تعال – أسرع – عجل – نحوي– قصدي).

ولا يلزم أن تنزل الكلمة من القرآن بألفاظ متعددة مثل كلمة (الله) فهي عند كل العرب فنزلت (الله) على حرف واحد فقط ، وأحيانا يكون المعنى لها لفظان أو ثلاثة أو أربعة وقد تكون على حرف واحد وقد تكون خمسة أو ستة أو سبعة حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن المعاني يأتي القرآن نازلاً على قدر هذه اللغات على هذا المعنى ، وحيث لا يكون اختلاف فلا يحصل مثل (هلم) على سبعة ، وكقوله: (انظرونا نقتبس) أمهلونا – أخرونا – ارقبونا – أرجئونا ، هذه خمسة ، وقوله: (كلما أضاء لهم مشوا فيه) مشوا فيه – سعوا فيه – مروا فيه فهذه ثلاثة وقوله: (فاسعوا إلى ذكر الله) فاسعوا – فامضوا، وقوله: (ووضعنا عنك وزرك)، حططنا ، وقوله:(إن كانت إلا صيحة) زقية ،(العهـــن المنفوش)،الصوف ،(وفومها) ، ثومها، وهكذا في أمثلة كثيرة ، وإلى هذا القول ذهب من السلف عبد الله بن وهب (ت١٩٧هـــ)، سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـــ)، ومحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـــ) ، فقد رجحه ونصره بالأدلة ودافع عنه دفاعاً قوياً، والطحاوي(ت٣٢١ هـــ) ، ورجح هذا القول واختاره من المعاصرين الشيخ مناع القطان (ت١٤٢٠هـــ) والشيخ محمد أبو شهبة في كتابه: (المدخل لدراسة القرآن الكريم) ، وغيرهم كثير .

واختلفوا في تحديد هذه اللغات التي نزل عليها القرآن الكريم ، والأكثر على أنها [قريش وهذيل وتميم وأزد وربيعة و هوازن وسعد بن بكر] .

القول الثاني: أن المراد بالأحرف السبعة ســـبع لغات من لغات العرب نزل بها القرآن عـــلى مـــعنى أنه في جـــملته لا يخرج عن سبع لغات هي أفصح لغات العرب، قالوا أكثره بلغة قريش ، وفيه ما هو بلغة هذيل

مثلاً، أو ثقيف أو هوازن أو تميم أو كنانة أو بلغة أهل اليمن ونحو ذلك ، فهذا الرأي يرى أنها متفرقة في سور القرآن وآياته ،لا أنها في الكلمة الواحدة .

مثال ذلك : كلمة " فطر " فإن معناها ابتدأ وأنشأ وأبدع ، فجاءت في القرآن وابن عباسﷺ لم يعرف معناها ، قال: [اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها قال ففهمت حينئذٍ معنى فاطر]. وقال أيضاً:[ما كنت أدري معنى قوله تعالى " ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق " حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها (تعال أفاتحك) أي: أحاكمك] ، وخطب عمر بن الخطاب ﷺ مرة على المنبر فقرأ قوله تعالى :(أو يأخذهم على تخوف) فقال: أيها الناس ما التخوف ؟ فقام رجل من هذيل فقال: هذه لغتنا ، "التخوف " التنقص .

وقطبة بن مالك ﷺ ممن أسلم متأخراً ، روى قصته مسلم في صحيحه قال:(صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ " ق والقرآن المجيد " حتى بلغ " والنخل باسقات " قال: فجعلت أرددها ولا أدري ما هي) أهـ. قلت : الباسق الذاهب طولاً من جهة الارتفاع ،

وهذا الرأي قال به الإمام الزهري ت(١٢٤)هـ وأبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ت (٢٢٤هـ) وثعلب أحمد بن يحي ، إمام الكوفيين ، ت(٢٩١هـ) ، ورجحه ابن عطية الأندلسي ت (٥٤٢هـ) ، يقول في تفسيره (أنزل القرآن على سبعة أحرف أي: فيه سبع لغات أو سبع قبائل أشهره نزل القرآن عليه ، فيعبر فيه بلغة قريش ومرةً في موضع آخر بلغة تميم وهكذا) أهـ

واختلفوا في تحديد هذه اللغات التي أنزل عليها القرآن ، كما تقدم في القول الأول .

القول الثالث : أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير السبعة التي يقع فيها الاختلاف.وهذا الرأي ذهب إليه ابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) في كتابه تأويل مشكل القرآن حيث قال : (وقد تدبرت وجوه الاختلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه) أهـ ثم شرع في ذكرها وضرب الأمثلة لها، وممن أخذ به أبو الفضل الرازي ت (٤٥٤هـ) وابن الجزري ت (٨٣٣هـ)الذي نصره ورجحه والزرقاني ت (١٣٦٧هـ) ، وغيرهم ممن رجح هذا القول أو قريباً منه.

أوجه التغاير السبعة :

الوجه الأول : الاختلاف في الأسماء بالإفراد و التذكير وما يقابلها (التثنية والتذكير والتأنيث) مثال ذلك قوله تعالى :(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) سورة المؤمنون (٨) قرئت بالجمع وقرئت بالإفراد [لأمنتهم]، ورسم المصحف يحتمل الأمرين ، فابن كثير من السبعة (ت١٢٠هـ) قرأها بالإفراد والباقون بالجمع ،ومثله أيضاً قوله تعالى: (إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس) سورة المجادلة (١١) قرئت بالجمع وبالإفراد [المجلس] ، ومثله قوله تعالى: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) سورة الفرقان (١) قرئت بالإفراد وبالجمع [عباده] .

الوجه الثاني : الاختلاف في أوجه الإعراب، فتقرأ الآية بعدد من وجوه الإعراب، فمثلاً قوله تعالى :(ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريم) سورة يوسف (٣١) قرئت " بشرٌ" بالرفع، فقراءة النصب على أن " ما" عاملة

عمل ليس ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وقراءة الرفع على أن "ما " غير عاملة أي مهملة ، ومثله أيضاً قوله تعالى: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح) ، قرئت (إنه عَمِلَ غيرَ صالح) ، فالأولى على أن "عمل" مصدر، وعلى الثانية على أنه فعل ماضٍ .

الوجه الثالث : الاختلاف في التصريف :

أي [في وزن الكلمة] ، مثلاً قوله تعالى:(فقالوا ربَنَا باعِدْ بين أسفارنا) سورة سبأ (١٩) قرئت "ربَنَا بعَّدْ " و" ربُنا بَاعَدَ " الأولى على وزن فاعلْ والثانية على وزن فعَّل و"ربنا" في كليهما منادى ، والثالثة "ربُنا" على أنه مبتدأ ،أي: ربنا هو الذي باعد ، ومثله قوله تعالى (وهزي إليك بجذع النخلة تُسَاقِطْ عليك) سورة مريم (٢٥)، قرئت " تسَّاقط " وقرئت " يسَّاقط " وقوله تعالى:(يضاعف له العذاب) سورة الفرقان (٦٩) قرئت "يُضَّعف" .

الوجه الرابع : الاختلاف في التقديم والتأخير:

وهو قسمان : أ- تقديم وتأخير في الحرف . ب- تقديم وتأخير في الكلمة .

فمن الأول قوله تعالى:(أفلم ييأس الذين آمنوا) سورة الرعد(٣١) قرئت " أفلم يَأْيَس " ومثله في الأعراف (١٦٥) ،(بعذاب بَئِيْس) ، قرئت " بعذاب يَيْئَس " على وزن فيعل .

ومن الثاني مما يكون في الكلمة قوله تعالى:(وجاءت سكرة الموت بالحق) سورة ق(١٩) قرئت (وجاءت سكرة الحق بالموت) .

الوجه الخامس : الاختلاف في الإبدال :

وهوقسمان : أ ـــــ إبدال حرف بحرف . ب ـــــ إبدال كلمة بكلمة .

فمن الأول قوله تعالى:(ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) سورة الحجرات(٦)، قرئت " فتثبتوا" ، وكذلك قوله تعالى في النساء(٩٤) ، (إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) ، قرئت " فتثبتوا " ، وقوله تعالى :(وانظر إلى العظام كيف ننشزها)، سورة البقرة (٢٥٩)، قرئت " ننشرها "وفي يونس (٢٢) ، (هو الذي يسركم في البر والبحر) ، قرئت " هو الذي ينشركم " ،

ومن الثاني إبدال كلمة بكلمة قوله تعالى: (العهن المنفوش) سورة القارعة (٥)، قرئت " الصوف المنفوش " ،وفي يس(٢٩) (إن كانت إلا صيحة) ، قرئت "زقية" والمعنى واحد.

الوجه السادس : الاختلاف في الزيادة والنقص :

مثال ذلك قوله تعالى:(جنات تجري تحتها الأنهار) سورة التوبة(١٠٠)، قرئت " تجري من تحتها " ، وقوله تعالى:(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) سورة آل عمران (١٣٣) ، قرئت " سارعوا " ، وقوله تعالى:(

ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) سورة المائدة(٥٣)، قرئت " يقول" ، وقوله تعالى:(وقالوا اتخذ الله ولداً) سورة البقرة (١١٦) قرئت " قالوا " ، فهذه الأمثلة فيها الاختلاف بالزيادة والنقص .

الوجه السابع : اختلاف اللهجات في التفخيم و الترقيق والفتح الإمالة والإدغام والإظها والهمز والتسهيل ونحو ذلك ، مثل (الطلاق) تفخيم اللام وترقيقها ، والإمالة في (موسى) وتسهيل الهمز في (المؤمن) ونحو ذلك .

القول الرابع : أن المراد بالأحرف السبعة أنواع سبعة أو أوجه سبعة من المعاني هي:الأمر والنهي و الحلال و الحرام و المحكم و المتشابه والأمثال ،

واستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال :(الكتاب الأول أنزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجر وآمر و حلال وحرام ومحكم ومتشابه و أمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه و افعلوا ما أمرتم به وانتهوا عن ما نهيتم عنه و اعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه و آمنوا بمتشابهة وقولوا آمنا به كل من عند ربنا) أخرجه ابن جرير في تفسيره وابن عبد البر في كتابه التمهيد شرح على الموطأ .

القول الخامس: أن هذا العدد سبعة في الحديث لا مفهوم له ، وإنما يطلق هذا العدد ويراد به الكثرة والكمال وبلوغ الذروة ، فيقال سبعة وإن لم يقصد به حقيقة العدد، فالسبعة في الآحاد ، كما أن العدد سبعين في العشرات ، والعدد سبعمائة في المئين وإن لم يراد به حقيقة العدد وإنما يراد به الكمال والكثرة وبلوغ الذروة .

قال أصحاب هذا القول إن العرب تطلق هذه الأرقام ولا تريد حقيقة العدد، فالسبعة في الحديث لا يراد به حقيقة العدد، وإنما يراد به الكثرة وبلوغ الذروة في الكمال فقط ، كما أن العدد سبعين الوارد في قوله تعالى:(استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) سورة التوبة (٨٠) لا يراد به الحقيقة وإنما يراد به الكثرة والمبالغة، فلو زاد على السبعين لن يُغفر لهم ، كما أن العدد سبعمائة الوارد في قوله تعالى:(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) سورة البقرة (٢٦١)، وفي الحديث(الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة) أخرجه البخاري ومسلم ، يراد به الكثرة والمضاعفة ، فأطلق السبعمائة و المقصود مضاعفة العدد بغير حد. وقد نسب هذا القول للقاضي عياض ت (٤٤٤هـ) ، ورجحه صاحب محاسن التأويل جمال الدين القاسمي ت(١٣٣٢هـ) ، ورجحه واختاره أيضاً مصطفى صادق الرافعي ت(١٣٥٦هـ) في كتابه إعجاز القرآن .

القول السادس: أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع .

وحكي هذا القول عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ت (١٧٠هـ) ، ولعل من قال بهذا القول تأثر بمن سبع السبعة وهو أبو بكر بن مجاهد ت (٣٢٤هـ) حيث إنه أول من جمع الناس على القراءات السبع واختار من القراء سبعة فقط .

هذه هي أشهر الأقوال في المراد بالأحرف السبعة ، وهناك أقوال أخرى تركناها إما لضعفها وإما

لعدم شهرتها ، وسنناقش تلك الأقوال السالفة وما يترجح منها بإذن الله .

مناقشة هذه الأقوال :

مناقشة القول الأول: وهو أن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن بمعنى أن [الألفاظ مختلفة والمعنى واحد، كقولك: هلم تعال أقبل عجل أسرع] ،

وقد نوقش هذا القول من وجوه : ــ

أ ــــ اختلاف عمر وهشام ــ كما تقدم ــ وكلاهما قرشي من لغة واحدة ومن قبيلة واحدة .

ب ــــ أن لغات العرب أكثر من سبع ، فلم اقتصر على ذلك ج ــــ أن هذا الرأي يرى أن الأحرف السبعة ألغيت عدا حرف واحد وهو الحرف الذي أبقاه عثمان ﷺ لما قام بجمع القرآن في عهده . يقول د/عبد العزيز القاريء تعليقا على هذا القول: " وهذا القول عجيب في غاية الضعف بأن عثمان ﷺ أبقى حرفاً واحداً وترك الستة الباقية ، وكيف يقدم عثمان ﷺ أو غيره من الصحابة على مثل إلغاء شئ من القرآن ؟ !

فلو قالوا إنها رخصة في أول الإسلام ثم زالت نقول الحكمة موجودة في كل عصر فيه غلام وشيخ كبير" أهـ.

مناقشة القول الثاني: وهو أن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب منتشرة في القرآن الكريم ، على أنه في جملته لا يخرج عن هذه اللغات .

وقد نوقش هذا القول من وجوه : ــ

أ ــــ اختلاف عمر وهشام وكلاهما قرشي من لغة واحدة وقبيلة واحدة ، ومستحيل أن ينكر عليه لغته

ب ــــ أن لغات العرب أكثر من سبع ، فلم اقتصر على ذلك العدد ؟

ج ــــ أنه على هذا الرأي لا توجد ألفاظ مترادفة في المعنى الواحد .

د ــــ أن ما استدلوا به آثار ضعيفة لا تقوى على معارضة الأدلة الصحيحة .

هـ ــــ أن عثمان ﷺ قضى على الفتنة وحسم النزاع الذي حدث في زمنه وجمع الناس على حرف واحد ، وقال للكتبة : " إذا اختلفتم أنتم وزيد في شئ فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بها "، وهذا كله يخالف هذا الرأي.

مناقشة القول الثالث : وهو أن الأحرف السبعة أوجه التغاير السبعة التي يقع فيها الاختلاف. وهذا القول يعتبر من أقوى الأقوال وعليه كثير من العلماء كما تقدم ، وقد نوقش من وجوه :

أ ــــ أن أكثر هذه الأوجه ترجع إلى القراءات، والقراءات غير الأحرف، بل هي جزء منها .

ب ــــ أن أكثر هذه الأوجه يرجع إلى الخط ورسم الكلمة واختلاف الصورة ، والعرب أمـيُّون لا يعرفون القرآءة ولا الكتابة.

ج ــــ أنه على هذا الرأي أن الأحرف السبعة باقية ، وأن عثمان ﷺ لم يجمع الناس على حرف واحد .

د ــــ أن هذا الرأي لم يقم على دليل صريح يعتمد عليه ويكون حاسماً لهذا النزاع .

مناقشة القول الرابع : وهو أن الأحرف السبعة أوجه سبعة من الأمر والنهي ، ، ، ألخ

وقد نوقش من وجوه : ــ

أ ـــــ النظر في سند الحديث المروي عن ابن مسعود ﷺ (الكتاب الأول أنزل من باب واحد على حرف واحد و نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زاجر وآمر وحلال وحرام ...) ، فهذا الحديث ضعيف منقطع ، رده أهل العلم والنظر، قال فيه الشيخ أحمد شاكر : "هذا الحديث مرسل لا تقوم به حجة " فهو من حيث السند ضعيف منقطع ، ويتبين ضعفه من وجهين :

١ـــــ حيث يرويه سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أبي سلمة عن ابن مسعود مرفوعاً ، وأبو سلمة لم يلقَ ابن مسعود و لم يروعنه، فهذا دليل على انقطاعه .

٢ـــــ أن سلمة بن أبي سلمة متكلم فيه و لم يحتج به أهل العلم ، وبعضهم قال لا يقبل حديثه .

ب ـــــ النظر في معنى الحديث ، فقد ذكر أهل العلم أن معناه بعيد جداً ومردود ، وذلك أنه لا يمكن أن تنزل الآية حراماً ثم تنزل حلالاً ، أو تنزل آمرة ثم تنزل ناهية .

ج ـــــ أنه ينافي الأحاديث الصحيحة التي وردت، منها أنه إذا تنازع الصحابة ﷺ في القراءة واحتكموا إلى النبي ﷺ صوب جميعهم في قراءتهم على اختلافها ، ويقول لمن اختلف ـــ كما في الحديث ـــ اقرؤوا ثم يصوبهم ، ثم يقول:(إنه أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما شئتم منه) ، فاختلاف الصحابة و تصويب النبي ﷺ لهم يخالف ما استدلوا به ويرده أيضاً.

د ـــــ أن الحديث الذي استدلوا به يعارض الأحاديث الصحيحة الواردة التي تنص على أن هذا القرآن يقرأ على عدة أوجه . وكذلك يعارض قول النبي ﷺ (أنه أنزل على سبعة أحرف كلها كافٍ وشافٍ) ، فكيف تكون كذلك وهي آمرة وناهية في وقت واحد ؟

هـــ أن هذا القول ينافي الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف وهي التوسعة كما جاء في الحديث : (بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية) ، وفي الحديث الآخر:(أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ..) .

وقال بعض أهل العلم إنه على فرض صحة هذا الحديث فإنه يحمل على معنى أن هذا القرآن اشتمل على أنواع سبعة من العلوم ، ففيه الأمر والنهي والمحكم والمتشابه والأمثال والحلال والحرام .

مناقشة القول الخامس : وهو أن العدد غير مراد ولا مفهوم له وإنما أريد به بلوغ الذروة ونهاية الكمال ، وقد نوقش هذا من وجوه :

أ ـــــ أنه لا دليل عليه من كتاب ولا من سنة ولا من أقوال السلف ، وإنما بني على اجتهادات .

ب ـــــ أن الأحاديث الواردة في الأحرف السبعة تدل حقيقة العدد ، منها ما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال:(أقرأني جبريل على حرف ، فراجعته ، فزادني ، فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف) ، وفي حديث آخر أن ملكين أتيا النبي ﷺ فقال أحدهما: اقرأ على حرف ، فقال الآخر: زده ، فقلت زدني ، قال اقرأ على حرفين ، فقال الآخر زده ، فقلت زدني ، قال اقرأ على ثلاثة ، فقال الآخر زده ، فقلت زدني ، قال اقرأ على أربعة أحرف ، قال الآخر زده ، فقلت زدني ، قال اقرأ على ستة ، قال الآخر زده

قال اقرأ على سبعة أحرف ، فالقرآن أنزل على سبعة أحرف) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده . فالاستزادة في هذه الأحاديث وغيرها تقطع بأن العدد سبعة مراد حقيقة وليس أنه لا مفهوم له .

ج ـــــ اختلاف الصحابة ﷺ وتصويب النبي ﷺ لهم ، كاختلاف عمر وهشام دليل واضح على أن العـــدد مراد ، وليس كما ذكروا أنه لا مفهوم له .

مناقشة القول السادس: وهو أن المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع.

ونوقش من عدة وجوه:

أ ـــــ أن الأحرف عددها سبعة ، أما القراءات فعددها كثير .

ب ـــــ أن القراءات فيها المتواتر وفيها غير المتواتر ومنها الصحيح ومنها الضعيف ،أما الأحرف فإنها وحي من الله مقطوع به متواتر وصحيح ، وهذا التفريق من حيث القبول والرد.

ج ـــــ أن القراءات جزء من الأحرف السبعة ، فكيف تفسر بالأحرف السبعة وهي متفرعة عنها ؟ فعلى رأي من قال إن الأحرف أُلغيت وانتهت في عثمان ﷺ وبقي حرف واحد وهو حرف قريش ، فعليه أن القراءات داخلة في هذا الحرف، فكيف تفسر بأنها الأحرف ؟

الترجيح بين الأقوال الستة المتقدمة: ــ

بعد عرض هذه الأقوال ومناقشتها ، وبعد النظر والتأمل فيها فإنه يتبين أن القولين: الأول والثالث هما من أقوى الأقوال الســـتة المتقدمة ، وعليهما أكثر العلماء ، ولهم أدلتهم التي تؤيد ما ذهبـــوا إليه ، وقد ذهب بعض المحققين من أهل العلم إلى الجمع بينهما ، منهم مكي بن أبي طالب ت(٤٣٧هـــ) ،كما ذكر ذلك في كتابه "الإبانة عن معاني القراءات" قال : (والذي نعتقده في ذلك ونقول به وهو الصواب إن شاء الله أن الأحرف التي نزل بها القرآن هي لغات متفرقة في القرآن ومعاني ألفاظ تسمع في القراءة ، مختلفة في السمع متفقة في المعنى ومختلفة في السمع والمعنى ، نحو تبديل كلمة بأخرى وصورة اللفظ متفقة أو مختلفة). أهـــ.

وممن ذهب إلى ذلك من المعاصرين د/ عبد العزيز القاريء حيث قال: (الأحرف السبعة هي وجوه متعددة متغايرة مترلة من وجوه القراءة يمكنك أن تقرأ بأي منها فتكون قد قرأت قرآنا مترلاً.... ثم قال: والعدد مراد بمعنى أقصى حد يمكن أن تبلغه الوجوه القرآنية المترلة سبعة أوجه وذلك في الكلمة القرآنية الواحدة).أ هـــ .

قلت : وخلاصة القول في معنى الأحرف السبعة أنها سبع لغات من لغات العرب مختلفة في اللفظ متفقة في المعنى ، أومختلفة في اللفظ والمعنى.

قوله:[لغات العرب السبع] ، إشارة إلى اللغات الأكثر انتشاراً في الجزيرة العربية إبَّان نزول القرآن الكريم مثل : لغة هذيل وتميم وهوازن ونحوها .

قوله: [مختلفة في اللفظ متفقة في المعنى]، إشارة إلى القول الأول الذي اختاره ابن جرير الطبري ورجحه الشيخ مناع القطان وغيره ، نحو قولك:هلم ، تعال ، أقبل / انظرونا أمهلونا ارقبونا، فهذه ألفاظ مترادفه ومعناها واحد ، فاللفظ مختلف والمعنى متفق .

قوله:[مختلفة في اللفظ والمعنى] : إشارة إلى بعض أوجه التغاير السبعة ، كما في القول الثالث ، مثل الاختلاف في التصريف نحوكلمة:[بَعَّدْ ، باعد] فالأول فعل أمر والثاني فعل ماضٍ،

ونحوكلمة:[قُتل معه ، قاتل معه] ، فاللفظ مختلف في عدد حروفه وحركاته، ومثل الاختلاف في الإبدال نحوكلمة: [يسيركم ، ينشركم] ، ومثل الاختلاف في وجوه الإعراب نحو كلمة:[ما هذا بشراً ، بشرٌ] ، ونحو ذلك من الاختلاف . وهو المشار إليه في التعريف الثاني في قوله [وجوه متعددة متغايرة] ، وبهذا يتبين الرأي المختار في المراد بالأحرف السبعة ، وبه تفهم النصوص وتتفق الأدلة ، والله تعالى أعلم .

معارضة جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالقرآن:

من المعلوم أن أمين الوحي جبريل عليه السلام قد نزل بالقرآن على نبينا محمد ﷺ مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان جبريل عليه السلام يعارض النبي ﷺ بالقرآن مرة كل سنة في رمضان ، وفي السنة الأخيرة عارضه مرتين ، وهي العرضة الأخيرة التي توضح على أي شيء انتهى القرآن ؟ وعلى أي شيء انتهت الأحرف السبعة ؟ ويدل على ذلك ما جاء في صحيح البخاري : (أن النبي ﷺ قال: أن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن كل سنة وإنه عارضني العام مرتين) .

وعن ابن عباس قال : (كان جبريل يلقاه في كل ليله من رمضان فيدارسه القرآن) .

والمعارضة هي قراءة هذا مرة واستماع هذا مرة والعكس، فتكون المعارضة من الطرفين، وقد تكررت المعارضة في السنة الأخيرة سنة وفاته ﷺ فجمع الصحابة وعرض عليهم العرضة الأخيرة .

جمع القرآن في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وفي زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه جُمع القرآن ، ولم يكن قد جمع قبل ذلك ، بل كان محفوظاً في صدور الرجال، ومكتوباً في الرقاع والجلود مفرق الآيات والسور ، فلما توفي النبي ﷺ وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ووقعت موقعة اليمامة التي قتل فيها سبعون قارئاً وخشي الصحابة رضي الله عنهم من ضياع القرآن بموت حملته قام أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن في مصحف واحد وكلف بذلك زيد بن ثابت رضي الله عنه لكونه شهد العرضة الأخيرة وحفظها ولأنه من كتاب الوحي ، فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : [كانت قرآءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم واحدة، كانو يقرأون القرآءة العامة ، وهي القرآءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل عليه السلام مرتين في العام الذي قبض فيه ، وكان زيد رضي الله عنه قد شهد العرضة الأخيرة ، وكان يقريء الناس بها حتى مات ،ولذلك اعتمده الصديق رضي الله عنه في جمعه وولاه عثمان رضي الله عنه كتبة المصحف] .

جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان بن عفانﷺ

والتحقيق أن عمل عثمان ﷺ كان استنساخاً للقرآن الذي جمع في عهد أبي بكرﷺ ، حيث إن تلك الصحف التي جمعت بقيت عند عمر ﷺ زمن خلافته ثم انتقلت بعده إلى حفصة ، وفي عهد عثمان وبعد اتساع الفتوحات الإسلامية وتفرق المسلمين في الأمصار،كان أهل كل مِصْرٍ يأخذون بقرآءة من اشتهر عندهم ، وكان بين أهل كل مصر والآخر اختلاف أدى إلى إلى الشقاق والنزاع في قرآءة القرآن الفتنة بين المسلمين ، لذا رأى الخليفة عثمان ﷺ أن يستنسخ مصاحف ويبعث بها إلى الأمصار والأقاليم وأن يلغى ماســـواها ويحرق قطعاً لدابر الفتنة وحسماً للخلاف ، كما أن هناك مصاحف أخرى مشهورة نسبت لبعض الصحابة كانت مخالفة للمصحف الذي جمع في عهد الصديق ﷺ . ولما كتب المصحف في عهد عثمانﷺ اتفق الصحابة ﷺ على كتابة هذه المصاحف على ما استقر في العرضة الأخيرة وأيقنوا صحته عن النبي ﷺ مما لم ينسخ وتركوا ما سوى ذلك، وكانت كتابتهم على ما وقع عليه إجماع الصحابة ، مشتملة على الأحرف السبعة خالية من النقط والشكل ، عرف ذلك بالرسم العثماني.

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

ذكر أهل العلم أن لنزول القرآن على سبعة أحرف حكماً عديدة ، جاء بعضها منصوصاً عليه في الأحاديث، وبعضها أخذ من مفـــهـــومها ، هي على النحو التالي :

١/ تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين لا يعرفون القراءاة ولا الكتابة ففي الحديث :(إني بعثت إلى أمة أميين منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي) وفي حديث آخر:(أسأل الله معافاته ومغفرته،إن أمتي لا تطيق ذلك).

٢/ تيسير قرآءة القرآن على المسلمين في كل عصر، ففي الحديث : (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه) .

٣/ تمييزالقرآن عن غيره من الكتب السابقة ، فالقرآن له خصائصه التي تميزه عن غيره.

٤ / إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب .

٥ / إعجازالقرآن في معانيه وألفاظه ودلالاته ، فالصورة تتقلب في بعض الأحرف لتعطي مزيداً من المعاني والأحكام .

٦/ أن نزول القرآن على سبعة أحرف كان سبباً في حفظ لغـــات العرب من الضياع والانـــد ثـــار، فجمعت لنا لغات قبائل العرب الشهيرة .

شبهات المستشرقين حول الأحرف السبعة :

المستشرق من يعتـــنى بعلوم أهل الشرق ولغاتهم ومعارفهم من أهل الغرب ، وقد اشتهر منهم المستشرق جولد زيهـــر (ت١٣٤٠هـــ) ، المجري الذي ألف كتابه مذاهب التفسير الإسلامي وقد ترجم إلى اللغة العربية ، ومنهم المستشرق تيودور(ت١٣٤٩هـــ) الألماني ، له مؤلفات منها: تاريخ القرآن، وكتاب:حياة النبي محمد، والمستشرق بلادشير (ت١٣٠٠هـــ) وكتابه: مدخل إلى القرآن .

وقد أثارهؤلاء وغيرهم شبهات وأوهاماً حول القرآن الكريم وحول الأحرف السبعة خاصة، ولكن عند التأمل والنظر فيها نجد أنها منحصرة في شبهتين واهيتين، وعليها يبنون شبهاتٍ أخرى هي أوهى منها .

الشبهة الأولى:

دعوى اضطراب النص القرآني بتعدد الأحرف، قالوا: نزول القرآن على هذه الأحرف سبَّبَ اضطراب النص القرآني أمام القراء وأمام عامة الناس.

الرد عليها :

هذه دعوى باطلة واضحة البطلان والرد عليها من وجهين:

أ ـــأن الاختلاف بتعدد الأحرف اختلاف في اللفظ لا في المعنى .والاختلاف اللفظي موجـــود في القرآن سواء تعددت الأحرف أم لا ، بل إن هذا فيه تيسير القرآءة على المسلمين في كل عصر، وتفسيراً لألفاظه بعضه ببعض ، فمثلاً في قصة موسى في سورتي النمل والقصص ، القصة وألفاظها مختلفة : [اسلك يدك ـــ وأدخل يدك] ، فاختلاف اللفظ وارد في كلام الله ، كما أنه وارد في كلام غيره.

ب ـــ أن فصحاء العرب وبلغاءهم وقفوا حائرين عاجزين عن الاتيان بأي شبهة لينالوا من هذا القرآن أو يقدحوا فيه ، و لم يجدوا لذلك سبيلاً حتى يأتي أولئك المستشرقون بعد سنين طويلة بهذه الشبهات الواهية ، ومع هذا كله فقوله تعالى :(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) سورة النساء(٨٢) كافٍ في رد هذه الشبهة .

الشبهة الثانية:

دعوى أن عثمان ﷺ لما جمع القرآن واستنسخ الصحف فإنه حاول أن يوحد النص القرآني، قالوا: إنه لم يحقق من ذلك العمل شيئاً .

الرد عليها : أن هذا توهم منهم وعدم معرفة لحقيقة الحال ، فإن عثمان ﷺ لم يرد توحيد النص ـــ كما زعموا ـــ وإنما أراد ضبط النـــص ضبطاً تاماً ، والقضـــاء على الاختلاف الذى أدى إلى التنازع والشـــقاق

، وجمع الناس على مصحف واحـــد ،وقـــد وفق ﷺ في القضـــاء علىالاختلاف بين الصحابة بهذا العمل الجليل وحسم مادة الخلاف.

ثانياً القراءات:

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ مدة ثلاث وعشرين سنة ، وكان ﷺ يـــبلغ ما أُنزل إليه لأصحابه غضاً طرياً كما أُنزل ، ثم إنه لما هاجر إلى المدينة وبدأت قبائل العرب تدخل في دين الله ،الواحدة تلو الأخرى كان من حكمة الله أن يترل القرآن الكريم على الأحرف السبعة ، فكان النبي ﷺ يُقرئهم القرآن بحرف وحرفين إلى سبعة أحرف وذلك حسب الحاجة والاختلاف ، فتعددت القراءات بتعدد الأحرف السبعة وبتعدد متلقيها الحاملين لها ، وقد كان عثمان ﷺ لما جمع القرآن وأرسل الصحف إلى الأمصار يرسل مع كل مصحف قارئاً يقرؤهم قرآئتهم ، وبذلك تعددت القراءات وانتشرت .

والقراءات تعني : العلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة.

والقرآن هو الأحرف السبعة والأحرف السبعة هي القراءات ، والنبي ﷺ أقرأ أصحابه القرآن بالأحرف السبعة وأقرأهم القراءات ، فالقرآن والأحرف السبعة والقراءات كلها وحي من الله ، لأن النبي ﷺ تلقى القرآن الكريم بأحرفه من جبريل عليه السلام لفظاً لفظاً ولقَّنه أصحابه حرفاً حرفاً.

المشهورون من الصحابة ومن بعدهم بإقراء القرآن :

اشتهر عدد لا يحصى من أصحاب رسول اللهﷺ بحفظ القرآن والتصدي لتعليمه بقراءاته المأثورة عن رسول ﷺ إلا أن هناك عـــدداً أخـــذوا القرآن الكريم من فـــيّ النبي ﷺ فـــأُخذ منهم القرآن عرضاً وعليهم تدور أسانيد القراء ممن جاء بعدهم ، منهم: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالله ابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم ﷺ جميعاً ثم إن أولئك الصحابة الأجلاء الـــذين اشتهروا بإقـــراء القـــرآن وتعـــليمه قد تفـــرقوا فـــي الأمصار أخذ عنهم خلق كثير من التابـــعين ، وقد عُلم مما تقـــدم أن عثمان ﷺ لما أرسل المصاحف قد بعث مع كل مصحف قارئاً يعلمهم قراءاتهم ، وهؤلاء القراء المبعوثون هم على النحو التالي :

١ـــ عبدالله بن السائب المخزومي ، بعثه إلى مكه.

٢ـــ أبوعبدالرحمن السلمي ، بعثه إلى الكوفة فمكث بها يعلم الناس مقدار سبعين سنة ، وكان قبله في الكوفة عبدالله بن مسعود الذي بعثه عمر إليها معلماً ، والتف حوله أصحابه الذين وصفوا بأنهم سُرُج الكوفة.

٣ـــ عامر بن عبد القيس ، بعـــثه إلى البصرة.

٤ـــ المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، بعـــثه إلى الشام.

٥ــ زيد بن ثابت بقي في المدينة مقرئاً.

وكان هؤلاء القراء الذين بعثهم عثمانﷺ من الصحابة والتابعين جلسوا للإقراء والتعليم فالتف الناس حولهم وتجردوا للقرآءة والأخذ ، وعُنُوا بضبط القرآءة أتم العناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ،حتى إذا كان القرن الثاني والثالث وكثرالقراء أراد الناس في أخر القرن الثالث وأول القرن الرابع أن يقتصروا على القراءات المعتبرة المتواترة، فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة وحسن الدين وكمال العلم قد طال عمره واشتهر أمره وأجمع أهل عصره على عدالته وثقته وعلمه و لم تخرج قرآءته عن خط مصحفهم المنسوب إليهم فأردوا من كل قطر وجَّه إليه عثمان ﷺ مصحفاً إماماً هذه صفته وقراءته فوجدوا هؤلاء القراء المشهورين الموصوفين بهذه الصفات ، وهم الأئمة الذين نسبت إليهم القراءات السبع أو العشر، وهم على النحو التالي :

ــ الإمام عبد الله بن عامر الشامي (ت١١٨هـ) ــ إمام أهل الشام .

ــ الإمام عبد الله بن كثير المكي (ت١٢٠هـ) ــ إمام أهل مكة .

ــ الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي (١٢٧هـ) ــ إمام أهل الكوفة .

ــ الإمام أبوعمرو بن العلاء البصري (ت١٥٤هـ) ــ إمام أهل البصرة .

ــ الإمام حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت١٥٦هـ) ــ إمام أهل الكوفة .

ــ الإمام نافع المدني (ت١٦٩هـ) ــ إمام أهل المدينة .

ــ الإمام علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ) ــ إمام أهل الكوفة .

هؤلاء هم القراء السبعة أصحاب القراءات السبع المتواترة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد(ت٣٢٤هـ) في كتابه السبعة في القراءات، وتبعه في ذلك أبو عمرو الداني (ت٤٤٤ هـ) في كتابه التيسير في القراءات السبع ، ونظم الإمام الشاطبي (ت٥٣٨هـ) منظومته حرزالأماني في القراءات السبع ، وتتابعت عليها الشروح .

ومما يجدر التنبيه عليه أن ذكر هؤلاء السبعة لا يعني أنهم هم الذين تواترت قرآءتهم ، بل إن هناك غيرهم أئمة وقراء مشهورون ، اشتهرت إمامتهم وطالت أعمارهم في الإقراء وارتحل الناس إليهم من كل مكان أشهرهم الأئمة الثلاثة المتممون للعشرة وهم :

ــ الإمام أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني(ت١٣٠هـ) .

ــ الإمام يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري (ت ٢٠٥هـ) .

ــ الإمام خلف بن هشام البزار البغدادي (ت ٢٢٩هـ) .

فهؤلاء هم القراء أصحاب القراءات المتواترة ، كما ذكر ذلك المحققون من علماء القراءات كابن الجزري (ت٨٣٣هـ) الذي ألف كتابه النشر في القراءات العشر ، ثم كتابه طيبة النشر .

ضوابط قبول القراءات :

أجمع المسلمون منذ الصدر الأول على أنه لا يقبل من القراءات إلا ما كان متواتراً في نقله قد كتب في المصحف العثماني مما ثبتت قرآءته في العرضة الأخيرة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل عليه السلام وأقرأ بها الصحابة رضي الله عنهم ، وبعد مضي الصدرالأول واتساع الإسلام وكثرة الناس واختلاط الحفاظ المتقنين بغيرهم ممن هم أقل منهم إتقاناً وضبطاً احتاج أهل القراءة إلى وضع ضوابط يميزون بها القراءات الثابتة من غيرها ، وهي ثلاثة ضوابط :

الضابط الأول: تواتر السند

وهذا أجمع عليه علماء القراءات ، بأن تكون القراءة صحيحة متصلة السند إلى النبي ﷺ تؤخذ بالمشافهة وينقلها أئمة القراء الضابطون في كل جيل ، وهذا معنى تواتر السند ، وهل يُكتفى بصحة السند دون التواتر؟ ذهب بعض علماء القراءات إلى الاكتفاء بصحة سند القرآءة لكونه يفيدالعلم فيقوم مقام النقل المتواتر، وممن ذهب إلى ذلك الإمام مكي ابن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) وتبعه بعض المتأخرين منهم ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، والرأي الأول هو الصحيح ، وذلك حفاظاً على القرآن الكريم ، وحتى لا يؤدي القول بذلك إلى تسوية القرآن بغيره ، ولأن غير المتواتر لا يسمى قرآناً .

الضابط الثاني: موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً.

أي أن توافق القرآءة أحد المصاحف العثمانية التي نسخها عثمان رضي الله عنه وبعث بها إلى الأمصار والتي قد كتبت بإجماع من الصحابة رضي الله عنهم مما ثبتت قراءته في العرضة الأخيرة ، ولوفي بعضها دون بعض ، كقراءة ابن عامر: (قالوا اتخذ الله ولداً) (البقرة١١٦) بغيرواو، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي ، وكقراءة ابن كثير: (جنات تجري من تحتها) التوبة (١٠٠) بزيادة من ، فإن ذلك ثابت في المصحف المكي .

وقولهم: [ولو تقديراً] أي : أنه يكفي في قبول القراءة أن توافق رسم أحد المصاحف و لو موافقة غير صريحة، مثل قراءة (مالك يوم الدين) الفاتحة (٤) بالألف وهي قراءة عاصم والكسائي ، وقراءة الباقين (ملك يوم الدين) بدون ألف ، وهوالموافق لرسم المصحف ، وتحتمله تحقيقاً ، وقراءة الألف تحتمله تقديراً .

الضابط الثالث: موافقة اللغة العربية ولو بوجه .

ومعنى ذلك أن تكون القرآءة موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية ، سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه ، ما دامت القرآءة متواترة السند وموافقة للرسم العثماني ، كقرآءة حمزة بجر[الأرحام] في قوله:(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) النساء (١) عطفاً على الضمير المجرور في [به] ، فهي قراءة ثابتة لايردها قياس عربية ولا فشو لغة ، فالقراءة سنة متبعة يلزم اتباعها وقبولها .

وليعلم أن علماء اللغة إنما استمدوا قواعدهم من كلام الله و كلام رسوله ﷺ وكلام العرب فإذا ثبتت القراءة بضوابطها الثلاثة كان القرآن هوالحكم على قواعد النحو والعربية ، والعجب أن يذهب بعض النحاة إلى

تخـــطئة أو رد قـــراءة صحيحة ثا بـــته لمـــجرد مخالفتها قواعد النحو، والصواب في ذلك أن نجعل القراءة الصحيحة هي الحكم لقواعد أهل اللغة لا العكس ، لأن القرآن هو الأصل ، وقد رد بعض النحاة وتبعهم في ذلك بعض المفسرين بعض القراءات السبعية المتواترة كقراءة حمزة بكسر[الأرحام] ، فقد ردها بعض النحاة وتـــبعهم في ذلك بعـــض المفسرين ، وحجتهم في ذلك أن [الأرحام] لفظ ظاهر وقد عطف على الضمير، وعطف الظاهر على الضمير ضعيف في اللغة، ولا اعتبار بكلامهم ، فلا ترد القراءة ما دامت ثابتة بضوابطها لرأي الناس ، وإن كانوا أئمة في اللغة.

وعند التأمل والتحقيق نجد أن الضابط الثالث هو في الحقيقة ليس ضابطاً بمعنى أنه إذا اختـــل أوسقط هذا الضابط لا تقبل القراءة وذلك لسببين :

١ـــ أن ذلك لم يقع ، بمعنى أنه لا توجد قراءة ثابتة موافقة للرسم ولا توافق اللغة بأي وجه

٢ـــ أن القراءة الثابتة قرآن مترل قطعاً يجب قبوله والأخذ به ، فهي لا تخضع لموافقة اللغة العربية ، ثم إنه قد يكون لها وجه في العربية لكن لم نقف عليه ، فالصواب أن هذا الضابط نتيجة للضابطين الأولين لا أنه ضابط مستقل .

القراءة الشاذة :

القراءة الشاذة كل قراءة فقدت أحد الضوابط الثلاثة المتقدمة .

وقد أجمع علماء القراءات أن القراءة الشاذة لا يقرأ بها في الصلاة ولا في خارجها ، لكن هل يجوز العمل بها ؟ العمل بها واستنباط الأحكام الشرعية منها فالجمهور على جواز ذلك ، وقد احتج بها كثير من العلماء في أحكام كثيرة كقراءة ابن مسعود [والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما] فإنها تدل على أن القطع يكون في اليد اليمنى ، لذا حمل كثير من العلماء القراءة الشاذة على أنها تفسير للقرآن .

هذا ما تيسر بيانه ، نسأل الله عز وجل أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .